

نفايس المخطوطات

11963



# الكتاب الباشي

تأليف

العلامة الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز  
المؤلف سنة 1788/1202

تحقيق

الشيخ محمد ماضور

المجلد الأول

قسم السير

الدار التونسية للنشر

الكتاب الباشي

حمودة ابن عبد العزيز

الجزء الاول قسم السير

ال

السعر : 1000 د. ت.

XG  
1056

الدار التونسية للنشر  
70 شارع الحرية - تونس





نُفُتًا نُسْرًا لِمُحْطُوطَاتٍ

# الكتاب الباشي

تأليف

العلامة الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز  
المؤ في سنة 1788/1202

تحقيق

الشيخ محمد ماضور

الجزء الأول

قسم السيرة

الدار التونسية للنشر



## تَبَيَّنَ : المَصَادِر والمَرَاجِع

- ابن الاثير (علي بن محمد الجزري) : **الكامل** . مصر (المطبعة المنيرية) 1353 هـ . 9 اجزاء
- الاصبهاني (أبو الفرج) : **الاغانى** . بيروت (دار الفكر) دون تاريخ . 24 جزءا .
- الاعشى (ميمون بن قيس) : **الديوان** . بيروت (دار صادر) 1960 م .
- الامير (محمد) : **ثبت أسانيده** . مصر (مطبعة المعاهد) 1345 هـ .
- البخاري (محمد بن اسماعيل) : **الجامع الصحيح** . الاستانة 1315 هـ . 8 اجزاء .
- البكري (أبو عبيد القرطبي) : **معجم ما استعجم** . مصر (لجنة التأليف والنشر) 1345 هـ . 4 اجزاء .
- بيرم الخامس (محمد) : **صفوة الاعتبار** . مصر (المطبعة الاعلامية) 1302 هـ - 1311 هـ . 5 اجزاء .
- بيرم الرابع (محمد) : **الجواهر السنية** . مخطوط تونسي خاص .
- الثعالبي (عبد الملك) : **يتيمة الدهر** . (مطبعة السعادة) 1377 هـ . 4 اجزاء .
- حمودة بن عبد العزيز : **الديوان** . مخطوط تونسي خاص .
- ابن خلكان (احمد بن ابراهيم) : **وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان** . مصر (بولاق) 1299 هـ . جزآن .
- الزركلي (خير الدين) : **الاعلام** . مصر 1959 . 10 اجزاء .
- السيوطي (جلال الدين) : **الجامع الصغير** . بولاق 1286 . جزآن .
- الشريف الرضى : **الديوان** . بيروت 1307 هـ . جزآن .
- الشعراني (عبد الوهاب) : **البدر المنير في غريب الحديث** . مصر (ط حجرية) 1277 هـ .

طبع من هذا الكتاب  
ثلاثمائة نسخة مرقمة  
— من 1 إلى 300 —



ابن أبي الضياف (أحمد) : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك الزمان. تونس 1063 - 1068 - 8 أجزاء.

عياض (القاضي أبو الفضل) : مشارق الأنوار على صحاح الآثار. فاس 1328 هـ. جزآن

فريد بك (محمد) : تاريخ الدولة العلية. مصر 1311 هـ.

الفيروزآبادي (محمد) : القاموس المحيط. مصر (بولاقي) 1301 هـ. 4 أجزاء.

الكتاني (عبد الحلي) : فصل بالمجلة الزيتونية. المجلد الثاني، الجزء الرابع. تونس.

المتنبي (أبو الطيب) : الديوان. بيروت (دار صادر) 1926.

مخلوف (محمد) : شجرة النور الزكية. مصر (المطبعة السلفية) 1349 هـ. جزآن.

المدني (أحمد توفيق) : محمد عثمان باشا. الجزائر 1356 هـ.

المسعودي (الباجي) : الخلاصة النقية. تونس 1323 هـ.

مسلم بن حجاج : الجامع الصحيح. الاستانة 1329 - 8 أجزاء.

المقري (أحمد بن محمد) : نفح الطيب. مصر (بولاقي) 1279 هـ. 4 أجزاء.

الميداني (أحمد بن محمد النيسابوري) : مجمع الأمثال. مصر 1352 هـ. جزآن.

النيفر (محمد) : عنوان الأريب. تونس 1351 هـ. جزآن.

اليازجي (ناصيف) : مجمع البحرين. بيروت (دار صادر) 1924.

ياقوت الحموي : معجم البلدان. مصر (مطبعة السعادة) 1907 م 10 أجزاء.

## مقدمة التحقيق

أ- عصر المؤلف

ب- التعرف بالمؤلف

ج- التعرف بالكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

## أ- عصر المؤلف

في استعراض تاريخ عصر المؤلف - سياسيا واجتماعيا وثقافيا - مدخل  
لدراسة الكتاب . وبالأخص القسم التاريخي منه الذي تناول جزءا مهما من  
التاريخ التونسي . له ميزاته وتطورات . وهو الدور التركي الذي امتد زهاء  
الثلاثمائة سنة ( 981 هـ 1574 م - 1298 هـ 1881 م ) تداولها الدايات وآل مراد  
وآل حسين بن علي من البايات . وكان له تأثير في قلب وضعيّة البلاد وإدخال  
تطور عميق عليها في الفكر والاجتماع والأخلاق والعادات . وهو - وإن  
أخلّ بسيادتها السياسية ووحدةها الترابية - قد أدخل عليها حضارة جديدة  
لا يجهل مفعولها في الأخذ بأسباب التمدّن والتفنّن - بعد أن أنقذها من  
احتلال خطير غايته التنصير أو الإبادة .

### المؤثرات السياسية

والعوامل المؤثرة في توجيه أحداث هذا العصر ( القرن الثاني عشر هـ / 17 م )  
مرتبطة إلى حدّ بعيد بعلاقة البلاد مع الخلافة العثمانية التي تحكمها بمقتضى  
تبعية فرضها الفتح العسكري وصيرّ الحكم المباشر فيها للعنصر التركي . ومهما  
ضعفت التبعية المركزية - لبعد عاصمة الخلافة ووهنها - فإنّ السلطة المباشرة  
بيد أمير تركي - وجيشه المدعّم لنفوذه من أخصّ الفرق التركية التي



كان لها شأن في التحكّم بأعلى مناصب الدولة وهي فرقة الانكشارية التي دام وجودها إلى سنة 1816/1231 (1) . ودواوين الإدارة والجباية تدار بالقلم التركي . والقضاء مستلزم لقاض تركي مستورد من الأستانة (2) . وبمفعول هذه الدواوين كان لابد أن تصطبغ البلاد بصبغة السياسة التركية وتتأثر بها طوعا أو كرها .

وكانت الدولة العثمانية قد أصابها الوهن — أواخر القرن 17/هـ — لأسباب داخلية وخارجية ، من أهمها توارد عدد من ضعفة السلاطين وتمرد الجيش عليهم وتمرسه بالسياسة وفقدته صفة المحارب الكفء . هذا مع تقوّي روسيا بزعامة بطرسها الأكبر واتحادها مع النمسا وبولونيا والبنادقة والبابوية ورهينة مالطة على الجيش التركي وإيقاعها به على فيانا سنة 1683/1094 — ثم موالاة الهزائم عليه إلى أن مني بالهزيمة الساحقة في زينتا بجنوب المجر سنة 1697/1109 — وعلى إثرها عقدت معاهدة كارلوفيتش في 26 جانفي 1699 رجب 1110 وبها ابتدأ انهيار تركيا حيث فقدت أهم ثغورها وسقطت هيبتها . وانتزعت منها تلك الدول أقاليم شاسعة . واحتلت البنادقة جزر المورة والأرخيل ونقطا من الدردنيل وهدّوا العاصمة نفسها سنة 1676/1087 فارتبكت بذلك الحالة وشاعت الفوضى وعمّ الفساد وقلّت الكفاة (3) .

وكان لهذا الانهيار أثره السياسي بالبلدان التابعة للخلافة فاستقلّت القاصية منها بحكامها وعدا بعضهم على بعض بالقوة طلبا للتوسع وبسط النفوذ حيث لم يبق عليهم سلطان ولا وازع من السلطة المركزية . ومن هنا جاء النزاع الحربي المتسلسل بين دايات الجزائر وبايات تونس الذي ابتدأ بتدخل الداي إبراهيم خوجه لتأييد الباي محمّد المرادي سنة 1685/1096 (4) واستمرّت

(1) ابن أبي الضياف 3 : 115 ، الباجي المسعودي 140 .

(2) انظر فيما يأتي : بسطة عن نظام القضاء من هذا الجزء .

(3) محمد فريد 137 - 143 .

(4) الواقع انه سبق هذا التدخل حرب وقعت سنة 1614/1022 لخلاف على الحدود وانتهت بصلح سنة 1628/1037 ولم تذكرها لوضوح سببها اما ما جاء بعدها فلا سبب له الا اقتناص المال والغنائم .

نوابه أكثر من قرن إلى أن ختم بصلح سنة 1821/1236 ولكنه لم يختم بخير فقد أعقبه الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد ذلك الصلح بقليل ، وما يدريك أنه لو لم يكن هذا الاحتلال لاستمرّ النزاع إلى ما شاء الله .

ومما يقتضي العجب أن الشقين المتحاربين كانا قبل الاحتلال التركي أمة واحدة لا نشاز فيها فجنى عليها الترك بتقسيمها إلى عدة ولايات بكل منها دولة وباي وجند . وكانت ولايات وهران والمدينة وقسنطينة تخضع للداي الجزائر بالولاية والعزل وأداء الأتاوة ، فكان يعمل لإخضاع بايات تونس بالمثل ، بينما يعمل هؤلاء للاتصال بالباب العالي العثماني رأسا على قدم المساواة مع الجزائر (1) .

ومن حلقات هذا النزاع المؤلم التدخل في الخلاف بين الباي حسين بن علي وحفيده للأخ الثائر عليه وهو الباشا علي بن محمد . ذلك الخلاف المشؤوم الذي الذي ساد العصر المتحدّث عنه واستوفاه المؤلف في نقط عديدة من الكتاب .

ابتدأ هذا الخلاف بالتجاء الحفيد إلى داي الجزائر عبيد خوجة لما أخفق في ثورته على عمّه فاستغل التجاء بمساومة العمّ على اعتقاله مقابل جعل ماليّ آداة ستّ سنين وكان قطعه سببا لإطلاق المعتقل وتجهيزه بجيش قضى به على دولة عمّه في وقعة سمنجه سنة 1736/1148 وحلّ محله على أداء مبالغ طائل من المال والقمح لخزينة الجزائر سنويا . وكذلك كان الأمر في نهاية دولته سنة 1756/1169 حيث تحمّل ابن عمه محمّد الرشيد بأداء سنويّ على تولي الحكم بإعانة جيش الجزائر (2) . وتواصل شرّ هذا الخلاف مستطيرا مدى ثلاثين سنة لم تخل واحدة منها عن أحداث مهولة ودماء مطلولة وثروات سلبية وفتكات رهيبية . وكانت آخرتها واقعة أخذ تونس من يد الباشا التي وصف أدوارها ابن أبي الضياف في قاريخه . ووصف قبلها فظائع الجيش

(1) المدني 34 - 35 .

(2) لم يذكر مؤرخونا هذه الجعالات استنكافا من معترتها وإنما نقلها الاستاذ المدني في كتابه محمد عثمان باشا عن مصادر رسمية .



المهاجم من استباحة البلدان وما فعله الباشا من إجلاء السكان . ويجد القارىء بهذا الكتاب تفاصيل بشعة لهذه الحروب وضمنها صوراً مرذولة تأبأها البشرية من مثله وكسر أعضاء وسمل أعين وجرت بأذنان الدواب غالب وزرها محمول على كاهل الباشا .

ولنا في تعقب تلك الصور وقفة تبدو في نظرتين :

الأولى : الشك في وقوع كثير من تلك الصور لأننا لمسنا من المصادر التاريخية التي دوت بعد انطواء دولة الباشا تجسيم مؤاخذته والتشيع عليه تنفيراً من بقايا ذريته وتزليلاً لأخلافه في الحكم . ونحن لا ننفي عنه شدة الوطأة وسفك الدماء بيد أن هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من طلاب الملك — قبله وبعده — وإنما ننفي أن يكون الرجل كله سيئات وتُسَلَّب عنه كل المحاسن حتى مواهبه العلمية (1) .

الثانية : لا يظن ظان أن تلك الجرائم كانت خاصة بأسلافنا . كلا . فإن وسائل الضغط والإرهاب في ذلك العصر كانت من طبيعة إقامة الملك . وتصريفها جائز سواء في مقاومة الثورات أو إرضاء جوامح العصبيات . ومن شواهد ذلك ديوان تفتيش اسبانيا وباستيل باريس ومحارق لندن . وما زالت أدوات الإعدام والتعذيب التي كان يستعملها مجلس العشرة ماثلة في قصر الدوتشي بالبندقية وغيرها . وفي تاريخ حروب أوروبا الدينية وثوراتها الوطنية أدلة على أكثر مما وصفه مؤرخونا من قساوة معاصريهم ولعلها لم تنقطع حتى في عصر النور . ومن ينسى ما ارتكبه الاستعمار في تطويع إفريقيا والإبادة الجماعية في مذابح تروتسكي وتصرفات النازية ؟ وكيف تُنسى — وما بالعهد من قدم — فجائع الكفاح الوطني في ليبيا وتونس

(1) من تحامل المؤرخين عليه أن ابن عبد العزيز ذكر في أولية الباشا قراءته على الشيخ محمد الحضراوي وأنه شرح له تسهيل ابن مالك ونسبه إليه فنكت عليه ابن أبي الضياف بأن علم الباشا لا ينكر وتعاليفه على الكتب شاهدة له ولكن شرحه لم يرد على غيره من النسوح يعنى أنه منقول — فاجتمعنا على الغض من الكتاب وصاحبه . وممن انصفه الباجي المسعودي في الخلاصة النقية 127 .

والجزائر ؟! فذلك ممّا لا نسبة له بجانب ما ذكر عن تلك الحروب . وليس في هذا تبرير لها ولكنه ممّا لا ينبغي أن يغفل عنه .

هذه لمحة عن التاريخ السياسي لذلك العصر الذي نشأ فيه المؤلف ودرج . ولكنه — بعد دولة الباشا واثاه عصر ناعم انسدل عليه رداء العافية وسادت فيه السكينة وملّ أهله نوازع الفتن وأقبلوا على العمل المثمر ، فتفتيات ظلال الأمن . واعتدلت موازين العيش ، وانتظم الاقتصاد وعمّ العدل ، وذلك في مدّة مخدوميه علي الثاني وابنه حمودة الممتاز عصرهما بالدعة والسكون والاستقرار وبث العلم والمعدلة والاعتناء بالمصالح العامة . وفيه ظهرت مواهب المترجم وتقلد الرئاسة وألف هذا الكتاب وله في وصف هذا العصر وموازنته بغيره إفادات قيّمة أثناء المقدمة التي دخل بها على الدور التركي — بالجزء الثاني — .

#### الحالة الاجتماعية :

المجتمع التونسي متكوّن من عناصر مختلفة ومنحدر من أصول عديدة . فإن هذه البلاد — بحكم موقعها الجغرافي الذي جعلها معبراً بين الشرق والغرب — قد تداعت عليها الغزاة براً وبحراً من أقدم أزمنة التاريخ . ومن الطبيعي أن يأتي كل غاز بعنصر قوته من الخارج ويضم إليه ما يكملها من المتطوعة . وبهذا تغلبت قرطاجنة والرومان والوندال وبيزنطة والعرب ولكل قوته من جنسه — ثم تغلب الأغلبة بالعرب . والعبيديون بقبائل كنانة . وبنو زيري بصنهاجة . وبنو أبي حفص بقبائل الرحفة الهلالية . ثم كان الاحتلال الأسباني والفتح التركي والهجرة الأندلسية والموالي (المماليك) ولكل من هذه العناصر جوالي انماعت في الساكن وامترجت بالقطين . فاختلفت الدماء وتعددت الأصول وتفاوتت الفروق وتوفرت أسباب الخلاف . ومن أعظمها وأعماقها أثراً في تربية روح الثورة والتعود بالفوضى ثورة بني عبيد الشيعة . فإنّها أتت على حين ازدهار واغترباط بالحكم الأغلب الموافق لعقيدة السكان وميولهم . فجاء العبيديون بعقيدة غامضة فيها الظاهر والباطن . وفيها إثارة



الخراب التي دهمت مع الزمان . كسب الصحابة والتحكّم فيها غير بينهم .  
وقبّدوا الفكر . وعطلوا العلم . وسلبوا ثروة البلاد . ونقلوا أحمالها المعذوبة  
بالآلاف إلى مصر عند انتقالهم إليها . وأدّى الانتقاض عليهم إلى ردّ فعل  
انتقامي بتسريح قبائل الصعيد في حملة عارمة . عرفت في التاريخ بالزحف  
الهلالية . فاجتاحت البلاد . وخرّبت المدن ، وأركست الحضارة . وأذهبت ريح  
الدولة . فلم تقم لها قائمة بعد ، واستوطنت البلاد واقتسمتها أقطاعا ثم انقسمت  
على نفسها في عروش متعادية دأبها الغزو والفتك . فتراجعت المدينة وتقلّصت  
الحضارة وعادت الحياة قبلية بدائية قوامها الغارة والنهب . وانكمشت المدن  
على نفسها وانقطعت السبل . وسلخ الحفصيون القرون الأربعة من حكمهم  
في معاناة هذه الحالة . ولم يتمكنوا من ضبطها إلّا في ظروف محدودة إلى أن جاء  
الترك ووطّدوا سلطانهم بالأسلحة النارية التي نهضت من فوضى القبائل فخضعت  
لهم حسب الضرورة متطلعة إلى كلّ ثائر ومتشوّفة إلى كلّ مغامر . وهكذا  
سكنت ثائرتهم حيناً من الدهر خصوصاً في مدة حسين بن علي الذي تمكّن  
الاستقرار في عصره . فلمّا دبّ الخلاف بينه وبين حفيده الباشا علي بن محمد  
تشيّعت له قبائل عديدة كالمثاليث والهمامة وبني يزيد وانضمّت إلى عمّه غيرها ،  
وانقسم القطر إلى شيعتين : حسينية وباشية ساد التطاحن بينهم نحواً من  
ثلاثين عاماً وبقيت آثاره وثارته في أعقابهم إلى عهد غير بعيد من زماننا هذا .  
وفي العصر المتحدّث عنه كان الانقسام على أشده . والحرب الأهلية تأكل  
المجتمع وتبتّ فيه الإحن والعداوات . وكانت وضعية هذا المجتمع قائمة على  
ثلاثة أصناف : — أولاً — أهل المدن . وهم على جانب من الحضارة . وجلّ  
احترافهم التجارة النافقة الممتدة أبعادها إلى الهند والعجم فما دنيهما .  
وصناعتهم التقليدية — كالشاشية وهي جدّ رائجة بالخارج . ولذا كان التجار  
والصّناع أثرى طبقات المجتمع . وفي المقدمة المدخول بها على القسم التاريخي من  
هذا الكتاب بيانات جامعة عن أحوال التجارة والصناعة ومبلغ رواجهما وتضخّم  
الثروة العامة بذلك . وكان من نتائج اتّساع الثروة حسن معاملة الطبقة العاملة  
بحيث لم يؤثر في التاريخ قيام حركة مشادة بين العمّال والأعراف أو وقوع

جبر على أحد الطرفين لفائدة الآخر . على غرار ما وقع بأوروبا . — لانتظام  
الألفة والاقتناع والانسجام بينهما . — ولا شكّ أنّ للأخلاق الدينية السائدة إذ  
ذاك أثراً في ذلك .

ثانياً — أهل القرى وهم — في الغالب — أهل زراعة وإنتاج . ومنهم  
استمداد تموين البلاد ، وشأنهم الهدوء والاستقرار . وهم كأهل المدن في  
تقارب الطبقات وكلاهما يطلب العافية ولا يخشى إلّا نوازع الفتن والحروب  
التي تأتي على ثرواتهم ومدّخراتهم بالفي . والنهب .

ثالثاً — البدو الرّحل المنحدرون من أعقاب الهلاليين وبقايا البربر . وغالبهم  
ينتجع الكلا لتربية المواشي — وليس لهم قرار دائم . وأولئك هم مساعير  
الحروب ومواقيد الفتن من قديم . لا يحكمهم سلطان ، ولا يضبطهم ديوان ،  
تتردّد القبيلة منهم بين الدول . كلّما أغضبتهم دولة نزعت إلى أخرى كما  
تكرّر ذلك من الحنانشة والمامشة والهمامة ودريد وغيرها — وتوجد أمثلة منه  
بهذا الكتاب — وربما تسببت غاراتهم في مشاكل خارجية أدّت إلى حروب .  
كحادثة نهب ركب الحاج الفاسي المارّ بالجريد في عهد الباشا وهي محكية  
بالكتاب في أسباب حربه للهمامة .

ويحدوهم لإذكاء الثورات واتّباع كلّ ناعق أمران : — أحدهما —  
أخذ الثارات من بعضهم وكان ذلك في العهود القبلية عنوان المجد وميزة  
البطولة — الثاني — تحصيل مادة العيش من النهب فإذا أتيح لهم الظهور في  
الحرب انصبوا على المدن فاستباحوها وعلى القرى فنهبوا . ويقدر الملاحظون  
أنّ تصميم الأنهج والأزقة بالحاضرة وغيرها على نوع من الضيق والتعرج  
مقصود للدفاع حيث يتمكّن المدافعون في المضائق والمنعرجات ممّا لا يمكنهم  
في السعة والتطرق .

#### الحركة الثقافية :

كانت تونس قبل كارثة الاحتلال الأسباني — دار علم وفقه ورثت عن فقهاء  
القيروان وأخلافهم طرق استنباط الأحكام وموازنة الأدلّة وضبط النصوص



وأنشطةها . واختصت بطريقة في التعليم تجمع بين الفقه والتفقه انقلت عن المازري إلى ابن عبد السلام فابن عرفة وتلاميذه . وقد أشاد بها ومجدها حجة المغرب ابن مرزوق الجد وغيره كما نقله المقرئ في أزهار الرياض . نعم إن هذا الامتياز في الجانب الفقهي لم يتسع في غيره من آفاق العلوم الأخرى كالآداب والتاريخ والاجتماع كما اتسع في الفقه ، ولكن تونس تحاسب من كاشحها في ذلك — بواحد كألف — فقد أنجبت مثل ابن خلدون في التاريخ والاجتماع ، وابن الحبيب في العقول، وخاتمة علمائها في مختلف الفنون محمد مغوش المنتقل إلى الشرق . وغيرهم .

وما كاد يطلع عليها القرن العاشر حتى أخذت في التراجع بمفعول الفتن والانحلال . ثم انعدم منها العلم تماما عند الاحتلال الأسباني الذي استباح معاهدها وأتلف كتبها واستلحم ما بقي من أعلامها . ثم جاء الحكم التركي ممثلا في طبقات من الجند لاصلة بينها وبين العلم فكانت ضغثا على إبالة . وما زال الأمر كذلك إلى أن هبأ الله بذرة التجديد العلمي من الشيخ أحمد الشريف الأندلسي . فأخذت عنه طبقة معدودة الأفراد محدودة المواد . ولم يأت العصر المبحوث حتى تعددت الطبقات ، وتوفر الانتاج ، وتلاحقت الأعلام الذين أخذ عنهم المؤلف وتخرج بهم . وقد تحدثت عن ترتيب تلك الطبقات وطرائق التعليم وشيوع العلم والآداب في عصره بإفادات جامعة في مقدمة القسم التاريخي المنوّه بها وهي الآتية بالجزء الثاني من الكتاب .

## ب - التعريف بالمؤلف

هو الكاتب الوزير أبو محمد الحاج حمودة (لا يكاد يذكر بغير نعت الحاج ابن العالم الفقيه المدرس محمد بن عبد العزيز التونسي — أصلا ومولدا ونشأ، وحياة ووفاة — ولا يعلم ما وراء ذلك من نسبه ومحتده وأسرتة سوى أن والده محمدًا كان مدرّسا ممتازا متخصصا في الفقه المالكي . ويقول عنه المترجم في مقدمة التاريخ : «إنه لم يكن في عصره من يحسن المختصر الخليلي وشروحه مثله » .

ولعل السبب في فقد آثاره أنه لم يترك خلفا صالحا يحفظ تراثه — كما يأتي بخاتمته — فضاع أكثره إلا التاريخ وما تلقّفه الطلبة عنه حين اشتغاله بالتدريس . ومن الملحوظ أنه لم يقع الاعتناء بترجمته على جدة وفاته — حين كانت أخباره معروفة . وحليته موصوفة — فلمّا انطفأت شعلته وذهبت دولته . أنسي الناس ذكره . وهم في الغالب مع الحاضر . فإذا غاب ذهب كأمس الدابر . خصوصا وأن الدولة التي خدمها وناصرها انقطع أثرها بالانقلاب المدبر ضد عثمان أخي حمودة باشا سنة 1230 هـ فلا غرو أن يخمل ذكر من كان في أوساطها بطي بساطها، وعلى كل تقدير ، فقد بقي من تاريخه وأدبه خير كثير .

وهو رجل زكيّ المنبت . مهذب النفس . موفق النشأة . موهوب القريحة . طموح للمعالي . نشأ في عصر اضطراب وحروب فما كاد يستقبله بشبابه حتى



لأنه قد سجدت قورانه . وألقى إليه بالمرودة . وسأله بعد شدة . حيث استقرت الدولة . وساد الأمن . واطمأن الساكن . وانجاب الكدر . فتمهدت له وسائل الظهور . وتوفرت لديه أسباب الشهرة . وصحب أميرين صالحين قدراً خصاله . واستنتجا مواهبه . وكان لهما الفضل عليه برفع ذكره . وله عليهما بتخليد مآثرهما في تاريخه وشعره .

تثقف حسب مستوى عصره ، وتهياً لخوض معركته . وكان لا يسمح لثله بتجاوز مناصب محدودة — من تدريس وشهادة وقضاء وفتيا — وما كانت مطامح نفسه لتقف عند تلك الحدود . وفيها توثب إلى الرئاسة . وتطلع إلى ممارسة السياسة . بينما كان جهاز الدولة لا يتحمل مثله لقيامه على العنصر التركي ومن اندمج فيه من فتيان الممالك . فترك الترك مآ تركوه . ورحل إلى المشرق حاجاً مرتاداً . ثم انقلب إلى المغرب طامحاً متطلعاً — والظاهر أنه خاب في الرحلتين . وخسر الصفتين — فلم يسعه إلا العدول عن مقصده . ومراجعة بلده فعاد إليه وهو كما قال الورغي في مقامته : « ونظرت منه ما زان . لبديل حاله عن الذي كان » وتحين فرصته لبلوغ غايته على طريق الكتابة الديوانية التي جال فيها القلم العربي — بعد أن كان محبوباً بزميله التركي — ولم يكن في مجاله . مستغنياً عن أمثاله . فتقدم لميدانه طلق العنان . رابط الجنان . حتى أحرز قصب الرهان ، وأصبح قلم الإنشاء والترسيل مقصوراً عليه ، كما يقول ابن أبي الضياف (1) . وواتاه من تعقل متبوعه . وتجافيه عن مناخ الدسائس والمكائد ما قل أن يتفق لغيره . فتفياً ظلال الأمن . وتذوق ناعم الحياة ، واقتعد بساط العز ، وغدا وراح بين أمر يبرمه ، وفكر يبدعه ، وبين رفاة يجتليها ، وانتزاهة يواليها ، فجاءت آثاره مظهرها لجلاء الفكر ورقة العاطفة وراحة الوجدان . وقلماً توفر ذلك لرواد دواوين الملوك . فهذا سلفه ابن خلدون — وهو ابن مدينته ، ومنتهج طريقته ، وكلاهما نابغ طموح لا يألف حياة الركود ، وكلاهما ينشد النفوذ ، وله — في مصلحة بلاده — رأي يريد إحلاله محل التنفيذ ، بيد أن السلف — ابن خلدون — لم

(1) ابن أبي الضياف 7 : 3 .

يظفر بحظته — سواء بتونس أو فاس أو غرناطة وحتى بإمارة بني مرني بسكرة — حيث اصطدم بأنداد يتطلعون لما يتطلع . ويزاحمون به بما كان أضخم وأرفع . ويفوقونه في التنافس . باستعمال المكائد والدسائس فاكتنفته السعيات ، ورمي بالعظام ، حتى لفظته العواصم . وقضى بقية حياته بالشرق مغامراً مخاطراً يربط نفسه بالحبال للتزول من أسوار دمشق إلى الطاغية « تيمورلنك » وهو في أعقاب الشيخوخة وسن من لا يألف إلا الكن . ولكنه لم يوفق إلى الاستقرار والرضا ، حتى فارق الحياة الدنيا بخلاف صاحبنا الذي فاز بدرك غايته ، وغدّى مطامحه ، وتمكن من النفوذ والتوجيه ، واستقر في دست الرئاسة عامل الفكر ، موفور الجاه ، نافذ الكلمة . ونلمس آثار توجيهاته لمخدوميه في كثير من مشاريع الإصلاح البارزة في تاريخهما . مما يقوم دليلاً على صدقه في خدمة بلاده من وراء رئاسة ديوان الإنشاء — التي كانت بمثابة وزارة داخلية في ذلك العصر — ويشبهه في الحظ والإقدام ومسألة الأيام القاضي الفاضل مع سلطانه صلاح الدين الأيوبي الذي كان لا يقطع أمراً دونه . كما يتشابهان في المصير ، والتراجع في الشوط الأخير .

#### مولده :

لم يسجل تاريخ مولده أحد ممن ترجمه . ولكننا نستطيع أن نقرّبه من تواريخ أختام الكتب العليا التي زاولها في عهد دراسته وصنع فيها قصائد بديوانه — وهي تتراوح بين سنة 1167 وسنة 1173 هـ — وبالتدقيق يمكننا ضبط تاريخ مقارب من مزاولته درس صحيح البخاري على الشيخ محمد بيرم الأول بالمدرسة الباشية التي نص عليها في قصيد الختم بقوله :

بفناء مدرسة المعظم قدره الباشا أمير المؤمنين الأغلبا

وهذه المدرسة تم بناؤها سنة 1166 هـ كما أرّخه الورغي ونقش على بابها بحساب الجمّل :

منازل فتح حلّها أيمن السعد



فيكون ابتداءه درس البخاري في هذا التاريخ وتأمله لمزاولته يقتضي سنًا لا تقلّ عن العشرين بعد استكمال تعلّمه القرآن والجامعي — أعني ما يقابل اليوم الابتدائي والثانوي — فلا جرم أن نخرج من هذا بنتيجة تكاد تكون جزماً أن مولده حوالي سنة 1146هـ ولا يحتمل أن يكون بعدها لأن ظروف دراسته لا توافق ذلك . كما أن ترشيحه للرئاسة في سنّ دون الثلاثين ممّا يستبعد ، كما سيذكر في وظيفه .

#### نشأته العلمية وشيوخه وتلاميذه :

قال ابن أبي الضياف في ترجمته : (1) « نشأ بين يدي أبيه العالم الفقيه وأخذ عنه حتى أنه كان يسامره ليلاً بعلم السير والتاريخ في حال صباه » . وقد مات وتركه صغيراً . ولكن الملكة الأدبية رسخت فيه من أثر هذه المسامرة التي طبعت صباه الغضب . بطابع مفترض . وبذلك تأدّب كثير من العلماء الجلة . نذكر منهم — استطراداً — أستاذنا شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي — رحمه الله — . فقد كان ينوّه بما طبعته في نفسه — على صغره — مسامرت والده الكاتب الشيخ محمد الشاذلي الكبادي . وبسببها تعلّق بالأدب باكراً . حتى أصبح فيه مثلاً سائراً .

ثم أقبل المترجم على التعلّم بالمعهد الزيتوني — وكان قد عمر في العشرين الحسيني والباشي بطبقة من العلماء متوافرة العدد . متينة السند — فأخذ عن الأيّمّة المقاتي : أحمد المكودي ، وقاسم المحجوب . ومحمد بيرم الأول ، ومحمد الهدة ، والعالم المسند محمد الغرياني . وسليل العترة سيدي علي الشريف . وإمام الحكمة محمد الشحمي — وله فيهم أمداح سائرة استغرقت نحو ثلث ديوانه — . وكان من تقاليد المعهد أن من بلغ درجة التعليم العالي يأذن له شيوخه بالتدريس بإجازات مسندة . وبذلك تصدر المترجم للإقراء في سنّ باكراً . فكان ممّن أخذ عنه ثاني البيارمة وأعلمهم . والباش مفتي محمد المحجوب . وأخوه القاضي عمر (2) .

(1) ابن أبي الضياف 7 : 22 .

(2) ابن أبي الضياف 7 : 22 .

#### مؤلفاته وأدبه :

اختصّ بالتحصيل والتقييد ، فكتب حاشية على عقيدة الوسطى للسوسي ورسالة في تحرير سمت القبلة ، وشرح موشحة ابن سهل : « هل درى ظب الحمى ... » بشرح أدبي لطيف التزم فيه تجربة الاستعارات البيانية واستخراج النكات البلاغية ، وحرّر مسائل من علم الكلام سأل عنها علم قسنطينة ، فأجاب عنها هو وعالم عصره الذي بلغ درجة الترجيح في المذهب الشيخ إسماعيل التميمي كلّ منهما برسالة ، واستظهر في « عنوا الأريب » (1) أن كتابة المترجم أحسن تحريراً وتديقاً . وكفى حجة على مبلغ علمه تسليم العلماء لحكمه . وقد ظفرت بتقريظ ضاف لهذه الرسالة من كبير علماء الجزائر الشيخ أحمد بن عمار (2) بخطه وختمه . وهو طويلاً النفس استغرق صحيفتين ونصفاً من القطع الكبير . على طراز بلاغي بالاعتبار جدير . وقد اقتطفنا منه جملاً للدلالة على التجاوب العلمي الذي كان بين القطرين الشقيقتين في ذلك العصر :

« وقد أطلعتني ... على الرسالة المحبرة . المنقّحة المحرّرة ، التي لهذا التاريخ أملاها . وأولاها من باهر التحقيق والتدقيق ما أولاها ، وضمّنها أجوبة عن أسئلة كلامية وردت — كما ذكر — أعزّه الله — على الحضرة . ذات البهجة والنضرة ، فنظرتها بعين المنّة والانصاف ، مجانباً للتعصّب والتعسف شيمة سليمان الصدر كاملي الأوصاف . فرأيتها قد حازت قصب السبق في مضممار الإجابة وميدان الإصابة ، وانتظمت هي ومؤلفها مع شيوخ أهل السنّة ومؤلفاتهم المحررة في تلك العصابة ، وشهدت له — أدامه الله وأدام النفع به — برسوخ القدم في المعارف وسعة الاطلاع ، وكمال التملّي من العلوم — خصوصاً الأصليين وما يتعلّق بهما — وقوة الاضطلاع ، فالله جل جلاله يبقيه زينة لهذه

(1) النيفر 2 : 58 .

(2) ذكره الاستاذ أحمد توفيق المدني في تاليفه (8) . والمشيخ أحمد بن عمار مراجعات مع الشيخ إسماعيل التميمي في نوازل فقهية جرياً فيها مجرى الاستنباط وقد طبعت بتونس ملحقة برّد الأول على الوهابية .



الإيالة السعيدة . وهذه الدولة تصول به ويصول بها على الدول وكتابها أعظم صولة . فإن مثله — أعزّه الله — لخليق أن يباهى به وأين مثله حتى يباهى به ويفتخر ؟ ولعمري لقد خبأه الدهر إلى هذا العصر وادّخر . وما أحقّه بقول أبي العلاء المعري عند من وفقه الله إلى الانصاف وأرشدّه ، وكأنما على لسانه أنشده :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

ثم أتى بقصيدة حسنة أكثر فيها من التورية بأسماء المتكلمين وكتبهم ، منها قوله :

شمس تجلت فما أسنى تجليها لاحت على غرة الدنيا تحليها  
أبدت مطالعها أسنى طوالعها من أين للشمس تجلى في مجالها  
قوى بها عضد التوحيد منشئها فالسعد يكتبها والفخر يجليها

\*\*\*

إيه أيها الساري ولا رفيق ، إلا التوفيق . ويا أيها الشاري خذ أحرار النفوس فكلّ ذلك الطبع الرقيق رقيق . هكذا هكذا ، وفي عين الشاني القذى ، أطلع شمس معارفك وعوارفك في أفلاك البداعة والاتقان . وزين سماء رئاستك وسياستك من فضائلك وفواضلك بأبهى من النجوم الزاهرة والبرقان . جادل عن الملة الحنيفة بلسانها . وجالد بسيف السنة ودافع بإحسانها ... وافخر وجرّ رداء العز والسؤدد فأنت زينة المصر بل العصر . واهصر أغصان الرئاسة بالدولة الحسينية واجن ثمارها فأنت أهل لذلك الهصر ... إلى آخر التقرير المؤرخ بأواسط صفر سنة 1196 .

وأهم مؤلفاته هذا التاريخ وهو — بشهادة الذوق — على جانب كبير من الأهمية ، لجودة وضعه ، وحسن صنعه . وروعة ما حواه . من أحداث لا مصدر لها سواه . مع كونه شاهد عيان لمواقعها . ومُسند أخبار زمان إلى مراجعها ، وهو أيضا ديوان أدب لعصره . لا مورد لمؤرخي الأدب التونسي من غيره ، هذا إلى براعة تحريره ، ونصاعة تعبيره . واستقلاله بأسلوب

كاتبه . واختصاصه بمذاهبه . واستعماله حرّ الكلام . وعزوفه عن لوثة العوام . ومحاسنه أغلب من المعائب ، ولا أحيلكم على غائب .

أما أدبه فكثير منه تضمنه هذا الكتاب — من شعر ومقامات ورسائل — ودرجته فيه فوق درجته في الكتابة . وهو متين الحوك جيد الديباجة مسلسل المعاني سهل المآخذ .

وقال شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع في ترجمته بكتابه الجواهر السنية في شعراء الديار التونسية مانصّه : « سوار معصم الدهر ، وغرة جبين النظم والنثر . ودوحة الأدب الوريث ظلالها ، وعين البلاغة الجاري بسحر البيان سلسالها ، طلعت كلماته في سماء البراعة زهرا ، فأخرجت من الرياض اليانعة زهرا » .

وقال الشيخ محمد السنوسي — في تصدير ديوانه من كتابه مجمع الدواوين : إن دعي للتسابق في ميدان الشعر . فذلك المجلي بين فرسانها العشر ، فيبعث غواص فكره إلى ثبج بحوره ، فيأتي من لججها بما أعدّه الجنان لنحور حوره » .

وقد جمع كل من هذين الفاضلين أثارة من شعره تكون ديوانا مستقلا في نحو الستين صحيفة ما تزال قيد الخط .

#### رحلاته :

ذكر كل من بيرم والسنوسي في ترجمته أن له رحلتين في شبابه ، وكلاهما في ذلك متفق ، واللفظ للأول قال : « وكان الزمان مدبرا عليه في أوائل أمره إلى أن حمله عسر حاله على مفارقة وطنه والوفود على المغرب الأقصى ، فمهد لذلك بقصيدة قالها في سلطانه المولى محمد بن عبد الله ثم رجع عن ذلك لسبب اقتضاه . وحجّ في أيام شبابه واجتمع في طريقه بخاتمة فقهاء المالكية الشيخ محمد التاودي فكان بينهما — ممّا يدلّ على إعجاب الشيخ به — طلبه منه إقراء ولده مختصر السنوسي في المنطق وذلك بمصر . فأقرأه له بالأزهر » .



وهو لم يذكر في تاريخه شيئا عن هاتين الرحلتين - ولو بالإشارة - وإنما أشار إلى حجته الثانية عند ذكره إجازات صاحبه . ولما أراد أن يصفه بالذكاء قال : وكفاك أني سافرت من تونس إلى مكّة ورأيت ملوكا وعلماء وعاشرت خلقا من أهل العلم والأدب وغيرهم فما رأيت أذكى ولا أفطن منه... الخ . فطوى ذكر رحلته المغربية تقية - فيما يظهر - حتى لا يرمى بالانحياز والانتماء إلى غير مليكه خصوصا وهو قد بالغ في مدح السلطان بقصيدة من مطوّلات شعره - في ديوانه - تمنى فيها أن ينتظم ملكه المغرب والمشرق :

متى أرى خيله من بعد وقعتها بالكفر تنهل في بغداد أوحلها وترتمي شهباً في أفق أندلس تكسوه من بهجة الإسلام ما سلبا

وكانت الرحلة والقصيدة قبل اتّصاله بالباي . ولما خدمه عمل على إخفائهما لئلا يتحرّج منه - والمغرب ضدّ لدول الترك بإفريقيا الشمالية من قديم .

أما حجته الثانية سنة 1181 هـ فقد قام بها وهو في أوج رئاسته - وكان فيها قاضيا للركب ولم يذكر من تفاصيلها إلا روايته عن الشيخ السمتان بالمدينة المنورة .

وذكر ابن أبي الضياف (1) أنه قام بسفارتين إلى قسنطينة والجزائر . ويدلّ على ذلك تمكّن علاقته بعلمائهما حتى صاروا يتوجهون إليه بالسؤال عن المسائل المشكّلة كما ذكره .

وقيامه بهذه الرحلات يدلّ على إقدام وعزم لصعوبة السفر في ذلك الزمان ، ولا شكّ أنّ لها أثرا في توسعة آفاق أفكاره ومعلوماته واكتمال حصافته .

(1) ابن أبي الضياف 7 : 23 .

## وظائفه :

لم يعرف أنه تقلّد وظيفة قبل رئاسة ديوان الإنشاء التي ارتقى إليها رأسا كما يفهم من تعبير ابن الضياف عن ذلك في ترجمته (1) حيث قال : « وطلبه علي باي الحسيني لقلم الإنشاء فامتنع ، ثم طلبه على يد المفتي محمد بن حسين البازودي فأجاب وقبله أحسن قبول وقربه نجيا واستعان به في تدبير دولته » وقال الشيخ النيفر (2) بعد ذكر القبول : « ولما سامره أول ليلة أعجبه محاضراته حتى أنّ الأمير لم يزل يدنو منه حتى كاد أن يماس مجلسه » .

ولم يذكر في الكتاب تاريخ اتّصاله بالأمير وتقليده الخطّة ، ولكنّه يفهم من سياق حوادث ثورة وسلاط التي انتهت في أول سنة 1175 هـ أنّه كان في هذا التاريخ متّصلا به بدليل أنّه مدحه في هذه المناسبة بقصيدته :

مهّاد لجنب العزّ ظهر السلاهب وبرد لصدر المجد حرّ المضارب

ثم تولّى تعليم أبناء الباي سنة 1186 هـ وذكر ذلك في تاريخه ، قال ابن أبي الضياف (3) : « وكان يدلّ على مخدومه الثاني وهو ابن تربيته حمودة باشا بما له من حقّ التعليم بما لا يحتمله سنّ الشباب وعلى رجال دولته ويحتملون له لقصور الإنشاء والترسيل على قلمه يومئذ » .

## صفاته وأخلاقه :

قال ابن أبي الضياف (4) : وكان فصيح اللسان ، ماضي القلم ، عذب المجالسة ، آية في المحاضرة بحيث إذا حضر مجلسا توفّرت الدواعي على سماع ما يلفظ من قول » .

ويظهر أنّه لم يكن محسودا على رتبته ولا مهجورا من أقرانه حيث لم تؤثر عنه كلمة هجو - منه أو عليه - بخلاف غيره من أدباء عصره كالغراب

(1) ابن أبي الضياف 7 : 23 .

(2) النيفر 2 : 58 .

(3) (4) ابن أبي الضياف 7 : 23 .



وسميّة . ولاشك أنّ لأخلاقه دخلا في ذلك . وبدايوه عدة قصائد إخوانية تفيض أدبا ولطفا وسماحة . وهي بدون ريب مرآة نفسه ودليل عواطفه . وفي العنوان (1) : إنه كان مترفها في معيشته . فإذا ليم يقول : لا يسألني عن مجالس العلم بجامع الزيتونة واستبدالها بخدمة المخزن إلّا ذلك ، وربما صرح به للأمير حمودة باشا .

#### خاتمته :

ونكب في آخر عمره بحادث اعتداء على حياته كان مدبرا من بعض رجال الدولة الغاصين بمكانه من الباي . وذكر ابن أبي الضياف سببه في تاريخ دولة حمودة باشا بالتفصيل (2) . وخلاصته : أن الباي طلب من وزرائه إبداء الرأي في انتخاب العمّال . وأن المترجم أشار بترتيب مشاركة مالية يؤدونها ممّا يستخلصونه لأنفسهم من الرعايا بعناوين مختلفة (كالضيقة والوهبة) وقبل هذا الرأي وتكلف بتنفيذه الوزير صاحب الطابع . فأثار ذلك ثائرة العمّال ومن ينتمون إليهم من الوزراء ومنهم الحاج فرج الجوز عامل باجة فعهد إلى ابن أخ له فاتك داعر باغتيال المترجم ، وترصده عند منصرفه من باردو أمام سيدي عبد الله الشريف وأطلق عليه الرصاص وحمل مغشيا عليه دون أن يصاب منه مقتل ، فعظم ذلك عند الباي وأمر بحمل الجاني إلى المصّاب وتحكيمة فيه — وكان موتورا بألم الجرح — فأمر بكسر يديه ورجليه وإلقائه ببطحاء القصبة حتى يموت ، ففعل به ذلك بمطارق الحدادين وألقي بالبطحاء إلى أن رقّ له جندي تركي فأجهز عليه . وندم الباي على ذلك ، فلما برىء الشيخ وعاد إلى باردو غصّ من جانبه ، وحدث من نفوذه حتى زوحم في قلم الترسيل بغيره . وذكر السنوسي في ترجمته بمجمع الدواوين أنّه أصيب بسقوط في رجله من جرّاء ما ذكر ، قضى في معاناته بقية عمره . ولاشك أنّه

ذهب ضحية مؤامرة خبيثة من الوزراء الانتفاعيين كما هو صريح كلام ابن أبي الضياف ، وهو مظلوم في ذلك لأنّه إنّما كان صاحب رأى أمام ملك مطلق ، إلّا أنّه تجاوز الحدّ في العقوبة بالتمثيل والتعذيب — وكان ذلك مألوفاً عند ملوك الإطلاق — ولئن كان قاسيا في الحكم فالمسؤولية عمّن حكمه أشدّ (1) ، ومهما كان الأمران مدته لم تطل بعد هذا الحادث حيث توفيّ خلال سنة 1202 هـ 1788 م — غفر الله له — .

قال ابن أبي الضياف : وأعقب ابنا — اسمه محمد — أباد تراث أبيه في قليل من المدة بمذاهب الترف ، وباع الربع والعقار ، وخرج بالبيع من الدار . والله عاقبة الأمور (2) .

(1) النيعر 2 : 59 .  
(2) ابن أبي الضياف 7 : 24 .

(1) ابن أبي الضياف 3 : 15 .  
(2) ابن أبي الضياف 3 : 15 .



## ج - التعريف بالكتاب

هذا الكتاب من نوع تواريخ السير المحددة الموضوع ، وهو إيراد أخبار وشواهد عن حياة شخص أو دولة . مدعّم ذلك بعرض الأعمال وتعداد المزايا والمناقب . وأكثر ما يعنى به في هذا النوع تجسيم الأعمال وتكثير المناقب دعاية لفائدة ذلك الشخص وتمكين نفوذه - شأن الصحف والنشريات والإذاعات والوسائل الإعلامية التي تقوم بتلك المهمة اليوم .

وإذا أردنا تمثيل هذا النوع وإلتماس أوليته فإننا نجد ذلك - إن صحّ التمثيل - في السيرة النبوية التي جمعت التاريخ والمغازي والشمائل وأعلام النبوة وحقوقها وغير ذلك من المواضيع التي يشملها مدلول السيرة . وقد توارد عليها المؤلفون فمن مخصّص ومن معتم حتى صارت تأليفها المعروفة تعدّ بالمئات - وربما بلغت الآلاف - ثم سير الخلفاء الأربعة التي كتب فيها قديما وحديثا - بين أفراد وجمع - عدد لا يحصى من المؤلفين . وهناك من تجاوز الأربعة إلى غيرهم كابن الجوزي ( المتوفى سنة 597 ) الذي عدّ في مؤلفاته سيرتا العمرين وكتاهما مطبوعة . والمجد الطبري ( 694 ) في فضائل العشرة وهو مطبوع أيضا .



أما سير الملوك وتواريخها فهناك الكثرة التي لا تستقصى لإيعازهم  
بوضعها وحاجتهم إلى بثها في الناس . وهي إما موضوعة للدعاية .  
أو لتخصيص ملك بتاريخ يخصه في المناقب أو المثالب .

ومن الثاني كتاب أبي عبد الله اليزيدي (313) في أخبار يزيد بن  
معاوية وكتاب أحمد بن عربشاه (854) عجائب المقدور في أخبار تيمور  
وهو مطبوع .

والأعم الغالب من هذا النوع موضوع في التمجيد وتجسيم المناقب  
وبث الدعايات . ومن أقدمه التاريخ التاجي — ومنه اقتبس المؤلف  
التسمية . وقد كتبه إمام الكتاب أبو إسحاق الصابني (384) لعهد  
الدولة ابن بويه — وكاد يأتي على نفسه تحت أرجل الفيلة حيث نمي  
إلى الملك أن سائلا سأله عما يفعل ؟ فقال : أباطيل أنمقها وأكاذيب  
ألفقها ! (1) .

وتوالى السير مع الزمان في كل عصر ودولة : بتخصيص ملك  
وحده . أو مع آله . أو قرنه بنظيره ، فالأول : كسيرة أحمد بن  
طولون لابن الداية (334) وسيرة المستنصر لابن الساعي (674) والملك  
الناصر للقاضي الفاضل (596) والنوادر السلطانية — في صلاح الدين  
الأيوبي لابن شداد (632) .

والثاني : كتواريخ آل عباس للصولي (243) وآل سبكتكين  
لأبي الفضل البيهقي (470) وآل سلجوق لابن القفطي (646) وآل  
عثمان لغير واحد .

والثالث : كالروضتين لأبي شامة (665) في تاريخ الدولتين  
النورية والصلاحية .

ويستطرد — في تاريخ مغربنا العربي — أنه يوجد تاريخ الدولتين  
للزركشي التونسي (894) لكنه ليس كسابقه في اختصاصه بدولتي

(1) المتعالي 2 : 245 .

نور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي خاصة . بل تناول تاريخ  
الدولتين الموحدية بالمغرب والحفصية بتونس وأخبارهما على السنين  
من أولهما إلى زمان المؤلف . شأن من كتب في مثل ذلك كابن  
الصيرفي الغرناطي (557) في تاريخ لمتونة . وابن صاحب الصلاة (594)  
في دولة الموحدين المنّ بالإمامة . وابن قنفذ القسنطيني (809) في  
الفارسية — نسبة إلى أبي فارس عبد العزيز الحفصي — فهؤلاء كلهم  
تناولوا تاريخ الدولة متسلسلا من أولها إلى المقصود بالذكر منها ،  
ودوّنوا التاريخ بوجه عام .

### منهج ابن عبد العزيز وأسلوبه :

لكن هذا التاريخ الباشي مبين لجميع ما ذكر . ومؤلفه في  
أسلوبه مبتكر . فهو قد ساق الخبر عن أولية مخدمه وبيعته  
والأحداث التي تلتها حتى أفضى إلى تدوين سيرته الشخصية فوضع  
لها مقدمة نفسية نفيسة هي — وإن كانت مستقاة من الإحياء للغزالي —  
لكنه رتب فيها وجود . وبنى الأخلاق على قوتي الشهوة والغضب  
وقيام قوة العقل كالحاكمة بينهما . ورد إليها سائر الأخلاق — عالية  
وسافلة — باعتبار التوسط والتطرف ثم طبقها على صاحبه من طريق  
أعماله وتصرفاته الصادرة عنه . وفي هذا صنع كبير له موقع ممتاز  
في سياقة الأخبار ليس كمن يرصفها رصفا بدون علاقة ولا نظام .  
وزاد على ذلك الشواهد الأدبية بإثبات القصائد الطوال التي قيلت في  
مناسباتها . فكان في آن واحد — مصدرا للتاريخ وديوانا للأدب  
في جيل كامل ، فضرِبَ بسهمين . وحفظ ثروتين . وأضاف إليهما  
ثروة أخرى من قلمه البليغ وأسلوبه في التدوين .

وكان بذوقه الأدبي يرتب ما يورده من القصائد وينتقدها في  
بعض الأحيان نقدا محكما . ومما ينتقد عليه إيراد بعض القطع الهزلية



التي لا تعدّ من الشعر لما فيها من قصور ملحوظ في الصناعة وإسراف في الملق إلى حد التغرّل في قلفة الختان . وهو شاعر بمستواها لأنه ينعت بعضها بالغثاء وبعضها بالتكلف . وأهمل ما هو خير منها ، ويكاد يعترف بهذا الخلل . فإنه لما ساق عددا من القصائد فيما زعم أنه فتح لوسلات أعقبها بقوله : « وبقيت ههنا أشعار كثيرة أضربنا عن ذكرها لعدم بلاغتها وعدم نباهة قائلها » فمعيار الاختيار عنده أمران : البلاغة حسب ذوقه ، ونباهة القائل . ومدلول النباهة ما يرادف الشهرة والتعّين . ومن مسوّغات الاختيار عنده أن يكون القائل نابها مذكورا في الأعيان . وبهذه الضابطة أضرب عن جانب لا يستهان به من الأدب التونسي نضب عنا معنيه . وضاع ثمينه . وقال في مناسبة إبطال الخمر : « فلم يبق شاعر ولا ناثر إلا مدحه . وأكثروا من عمل القصائد والمقامات فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات . ونحن نورد في كتابنا هذا ما وقع عليه الاختيار » لكنه لم يأت إلّا بمقامتين له وللورغي وأهمل الكثرة التي نوّه بها .

وطردا للموضوع أوردنا هنا — كعينة لما أهمله — قصيدة للشيخ محمد ماضور (1226) طالعها :

طسحت بآمالي إلى المطمح الأسمى  
فأبرز توقيع النجاح بها رسما  
ومن وضع الآمال موضعها فلا

يخاف من الأيّام ظلما ولا هضمما  
فما كلّ مقصود الجناب رحيه

ولا كلّ نور فاح يستأهل الشما  
ونجم الثريا لا كنجم الثرى ، وهل  
تغرّ أخا لبّ مطابقة الأسماء ؟

وفي الناس من يسمى الجواد وإنما  
على حسب المقدار كلّ به يسمى  
ومن طلب العلياء من منبت العلا  
فلا عجب أن أحرز الرتبة الشما  
ومنها في ذكر الغرض :

وأحيى بجدّ سنة الله وانتضى  
حساما يقدر المنكرات به حسما  
وخرّب حانات الخمور وقد قضى  
لأمّ الخطايا أن يقلدها العقما  
وشارب ذاك الإثم شتت شمله  
فلمست ترى من بعد ذا شاربا إثما  
إذا أظهر الله الرشاد لعبده  
فلا سعدت سعدى ولا سالت سلمى

ألا قل لأهل العصر تونس جلق  
وأزكى بني مروان حاكمها الأسمى

وسوف يجد القارىء كثيرا من الشعر الغثيث ما لا يسمو إلى  
رتبة هذا المهمل في سبك مبانیه ولا في تداعي معانيه . ولعلّ فيما  
أشار إليه من الكثرة ما يمهد عذره .

وقد انتقد عليه الشيخ ابن أبي الضياف مثل هذا في تاريخه . — وكان  
مولعا بالتنكيت عليه — فقال — معرّضا به بعد أن نقل شعرا للورغي  
في الباشا علي بن محمد — (2: 134) « وإنما ذكرنا هذه الأشعار البليغة  
وهي منافية لما ذكرناه من الاختصار لأن بعض الأدباء يتزلف بعدم  
نقلها » ثم أضاف مصرّحا : « والعجب من ابن عبد العزيز مع ولوعه  
بالآداب نقل ما دون هذا الشعر بمراتب : اللهم إلّا أن يقال : إنّ



الغرض في كتابه مدح مخدمه وهو القصد الأول « ولعلّه معذور بانفكاك الموضوعية في مثل ما ذكره المنتقد . ولو التزمه لخرج الكتاب عن موضوعه الدالة عليه تسميته .

### عنايته بالأدب :

لا شك أنّ من بواعث همّة المؤلف على وضع هذا الكتاب المحافظة على أدب عصره . وقد لمتّح إلى ذلك في مقدمته بقوله : « ولأنّ الشعر في زماننا — لعدم تدوينه . وترك روايته وتلقينه — لا يطول له أمد . ولا يبقى به ذكر إلى الأبد . بخلاف التدوين في الكتب . فإنّه سبب لبقاء الذكر لآخر الحقب » .

وقد ذكر عرضاً في الفصل الذي وضعه عن حضارة تونس وتطورها مع الدول — وهو الذي جعله كالمقدمة للقسم التاريخي من كتابه — أنّه وضع كتابه سنة 1190 هـ وهي من أخريات مدة صاحبه . وفي هذا الحين . خفّ من مجمع الشعراء القطّين . وانتقل غالبهم إلى دار القرار المكين . خصوصاً فرسا رهانهم . وحدقتا زمانهم — علي الغراب (1183) ومحمد الورغي (1190) وسبقهما أحمد الأصرم وأحمد سمية (ولم تؤرّخ وفاتهما المصادر) وقد شاخ الممدوح . وآذنه الهرم بالتزوج . وتوقع المؤلف ضياع ما قيل فيه . بعد تولّيه . فانتدب نفسه لحفظ رسومه . تحت ظل تخليد ذكر مخدمه . وهو لعمرى غرض شريف ، يسجّله له بالشكر من وقف على هذا التأليف .

### مصادره :

لما كان موضوع الكتاب خاصاً بتدوين تاريخ مصاحب لزمن التأليف ، والمؤلف متّصل بمجرى الحوادث مباشرة — بسبب تقلّده رئاسة ديوان الإنشاء — فلا جرم أن يكون اعتماده في تسجيل الأحداث

على المشاهدة والعيان . وعبارته التي يسوق بها الحوادث تقتضي ذلك بالتصريح تارة والمفهوم أخرى . وقد ينقل عن الأشخاص الذين لا بسوا الوقائع واتّصلوا بها . وقد ينقل عن الباي نفسه في حروبه وسياسته وإجراءاته وخصوصياته — حضراً وسفراً قبل الملك وبعده — ويأتي بنصوص كاملة لرسائل ومخاطبات ومناظرات وإجازات وأوامر بألفاظها ، فهو من هذه الناحية بالغ الأهميّة . دقيق الملاحظة منسجم الترتيب ، مع سيلان القلم وبراعة الأسلوب واستقلال النظريات . هذا بالنسبة لما يتّصل بحياة مخدمه الذي هو السبب الهادف لوضع الكتاب . أمّا ما سبق عصره من تاريخ الترك فتصرّفه فيه بالتلخيص من غير عزو للمصادر إلّا ما قلّ وندر . ويبدو أنّه معتمد في ذلك على تاريخي محمد الوزير السراج الحلل السندسية وحسين خوجة الترجمان بشائر أهل الإيمان أكثر من سواهما . وفي التاريخ الحفصي يساق ابن خلدون في أوّله . والزركشي وابن أبي دينار في الباقي . ونقل في مقارنة بعض الحوادث عن ابن خلكان . وفي النقد الأدبي عن زاد المسافر لأبي بحر صفوان بن إدريس . وعن ملح السحر من روح الشعر لأبي عثمان التجيبي . وفي التعاليل الفقهية عن الحلبي محشّي الدرر في الفقه الحنفي ، إلى غير ذلك من المصادر .

ولكن ما جاء من هذا النوع في نقله . أقلّ بكثير من مشهود العيان أو المسند إلى أهله .

### أصول الكتاب وترتيبه :

مخطوطات الكتاب عديدة بالخزائن العامة والخاصة . نذكر منها بالأخص ما إتّصل بالتحقيق :

(1) نسخة المكتبة الوطنية بتونس (رقم 31 م) وهي حديثة النسخ — سنة 1294 هـ . جميلة الخط حسنة الوضع بيد أنّها لا تخلو عن خطأ وتصحيف سيما في الشعر . وهي الأصل المعتمد في التحقيق .



(2) نسخة الزيتونة . وهي أقدم النسخ تاريخا وعليها تمليك وملحوظات للأمير إسماعيل ابن الباي محمد الرشيد وتوقيعات لأفراد من العلماء المعروفين ، لكنها مشحونة بالأغاليط ، وكنت انتسخت عنها نسختي الخاصة سنة 1945 ، وبها وقعت المعارضة لتعذر مراجعة أصلها بسبب حركة التحويل والتنظيم .

(3) نسخة المغفور له الأستاذ -حسن حسني عبد الوهاب المعارضة بنسخة مرقونة منها ، وهي نسخة حسنة كانت من ممتلكات الشيخ محمد الأصرم باش كاتب وعليها تمليك لحفيده بالهبة سنة 1272 - وقد أحييت بوفاة صاحبها على المكتبة الوطنية أيضا وما تزال في دور التنظيم .

(4) كان حضرة الأستاذ الرئيس المدير العام للدار التونسية للنشر اعتنى - في رحلته إلى المغرب الشقيق - بتصوير نسخة رابعة من الخزانة العامة بالرباط رقم (2265 لك) كانت من مشمولات المكتبة الكتانية ، وهي بخط المرحوم المنوبي الفراتي التونسي مؤرخ ختامها بسنة 1320 هـ .

ومن حسن الحظ أن كان بعض هذه النسخ يكمل بعضها في كثير من الأحيان ، وأفدنا من اجتماعها ومن توفر المراجع ما يضمن الصحة بقدر الإمكان .

ومن الغريب أنه رغم تواطؤ هذه النسخ على الأخطاء الواضحة لا تتفق في ترتيب أقسام الكتاب فيحتمل أن المؤلف أخرج كتابه أجزاء ، فتعاورها النساخ ، - على حسب الدواعي - بالتقديم والتأخير ( لا بتغيير النصوص ) فنسخة الأصل تقدم فصل السيرة الشخصية بمقدماته وتقاسيمه إلى نهاية مقامة الورغي الخمرية - على الأحداث التي تأتي سلسلة إلى ثورة الدعي عثمان الحداد ومنها يستطرد التاريخ الحفصي وتذييله برأي ابن خلدون ثم ما كتبه المؤلف

كمقدمة للتسم التاريخي عن حضارة تونس وتطورها ثم دولة الترك ومن تداولها من دايات وبايات إلى الدور الحسيني وما تلاه من الثورة الباشية بغاية التحرير والضبط مع الاختصار والإفادة . وترتيب هذه النسخة هو الحامل على اعتمادها أصلا لمساعدته على تقسيم الكتاب إلى جزئين متكافئين : جزء خاص بسيرة الباي الموضوع فيه الكتاب ، وجزء في التاريخ .

وبقية النسخ تأتي بتاريخ الباي موصولا إلى الثورة الحدادية ثم تعرض للتاريخ الحفصي فالتركي وتختتم بفصل السيرة الشخصية . وقد رمزنا بحرف (ز) إلى النسخة الزيتونية ، وحرف (ح) إلى نسخة الأستاذ حسن ، وبحرف (م) إلى النسخة المغربية فيما كانت فيه مخالفتها للأصل محل نظر ، وأثبتنا الصواب المتعين دون تعليق ، وبالله التوفيق .



# الكتاب الباشي

الجزء الأول  
قسم السيرة







وأجمع أهلهم بغيره من حاله بل كل ما رزقوا به وأهلهم من فضلهم حاله أخيراً في حياته  
 وإن به خفي في غيبته العافية أن باقت نفسه لهم يوم الجمعة من صوم سنة ثمانية  
 وسير معهما على باشا من ذلك المصطفى وأرد شرير واشترى من عملته ومن هذا عملها وأخيراً  
 جنازته من بارد وأجمع رسوم حال إلى منته بالتمهيد إلى أخيراً أفضاها إلى بالفضاير وحش  
 الناس لشهودها واستمر الحزن بالبلد سنة كاملة لم تفرج بها إلا لغيره وأرفع به عرس  
 مشهور وجمع على باشا بان عرا غمالة باطلتها له ونزع على ما لم يكن به حينه يونس وميض  
 بعض خامية ولم يزل كسباً مغرم إلى أن انقضت ملكه بالتمهيد إلى سنة ثمانية على الخط  
 الله تعالى أخيراً بعض خاصة سليمان باي المازين إليه في محل خلاوته قال استرعاني على باشا  
 بعمرته سليمان وسأله هل الطلعة على كعبية اعتياله له وأد خال الصبح عليه ما أخيراً قد  
 انتم الطلع عليه في من ذلك المصطفى بل قلته وأمر به في أخيراً وأفضاها إلى الله به  
 قال وكان بعض ما لي في باي المازين ليريه أخيراً أن سليمان باي يوم مرضه دخل على محمد  
 بسغا، فهو وخرج من منزله بسفك تحينه في أيضاً قال وما خرج من منزله بعد شرب الفموة  
 استرعاني في باي وأمره أن أبطله كسرة سودي وبالق عليه في الوصايا باخجائما وأن  
 لا يطع عليها أمر ميعلة ذلك المصطفى حتى اشتراهم سليمان وما هذا بسفك وأخيراً  
 ما أتى به من مشايخنا أنه سمع من أبي عبد الله في الطب المصطفى أمين الأطباء بالخمسة من وجع  
 للخبث النازع إلى البوردية من النصرانية لبيب الملة بالخمسة أن سليمان مات مسموماً وكان  
 سليمان فرقة ما أن بلغ الخلع اسمه النعمان فلما أن أوان خروج جملة الشتاء بعد ميلة إليه  
 أراد على باشا أن يشجع النعمان ويجعله مكان أبيه باي الملة السلطانية ويخرج بها معه  
 على رسم أبيه فأفاد به ذلك المصطفى ونفذ من باي حتى صر به عن ذلك المصطفى الملة  
 في تلك السنة

• انتهى الخطاب الباردة الجرائد وحسن عونه وتوفيقه •  
 • وكان البراغ من نفسه يوم الأربعاء الثاني والعشرين •  
 • من شهر رجب البرد المصطفى •  
 • أربعة تسعين ومائتين والرب •  
 • • • • •  
 • • • • •

## بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم

[ 1 ] -

الحمد لله مؤيد من قام بنصرة دينه ، ومميد من أحسن السيرة بنصره  
 وتمكينه ، ومُشيد أركان الدول ، لحفظ نظام العالم عن الخلل ، وجاعل العدل  
 دليلاً على ثبات الدولة وبقائها ، والحلم سيلاً إلى ظهورها على الأعداء وارتقائها ،  
 نحمده - سبحانه وتعالى - إذ لم يُغفلنا من سيمات عنايته ، فلم يُهملنا  
 من كافل يحوطنا برعايته ، ونشكره - جل وعز - على أن قلده أعناقنا من نِعَمه  
 حلياً ، فأقام لنا من أنفسنا ملكاً «عليّاً» ، والصلاة والسلام على سيدنا  
 ومولانا محمد الذي بعثه ليُتِمَّ مكارم الأخلاق ، فأتى من آداب السياسة  
 ودقائق الأحكام بنفائس الأعلاق ، وحمل الناس على المحجة البيضاء ،  
 وهداهم إلى الحنيفية السمحاء ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأئمة  
 الأعلام ، الذين حاطوا بقيامهم في أمر الله حوزة الإسلام ، وعلى من اقتفى  
 أثرهم في ذلك إلى يوم القيام .

وبعد : فإن الله تعالى جلت حكمته ، وعلت كلمته ، حكماً بالغة في  
 عباده لا يعقلها إلا الراسخون في العلم ، وألطافاً سابعة (1) لا يقدرها قدرها

(1) ز : ح : سابعة ، م : والطافة السابقة .



إلا من أوتِيَ حظًا وافرا من الفهم . ومن حِكْمِهِ الثَّامَّة . وأطانه العامَّة .  
 أن أقام لكل زمان من يُقيم أودَه . ويشدَّ عَضْدَه . ويُحَلِّي عَاطِلَه .  
 ويُجَلِّي باطِلَه . ويُبيِّن للخلق طُرُقَ رشادهم . ويحفظ عليهم أمر  
 معاشهم ومَعَادهم — من مَلِك أنام الأنام في ظِلِّ أمانه . وأفاض عليهم  
 سِجَال مَعْدَلته وإحسانه ، وانتصف من قوِيَّتهم لضعيفهم ، وسوَّى في الحق  
 بين وضيعهم وشريفهم . بآراء سُدَّدَت نِصَالاً . فقطعت من المُفسدين  
 أوصالاً . وسياسة ذَلَّلَتْ كُلَّ صَعْب . ووضعت الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النِّقَب (1)  
 — أو عالم رفع للدين منارا ، وقمع من الملحدِّين أغمارا . ودعا إلى الله على  
 صراط مستقيم ، واستنقذ خلائق من سواء الجحيم . بمعارف . خلعتها على  
 كاهل الدهر مطارف ، (2) وحجَّج . أظهرها كالصباح المبلج . وبراهين على  
 الحق أقامها . وعيون تيقظت لِنَقْضِ الدين أنامها — أو عابد لاحت أنوار  
 عبادته في دُھْمَة / الليالي غُررًا وأحجالا . وأزاحت سيَّهم أدْعِيَتِهِ عن الأمة  
 ضررا وأوجالا — إلى غير هؤلاء مِمَّنْ تزدان به الدنيا . وتتهجج به العُلَيَّا :

[2 - أ]

فَكُلُّ أَوَانٍ فِيهَا أَعْلَامُ فَضْلِهِ تَرَادُفَ مَوْجِ الْبَحْرِ رَدًّا إِلَى رَدِّ  
 ثُمَّ قَبِضَ اللَّهُ — سبحانه وتعالى — لكلِّ مَكْرُمة من مكارمهم من ينشرها .  
 ولكلِّ مَأْثُرة من يُبْدِيها على صفحات الأيام ويُسْهِرُها من شاعر ينظمها  
 في لَبَّةِ الدهر عُقُودًا ، ويبدِيها زَهْرًا بالقلوب معقودًا — أو كاتب ينشرها  
 انتشار الكواكب على صفحة السماء . والأزهار أحاطت بِضِفَّتَيْ المَاءِ — أو  
 مُصَنَّفٍ يَضُمُّهَا من دفاتره إلى صِوَان (3) . تُجَنِّتُنِي مِنْهُ غَضَّةٌ فِي كُلِّ  
 أَوَانٍ . فلم يزلوا بذلك أحياء في الناس وإن ماتوا . ولم يَفُتْ التخلُّق  
 بأخلاقهم الحميدة وإن فاتوا .

(1) تضمين من بيت دريد بن الصمة المأثور في السير الامثال :  
 مِمَّنْ ذَلَّلَتْ تَبْدُو مَحَاسِنَهُ يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النِّقَبِ

... انظر اللسان : ن ق ب .

(2) جمع مطرف كمتبر ردا، الحز، وفي الاصل مضارف ولا معنى له .

(3) صِوَان .

جَمَالِ ذِي الْأَرْضِ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُمْ  
 بَعْدَ الْمَمَاتِ جَمَالُ الْكِتَابِ وَالسَّيْرِ

وقد بعث — جل وعلا — في هذا العصر من الأمير الأجل المعظم الأعلى أبي الحسن  
 الباشا عليّ باي ابن الأمير الأرَضَى الْمُقَدَّسِ الْمُطَهَّرِ المرحوم حُسَيْنِ باي بن  
 عليّ أمير المملكة الافريقية وعميدها ، القائم بتوطيدها وتمهيدها ، أدام الله تعالى  
 دَوْلَتَهُ . ومكَّن من أعدائه صَوْلَتَهُ ، من صَيَّر ظُلُمَتَهُ نُورًا ، ونَكَدَهُ  
 حُبُورًا . وطاسمته معلما ، وغفله معلما ، ولياليه ثغورا بَوَاسِمِ .  
 وأيامه أعيادا ومواسم ، ومسراته متابعة . والأمانِيَّ به بعد تعاصيها طائعة .  
 وألحفه من فخره بمطارف سابغة . وأتحنه من بره بعوارف سائغة ،  
 وأعاد كساد فضائله إلى النِّفَاق . وأباد فساد الغوائل به والنِّفَاق . فالأيام ذاتُ  
 بَهْجَةٍ وابتسام . والدنيا عليها تَحِيَّةٌ وسلام . ناهيك من مَلِكٍ أعطته السِّيَاسةُ  
 قِيَادَهَا . وأمطته الرِّئاسةُ جِيَادَهَا . فقلَّد الأعناق أطواق رَغَائِبِهِ . وخلَّد على  
 جِبَّةِ الدهر عيون غرائبه ، قَصَّر أيامه على ظلامه يزيِّلها . ومبَرَّة ينيلها .  
 وعَشْرَةٌ يُقْبِلُهَا . وعَطَّلَ لِيَالِيهِ إِلَّا مِنْ دَقَائِقِ مَعَانِي بُبْدِيهَا . وجلال نِعَمِ  
 يُسْنِدِيهَا . ونوافل طاعات إلى صَحِيفَتِهِ يُهْدِيهَا . أتاح الله به صلاح  
 الأُمَمِ . وإيضاح الأُمَمِ . وأزاح به عن عباده الغُمَمِ . واستودعه من المجد  
 صَرِيحَهُ وَلُبِّيَابِهِ . ومن الجود تَيَّارَهُ وَعُيُوبَهُ . فاتَّسَقَتْ به الأحوال  
 وانتظمت . وانشقت به الأهوال وانفصمت . فالقلوب على تأمليه مُفْتَرِّقَةٌ متخالفة ،  
 وعلى محبته وطاعته متفقة مُتَّحِلِفَةٌ . وهو أعزّه الله تعالى — لِعِظَمِ فخامته .  
 وجلالته في القلوب وضخامته — وإنْ أَكْثَرَ شعراء دولته . وأدباء  
 حضرته . الراضعون أخلافها . الرافضون خلافها . المُتَّفِقُونَ ظِلَالُهَا .  
 الراتعون / خِلَالُهَا . وغيرهم مِمَّنْ انتابها من الآفاق . واجتابها في الرِّفَاقِ ،  
 لاحتلاب دَرَّهَا . [واجتلاب دَرَّهَا] (1) . وانتجاع غِيَشِهَا . والامتناع  
 بِلِيَشِهَا . من مدائحها التي أطلعوها في سماء المحامد شُمُوسًا . وأداروا بها

(1) الزيادة بحس الأصل .



على الألباب كؤوساً — إلا أن خياله المنيعة ، وأخلاقه الشريفة ، يضيق عنها نطاق الشعر ، ويغصُّ بها فضاء النثر ، وتقتضي أن تُخلَّد ، في ألف مجلد ، لما أن التنصيص على جزئيات المكارم مِمَّا لا تنفي به الخطب والأشعار ، ولا تحمله إلا بطون الأسفار ، ولأن الشعر في زماننا هذا — لِعَدَم الاعتناء بتدوينه ، وترك روايته وتلقيه — لا يطول له أمد ، ولا يبقى به ذكر إلى الأبد ، بخلاف [التدوين] (1) في الكتب ، فإنه سبب بقاء الذكر لآخر الحقب ، ولأن الشاعر وإن تحرَّى الصدق جهده ، وأتى بما هو الحقّ عنده ، فهو منسوب إلى المبالغة ، التي هي في حقه سائغة ، بخلاف المصنّف الثقة ، المعروف بحسن الطريقة ، فكل ما يأتي به محمول على الحقيقة . ولَمَّا لم تطمح همة أحد لتدوينها ، وتحليلية الدنيا بها وتزيينها ، هممت أن أكون سابق هذه الحكمة ، ومُحلّي هذه اللبّة ، بوضع تاريخ لهذه الدولة الحُسَيْنِيَّة أبقاها الله تعالى ما دامت السموات والأرض ، ولا حلَّ عقد لوائها إلى يوم العرض ، يشتمل على بيان ابتداء مُلكهم ، وانتظام البلاد في سلكهم ، وأذكر فيه أخبار والده المقدس سقى الله ثراه شأبيب رضوانه ، وتغمّده بمغفرته وإحسانه ، وكيف تقلّد مُلك الإيالة الإفريقية وسلطانها ، وعمر بالهداية أوطانها ، وأنبه على طرف من مناقبه التي لا تُحصَر ولا تُحصى ، وتمتّع عمّن يروم لها استقصا ، وأخبار أخيه الملك الأفخم ، والسلطان الأعظم ، مولانا محمد باي أحلّه الله فراديس الجنان ، وتابّع على روحه الزكية سحائب الغفران ، فهو الذي تزينت به الدنيا وتحلّت ، وبحيث شاءت من العلّياء حلّت ، وأذكر ما تخلّل من بينهما من أخبار ابن عمّه . عليّ باشا ابن محمد باي ابن عليّ رحمه الله تعالى وتغلبه على المملكة بقمّهره ، وكيف آلت به الحال في آخر أمره ، ثم أستقصي ما اطلّعت عليه من أخبار مولانا — أيدّه الله تعالى — التي بهرت ، وارتفعت ارتفاع شمس الظهيرة وظهرت ، وأنبه على ما آتاه الله من كُليّات الفضائل وأصولها ، ومحاسن آثاره الصادرة عنها من جزئيات المكارم وفصولها ، فنظرت فإذا هذا المطلب

(1) الريادة بغير الاصل.

يستدعي من الفراغ ، ما ليس له مساع ، ويقتضي اتّساع مجال ، وتتبع الأخبار من أفواه الرجال ، إذ هي لم تدوّن بعد ، ولا تعرّض / أحد لنظمها في عقد ، إلا ما أَلَمَّ به الأديب أبو عبد الله محمد الوزير السّراج (1) في تاريخه المسمى «بالحلل السُّدُسيّة في الأخبار التونسية» من التعرض لدولة والده رحمه الله ، بلغ فيه إلى سنة أربع وأربعين ومائة وألف — غير أن الجزء الرابع أحرّقه علي باشا لما اشتمل عليه من الغصّ عنه في قيامه على عمه بجبل وسلات فلا يوجد منه الآن عيّن ولا أثر ، ومبدؤه من سنة سبع وثلاثين — وإلا ما أَلَمَّ به أبو عبد الله حُسَيْن خوجة في آخر تعريفه لدولة آل عثمان المسمى «ببشائر أهل الإيمان» من ذكر بعض فضائله — رحمه الله تعالى — ومزاياه ، ووجدت شواغل الخدمة تمنعني من ذلك ، وتصدني عن الدخول في ضيق تلك المسالك ، ورأيت واجب شكر نِعْمائه التي طوّقنيها تطويق الحمامة ، وأرسلها عليّ من كل جانب إرسال الغمامة ، يقتضي أن أقوم بما أحلّ به غيري من هذه الوظيفة ، وأن لا يفوتني التحلّي بهذه الحلّة الشريفة ، فإنه — أيدّه الله — قد جذب بيضعي ، ورفع من موضعي ، ونوّه باسمي بعد خُموله ، وبلّغني كل ما يبلغه خديم ملك من مأموله ، وبوّأني بخدمته رُكن رفعة لا يُهتَدَم ، وسوّغني بتقريبه جانب عز لا يُضام ولا يُهتَضَم ، فإذا أنا قد وقعت بين أمرين عظيمين ، وتوسّطت بين طريقتين خطيرتين ، فأعمّلت الحيلة في الخلاص ، ولات حين مناص ، بأن أعرضت عمّا كنت هممت به أوّلا ، حيث لم أجد له قبلاً .

### [منهج المؤلف]

وصرفت القصد إلى الاقتصار على دولة مولاي بالتّصنيف ، وجعلت ما أذكره من أخبار غيره كالتابع لها والرّديف ، واقتصرت من أخباره على أشهرها ، ومن فضائله وكمالاته على أظهرها ، ومن مدائح على ما سار سير

(1) مؤرخ تونسي مفيد في عصره 1736/1149 ، انظر مخلوف 326.



المثل . وطلع نَيِّراً كالشمس في الحَمَل . فجاء بحمد الله كتاباً خافلاً يشتمل عليه القلب ويلتبس بالنفس . وسَمَّيْتَهُ «بالكتاب الباشي» إضافة للقلب مولانا الذي تَمَيَّزَ به . ونِسْبَةً إلى وصفه الذي انفرد بِمَعَالِي رُتَبِهِ . وَلَمَّا كان هذا الملك الجليل الذي مَنَّ الله به على عباده . وأقامه لإصلاح ما فسد من بلاده . قد يَسَّرَ الله تعالى من أسباب سعادته . وهَيَّأَ له من مُوجِبَات كرامته . أموراً سَنُفَصِّلُ بعضها — إن شاء الله تعالى — من سَوَقِ الخيرات إليه ، وتسهيل طُرُقها عليه . وتمكينه ممن ناواه . وإصابة غرضه في عباده . كل ذلك بأسباب جرت على خلاف المعتاد . وصنع من الله تعالى لا يَتَغَيَّبُ به تدبير العباد . تأملت فإذا ذلك مِصْدَاق قوله — صلى الله عليه وسلم — لعبد الرحمن بن سَمُرَةَ رضي الله عنه «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة . فإنك إن / أعطيتها عن مسألة وَكِلْتُ إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها» (1) فإن إمارته — حرس الله ملكه . ولا فَصَّم على امرئ الليالي سِلَكه — كانت بِبَيْعَةِ عَقْدَهَا له أهل العَقْد والحَلِّ من العلماء المعبرين . والفقهاء المشاورين . ورؤساء العساكر وكبراء الأجناد . ووجوه الناس من كل حاضر وباد . فابْتَدَأَتْ بالكلام على هذه البَيْعَةِ المباركة الطاهرة . وذكرت عَقِبَهَا ما تسبب عنها من الأحوال السائرة . والله تعالى يلهيهمنا الصواب فيما ننقله ونبتكره ، إنه ولي التوفيق فيما نأتيه ونذره .

[ 3-ب ]

## ذكر ولايته

— أدام الله تعالى أيامه —

بُويِعَ — أعزه الله تعالى — يوم الاثنين لأربع عشرة خلت من جمادى الثانية سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف 1759/1172 صبيحة الليلة التي توفي فيها أخوه مولانا أبو عبد الله مُحَمَّد باي — قدس الله روحه — وكان رحمه الله تعالى قد سافر

(1) الحديث بالتحسين وغيره.

بالمَحَلَّة في تلك السنة . ووصل إلى القيروان . وأقام بها . ثم ابتدأه المرض في سفره ذلك . فرحل راجعاً إلى تونس . ومرضه يتزايد . فدخلها يوم الأحد السادس من جمادى الثانية . فمكث ثمانية أيام . ثم تَوَفَّي في التاريخ المذكور على فراشه . وفي أَبْهَةِ ملكه ، بقصره من باردو المعمور موتة تمنها الكثير من أمراء إفريقية فحُرِّموا . فاتَّفقت آراء الجميع على تولية مولانا أبقاه الله تعالى . فأول من بايعه الحاضرون من وزراء أخيه . وأهل دولته . وفيهم مُفْتِي حضرته وخطيبه الشيخ الإمام أبو عبد الله حُسَيْن بن إبراهيم البارودي (1) . ولما نُصِّيَ الخبر إلى تونس صباحاً هَرَعَتْ إليه أفواج الناس على اختلاف طبقاتهم يريدون بَيْعَتَهُ فحضرها أكابر العلماء . وأهل الديوان . ورؤساء العساكر . ووجوه الناس . فجلس لهم بصحن القصر من باردو المعمور . وبايعوه بيعة عامة ، ثم وفد عليه أهل كل ناحية من المدن والقرى والضواحي (2) من جميع المملكة وقاصيتها ببَيْعَتِهِم طائعين . غير مُكْرَهين ، بقلوب صادقة . ونِيَّات صحيحة وعزائم ثابتة .

وكان من الاتفاق الغريب ، وصنع الله العجيب ، الدالُّ على صحة عَقْد هذه البيعة وثباتها . ورسوخ قدمها ، واتصال سعادتها . أن اتَّفَق في أيام مرض مولانا مُحَمَّد باي — رحمه الله تعالى — وصول قبجي باشا (3) من حضرة الخلافة الخاقانية ، ومقر السلطنة العثمانية ، بفرمانات التقليد والخلع بولايته — رحمه الله تعالى — باشا المملكة الافريقية ، وولاية مولانا — أيده الله تعالى — باي العساكر وأمير المَحَال المنصورة ومُتَوَلِّي جباية الأموال من البلاد . ونزل بجزيرة جربة . واشتاق مولانا مُحَمَّد باي إلى وصوله إليه . فلم يتهيأ وصوله إلا / بعد الفراغ من دفنه ، فاستحضر الداي وأهل الديوان والأكابر وجلس لهم مجلساً عاماً بصحن قصره . وجلس الناس على مراتبهم . وحضر

(1) مؤسس بيت البارودي 1772/1180 . وربما حُفِر في النطق بالبارودي . انظر ابن أبي الضياف 7 : 32 .

(2) ز : والضواحي .

(3) مبعوث سياسي كالسفير .



المُفْتُونَ . والقضاة . والوزراء . والحشَم . وجميع أهل الدولة ، ونشرت الأعلام وأحضِر قبهجي باشا . فدخل يشق الصفوف وبيده فرمان والخلعة . فسلم ، وقبل يد مولانا — أعزه الله تعالى — وجلس في الموضع المُعَدَّ لجلوس أمثاله . بعد أن أخذت من يده فرمانات والخلعة ، وقام لها مولانا قائما على قدميه ، وقام جميع الناس بقيامه تعظيما للأمر ، فلبسها وقريء فرمان الشريف وهم قيام ، وبعد الفراغ من قراءته ، جلس وجلسوا ، وضربت النوبة ، وأطلقت المدافع ، وحصلت البيعة العامة ثانيا من جميع من حضر . وكان يوما مشهودا — فقوي بذلك أمره ، واشتد عضده — واتفق له ما لم يتفق لغيره من حصول البيعة من أهل العَقْد والحَل ، والتولية من قبل السلطان في وقت واحد ، ولم يُعْهَد اتفاق مثل هذا لغيره من ملوك إفريقية . بل قُصَّصَ أُنْ يَسْتَقِيلُ أحدهم بالملك ببيعة أو غلبة ، ثم يرسل إلى حضرة السلطان يطلب التولية ، فيأتيه التقايد والخلعة بعد أن يمكث في الملك مدة . فكان هذا الاتفاق لمولانا من عنوان السعادة ودليل العناية ، وظهر منه — أيده الله تعالى — من الحزم والثبات في يوم ولايته . من ترتيب الأمور ، وضبط الحصون ، وسد الذرائع على من تتطرق إليه تهممة الفساد ، وبعث السرايا لتأمين السبيل وتسكين البلاد . ما سكن خواطر الناس ، وقوى قلوبهم . وزاد في رغبتهم ، وأنسأهم موت ملكهم الأول :

هَنَاءٌ مَحَا ذَاكَ الْعَزَاءَ الْمُقَدَّمَا

فَمَا عَبَسَ الْمَحْزُونُ حَتَّى تَبَسَّمَا

ومن سعادته أنه لم يقع شيء في جميع عمله مما جرت العادة بوقوعه في إفريقية عند موت الملوك من الهرج ، ولم تُرَق بسبب ولايته محجمة من دم كما قال كاتبه صاحبنا أبو عبد الله محمد الدرنأوي [من جملة قصيدة يمدحه بها] :

يَكْفِيهِ عِزًّا أَنْ أَهْلَ بِلَادِهِ قَدْ بَايَعُوهُ وَلَمْ يُسَلِّ حُسَامُ

وأقر وزراء أخيه ، وقوادده ، وعمّاله ، وجميع أرباب الوظائف على مراتبهم ووظائفهم لم يغيّر أحدا منهم عن مكانه ، ولا أخره عن مرتبته ، فاستحسن ذلك منه . وعدّ من تمام عقله وحسن تدبيره .

## ذكر ثورة اسماعيل بن يونس باي ابن علي باشا

اعلم أن الله تعالى قد عَقَدَ هذه البيعة المباركة بكل خير ، ورتّب عليها من الصنّع الجميل ما دَفَعَ به كلّ ضيّر ، فَمِنْ ذلك ما اتفق بإثرها من قيام إسماعيل المذكور ، وخروجه من طرابلس ، والتفاف كثير من الأعراب وغيرهم عليه ، واستقراره بجمّال وما وقع بها ، وانتقاله بعد ذلك إلى جبل وسّلات ، وما وقع في ذلك / من الصنّع الذي لم يخطر ببال أحد ولا وقع في حُسنانه ، من خلاء الجبل وجلاء أهله منه . وخضد شوكتهم ، واستئصال شأفة غائلتهم — وهم أمنع من عقاب لُوح الجوّ — وقد كان جبلهم شجّي في صدر ملك إفريقية لا يُنتزع ، وغُصّة في قلبه لا ترتفع ، طالما أقاموا سوق الفتنّة على ساقها ، وسعوا في قلب الدّول وفسادها .

وتفصيل ذلك : أن إسماعيل المذكور لما ثار أبوه يونس باي في قصبة تونس على والده عليّ باشا ولم يتم له أمر ، وخرج هاربا منها إلى الغرب ، واستقر بقسنطينة في قضية طويلة سيأتي الكلام عليها — إن شاء الله تعالى ، فمن ذلك التاريخ سُجِنَ هو وأخواه أحمد ومصطفى بدار سكناهم ، ومنعوا من الخروج والتصرف ، وبقوا على تلك الحال إلى أن استقرّ ركاب موالينا العالي بتونس يوم الخميس لخمس خلون من ذي الحجة سنة تسع وستين (1756/1169) وقبض على عليّ باشا وقتل ابنه محمد ذلك اليوم وتفرّق إخوته وأولاده . وكان إسماعيل ممن فرّ — ولم يكن قبل يخرج للناس قبل



سجنه لصغره فلم يكن معروفا عندهم - ولم يدر أين يتوجه . فأتى مقام الشيخ الأساذ الأكبر أبي سعيد الباجي - رضي الله عنه - بجبل المنارة بمرسى قرطاجنة . فوجد جماعة من المنهزمين فرّوا بأنفسهم فلم يعرفوه . فأقام معهم ليلتين أو ثلاثا . ثم أسر إلى رجل منهم من زواوة اسمه محمد بخبره وعرفه بنفسه - وكانت فيه نجدة - فأشار عليه بالهروب . ووعدته أن يبلغه إلى حيث يأمن على نفسه . فأجابه إلى ذلك وانطلق به من مقام الشيخ المذكور . فدخل تونس من باب الخضراء ، وخرجا من باب عليوه . وانتهيا إلى بلد سُلَيْمان فباتا بها ليلتهما . وأقاما بها من الغد - لما أصابه من التعب - ثم اكرى له حمارا إلى الحمامات . ولم يزل يتنقل به من بلد إلى بلد . إلى أن بلغا إلى صَنَاقُس فدخلها - ومولانا أياه الله تعالى بها - لأنه كان قد خرج إليها بعد ثلاث من دخوله تونس لسبب اقتضى ذلك . وخرجا منها إلى بعض القرى . وركبا البحر إلى جربة . ومنها خرجا إلى جرجيس . فلما حصلا بها ارتاب آغَة بُرْج جرجيس لمكانهما ومنعهما الخروج منها . فنازعه بعض من زواوة الذين معه - انتصاراً لمحمد الزواوي المذكور - فأبى الآغَة إلا منعهما وطال بينهما الخلاف في ذلك . فوردت عليهم سرية خيل من بني شِبْل فوجدوهم متنازعين فعاتبوا الآغَة وقالوا له : تريد أن تُحَجِّرَ البَرَّ الواسع ؟ ! فلان لهم . وأطلقوهما من يده .

### [التجاء اسماعيل الى طرابلس]

وسارا فبلغا إلى بيوت أولاد ابن مريم وهم عرب أهل خيام من ذوي العفاف والخير ، يُطْعِمُونَ الطعام ، وتقصدتهم الضيوف . ولهم بتلك البلاد اسم وشهرة فترلا بهم . قال محمد الزواوي : فطلبت منهم حِنَاء (1) لأكبس بها رجله لِمَا أصابه / من ألم المشي حتى تورمت قدماه . قال : فبنوا لنا بيتا من شَعَر ، وقالوا لي : قم بسيدك إلى ذلك البيت فعلمت أنهم عرفوه : قال فدخلنا البيت فوجدناهم قد وضعوا به ثيابا هيئوها للبس فلبسناها وبتنا عندهم .

(1) في ج. م. حقا.

فاما كان الصباح أتونا بفرس وبعير . وقالوا اركب أنت البعير . وَلَيْسَ كَبَّ صاحبك الفرس . واعد رانا فإن خيلنا غير حاضرة . وبعثوا معنا من يهديننا الطريق ويُجيزنا إلى طَرَابُلُس . فسرنا إلى أن انتهينا إلى الزاوية الغربية من عمل طرابلس ، فدخلناها وجلس إلينا جماعة من أهلها لا يعرفوننا . فقال أحدهم للآخر : هل بلغك أن ابن يونس باي فر من تونس ودخل هذه البلاد ؟ فقال له : من أين لك ذلك ؟ قال له : هذا خبر صحيح ، وقد دخل هذه البلاد أمس أو اليوم ! قال : فتعجبت من ذلك . وخرجنا حتى وصلنا إلى طُرَّة بظاهر طرابلس . فنزلنا بها . وسلمنا الفرس والبعير إلى أصحابهما ، وفارقونا من هناك راجعين . وأمرني أن أدخل البلد وآتية بدواة وقرطاس ، فذهبت وأتيته بهما وهو بمكانه ذلك . فكتب كتابا إلى صاحب طرابلس أبي الحسن علي باشا ابن محمد باشا ابن أحمد باشا قرمانلي يخبره فيه بنفسه ، وأعطاني الكتاب فذهبت به إلى الكيخية (1) فأوصله إلى الباشا . فلما علم به أرسل إليه أناسا ومعهم مركوب . وأمرهم أن يتلقوه ولا يعلموا به أحدا ، وأن ينزلوه بدار محمد بن رجب ابن مامي ابن خالة أبيه . وقد كان محمد ابن مامي المذكور استقر بطرابلس قبله بقريب . هرب إليها من تونس أيام الفتنة بحيلة تمت له ، وهي : أنه أظهر مرضا وخرج بعياله للتنزه في بساتين مرسى قرطاجنة وقد تكلم مع بعض رؤساء المراكب من النصارى . فأتوه ليلا إلى شط البحر الذي بإزاء العبدلية . وحملوه هو وأهله وماله وما استخفه من أمتعته . وبلغوه إلى طرابلس . فأعطيني دارا بها . وعيَّنت له الانزالات . ولما بلغ اسماعيل إلى طرابلس أنزل معه كما ذكرنا للقراية التي بينهما ولسالف خدمته وحرمة في أيامهم . فمكث معه مدة ثم حصلت بينهما وحشة ففارقه وعيَّنت له دار سكنها وحده . ثم وقعت بينه وبين محمد الزواوي - الذي فعل معه ما فعل - وحشة أيضا ، فضربه ضربا مبرحا وطرده وأقصاه . ولم يزل مقيما بطرابلس إلى أن توفي مولانا محمد باي ابن حسين باي - رحمهما الله تعالى - واستقل مولانا - أعزه الله تعالى - بالأمر في التاريخ المتقدم . فظن أن

(1) كلمة تركية : النائب أو الوكيل . ويرادفها بنونس : الكامة .



قد خلا له الجو ، وأنه إن دخل عمل تونس . أطاعه الناس وتبعوه وتملك البلاد . وزَيْنَ له هذا الرأي جماعة من الغَوَّاء : كانوا يلوذون به ، وانضم إلى ذلك أن كاتبه بعض أهل / الفساد من إفريقية كمحمد بن عبد الكريم الذي كان شيخ قابس في أيام جده وغيره ، يحسنون له الخروج إلى إفريقية ويسهلون عليه تملكها . وانضم إلى ذلك أيضا أن صاحب طرابلس ضيق عليه لأمر حدث منه ، فاتفق مع أصحابه على الخروج ودبروا أمرهم ، وخرج محمد التركي إلى المنشية ، وجعل يشتري الخيل خفية ويربطها إلى أن اجتمع عنده عشرة أفراس . ومحمد التركي هذا كان من حوانب الترك بتونس ، فجنى جناية فرت بسببها إلى طرابلس ، وخدم إسماعيل فقربه إليه وصيره من خواصه . ولما تكاملت له الخيل خرج أصحابه متفرقين قبله ، وتواعدوا للاجتماع بمكان عينوه ليلا . وخرج هو عشية وحده مظهرا أنه خرج للتنزه في المنشية . فلما جن الليل التفت عليه أصحابه وساروا سراعا ليلتهم تلك ومن الغد إلى الظهر . وكانوا قد تركوا الطريق ، وارتفعوا ذات الشمال خوفا من الطلب . ولم يكن فيهم من له خبرة بتلك الأرض ، فتأهوا ولم يعرفوا مسلكا ، وأخذتهم الحيرة . فبينما هم كذلك إذ لقيهم رجل يقال له سالم بن عثمان الحمودي ، كان قد خرج من بعض القرى بأباعر ذاهبا إلى أهله ، فلما رآهم خافهم على نفسه وعلى إبله ، فقرب منهم ليستطلع خبرهم قال : فلما رأيتم ورأيت هياتهم وقد أثر فيهم العطش وحر الشمس تأثيرا شديدا طمعت فيهم ، فتقدم إلي أربعة منهم فعرفني أحدهم وسماني ، فقلت لهم : « من أنتم ؟ » فسمى لي بعضهم . فقلت : « إنما أسألك عن صاحب الفرس الخضراء » قال : « ذلك سيدك إسماعيل بن يونس باي » . قلت : « وما جاء به إلى هذا المكان ؟ » قال : « حدث أمر بإفريقية فجهز لنا صاحب طرابلس محلة في البر ، وأسطولا في البحر ، وخرجنا لأخذ المملكة إلا أننا أضللنا الطريق ، ولم نعلم مكان المحلة » . قال : فانطلقت إليه وسلمت عليه ، فقال لي : « سر معنا واهدنا الطريق » ، قلت : « إن لي إبلا موقرة لميرة أهلي أوصاها إليهم وألحق بك » ، قال : « اتركها وأنا أوقرها لك ذهابا إن

[ 5 - ب ]

شاء الله تعالى ! » قال : « فاجرني الطمع على المضي معه فتبعته ! » فقال : « عاهدني على أن لا ترجع من ورائي » وأخذ يؤكد علي في ذلك . فعاهدته على أن لا أرجع من ورائه ، ولو كان هاربا . قال : « إني هارب » . وأخبرني بمقصوده ، فوعده بأن أبلغه أي مكان أراد . وشكوا إلي العطش فأخبرتهم أن الماء على ثمانية فراسخ منهم . وقلت : « دعوني أركض إلى الماء وأملأ منه قربة وأعرضها لكم » . فقالوا : « نخاف أن لا ترجع » . فقلت : « ومن يمنعني من الذهاب لو أردته ؟ » فركضت إلى الماء . وعن لي في الطريق سرب ظباء ، فرميت ظبيا منها فصرعته وذبحته وتركته ، وانطلقت إلى الماء فملأت / منه قربة ، ورجعت إليهم أعدو على أثري . فأنتهيت إليهم ، وقد كادوا يهلكون عطشا ، فشربوا وانطلقنا فاحتملنا الظبي ، ولما كان الليل أكلناه ، وسرنا بقية ليلتنا ، ومن الغد إلى صبح اليوم الذي بعده ، وقد كدنا نهلك جوعا وكادت خيلنا أن تهلك أيضا . فقلت لهم : « عهدي بمكان بهذه الناحية يخزن به أولاد ابن مريم طعامهم ، فهلم نذهب إليه لعلنا نجد به تبنا لخيلنا . قال : فأتيناه ظهرا ، فوجدنا به التبن فترلنا ، وتركنا الخيل تأكل منه . فنَبَشَتْ فَرَسُ الأرض فساخت يدها ، فتمنا إليها ، فوجدناها قد ساخت في مطمور شعير . فكشفنا عنه ، وجعلنا نملأ منها مخالي خيلنا . فلما ملأنا آخر ميخلاة انكشف الشعير عن جرابين مملوءين ، فكشفناهما فوجدنا بهما دقيق شعير ، فعلفنا الخيل وأكلنا ما في الجرابين من غير طبخ فتماسكنا ، ونشطت خيلنا ، وانطلقنا . فأتينا من الغد بيوت أولاد ابن مريم دون المخاضة ، فصنعوا لنا طعاما ، وقالوا لنا : « اركبوا فان القائد أحمد يسير في جماعة من الخيل قد رجع أمس من هنا في طلبكم ، وجهه صاحب طرابلس في أثركم » . وقد كان خرج من طرابلس في أثرهم صبيحة ليلة خروجهم ، فسبقهم إلى ذلك المكان لأنهم ارتفعوا بارتفاعهم ذات الشمال وتباعدهم عن الطريق ، وطالت مسافتهم ، فلمّا لم يدركهم - وقد انتهى عمل طرابلس وبلغ إلى عمل تونس - رجع .



قال : فلما سمعنا هذه المقالة ركبنا من وقتنا فأتينا حي الحمارنة من الغد . وهم على فراسخ من جرجيس . فترلنا قريبا منهم . وأرسلنا أحدا إلى شيخهم الشيخ سعيد بن عبد الله . فأرسل إلينا : أن امكثوا بمكانكم ولا تدخلوا إلينا . ونحن نوجه اليكم بطعامكم وعلف دوابكم وارتحلوا عنا . ولا حاجة لنا بكم .

ثم أقبل إلينا سعيد بن عبد الله بنفسه وكرر تلك المقالة . وعاتب إسماعيل في خروجه من طرابلس . وأعلمه أنه لم يصنع شيئا ورجع . وقد كان رحومه ابن سوف الجين النويري في خيل له عند الحمارنة ذلك اليوم . فلما بلغه الخبر خرج إلى إسماعيل وتكلم معه فأعلمه بمقصده . فساعده عليه . ووعدته النصرة . وأن جميع العرب طوع أمره ونهيه . وأنه سيجمع عليه الرجال ويفعل ويفعل . وقال : « قم بنا حتى ندخل حي الحمارنة . ونبيت هذه الليلة » . قال : فقمنا ودخلنا عليهم فلم يمنعونا لمكان رحومه بن سوف الجين منهم . وطلب منهم إسماعيل أن يبذلوا خيله بخيل من عندهم لأنها كلفت ولم يبق بها حراك . ففعلوا . وأبدل له سعيد بن عبد الله فرسه بحصان له .

وارتحلنا من عندهم صباحا . فأتينا مآثر إحدى قرى قابس فترلناها . [ب - ] (وتسامع بأمره أهل قابس ومن حولهم من الأعراب . فبينما نحن / كذلك والطعام يصنع لنا بمارث إذ ورد عليه [كتاب] (1) محمد بن عبد الكريم من قابس يخبره : أن المخازنية الذين بقابس وزواوة ومن انضم إليهم عازمون على التعرض له . فانزعج ، وارتحل ، وترك الطعام . وأشير عليه بالتوجه إلى بني يزيد . فجاءهم ونزل بهم . وتكلم معهم في القيام بدعوته فأجابوه ، وأشاروا عليه يقصد بلد الحامة لأن أهلها صديق لهم . فقصدها ، فتلقاه أهلها بالقبول . وتسارعوا إلى إجابته وأطاعه آفة البرج الذي بها ومن معه

(1) الزيادة في جميع النسخ عند الأصل . وبها يوضح السياق .

من زواوة . وقدم عليهم محمد بن عبد الكريم وناس قليلون من أهل قابس ، فأقام بالحامة . واضطرب أمر أهل قابس وانقسموا فريقين فركب اليهم بمن معه من العرب . فترل عليهم أربع ليال يدعوههم إلى إجابته ، ووجد (1) جماعة من وجوه أهلها بمقام أبي لبابة الأنصاري - رضي الله عنه - فأعلموه أن طاعتهم لا تنفعه ، لأنهم لا يمكنهم أن يدخلوه إلى بلادهم لأنها ليست ذات منعة . فلما لم يحصل منهم على طائل رجع إلى الحامة . وكتب إلى مطماطة : أن يطيعوه ليتخذ جبايتهم معقلا يأوي إليه . وحصنا يمنعه ويتحصن به . فردوا رسوله . وامتنعوا منه غاية الامتناع . فأقام بالحامة ثلاثة وثلاثين يوما . وقد اجتمع عليه كثير من العرب من قبائل شتى . وقدم عليه جعفر بن خضر ومعه جماعة من أهل بيته . وغيرهم من أهل جمال . وطائفة من المثلث . وغيرهم . فترلوا له الرحلة والتقدم . والتزم له أهل جمال بالقيام معه . والمناضلة دونه . وسهّلوا له الأمر ووعدوه الأباطيل - وأهل جمال شيعية علي باشا من القديم - وانضم إلى ذلك أن قائدهم منصور المشرق أساء السيرة فيهم . وعسفهم ظلما . فأوغر قلوبهم . فاغتنموا الفرصة بزعمهم الفساد للعصية السابقة ولما أجهضهم من ظلم القسائد المذكور . وكم من عائلة جرّما ظلم العمال والقواد . وانتهاكهم حرمة الله تعالى وحرمة السلطان في الرعية . فإن الخلق عيال الله تعالى . ومتى استعمل على الرعية الأراذل والسفهاء وأهل البطالة والإعلان بالشهوات كان ذلك داعية إلى فساد نيّاتهم ، وضعف دياناتهم . وانهماكهم في شهواتهم . قال أبو بكر الطرطوشي في كتابه « سراج الملوك » : « وأقوى الأسباب في صلاحهم أن يستعمل عليهم الخاصة منهم . وذوو الأحمال الراجحة . والمروءات القائمة ، والأذبال الطاهرة ، فمتى رأس العامة سرّاتهم فهو الطريق إلى حفظ أديانهم ومروءاتهم . وتماسكهم على الانهماك في المحظورات ، وملابسة المحرمات . قال الشاعر :

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم  
ولا سراة إذا جهّالهم سادوا

(1) في زواوة : واجتمع بجماعة .



/ وروى أن الرشيد أحضر رجلاً ليؤلفه القضاء . فقال له : « إنني لا أحسن القضاء ، ولا أنا فقيه ! » . فقال له الرشيد : « فيك ثلاث خصال : لك شرف ، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة . ولك حِلْمٌ يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قَلَّ خَطْؤُهُ ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كَثُرَ صوابه . وأما الفقه فيُضم اليك من تتفقه به » . فوُلِّي ، فما وُجِد فيه مَطْعَنٌ .

ولذلك لما تحقق عند مولانا - أيده الله - ظلم منصور المشرق ، واعتسافه للرعية . عزله وأخذه أخذاً ، وولى مكانه على سوسة الحاج شعبان السبعي ، وهو رجل ذو عقلٍ ومروءة ، فاستقامت به الأحوال . وجعفر بن خضر المذكور أحد قواد علي باشا والمتصرفين في الولايات في دولته ، عفا عنه موالينا لَمَّا تملكوا في جملة من عَفَوْا عنه - وهو من بيت كبير بجمّال - فلم يَقْنَع بالعافية ، فخرج إلى الحامة كما تقدم ، وتولّى كِبَر هذه الواقعة . وخرج معهم إسماعيل من الحامة حتى انتهى إلى صفاقس ، فطمع في فتحها - ومتولياها إذ ذاك أبو عبد الله محمد الأصرم أخو الوزير الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد الأصرم - فاجتمع إليه وجوه البلد ، وتشاوروا معه : فاتفق رأيهم على غلق أبواب المدينة فأغلقوها . ودخل الأصرم قصبتها وضبطها أحسن ضبط . فأقام إسماعيل عليهم ثلاثاً يدعوهم إلى إجابته وفتح المدينة ، وامتنعوا عليه . ووقع بعض تشغيب من بعضهم فلم يتم له . وفي اليوم الثالث ركب إسماعيل ، وقرب من سور المدينة فرموه بمدفع من القصبة ، فسقطت الكرة قريباً منه ، فرجع وعاث في بعض الأجنّة فأفسدها وارتحل عنها .

### [ثورة جمال]

وتوجه إلى جمّال ، فلما وصل إليها خرج أهلها للقائه يضربون طبولهم ، ودخلوا به بلدهم مسرورين ، ولم يعلموا ما أدخلوا على أنفسهم . فترل بدار منصور المشرق - وكان دخوله لها لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة من السنة 1759/1172 - فأقام بها ، وقد اجتمع إليه أهل جمّال قاطبة ، وأتاه

كثير من أهل القرى القريبة منها فيمن انحشد إليه من الأعراب ، كبنّي يزيد والحزم ، وأكثر المثلث ، والسواسي ، وأولاد سعيد ، والقواسم ، وغيرهم تبلغ عدتهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس . وقد كان مولانا - أيده الله - لما بلغه خروجه من طرابلس ووصوله إلى الأعراض تخوف أن يسبق إلى جبل وِسلات ، لعلمه أنه ليس بأفريقية معقل يأويه غيره - لصعوبة مسالكه ، وتوعر شعابه ، وما في قلوب أهله من الضغائن والاحقاد القديمة - فبعث وزيره المختص به أبا الحسن الحاج علي بن عبد العزيز كبير دولته وزعيمها ، في أربعين فارساً وأمره بالمسير إلى وِسلات ليتكلم معهم ويدكرهم العهد الذي عاهدوا عليه مولانا - نصره الله تعالى - لَمَّا ارتقى إلى / جبلهم في أيام أخيه ، وأن يستنفر جِلاصاً ، ويرسل إلى صبايحية القيروان فيأتوه ، ويترصد الطرقات المفضية إلى وِسلات ، ففعل إسماعيل أن يقصده فيحولوا بينه وبين الوصول إليه . فسار من يومه ، وفعل جميع ما أمره به . وأتى وِسلات من ناحية الفج ، وأرسل إليهم فنزل إليه القائد أحمد السهيلي ووجوه من أهل الجبل ، فأعلمهم بخروج إسماعيل ، وحذرهم من الفتنة ، وخوَّفهم سوء عاقبتها ، ورغبهم ، ورهبهم ، فأجابوه : « بأننا على ما عاهدنا عليه الأمير من الانقياد له ، والدخول تحت طاعته ، وليس لنا علمٌ من أمر إسماعيل ، ولئن جاءنا رددناه ، ولم نقبل من أمره شيئاً ، ويكفيننا ما وقع لنا في القيام مع جده الباشا ، وما طرأ علينا من قتل الرجال ، وذهاب الأموال ، فنحن أبعد شيء من الدخول في هذا الأمر » . فأعجب الحاج علي بمقاتلتهم ، وشكرهم على ذلك . وعرضوا عليه الصعود إلى جبلهم ، وأن يبيت عندهم ، فصعد معهم ، ونزل ببورحال - بلد القائد أحمد السهيلي - فأكرم نُزله ، واجتمع إليه المشايخ ووجوه الناس ، ففرق فيهم أموالاً وانصرف إلى القيروان . فأقام بها - وخيله مترددة بينها وبين وِسلات ، آخذة بكل مرصد - .

وبعد ذلك جهّز مولانا مَحَلّة - زواوة وصبايحية - وأرسلها إلى الحاج علي مع أحمد شلبي آغة الصبايحية ، وكتب إليه : « أن يتلقاها ، ويتعرض لإسماعيل ، ويصده عن الإيغال في البلاد » . فخرجت لتسع خلون من ذي



القعدة . فتلقاها الحاج علي فيمن عنده من الخيل . وقد تحقق عنده قصد إسماعيل لجمال . فتوجه إليها . وأرسل إلى السواسي وأولاد سعيد يستنفرهم . فانتدب إليه من بقي منهم . حتى نزل بظاهر مساكن — وهي على أربعة فراسخ من جمال (1) — ولما بلغه كثرة العدو كتب إلى مولانا — أعزه الله تعالى — يستمده . فأمر بانتقاء مائتي رجل من العسكر [وأركبهم الإبل . وبعث معهم حسين التمتام آغة صبايحية الترك في خيله . وطائفة كبيرة من صبايحية العرب . وأمر الحاج علي على جميعهم . وقد كان أيضا لما بلغه محاصرة إسماعيل لصفاقس اختار مائتي نفر من العسكر] (2) وأركبهم مركبا من حلق الوادي . وأرسلهم مع علي [رايس] قبودان البحر . ومحمد بن السوقي أحد رؤساء البحر في طائفة من البحرية لنجدة أهل صفاقس وضبط البلد . فلم يبلغوا إلى سوسة حتى وجدوا إسماعيل بجمال . والحاج علي بمحلته على مساكن . فنزلوا بسوسة وخرجوا إليه . فاتفق أن وردوا عليه هم والممدد الذي جاءه في البر [في يوم واحد] .

فلما كان ثاني يوم من قدوم هذه الأمداد على المحلة خرج إليهم إسماعيل بجنوده من جمال . فركب الحاج علي ومن معه . ولما تقابل الفريقان بادر جماعة من أولاد سعيد والسواسي وبعض المخازنية الذين مع الحاج علي بالهروب إلى إسماعيل . والحقوا باخوتهم الذين معه غدرا منهم ومكرا . فانكسرت لذلك قلوب أهل المحلة [وبادرتهم خيل إسماعيل بالغارة . فلم يلبثوا أن انهزموا أمامهم وتبعهم الآخرون حتى أوصولهم إلى المحلة] (3) وأخرجوهم منها . فأما بعض جلاص فلم تنته هزيمتهم إلا / إلى نزلتهم بنواحي القيروان ، وبعض صبايحية باجة بلغت بهم الهزيمة إلى باجة . ولم يبق مع الحاج علي إلا شِرْذمة قليلة من الخيل ، فتحير لما دهمه . وبقي

(1) كنسروا ما يستعمل المؤرخ كييل الفرسخ وهو عند الفقهاء ثلاثة أميال والامر في ذلك تقديرى وتطبيقه متقارب.

(2) الجمل المحصورة بحاصرتين ساقطة من الاصل وهي في جميع النسخ وبها يظهر كون الممدد بعين وردا في يوم واحد.

(3) الكلمات المحصورة كلها ساقطة من الاصل دون بقية النسخ وزيادتها ضرورية لنظم السباق.

العسكر وبعض زواوة بالمحلة باهتين لا يبدرون ما يصنعون . فلما رأى إسماعيل فرار من قد فرّ وأنه لم يبق بالمحلة إلا الترك ومن معهم . قصد ناحيتهم يشير إليهم أن هلموا إليّ وهم باهتون حتى قرب من الأخبية . فأوجس في نفسه الحاج علي خيفة أن يطيعوه — لما رأى من عدم معارضة لهم . ودفعهم إياه — فأتاهم وقال لهم : « ما هذه الحيرة ؟ إن كان مقصودكم اللحاق بإسماعيل فتعالوا نذهب إليه جميعا . وإن كان مقصودكم القتال فقاتلوا ! » فتحرّكت حميتهم ، وكان أول من بادر حسين التمتام الآغه فوجه مكحلتة نحو إسماعيل ورماه . وتبعه العسكر . فتأخر إسماعيل وتراجعت الناس . واقتتلوا برهة ثم انفصلوا . ورجع إسماعيل بجنده إلى جمال — وقد أخذوا نحو سبعين فرسا — ومات منهم ثلاثون نفسا . وبعض من لحق المنهزمين من خيل إسماعيل رجعوا إلى المحلة ، ودخلوها ظنا منهم أن المحلة أخذت . وأن صاحبهم استقر بها . وجعلوا يسألون عن مضربه فقتلوا . وبات إسماعيل وجنوده فرحين بما ظهر لهم من أمارات الغلبة ولم يعلموا أن العاقبة للمتقين .

واقضى نظر الحاج علي ومن معه أن يوجهوا إلى سوسة ويأتوا بمدافع ليُرهبوا بها الأعراب ، فكان نظرا سديدا . فأتوا بها وهيئوها . ولما كان من الغد ركب إسماعيل في جنده وسار قاصدا القتال . وركب الحاج علي في خيله . ولما التقى الصفان ، رماهم محمد بن السوقي بكرة من مدفع . فصادفت فارسا منهم فأهلكته هو وفرسه . فانشمرت الأعراب . ورجعوا منهزمين . ولا سيما أهل الأعراض فإنهم استهولوا أمر المدفع لعدم اعتيادهم له . وكان يوما عليهم لا لهم .

وقد كان مولانا — أعزّ الله أنصاره — جهّز محلة بها مائة خيلاء ما بين عسكر وخيل . وأمر عليها كاهيته حسين ابو طاغان . وأرسل معهم الحاج شعبان السبعي واليا على سوسة — بعد عزل منصور المشرق عنها وأخذه كما تقدم — فلما نزلوا بإزاء سليمان على مرحلة من تونس . ورد الخبر على



مولانا من بعض من أسرع بالهزيمة أن حملة الحاج علي أخذت . فكتب إلى حسين كاهية يأمره بالمقام بمكانه إلى أن يثبت الأمر . فوردت عليه الأحمال برؤوس القتلى من أهل جمّال ، أرسل بها الحاج علي إلى الحضرة . فشاو أصحابه في الرحيل أو المقام حتى يؤذن له . فأشار الحاج شعبان السبعي بالرحيل ، وقال : « إن مولانا لم يأمرنا بالمقام إلا لما بلغه من أخذ المحلة ، وحيث تبين بطلان ذلك فما مقامنا هنا ؟ » . فارتحلوا .

فلما قربوا من الحاج علي كتبوا إليه أن يرتحل وينزل / المعتمر ، وتلتقي المحلتان هناك ، ففعل . ومن الغد ارتحلوا جميعا ونزلوا بقرية على فرسخ من جمّال يقال لها : « دار غالب » ، فوقع الفال الصحيح الموافق لهذا الاسم . فأقاموا بها أياما ثلاثة أو أربعة لم يقع فيها قتال . وبعد ذلك أنشبوا القتال صباحا فحميت الحرب . واشتد القتال ، فانهزم أهل جمّال ودخلوا بلدهم منهزمين . وقد كانوا خندقوا عليها خندقا ، وجعلوا عليه مترسا من الحُصْر المملوءة بالتراب وقاية من الرصاص . فتقدم العسكر وقربوا من جمّال ، وصنعوا مترسا مقابلا لها ، وحاصروها بقية يومهم . ولما انتصف النهار اقتضى نظر أكابر المحلة أن يقلعوا محلّتهم من مكانها ، وينصبوها حول مترسهم قريبا من جمّال ، ففعلوا ذلك ، فأنزل الله تعالى الرعب في قلوب أهل جمّال ومن معهم ، وأيقنوا بالهزيمة . ورتّب الحاج علي خيله ، وقسمهم على النواحي ، فأحاطوا بجمّال من جميع جهاتها إلا الجهة القبليّة منها ، فلم تُمكن الإحاطة بها . ورُكبت عليها المدافع من جهاتها الثلاث أيضا . وضاق عليهم الأمر ، وتقدم الرايس محمد بن السوقي بمدفع يُجرّ على عَجَل ، وصدم مترس أهل جمّال يرميهم به فرمى برصاصة على نحره فخرّ قتيلًا — رحمة الله عليه — بعد أن أبلى بلاء عظيمًا . ولما جنّ الليل أمر إسماعيل فأسرج له فنار ، وخرج بنفسه فطاف بخندق جمّال من أوله إلى آخره ، وحرّض الناس ، ورجع إلى داره فاستلقى مستريحا ونعس .

وقد أخذت جنوده من أهل جمّال والعرب وغيرهم في الهرب والفرار ، فخرجوا من ناحية القبلة أفواجا أفواجا ، وتفرقوا شذّر مذر . فلما أحس

بذلك بعض أصحابه أتاه فأيقظه من نومه . وأعلمه بما جرى ، فقام فزعّا ، وأمر فقتل له حصانه فركب ، وخرج بمن بقي معه من خيله وهم خمسة عشر فارسا لم يبق معه من ذلك الجم الغفير غيرهم . وكان خروجه من ناحية القبلة أيضا ، فعارضته خيل من المحلة فرجع على عقبه وقصد ناحية المحلة ، وستره ظلام الليل ، « فنجا برأس طيمرة وليّجام » (1) . ولما علم بخروجه من بقي من أهلها ، ولم يبق إلا الأقل ، أنزلوا رجلا وبعثوه إلى المحلة ليخبرهم الخبر . فوافى خيباء الحاج علي ، فأخبره الخبر كله ، وأعلمه أن البلد خالية ليس بها إلا أناس قليلون ، وقد تفرقت تلك الجموع ، وهرب إسماعيل فارّا بنفسه . فتوقف أولا خوفا من أن تكون مكيدة ، ولما ثبت عنده ذلك ركب في أثره ودخل العسكر وزواوة والمخازنية وغيرهم جمّالًا صباحا . ونهبوا دورها ومخازنها . وجميع ما اشتملت عليه . ولم يأت عليها الليل إلا وهي بلاقيع . واتبعوا أهلها في الطرقات ينهبونهم ويسلبونهم أمتعتهم ، وامتدت الأيدي إلى بعض حرمهم ، وتفرقوا في كل مذهب ، « فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين » . وكان ذلك يوم الخميس 1 غرة ذي الحجة من السنة 1172 ، فكانت مدة إقامته بجمّال سبعة عشر يوما .

ومن قول الفقيه القاضي المشاور الأديب أبي محمد عبد اللطيف الطوثير القيرواني يذكر ما أصاب أهل جمّال في شقاقهم وشقّهم العصا . وعفو مولانا عنهم بعد ذلك ، من جملة قصيدة طويلة مدح بها مولانا — أعزه الله تعالى — ستأتي بتمامها — إن شاء الله تعالى — في موضع أليق بها من هذا الموضع :

لَا جَمَلَ لَـللهُ جَمَّالًا لَقَدْ نَزَلَتْ  
بِهِمْ مِنَ الْخُلْفِ آجَالٌ وَأَوْجَالٌ  
شَقُّوا الْعَصَا وَتَمَادَوْا فِي ضَلَالَتِهِمْ  
فَحَلَّ سَاحَتَهُمْ خَطْبٌ وَأَهْوَالٌ

(1) الطمر بكسر تين وراء مشددة : الفرس الوثاب، والمعنى : انجاء فرسه وحده، وهو عجز بيت الحسن.



بِالْإِرْبَعَاءِ لَقَدْ حَاطَ الْخَمِيسُ بِهِمْ  
 كَمَا أَحَاطَ بِسَاقِ الرَّجُلِ خَلْخَالُ  
 فَبَعْضُهُمْ مِنْ شَعُوبِ ذَاقِ كَأْسِ رَدَى  
 وَبَعْضُهُمْ فِي شِعَابِ الْأَرْضِ قَدْ سَالُوا  
 « فَاصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ »  
 وَنِسْوَةً وَمَسَاكِينَ وَأَطْفَالَ  
 سَاقِ الشَّقَاقِ إِلَيْهِمْ كُلِّ دَاهِيَةٍ  
 فَمَا الَّذِي صَنَعَ الْبَاغُونَ ؟ مَا نَالُوا ؟  
 أُولِيَّتَهُمْ مِنْكَ عَفْوًا عَنْ جَرَائِمِهِمْ  
 إِذْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْقَوْمَ جُهَالُ  
 لَا زِلْتَ بِالْعَفْوِ بَعْدَ الظَّفْرِ مُتَسِمًا  
 فَالْعَفْوُ لَيْسَ لَهُ مَذْمُومَةٌ حَالُ (1)

وقال الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي يذكر  
 يومهم من جملة قصيدة طويلة ستأتي بتمامها أيضا - إن شاء الله تعالى - : (2)  
 « أَكْذِبَ الْحُسْنَ بِجَمَالٍ وَقَدْ  
 كَانَ مَشْهُودًا كَيَوْمِ الْجَمَلِ  
 فَتَحَ الْحَيْنُ لَهَا إِذْ فَتَحَتْ  
 بَارْتِكَابِ الْخُلْفِ بَابَ الزَّلَلِ  
 فَغَدَتْ مِنْ جَهْلِيهَا الْفَاحِشِ مِنْ  
 بَابِ الْأَعْرَابِ لِبَابِ الْبَدَلِ  
 كَيْفَ تُخْطِي مَنْ تَعَدَّى طَوْرَهُ  
 صَرَعَةً يَهْوِي لَهَا فِي التَّلَلِ

(1) (د) هاتان قطعتان من قصيدتين تاتيان في تهاني الفصل الذي بعده كما قال المؤلف وأنا  
 ساق منهما هنا ما يتعلق بجمال ، وأما القصيدة الموالية لهما فهي خاصة بالموضوع ولذلك  
 استوفاهما ولم يعددها .

فَمَضَى السَّيْفُ بِهِمْ فِي غَلَّةٍ  
 وَاشْتَفَى مِنْ دَمِهِمْ بِالْعَلَلِ  
 فَادْكُرِ الْأَيَّامَ فِي النَّاسِ تَجِدُ  
 يَوْمَهُمْ هَذَا كَيَوْمِ الظُّلَلِ

وقال الأديب البارع علي الغراب الصفاقي (1) :  
 نَجْمُ السَّعَادَةِ فِي عَلَاكَ تَصَعَّدَا  
 وَالنَّصْرُ فِي مَاضِي حُسَامِكَ خُلْدَا  
 وَالْدَّهْرُ لَا يَنْفَكُ خَادِمَ بَابِكُمْ  
 وَعَلَى سِوَاكُمْ لَمْ يَزَلْ مُتَمَرِّدَا  
 أُنِيسَ الزَّمَانُ بَعْدَ لَيْكُمُ وَلَطَالَمَا  
 قَدْ كَانَ مِنْ جَوْرِ الْعِدَاةِ مُشَرِّدَا  
 / وَرِيَاضُ مَجْدِكَ بِالشَّئَاءِ هَزَارُهَا  
 لَا زَالَ فِي أَدْوَا حِيْنٍ مُغَرِّدَا  
 لَوْ أَنَّ فِي الْعُلَيَاءِ ضَارِعَكَ امْرُؤُ  
 لَغَدَا الْمَضَارِعُ مِنْ عَلَاكَ مُجَرِّدَا  
 إِنَّ تَكْسَ مَجْدًا يَغُرُّ مِنْهُ سِوَاكُمْ  
 وَتَرَاهُ مِنْ عَدَمِ الْكِسَاءِ مُبَرِّدَا  
 يَا أَهْلَ وَدِّ ابْنِ الْحُسَيْنِ أَرَى لَكُمْ  
 تَاجًا عَلَى هَامِ السَّمَاءِ مُنْضَدَا  
 فَأَعِدْتُمْ الْأَيَّامَ وَهِيَ مَوَاسِمُ  
 وَهَدَيْتُمْ الدَّهْرَ الْمُضَلَّلَ فَاهْتَدَى

(1) ساعر توفي بصفاقس سنة 1183/1760 مولع بالحسنات اللفظية ولا سيما الدورية - وقد ورى  
 في هذه القطعة بالفعل المضارع المجرد ، وبالكسائي والمبرد ، وليست من جيد شعره ، راجع  
 لترجمة النفر 2 : 32 .



## ذكر انتقال اسماعيل الى جبل وسلات وقيامهم معه

ولما خرج بمن معه من جمّال رأوا أولا أن يرجعوا وراءهم إلى بلد الحامة ، ثم بدا لهم قصد وسلات ، فسلكوا طريق القيروان ، وقد التف عليهم بعض من المنهزمة من خيلهم فصاروا نحو الخمسين فارسا . فساروا ليلتهم تلك ومن الغد والليل كله إلى الصبح ، فأصبحوا تحت جبل وسلات ، وصعدوا إليه فلم يلقهم أحد من أهله ، فأتوا القصيبة إحدى قراه ، فنزلوا تحتها وانتظروا من يأتيهم ، فلم يأتهم أحد ، فبينما هم كذلك إذا برجل أطل عليهم من فوقهم فقال : « يا فرسان هل فيكم إسماعيل بن يونس باي ؟ » قالوا : « هو ذا يسمع كلامك » ، فقال له : « بيننا وبينك الله ورسوله ارتحل عنا فلا حاجة لنا بك فانا لا يأتينا من ناحيتكم إلا الشر ! » وأغلظ له في القول وانصرف ، ولم يجبه أحد . فبقوا على تلك الحال حائرين إلى المساء فدخلوا القرية فلم يجدوا بها إلا الصبيان والنساء ينادون : « النفاق ! النفاق ! » ، وقد هرب الرجال / منه ، فبات بها عازما على الرجوع إلى الأعراض . فلما كان الصباح أتاه رجل يسعى وأخبره أن مائتي مقاتل من شباب أهل وسلات من أهل « الجبيل » أحد أخماس وسلات قد أتوا داعين بنصرته . فركب وتلقاهم وفرح بقدمهم وشكرهم على صنيعهم ، فأطلقوا مكاحلهم فرحا ، وأعلموه أنهم سامعون له مطيعون قائمون بنصرته ، وانطلقوا به إلى بلدهم ، فبات عندهم وأشاروا عليه : أن آتِ خُمُسَ أولاد إسماعيل فان أجابوك أجابك أهل الجبل كلهم ودخلوا تحت طاعتك لأنهم أكثر الأخماس رجالا ، وأشدّهم بأسا . فأتاهم من ناحية الجوف ، فخرجوا إليه يشتدون مدافعين له ولمن معه بالرصاص والحجارة ، وجرحوا رجلا منهم برصاصة وامتنعوا من قبوله غاية الامتناع . فركض إليهم إسماعيل يستعطفهم ويرفق بهم ، فرموه بحجارة على جبهته فشجته ، فعدل إلى زاوية الجبلولة الكاينة بخُمُسهم من الناحية القبلية فبات بها . ومن الغد انتقل إلى خُمُس « تيفاف » فلم ينفصل معهم على طائل . وجملة الأمر أن

أَبْدَيْتُمْ فِي النَّاسِ دُرَّ مَآثِرٍ  
أَضْحَى بِهَا جِيدُ الزَّمَانِ مُقْلَدًا  
ثِقَ أَنْ رَبَّ الْعَرْشِ قَلَدَ سَيْفِكُمْ  
نَصْرًا ، فَلَا قَطَعَ الَّذِي لَكَ عَوْدًا  
حَاشَا لِمِثْلِكَ أَنْ يَهْزَكَ حَدِيثُ  
أَيْهَزُ رَضْوَى مَرَّ رِيحٍ غَرَدًا ؟  
وَأَبْشِرْ بِهَلْكَ الْمُفْسِدِينَ جَمِيعِهِمْ  
عَمَّا قَرِيبٍ ، إِنَّهُ لَنْ يُبْعُدَا  
إِذْ فَتَحُ جَمَّالَ غَدَا لَكَ مُنْبِئًا  
عَنْ فَتْحِ وَسَلَاتٍ عَلَى أَدْنَى الْمَدَى  
قَدْ جَرَّ الْأَعْدَاءَ حِلْمُكَ فَارْتَدَوْا  
بُرْدَ الْجِنَايَةِ وَاقْتَفَوْا سُبُلَ الرَّدَى  
خَسِرْتَ تِجَارَةَ أَهْلِ جَمَّالٍ وَمَا  
رَبِحْتَ ، إِذْ « اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »  
عَاصَتْكَ قَوْمٌ بِالْأَسُودِ تَشَبَّهَتْ  
أَرَأَيْتَ قِطَافًا فِي الْقُطُوفِ اسْتَأْسَدَا ؟  
هَبْ أَنْ حِلْمَكَ غَرَّهُمْ . أَوْ مَا قَضَتْ  
شُهْبُ السُّعُودِ لَكُمْ بِإِهْلَاكِ الْعِدَا ؟  
يَهْنِكَ يَا مَوْلَايَ ذَا الْفَتْحِ الَّذِي  
مَا زَالَ مُصْطَحِبًا لِسَيْفِكَ سَرْمَدًا  
لَا زِلْتَ مُمْتَطِيًا عَلَى هَامِ الْعُلَا  
عِزًّا عَلَى مَرَّ الزَّمَانِ مُؤَيَّدًا



الشباب والأحداث والسفهاء أحبوا القيام معه . والدخول تحت دعوته .  
والمشايخ وذوي الأحكام تمتنعون من ذلك . فبات بمكان يقال له : «الدمان» .  
ومن الغد انتقل إلى بلد القَصْر من خمس تيفاف أيضا . فترلها . ودعاهم  
إلى مراده فأجابوه . وكثر عليه الناس وشاع في جميع قرى الجبل أمر القيام  
والنفاق . فركب في جمع كثير ، وأتى إلى بورحال بلد القايد أحمد السهيلي  
ونزل بداره . ففرح به أولاده وأهله وأرسلوا إلى القايد يستدعونه . وقد  
كان تشاور مع بعض أكابر الجبل في أمر إسماعيل لما صعد . فاتفقوا على  
عدم نصرته — على ما زعموا — . ووجهوا اثني عشر رجلا من كبارهم إلى  
تونس ليتكلموا مع مولانا — أيده الله تعالى — في أمره . ويعلموه براءتهم من  
الدخول في شأنه . ونزل أحمد السهيلي بسفاية أسفل الجبل ينتظر عود  
أصحابه . فلما استقر إسماعيل بداره . وأطاعه أهل الجبل . أرسلوا إليه .  
فصعد ولم يسعه إلاّ الدخول معهم بحسب ظاهر أمره . فإنه كان يقال : إن  
امتناعه أولا من القيام معه . وتحذيره لأهل وسلات من غائلة ذلك إنما هو  
بحسب الظاهر فقط .

ولما قدمت تلك الجماعة إلى مولانا — نصره الله تعالى — تكلم معهم . فأعلموه  
أن جميع من وراءهم غير ناكثين لعهد . ولا داخلين في شيء من الفتنة .  
فشكر صنيعهم وبرهم وكساهم وردهم إلى بلادهم . وأرسل معهم الوزير  
الفقيه الكاتب أبا العباس أحمد الأصرم القيرواني رئيس الكتبة بالحضرة — رحمه  
الله تعالى — وعمر السهيلي أخا القائد أحمد المذكور . وأمرهم أن يأتوا وسلات  
ليؤكّدوا الأمر . وليتوثقوا منهم بالترغيب / والترهيب . فلما انتهوا إلى  
جلولا بلغهم الخبر بطاعتهم لإسماعيل ، واتفقهم على القيام معه ، ونكثهم  
للعهد . فبعث أبو العباس أحمد الأصرم بعض من معه من أعيان وسلات إلى  
القائد أحمد السهيلي ، ورجا أن يكون قد بقي من تلافى أمرهم بقيّة ،  
وأنّ خرقهم يقبل الرّقع ، فترددت الرسل بينهما مرارا . وآخر الأمر  
أعلمه : أنه قد اتسع الخرق على الرّاقع . وأنه إن لم يرجع فربما صدر من  
بعض غوغائهم مكروه يناله . فحينئذ خيّر من معه من أهل وسلات في

[10 - ب]

الرجوع معه أو الصعود إلى جبلهم فاختاروا الصعود . وتعللوا بأنه عسى أن  
يكون منهم تلافٍ وجبّر لما وقع . ورجع هو وعمر السهيلي إلى القيروان ثم  
رجعا [ منها ] إلى الحضرة .

ولما تحقق مولانا — أعزه الله تعالى — من أمرهم ما تحقق ، وظهر عنده ما كان  
يتخيله منهم من نغل (1) القلوب ، وكُمون الضغائن والأحقاد القديمة فيها ،  
اقتضى نظره السديد ، ورأيه الأرشد السعيد ، أن لا يخرج إليهم بنفسه أصلا ،  
ولا يقاتلهم ما داموا بجبلهم ولو مكثوا فيه على حالهم تلك ما مكثوا ، بل  
يوجه إليهم بمحلة بعد محلة تنزل بقرب جبلهم ، شجّي في نُحورهم ،  
وغصّة في حلوقهم . وتمنع من يصعد إليهم أو ينزل منهم ، فإن نزلوا  
قاتلتهم . وإن بقوا بجبلهم تركتهم . ورأى أن السداد والصواب والرأي  
كله والمكيدة مطاوتهم بهذا الصنيع . وترك مقاتلتهم في عقر جبلهم ،  
ليؤعّوارة مسالكه . وعدم بصارة الجند بها مع شدة خبيرة أهله بذلك  
وسهولته عليهم . حتى أن السعي والعدو في شعابه أيسر عليهم منه  
بالسهل . عملا بقوله — صلى الله عليه وسلم : « لا يندغ المؤمن من جحر مرتّين » .  
فإن والده المقدّس — برّده الله ضريحه — كان — لما قام  
عليه ابن أخيه عليّ باشا بوسلات وأطاعه أهله — خرج إليهم بنفسه في  
محلاته . وحاصروهم بجبلهم . وقاتلهم وأقام عليهم مدة ولم يحصل على  
كبير طائل من أمره . وتعب غاية التعب هو وجنوده ولم يمكنه الرجوع إلى  
تونس قبل الفتح . بعد أن كان قد خرج بسببه . فلم يعد إليها إلا بعد ثمانية  
عشر شهرا من يوم خروجه . وكان ما كان في يوم بورحال من صعود  
العسكر إلى الجبل . وهجومهم عليه . وانتهائهم إلى بورحال . وأخذهم  
إياها . ثم رجوع الكرة لأهل وسلات عليهم . وقتل من قُتل منهم . وأمور  
صعاب بعد ذلك . ثم لم يتيسّر له مراده حتى ارتحل عنهم . ونزل عليّ باشا  
وعاث في البلاد . ومضى إلى الساحل . ووقع عليه به ما وقع وفرّ إلى الغرب .

(1) النغل : الفساد . كذا في ج وما يعبر عما لا يصح .



— وسيأتي خبر هذه الواقعة مُفَصَّلًا إن شاء الله — فكان هذا السبب هو الباعث لمولانا — أعزّه الله — على ذلك الرأي السديد ، الذي لم تظهر نتيجته لمن لم ينهم / سرّه إلاّ بعد زمان .

[ 11 ] أ

وقد كان الوزير الأجلّ الحاج علي بن عبد العزيز تبّع إسماعيل عند فراره من جمّال ، ولم يزل مُتّبِعًا له حتى تحقّق عنده صعود الجبل ، فقصد ناحيته فوجد ثلاثة رجال من أهله فأُمسكهم ، وسرّح واحدا منهم إلى القايد أحمد السهلي يستطلعه الخبر عنه وعن قومه ، ما فعلوا ؟ فأجابه بأنهم على ما عاهدوا عليه ، ولم تزل الرسل تتردّد بينهما إلى أن اجتمع به بالشرّشارة فاستوثق منه وانصرف إلى القيروان . ولما نجّم نفاق أهل وسلات واستيأس منهم ، رجع إلى محلّته بجمّال . فكتب إليه مولانا يأمره بأخذ المثلث الذين قاتلوا بجمّال . فنظر فإذا أخذهم غير ممكن لأنهم متفرّقون بغابتهم سير ثلاثة أيام ، فمهما أخذ حلّة (1) منهم وسَمِعَ الباكون فرّوا . وأيضا فقد اختلط العاصي منهم بالمُطيع ، فراجعته في ذلك ، فأمره أن يأخذ من كبارهم ستين رجلا رهنا تحت يده ، لئلا يعودوا مرة أخرى ، وأمره أيضا أن ينتزع من أهل القرى بالساحل مكاحيلهم خوفا من عصيانهم مع أهل وسلات . ففعل ذلك ، وارتحل بمحلّته ، وارتحل حسين كاهية أيضا بمحلّته ، فدخل تونس معا يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وسبعين [1760/1173] . ثم جهّز مولانا محلّة أخرى من العسكر ، وأمر عليها حسينا كاهية . فخرج بها يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من المحرم ، ثم أردفها بمحلّة أخرى — زواوة وخيالة — وأمر عليها الحاج علي بن عبد العزيز ، فخرج بها لخمس بقين من المحرم . وأمرهما معا بأن يأتيا العلكم ويقيما به شجّي في نحور أهل وسلات ، ولا يقاتلوهما إلاّ إذا نزلوا إليهم . فانتھوا إلى العلكم ، وأقاموا به مضيّقين على الجبل من تلك الناحية . وفي مدة إقامتهم بالعلكم شنّ إسماعيل الغارات بمن معه من الخيل على جلاص ، وأخذ بعضا من مواشيهم ، ثم ركب إلى ماجر وهم قبيلة كبيرة من

(1) المحلة بالكسر جمع حلل وحلال : القوم النزول فيهم كثرة .

بوادي إفريقية تشتمل على أربعة بطون : الفراشيش ، والفواد (1) ، وأولاد مهنا ، وشقطة . كل بطن من هذه البطون الأربعة تشتمل على عدد كثير يبلغ عددهم جميعا زهاء ثلاثين ألفا . فلمّا أتاهم — وهم من شيعة جدّه علي باشا — أجابوا دعوته ، وأطاعوه ، فأمرهم بالرحيل معه ، والنزول على وسلات ففعلوا [الآ ما كان من الفراشيش فانهم ما دخلوا في شيء من أمره] (2) والآ ما كان من الشيخ أبي الضياف بن يحيى شيخ شقطة فإنه امتنع من ذلك ، وركب فرسه ، وسار ناحية بمن اتّبعه ، فلحقه إسماعيل في خيله ، فضربت فرس الشيخ أبي الضياف فسقط للأرض راجلا ، فأدركه إسماعيل بنفسه ، فرماه أبو الضياف فكذبّت (3) مكحلته / ، فرماه إسماعيل فأخطأه ، فاخترط سيفه وضربه به حتى برّد ، فاحتزّ رأسه . وناوله بعض من معه ، ورجع بماجر حتى أنزلهم على وسلات . ثم انطلق إلى أولاد عيار ، فدعاهم إلى الدخول معه فأجابوه وارتحلوا ونزلوا على وسلات أيضا .

[ 11 ]

ولما رأى إسماعيل كثرة من معه حين أطاعه ماجر وأولاد عيار ، خرج من بورحال وعسكر بأسفل الجبل ، وأقام هناك والمحلّتان على العلكم .

وفي أوائل شهر ربيع الأول من السنة خرجت قافلة عظيمة للتجار من قسنطينة تريد محروسة تونس بالتجارة ، وبها أموال كثيرة . فلما كانوا حول تستور على مرحلتين من تونس ، أغار عليهم أولاد منّاع ، فأخذوا القافلة بما فيها ، وخفّروا ذمة السلطان فيها ، وارتحلوا من وقتهم . وأرسلوا إلى إسماعيل ، فركب اليهم ، وأتاهم بمكان يسمى بوادي الخطب ، فنزل بهم وتكلّم معهم أن ينزلوا على وسلات ، كما فعلت ماجر وأولاد عيار . فقالوا له : « هذا غير ممكن ، فإن وسلات وسفحه يضيق على أنعامنا ومواشيهم ، ولا طاقة لنا بالحصر . فإن شئت أقمت عندنا وقمنا بدعوتك ، فلكم يُجبّهم إلى ذلك ، ولم

(1) في ز ، م : والفودان وهو جمع وما بالأصل مفرد ، ولهذا التفرع أهمية كبرى في معرفة انساب القبائل ، ومن طريقه ان الفراشيش بطن من ماجر وقل من يعرف ذلك .

(2) الزيادة من ح ، م . والسياق على الاخرة لان غيرها فيه تكرار ونقص وخلل .

(3) اسم تنطلق .



يجيبوه إلى ما أراد ، فعاد إلى وسلات ، وارْتَحَلُوا هُمْ مُجْتَمِعِينَ إلى ناحية الجريد ، وأولاد مناع أحد قبائل دريد الأربع وهم بنو رزق . وأولاد جوين ، وأولاد مناع ، وأولاد عرفه (1) ، ودريد هم عمود السلطنة بإفريقية . وعليهم مدار حِلَّتْها وارْتَحَلْها ، ولهم ديوان وأرزاق عظيمة تخرج إليهم كل سنة . يتوارثها الأبناء عن الآباء . وللملوك بهم اعتناء عظيم ليس لغيرهم من العرب ، بحيث يجالسون الملك ، ويأكلون معه . ولمشايعهم حرمة وافرة ومكانة .

وقد كان مولانا — أيده الله تعالى — لَمَّا بلغه أمرُ مَاجِرٍ وأولاد عيار عزم على الخروج إليهم بنفسه . ورأى أن المبادرة إلى قتالهم وإبعادهم عن ساحلة الجبل واجبة . إذ لو أمهلهم — والبوادي مجبولون (2) على الفساد — فربما تبع بعضهم بعضا . وتكاثروا . وتفاقم الشر . فلَمَّا بلغه أن أولاد مناع أخذوا قافلة قسنطينة ، وأطاعوا إسماعيل ، أمر في وقته بِنَصْبِ المحلة ليخرج بنفسه لمنع هذه القبائل الثلاث ودفع ضررهم . من غير تعرض لقتال أهل وسلات . لأن الذي يقتضيه النظر الصحيح . والرأي المصيب ، أن لا تُدْفَعَ غائلة أهل الجبل الصعب المرتقى . الوعر المسالك . إلَّا بالمطاولَة والمُحاصرة والتضييق وقطع المادّة من غير أن يُقاتلوا في تلك الأوعار . وأن يُبادَر إلى دفاع من تنزل بساحتهم لينصرتهم . وتقوية شوكتهم بالقتل والأسر والأخذ . فخرج — أيده الله تعالى — يوم الخميس لسبع عشرة خلت من شهر ربيع الأول ، وأرسل / إلى مَحَلَّتَيْهِ اللَّتَيْنِ بِالْعَلَم : أن تَرَحَّلَا وتلاقياه بالفحص . واستخلف على تونس صهره ووزيره رجب [خزندار] . لِمَا يعلم من ضبطه وحياطته وصحة نظره . وأمره أن يَغْدُو كل يوم إلى تونس . ويجلس بدار الباشا لفصل الأحكام بين الناس . ويروح إلى باردو . وجعل معه بباردو رجلا ممن يَشِقُّ بهم . وكذلك جعل في قِلاع الجبل الأخضر رجلا من ثقاته ، وشَحَنَهَا بأهل النجدة ، وسار مخفوفًا بالنصر والتأييد إلى

(1) هذا تفريع آخر لقبيلة عربية من أعظم قبائل الزحمة الهلالية . وفيه بيان لاميازاتها لدى الدولة في ذلك التاريخ.

(2) الأولاد وعسرة . مجبورون .

أن بلغ الفحص . فاجتمعت المحلات الثلاث . وكتب — أيده الله تعالى — إلى جميع المَزَارِقِيَّة من العرب أن يَأْتُوهُ . فأتوه أفواجا أفواجا . وارتحل من الفحص بعد أن ترك به محلة أمر عليها أبا الضياف ابن أبي الحسن الدوفاني كاهية الباجية . وأمره أن يقيم بمكانه ولا يبرح منه عينا على إسماعيل . خشية أن يُخالفه إلى تونس . وأوصاه أنه مهما أتاها إسماعيل . أو سمع به قاصدا تونس . يرسل إليه الخيل ركضا ليخبره ، ويرسل إلى خزندار بتونس كذلك . ثم إن كانت له طاقة بقتاله قاتله . وإلَّا تركه .

وأخذ — نصره الله — من الفحص ذات اليمين إلى حمادة أولاد عيار . فلما نزل بهم استسلموا . وأقبل مشايخهم بالطاعة والتوبة . ولم يلبث الجند أن أغاروا عليهم ينهبونهم ، فأرسل إليهم يأمرهم بالكف عنهم . فلم يمكن تدارك ذلك . وأخذوهم أخذة رابية . وتفرقوا شذَر مَذَر . ثم أقبل إليه مشايخ ماجر وكبارهم متقادين . مقبلين بطاعتهم معتذرين مما فرط منهم . وجعلوا على أنفسهم ألف ناقة . وأربعمائة فرس . يعطونها له ويكف عنهم . فقال : « إني قابل منكم وكاف عنكم . مع علمي بأني إذا رجعت عنكم إلى تونس رجعت إلى إسماعيل . ولكن إن عدتم عدنا . وفعلنا بكم مثل ما فعلنا بأولاد عيار » . فحلفوا أيمانا غيلاظا وعاهدوه على أن لا يعودوا إلى مثلها . فبعث معهم من يقبض منهم الإبل والخيل وتركهم . وبلغه توجه أولاد مناع إلى نواحي الجريد فأرسل إليهم شيخهم صميذة بن سليمان بن أحمد — ولم يكن دخل في شيء من أمرهم . ولم يكن معهم حين فعلوا فعَلَّتْهم التي فعلوها — فأدركهم وقد تجاوزوا قَفْصَة ومعه كتاب من مولانا إليهم بالأمان إن رَجَعُوا وَرَدُّوا ما أَخَذُوا لأهل قسنطينة . فلم يزل الشيخ صميذة يُرَغِّبُهم ويُرَهِّبُهم إلى أن أجابوه ، ورجعوا معه . فوجدوا مولانا — أيده الله تعالى — على القيروان . فردّوا ما وُجِدَ عندهم بعينه من الأموال . وبقي ممّا لم يوجد ما قيمته ستون ألف ريال . فأدّاها عنهم مولانا — أعزه الله تعالى — من ماله جبرا للأمر . وتلافيا لما فرط .



وقد كان - أيده الله تعالى - طاف بوسلات من جميع / جهاته فانخذلوا .

ولم ينزل أحد منهم إلا لما كان بالشريرة نزلت طائفة منهم إلى منخفص من الجبل فبادر إليهم بعض من خفف من الجند من غير إذن لهم في ذلك فاقتتلوا معهم برهة ، ومات أحد شواش الصبايحية . فأرسل إليهم مولانا وردهم عن القتال . وفي أثناء طوافه بالجبل وقعت مشاغبة بين الترك وزواوة أدت إلى مصافقتهم للقتال ، فأرسل إليهم أكابرهم ورجالا من خواصه ، ولم يزالوا بالفريقين حتى أطفأوا نائرتهم بعد جهد ومشقة . فأمر الحاج علي أن يرتحل بمحلة زواوة ، فارتحل بها ، ونزل بناحية تستور ، فأقام أياما . ثم أرسل إليه أن يسرح المحلة إلى تونس ويقدم هو عليه . فلما جاءه وجهه مع أبي العباس أحمد الأصرم رئيس الكتبة في محلة خيالة إلى الجريد ، لاستخلاص مجابهة . ونزل مولانا على القيروان كما ذكرنا ، وأقام بها حتى رجعت محلة الجريد بالمال ، ودفعت له ماجر ما عليها من الإبل والخيول ، وأقبلت إليه أولاد مناع بالطاعة . وأعطى عطايا جسيمة ، وفرق أموالا عظيمة في العسكر والعرب وأهل القيروان وغيرهم ، وعم الناس بالاحسان .

ثم ارتحل إلى تونس ، فدخلها مؤيدا منصورا يوم الخميس لأربع بقين من جمادى الثانية ، فكانت مدة مغيبه عنها تسعة وتسعين يوما .

وفي هذه المحلة وردت عليه البشائر بولادة النجل الطاهر ، والقمر الباهر ، الأمير الأسعد الأمجد مولانا أبي محمد حمودة باشا - حرس الله تعالى مجده ، ونصر أحزابه وجنوده . وكانت ولادته - صانه الله تعالى - ليلة السبت الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ثلاث وسبعين [1760/1173] .

وفي يوم الأحد لاثني عشرة من شعبان من هذه السنة خرج حسين كاهية في محلة لأكل زرع أولاد عيار بالحمادة ، فإنهم كان لهم بها زرع خصيب زرعه قبل أخذهم ، وذلك خشية من أن يدرك فينتفع به أهل وسلات ، قطعوا للمادة عنهم . ثم خرج في أثره الحاج علي بن عبد العزيز في محلة أخرى يوم السبت لثمان عشرة خلت من الشهر ، ومعه إسماعيل آغة الصبايحية ،

ومحمد مغربلي . وحسين التمتام آغة صبايحية الترك ، وجماعة من الأعيان ، وإسماعيل آغة المذكور أحد مماليك سليمان باي ابن علي باشا استخدمه مولانا محمد باي ، وظهرت له نجابته ، فولاه آغة الصبايحية وزوجه بابنة أخته . فنزلت المحلتان معا على الحمادة ومعهما من العرب المزارقيه وغيرهم عدد كثير ، وشرعوا في أكل الزرع واستئصاله . وفي مدة إقامتهم تلك غزا إسماعيل كسرى ، وهي أربع قرى على عشرة فراسخ من وسلات ، في ستة آلاف مقاتل من أهل وسلات والعرب ، فأتاهم عصرا ، فتحصنوا منه بقلعتهم / ودخلوها جميعا بجميع مواشيهم ، وقاتلوه ليلتهم ومن الغد إلى الليل ، فلم يظفر منهم بشيء . ومات ممن معه نحو مائة وأربعين مقاتلا ورجع عنهم . فتحولوا عودته إليهم فكتبوا إلى الحاج علي ومن معه يستنجدونهم . فجمع الحاج علي رؤوس العرب واستشارهم ، فأشاروا عليه أن يركب في جميع خيله . وينتهي بهم إلى كاف القرية فيراهم إسماعيل وجنده ، ويروا كثرتهم وقوتهم ، فيقع الرعب في قلوبهم ، فان كان عازما على قصد كسرى مرة أخرى رجع عن ذلك . فلما أصبح الصباح ركب في خيوله وانتهى إلى كاف القرية ، فوقف به ساعة ، وظفر بعض خيله برجلين من وسلات نزلا يقطعان الحشيش بواد ، فقتلوهما . وتقدمت طائفة من الخيل إلى السميدة - قرب ضريح الشيخ الديماني - وبه سمي اليوم يوم الديماني ، وخرج أهل كسرى وأخذوا ناحية وحدهم ، فركب إسماعيل في سرية خيل وتلقاهم . فلما رأوه أطلقوا مكاحلهم دفعة ، ثم انهزموا ، فأتبعهم قتلا ، فقتل منهم نحو ستة وعشرين رجلا . فلما رأت العرب هزيمة أهل كسرى رجعوا منهزمين من غير قتال ، وثبت الحاج علي مكانه ، ولم يبق معه إلا بعض من المخازنية . ولقد أخبرني من شهد الواقعة أنه لم يكن مع إسماعيل إلا نيف وعشرون فارسا . فلما أبصر أهل وسلات وبقية خيل إسماعيل الهزيمة نزلوا كلهم من الجبل وقصدوا الحاج علي . فلما رأى أصحابه كثرة من دهمهم انهزموا أيضا وتبعهم إسماعيل وجنوده يقتلون ويأسرون . وتأخر الحاج علي في أخريات القوم حامية لهم فكبا بإسماعيل آغة فرسه فتسارع إليه



العدو فدافع عنه [الحاج علي] إلى أن خَلَصَهُ وركب وانطلق معه . ثم إن فارساً من العدو يقال له يوسف بن الحاج الحناشي أدرك الحاج علي وأخذ بثيابه يريد أن يقتله من سَرَجِهِ أسيراً فرماه الحاج علي فسقط قتلاً مكانه . ثم أدركه فارس آخر ماجري يقال له أبو دينار فطعنه بالرمح فوق السنان في مَنْطَقَتِهِ ، فتناوله الحاج علي وصَرَفَهُ عن نفسه ، ورمى أبا دينار أيضاً فأذهب نِصْفَ حَسَنَكِهِ بأضراسه فرجع عنه ، ومات بعد ذلك بتلك الضربة بوسلات ، ورجع الحاج علي إلى محلته سالماً بعد جَهْدٍ جهيد . وقتل في ذلك اليوم محمد مغربي آغة صبايحية الترك ، ومبروك القفصي كاهية صبايحية الكاف . وأخذ إسماعيل آغة أسيراً . وذلك أنه سلك طريقاً صعباً فَرَزَحَ فرسه . ووقف لا يستطيع حراكاً ، فنزل عنه وأدركه ثلاثة فرسان من العدو أحدهم يقال له أحمد العياري ، والآخر يقال له ابن جدّه الماجري . وابنه . فأول من أدركه ابن جدّه المذكور فرماه إسماعيل آغة / فأصاب رأسه فخرت قتلاً . فتناول ابنه فرسه ، وتقدم أحمد العياري فرماه إسماعيل آغة فأصاب فرسه فوقعت ، ووقع هو إلى الأرض ، فقام واختلط إسماعيل آغة سيفه وتقاتلا بسيفيهما راجلين فجرحه إسماعيل آغة ثلاث جراحات وقد أثقلت ثيابه وسلاحه . فطرح أحمد العياري سيفه وصارعه [فصرعه] . وكان قوياً فأوثقته كِتَافاً وأتى به إلى إسماعيل . وأسر أيضاً حسين التمام آغة صبايحية الترك . والقايد منصور السائيس ، وعبد الستار المانسي كاتب الحاج علي . وغيرهم . وقُتِل جماعة ، وأخذ نحو الستين فارساً قلايع (1) .

ولما انحجز الناس رجع إسماعيل إلى محلته . ولما جَنَّ الليل دعا بإسماعيل آغة فوبَّخه ، وأمره أن يَدُكُرَ سلاحه وثيابه التي سَلَبَهَا ، وقيدها كاتبه لِيَسْتَنْزِعَهَا مِمَّنْ أخذها ، ثم أمر به فقتل . ومن الغد ذبح إسماعيل التمام بيده ، وسجن منصور السائيس فمات في سجنه ، وبعد هذه الواقعة قتل محمد التركي صاحبه المختص به الذي خرج معه من طرابلس لغير ذنب

(1) العبارة عامة بمعنى مجردة عن السروج.

عرف منه . وهم يقتل سالم بن عثمان المحمودي الذي هداه الطريق لما خرج من طرابلس . وقد تقدم خبره . فهرب منه إلى مولانا — أعزه الله تعالى — فأحسن إليه واستخدمه (1) . وبقيت محلة حسين كاهية ومحلة الحاج علي بمكانهما إلى أن خرجت سنة ثلاث وسبعين فرجعتا إلى تونس ، وكان دخولهما إليها يوم الخميس منتصف المحرم [1761/1174] .

وفي هذه السنة غزا إسماعيل (برقو) وهي قرى على ستة فراسخ من وسلات ، فقاتلهم قتلاً شديدا فلم يقدر منهم على شيء ، ومات ميمّن معه عدد كثير . وفيها أيضاً بلغه أن قافلة خرجت من القيروان إلى سوسة بأموال للتجار ، وأنها خارجة مع قافلة سوسة إلى تونس . فأرسل إليهم رحومة بن سوف الجين النويري . فصادفهم بالجيرية . فأخذهم ورجع إلى وسلات وكانت غنيمة عظيمة .

وقبل ذلك غزا القيروان في جنود كثيرة فخرج إليه حسين بن عمار كاهية القرويين فاقتلوا برهة فانهزم حسين بن عمار ، وتبعه إسماعيل إلى قرب المدينة ، وبلغ إلى مقام أبي زَمْعَةَ البَلَاوِيّ صاحب رسول الله — صَلَّى الله عليه وسلم — ثم رجع إلى وسلات .

وقال الكاتب أبو العباس أحمد سميّة القيرواني (2) يذكر أهل وسلات ، ويتفائل لأخذهم . مؤرخاً بهذه السنة أعني سنة ثلاث وسبعين :

(1) وهو مصدر اخبار هذه الثورة.

(2) شاعر بارع في نظم التاريخ بالحساب الابجدي متصنع فيما سواه انظر النيفر 2 : 52 ، وكان كاتباً بديوان الانشاء وبينه وبين الغراب مهاجرة ، منها ان الغراب كان يجلس بحوانيت عدول في باب الجديد فاتفق عزلهم فقال سميّة :

حوانيت الدهود خلت واضحت عسود معمريتها جيري عين  
فقال المسلمون بما اصيبيوا ؟ فقلت مؤرخاً : « بغراب بين »

(ان سنة 1176) فخذ عليه الغراب وواصل هجاءه حتى تدخل من أصلح بينهما على ان يتنازل سميّة ويطلب الاجازة من الغراب في الشعر فاجازه بهذين البيتين — بديوانه —  
ودس في أحبرهما هجاء خفيا :

بما من سدا طالبا مني الاجازة في فن التفسير وتعليم اصحابها  
فما القريض وبالآداب اجمعها أصبحت في تونس انت الاجل — بها —



تغر الهنّا لك يا عليّ قد ابتسم  
فأطرب ، ودعّ قاليك في همّ وغمّ  
عينُ العناية لا حظتكَ ، وقد شدّا  
إنسانُها : عيني أمامك لم تنم  
والسعد فيما تبغيه مساعدا  
فاطلبُ منك ، يقول : إسعاداً : نعم  
/ ما جئت يوماً للبغاة محارباً  
إلاّ نصرت ، ومنّ يحاربك إنهمز  
تتناثر الأعداء منك مخافة  
يوم الكفاح ، وعقد جيشك منتظم  
إن الذي زرع النفاق بجهله  
لم يلق يوم حصاده إلا الندم  
قابلت بالحلّم العدا فتعجبوا  
من ذكرٍ أحنف (1) . وهو مثلك ما حلّم  
سفهاء قوم نافقوا فتمرققوا  
في كلّ ناحية كتمزيق الحزم  
ظلموا وأفرط كل فرد منهم  
في ظلمه ، والله يهلك من ظلم  
جبل الفساد كأنه بعد القوا (2)  
شيخ على أعضائه استولى الهرم  
فابسط لبسط النفس قول مؤرخ :  
«وَسَلَاتُ أَضْحَى الْآنَ فِي طَيِّ الْعَدَمِ»

وفي يوم السبت لثمان بقين من شهر ربيع الأول من سنة أربع وسبعين ،  
خرج حسين كاهية بمحلة للتضييق على أهل وسلات وحصارهم .

(1) سيد تميم الاحنف بن قيس ابو بحر تابعي عظيم الشهرة معروف بالحلم والفصاحة والدهاء ،  
توفي سنة (691/72) .

(2) بالفتح والقصر : الحلا .

وفي يوم السبت لست من ربيع الثاني خرج الحاج علي بمحلة أخرى  
وبقيتاً إلى أوائل شعبان فرجعتا . واتصل حصار العرب من جلاص ،  
والكعوب ، والقوازين ، ودوفان ، وأولاد عون ، والخمامسة ، وغيرهم ،  
للجبل مُحَدِّقِينَ به من جهاته ، وربما تقع بينهم وبين أهله الغارات على  
السرح من الجانبين ، وربما أغار اسماعيل بنفسه إلى أن خرجت هذه السنة .  
وقال أبو العباس أحمد سمية الكاتب يهني مولانا بدخول هذه السنة ،  
ويصف أعداءه ويذكر حالهم :

أوقات دهرِكَ في سرور صافية ،  
والعام أقبل بالهنّا والعافية  
نتجت مقاصدك التي أملتها  
ومقاصد الأعداء أضحت بآلية  
الآن جاء السعد والنحس انتفى :  
لو تطلب الدنيا ل جاءت حافية  
فالنصر مُمْتَلِ لـ لجيشك طائع  
يعصبي البغاة ذوي النفوس الغالية  
مهما اتجهت لما أردت تلات  
شمس السلامة في سماء سامية  
لك كل يوم يا عليّ مسرة  
ولكل باغ من جيوشك غازية  
قرت بعين الأمن عينك فرحة  
وغدت عيون ذوي الخيانة بأكية  
عمرت منازلك العلية بالهنّا  
ومنازل السفهاء عادت خالية  
لما أتى عام الهنا أرخته :  
«عام تجلّى في سماء العافية»



[14 - ب] وهاهنا نكتة وهي أنه : هل العبرة في حساب التاريخ بالحروف المخطوطة أو المكتوبة ؟ / فإن كانت العبرة بالمكتوبة فينبغي أن تحسب ألف (تجلى) عشرة لأنها تكتب ياء فلا يتم له التاريخ (1) . ولنا في هذه المسألة كلام لعلنا نذكره فيما يأتي - إن شاء الله تعالى .

وقال أيضا يمدح مولانا ويدمّ وسلات ويتفاءل مؤرخاً :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي فِي النَّاسِ بِالْحِلْمِ اشْتَهَرَ  
مِنْ كُلِّ سُوءٍ أَنْتَ فِي مَعَكَ الْإِلَهِ . فَكُلُّ مَا  
حَرَسْتِكَ عَيْنُ الْحِفْظِ فِي وَحَمَتِكَ أَجْنَحَةُ التَّقَى  
وَالْعَفْوُ زَادَكَ هِمَّةً مَا يُفْلِحُ الْبَاغِي وَلَا  
وَسَلَاتُ خَابَ رَجَاؤُهُ . مَا رَامَ يَرْمِي سَهْمَهُ  
مَا جَاءَ يَجْنِي قَصْدَهُ غَابَ النَّهْيُ عَنْ أَهْلِهِ  
بِالْخَوْفِ جُلُّ كَلَامِهِمْ : مَزَجَ الْفُسَادُ صَنِيعَهُمْ  
وَنِفَاقَهُمْ سَاقَ الْبَلَاءِ يَا مَنْ تَفَرَّدَ بِالْحِجَى  
اجْعَلْ عِدَاتَكَ عِبْرَةً وَضَعِ الْمُحِبَّ ذَخِيرَةً

فِي النَّاسِ بِالْحِلْمِ اشْتَهَرَ  
أَمِنْ . وَجَيْشِكَ مُنْتَصِرُ  
تَبْغِي يُبَسِّرُهُ الْقَدَرُ  
حَالُ الْإِقَامَةِ وَالسَّفَرُ  
وَيَدُ الْعَفْوَفِ مِنَ الضَّرَرِ  
وَعَلَى الْمُلُوكِ بِكَ افْتَخَرُ  
يَحْظِي بِخَيْرٍ مَنْ عَقَرُ  
وَحَوَى الْمَذَلَّةَ فَنَاحَتْقِرُ  
إِلَّا وَيَنْقَطِعُ الْوَتَرُ  
إِلَّا وَسَاعِدُهُ انْكَسَرَ  
إِلَّا هَلَكَهُمْ ظَهَرَ  
أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟  
وَنَظَامُ شَمْلِهِمُ انْتَشَرَ  
لَهُمْ لِيُبْلَى مَنْ غَدَرَ  
وَبِفَضْلِهِ شَهِدَ الْبَشَرُ  
بَيْنَ الْوَرَى لِمَنْ اِعْتَبَرَ  
لَكَ ، ذُو الْمَحَبَّةِ يُدْخِرُ

(1) وفي القطعة التي قبلها اعتبر « اضحى » بالالف ليتم له التاريخ . وكان القدامى لا يحفلون بقواعد الرسم في الالف اللينة بالاختصاص . وقد ساق المؤلف تقدمه شكل تساؤل في أسلوب لطيف . ومراده الإنكار لأن القاعدة في الاعتماد على الصورة لا على اللفظ معروفة . ولذلك لم يعد إلى هذه المسألة فيما بعد .

كُنْ مِنْ مُحِبِّكَ آمِنًا وَمِنْ الْعَدُوِّ عَلَى حَذَرٍ  
لَكَ يَا عَلِيٍّ مُؤَرِّخًا (نَصْرٌ تَجَلَّى (1) فِي صَفَرٍ)  
- 1174 -

وقال يتفاءل بالتاريخ :

بُشْرَى أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا بِهِنَاءِ جَانِبِكَ الرَّفِيعِ  
وَلَكَ الْهَنَاءُ إِذْ أَرَّخُوا : (وَسَلَاتُ يَهْلِكُ فِي رَبِيعِ)  
- 1174 -

/ وقال أيضا وفيه تورية حسنة :

أَمِيرَ الْوَرَى إِنْ شَاءَ رَبُّكَ مَا تَشَاءُ  
يَجِيئُكَ سَهْلًا . عَنْ قَرِيبٍ بِلَا تَعَبٍ  
فَنَعْتُكَ نَادَى يَا عَلِيٍّ مُؤَرِّخًا :  
(يُلَاقِيكَ نَصْرٌ فِي مُحَرَّمٍ مَعَ رَجَبٍ)  
- 1174 -

وقال الأديب البارع علي الغراب يمدحه ويدمّ أهل وسلات ويصف  
حالهم ويشكو إليه عامل صفاقس وقد كان أمر له ببصيلة فمأطله بها :  
زَارِعُ الْبَغْيِ حَاصِدُ اللَّيْنَدَامَةِ  
فَطَلَبِ السَّلَامِ إِنْ أَرَدْتَ السَّلَامَ  
لَا تَشِقْ بِالْمُنَى فَمَا كُلُّ بَاغٍ  
نَالَ مَا يَرْتَجِي وَوَفَى مَرَامَهُ  
رُبَّمَا كَانَتْ الْأَمَانِي مَطَايَا  
لِلْمَنَآيَا ، وَمَوْرِدًا لِلنَّدَامَةِ  
رُبَّمَا خَيَّلَتْ لِرَاجٍ مَنَالًا  
مِثْلَمَا خَيَّلَتْ لِرَاءٍ مَنَامَهُ  
رُبَّ سَاعٍ لِيَجْتَنِي طَيْبَ عَيْشٍ  
وَهُوَ يَجْتَنِي - وَلَيْسَ يَدْرِي - حِمَامَهُ

(1) في هذا التاريخ ما في سوابقه من حساب الف تجلي بواحد خلاف القاعدة .



مَنْ سَمَا طَالِبًا لِمَا لَيْسَ يُرْجَى  
 طَلَبَ الْعَيْشَ مِنْ لَهَاةِ أَسَامَةِ  
 دَعَّ هَوَى مَا إِلَيْهِ نَفْسُكَ تَدْعُو  
 فَالْهَوَى لِلْهَوَانِ يُعْطِي زِمَامَهُ  
 وَأَصْحَبِ الرَّأْيِ مَا اسْتَطَعْتَ بِعِزِّهِ  
 مِنْكَ يَفْرِي مَضَاؤُهُ الصَّمْصَامَهُ  
 وَإِذَا الرَّأْيُ مَا اهْتَدَى لَكَ فَاجْعَلْ  
 فِي بَدَنِ الصَّبْرِ لَا سِوَاهُ خِطَامَهُ  
 وَارْكَبِ الْحَزْمَ فِي الْأُمُورِ إِذَا مَا  
 بَانَ وَجْهُ الصَّوَابِ . وَاشْدُدْ حِزَامَهُ  
 وَاعْتَنِمْ فُرْصَةً بَدَتْ مِنْ عَدُوٍّ  
 إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الشُّرُورِ اغْتِنَامَهُ  
 وَابْلُغْ مَنْ تَصْطَفِي لِنَفْسِكَ سِرًّا  
 كَيْ تَرَى مِنْهُ صَحْوَهُ وَغَمَامَهُ  
 وَدَعِ الرَّأْيَ وَالنَّصِيحَةَ مِمَّنْ  
 بِسِوَى الْجَمْعِ لَا يَسُومُ اهْتِمَامَهُ  
 إِنَّمَا رَأْيُهُ يَعُودُ لِنَفْعِ  
 عَنْهُ لَمْ يَرْعَ فِي سِوَاهُ انْتِظَامَهُ  
 وَإِذَا مَا وَشَى بِذِي الْفَضْلِ وَاشْ  
 فَاعْتَقِدْ عَكْسَهُ . وَوَالِ انْصِرَامَهُ  
 وَإِذَا مَا اعْتَقَدْتَ فِي الْعَهْدِ شَخْصًا  
 كُنْ عَلَى بَقْظَةٍ وَرَاعِ ذِمَامَهُ  
 لَا تُدْعِ مَا كَتَمْتَهُ عَنْ عَدُوٍّ  
 لِصَدِيقٍ فَلَا يَطِيقُ اكْتِنَامَهُ

وَإِذَا مَا صَحِبْتَ رَبَّ اتِّهَامِ  
 لَا تَلْمُ مَنْ يُسِيءُ فِيكَ اتِّهَامَهُ  
 لَا تُطِلْ فِي تَرَدُّدٍ لِحَبِيبٍ  
 لَكَ ، فَالطُّولُ مُؤَذِّنٌ بِالسَّامَةِ  
 وَإِذَا مَسَّكَ الزَّمَانُ بِعُسْرِ  
 وَأَبَادَ اللَّثَامُ مِنْهُ كَرَامَهُ  
 / فَأَجِدْ فِي عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ  
 أَحْسَنَ الْمَدْحِ ، تُلْفِ أَوْفَى كَرَامَهُ  
 مَلِكٌ لَوْ دَرَتْ عُلَاهُ الدَّرَارِي  
 قَبَلَتْ كُلَّمَا بَدَتْ أَقْدَامَهُ  
 مَلِكٌ لَوْ دَرَى الْغَمَامُ نَدَاهُ  
 مَا بَدَتْ مِنْهُ لِلْحَيَاءِ غَمَامَهُ  
 كَلَّ مِنْ فَرَطٍ رَفَدِهِ كُلُّ عَافٍ  
 وَهُوَ مَا كَلَّ وَاشْتَكَى إِيْلَامَهُ  
 جَاءَ وَالْدَّهْرُ نَظْمُهُ فِي اخْتِلَالِ  
 فَأَعَادَ الْخِلَالَ مِنْهُ نِظَامَهُ  
 قُلْ لِقَوْمٍ بِجَهْلِهِمْ خَالَفُوهُ :  
 فِيمَ سُوءُ الْخِلَافِ ذَا ؟ وَعِلَامَهُ ؟  
 حَكَّمَ اللَّهُ أَنْ مَلِكَ عَلِيٍّ  
 وَبَنِيهِ إِلَى الْمَعَادِ أَدَامَهُ  
 بِطَرِيقِ الْقَضَاءِ وَالْكَشْفِ عَمَّنْ  
 بِالصَّلَاحِ ارْتَدَوْا ، وَأَهْلِ الْكَرَامَةِ  
 لَا تَزَالُ السُّعُودُ تَقْضِي بِمَا قَدْ  
 يَتَمَنَّاهُ ، وَالزَّمَانُ غُلَامَهُ



فَاقْطَعُوا بِالْإِيَّاسِ حَبْلَ الْأَمَانِي  
إِنْ فِي السُّحْبِ مَا يُسَمَّى جَهَامَهُ  
وَصَلُّوا مِنْهُ بِالْإِطَاعَةِ حَبْلًا  
قَبْلَ أَنْ يُنْفِذَ الْقَضَاءُ سِهَامَهُ  
أَتَرَوْا صَادَتِ الثَّعَالِبُ لَيْثًا ؟  
أَوْ تَرَوْا صَادَتِ الصُّقُورُ حِمَامَهُ ؟  
أَهْلُ وَسَلَاتِ الْجُفَاءِ قُلُوبًا  
مَنْ وَفَى عَهْدَهُمْ يَخُونُوا ذِمَامَهُ  
خَالَفُوا الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ اسْتَحَلُّوا  
مِنْهُمْ الْمَالَ وَالْدِّمَاءَ وَالْغَرَامَهُ  
كُلُّ لَعْنٍ وَكُلُّ خِزْيٍ عَلَيْهِمْ  
فِي الدُّنْيَا . وَالْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
فَقَدْ اسْتَمْسَكُوا بِوَاهِنِ حَبْلٍ  
عَنْ قَرِيبٍ يَرَوْنَ مِنْهُ انْفِصَامَهُ  
وَتَعُودُ الْفِعَالُ مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ  
حَسَرَاتٍ - يَرَوْنَهَا - وَتَدَامَهُ  
أَرْضَيْتُمْ شَقَّ الْعَصَا عَنْ مَلِكٍ  
جُمِعَ الْعَدْلُ فِيهِ وَالْإِسْتِقَامَةُ ؟  
فَضْلُهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْبَرَائِيَا  
حِلْمُهُ عَمَّ مَنْ جَفَاهُ وَضَامَهُ  
قَلْبُهُ بِالْوَرَى رَءُوفٌ رَحِيمٌ  
وَيَرَى بِالْإِلَهِ مِنْهُ اعْتِصَامَهُ  
أَيْهَا الْمُؤَقِدُونَ لِلْحَرْبِ نَارًا  
سَتَكُونُونَ لِلْمُؤَقِدِ حُطَامَهُ

لَيْسَ مِثْلُ الْأَمِيرِ تَجَلُّ حُسَيْنٍ  
مَلِكٌ فِي شَجَاعَةٍ وَشَهَامَةٍ  
فَكَأَنِّي بِطُودِكُمْ صَارَ دَكَا  
وَأَجَالَتْ يَدَاهُ فِيهِ حُسَامَهُ  
وَكَأَنِّي أَرَاهُ وَالنَّصْرُ مِنْهُ  
ضَارِبًا فِي ذُرَاهُ يَوْمًا خِيَامَهُ  
مَا أَرَى قَطُّ فِي الْبَرِيَّةِ أَشَقَى  
مِنْكُمْ يَا ذَوِي الرَّدَى وَاللَّامَةِ  
/ مَنْ كَمِثْلُ الْأَمِيرِ فِي الْعَفْوِ عَنْكُمْ  
أَوْ بِإِدْرَارِهِ لَكُمْ إِنْْعَامَهُ ؟  
أَوْ مِنْ غَيْرِهِ تَرُومُونَ عِزًّا  
مِثْلَ ذَا أَوْ قَرِيْبِهِ فِي الْفَخَامَةِ ؟  
سَاءَ وَاللَّهِ وَهْمُكُمْ أَيُّ سُوءٍ .  
وَاتَّخَذْتُمْ مَوَاطِيءَ الرَّجُلِ هَامَهُ  
فَلَيْتَ تَدَّعِي الرِّعِيَّةُ ظُلْمًا  
لَسْتُمْ تَدَّعُونَ يَوْمًا ظِلَامَهُ  
وَلَيْتَ تَطْلُبُوا عَلَاءَ فَوْقَ هَذَا  
فَاطْلُبُوا الْمُلْكَ فِيكُمْ وَالْإِمَامَةَ  
كَمْ بِتِرْشِيْشٍ (١) مِنْ مَقَامٍ كَرِيمٍ  
فَاتَ عَنْكُمْ . وَنِعْمَةٌ وَكَرَامَةٌ  
وَلَكُمْ فَاتَكُمْ مِنَ الرَّبِّ مِمَّا  
تَتَعَاطُونَ حِلَّةَ وَحَرَامَهُ



سَيُطِيلُ الْإِلَهُ مِنْكُمْ بُكَاءَ  
 وَيُطِيلُ الْإِلَهُ مِنْهُ ابْتِسَامَهُ  
 دُمُ عَلِيٍّ بِحِصْنِ أَمْنٍ عَلَيَّ  
 لَسْتُ تَخْشَى مِنَ الزَّمَانِ انْهَدَامَهُ  
 يَا مَلِيكََا مَتَى بِهِ لَآذَ شَاكَ  
 مِنْ سَقَامِ الزَّمَانِ يَشْفِي سَقَامَهُ  
 أَنَا أَشْكُوكَ مِنْ زَمَانٍ غَدَا فِي (١)  
 مُضْمَرِ الْقَلْبِ خَازِنًا آلَامَهُ  
 غُرْبَتِي فِي الْبِلَادِ مَدَّتْ نَوَاهَا  
 لَاضْطِرَارٍ ، وَالْقَصْدُ قَصْرُ الْإِقَامَةِ  
 وَظَنَنْتُ الْمَقَامَ لِي فِيهِ يُسْرُ  
 فَتَجَلَّى بِالْعُسْرِ أَقْوَى عِلَامَهُ  
 فِيهِ وَطَنْتُ لِلشَّدَائِدِ نَفْسِي  
 فَأَرَى مِنْ لَدَائِدِي إِيْلَامَهُ  
 بَعْتُ مَا لَمْ يُبْعَ لِقُوتِي اضْطِرَارًا  
 مِنْ جَمِيعِ الْكُسَا وَكُورِ الْعِمَامَةِ  
 وَالَّذِي قَدْ أَمَرْتُ لِلْعَبْدِ فِيهِ  
 مَنَعْتُ عَنِّي الْوَلَاةُ اغْتِنَامَهُ  
 أَفْظَنُوا بِأَنَّ أَمْرَكَ نَهْيٌ  
 أَمْ إِلَى النَّدْبِ أَوْلُوا أَحْكَامَهُ ؟  
 أَمْ خِطَابٌ لَهُمْ أَتَى فِيهِ نَسْخُ  
 رَفَعَ الْحُكْمَ لِي ، وَأَبْقَى ارْتِسَامَهُ ؟

(١) كاد يقلب المعنى في صدر البيت لأن متعدي أشكو يتصرف للمشكو منه وكاف الخطاب للمدح فبصير هو المنظلم منه ولو قال : أنا أشكو إليك دهرًا غدا في ... لسلم من هذا الخطأ.

فَكَأَنَّ الَّذِي بِهِ لِي أَمْرَتُمْ  
 قِطْعَةً مِنْ قُلُوبِهِمْ ، أَوْ غَرَامَهُ  
 أَوْ رَأَوْا قَدْرَ ذَاكَ يَعْظُمُ عَنْكُمْ ،  
 أَوْ رَأَوْنِي صَغُرْتُ عَنْ ذِي الْمَقَامَةِ  
 أَمْ عَصَوْا أَمْرًا وَاجِبًا لَامْتِثَالٍ  
 أَمِنُوا مِنْهُ بِطُشَّةٍ وَانْتِقَامَةٍ  
 إِنْ يَكُنْ لِي اسْمُهُ وَهُمْ أَكَلُوهُ  
 أَنْتَ أُولَى بِأَنْ تَوَلَّى احْتِكَامَهُ  
 فَاحْمِنِي يَا مَلِيكََا وَارْفَعْ مَقَامِي  
 مِنْ أَعَادٍ وَحُسَدٍ نَمَامَهُ  
 أَنْتَ أَعْلَى مِنْ أَنْ يَغُرَّكَ وَاشْ  
 فَتَتَّظُنَّ السَّرَّابَ مَاءَ غَمَامَةٍ  
 جُدْ عَلَى الْعَبْدِ يَا أَمِيرُ عَلَى قَدْرِ  
 رِكَ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلَا وَالْفَخَامَةِ  
 / جُدْ بِمَا لِلْفَنَاءِ يَصِيرُ ، لِمَنْ جَا  
 دَ بِمَا الدَّهْرُ لَيْسَ يُفْنِي دَوَامَهُ  
 وَعَجِيبٌ فِي مِثْلِ مُلْكِكَ مِثْلِي  
 أَنْ يَرَى حِلْفَ فَاقَةٍ وَذَمَامَهُ  
 أَنَا مِنْ ذُمِّ دَهْرِهِ فِيهِ ، لَا مَنَ  
 بِهِمُ الدَّهْرُ يَسْتَحِقُّ الذَّمَامَهُ  
 لَيْسَ فِي النَّظْمِ وَالْبَلَاغَةِ مِثْلِي  
 فِي مَدَى الدَّهْرِ ، خَلْفَهُ وَأَمَامَهُ  
 لَوْ عَلَى قَدْرِنَا الْمُلُوكُ تُجَازِي (١)  
 لَمْ يَفْزُ مَادِحٌ مَعِيَ بِقِلَامِهِ

(١) في الأصل سَتَاوِي ، وفي ز ، ح : تَسَاوِي بتقديم التاء وكلاهما خطأ.



كَمْ حَوَى فَضْلَكُمْ سِوَى مُسْتَحَقٍّ  
وَيَرَى الْمُسْتَحَقُّ مِنْهُ الْغَرَامَةَ  
فَضْلَكُمْ عَمَّ كَافِرًا وَعَدُوًّا  
وَأَخُو مَدْحِكُمْ يُنَاجِي اغْتِمَامَهُ  
لَمْ يَسْؤُنِي الْخُمُولُ لَوْ لَمْ يُوَجِّهْ  
كُلُّ دَهْرٍ عَلَيَّ فِيكَ مَلَامَةً  
سَوْ فِي النَّفْعِ بَيْنَ خَادِمٍ مَدْحٍ  
فِي عَلَاكُمْ . وَمَنْ تَرَى اسْتِخْدَامَهُ  
أَوْ طَرِيقًا بِهِ تُشَرَّفُ قَدْرِي  
فَيَجْلِي مِنْ افْتِقَارِي ظِلَامَهُ  
لَمْ أَرِدْ بِالْيَسَارِ إِلَّا لِأُضْفِي  
فِيكَ مِنْ أَطْيَبِ الْمَدِيحِ تَمَامَهُ  
دُمْتَ فِي الْعِزِّ وَالْكَمَالِ مُهَنَّا  
مَالِكِ الْمُلْكِ بَدَأَهُ وَخَتَامَهُ (1)

## ذكر الاسباب المفضية الى خلاء جبل وولات

وفرار اسماعيل منه الى الغرب  
وما كان في ذلك من الصنع الجميل

كان لأهل وولات في هذه السنة زرع خصيب يستفتح الجبل ، فأرسل مولانا  
— أيده الله تعالى — المحلات [لأكله] قطعاً للمادة [عنهم] ، وتضييقاً  
عليهم ، فأول من خرج بمحلته حسين كاهية أبو طاغان ، وكان خروجه لثمان

(1) هذه القصيدة من غرر شعر الغراب خصوصاً في حكمها التي احلها محل الغزل المتعارف ، وفي  
عنايتها الاخير تعبیر عن غضبه وآماله ومطامحه التي تدور حول خطة الكتابة ، كما افصح  
عنها في كثير من شعره بديوانه.

بقين من شعبان (1175/1762) . ثم خرج بعده الوزير الأجل رجب خزندار ،  
وأبو عبد الله محمد بن عمار باش حانبه ، كل واحد منهما بمحلة . وكان  
خروجهما لليتين خلتما من شهر رمضان ، ونزلت كل محلة بناحية من نواحي  
الجبل وطفقوا يأكلون الزرع ، فاستهلكوا منه ما كان بالسفح ولم يسلم  
منه إلا ما كان بالأوعار ، وهو أقله . ولما فرغوا منه رجعت المحلات  
الثلاث في أول شوال .

وفي ذلك يقول الكاتب أبو العباس أحمد سميّة مؤرخا :

أيها الحاكم الذي جاء في العدل ما يجب  
بشرّ الدهر كل من لك بين الوري محب  
قد تفاءلت أرخوا (زرع وولات قد نهب)  
- 1175 -

ثم لما رجعت المحلات عنهم نزل جيش منهم وأغاروا على حلة لرياح  
وكانت الكعوب / والقوازين نزولاً بالقرب منها ، فأتاهم الصريخ فركبوا  
وأدركوهم ، وأحاطوا بهم ، وأخذوهم أسارى ولم ينج منهم إلا ما شذّ ،  
وأرسلوهم إلى مولانا — أيده الله تعالى — فاستخدمهم في قناة الماء الذي جلبه من  
عين الجبل الأحمر إلى تونس — وسيأتي ذكرها — إن شاء الله تعالى — ثم نزل  
جيش آخر منهم ، وأوعب فيه صناديدهم وذوؤ النجدة والشجاعة منهم .  
وأغاروا على دوفان فقاتلوهم . فنصرهم الله تعالى عليهم ، وقتلوا منهم طائفة  
عظيمة . وأسروا الباقين وأرسلوا بهم إلى الحضرة أيضا فاستخدموا في  
قناة الماء . وكان جملة من أسر منهم نحو الأربعمئة نفس ، ففقت ذلك من  
أعضادهم . وكسر من شوكتهم ، وهضم من جانبهم .

وانضم إلى ذلك أنه ورد على الحضرة في شهر رمضان من هذه السنة 1175  
قبجي باشا رسولا من الحضرة الخاقانية مبشراً بولادة ابن لمولانا السلطان  
مصطفى خان . ابن السلطان أحمد خان — رحمه الله تعالى . وأمر بزيئة البلاد ،  
وإطلاق المدافع بشائر ، وذلك لأنه مضت مدة طويلة ولم يولد لآل عثمان ولد  
ذكر حتى وقع الإرجاف بأن نسلهم قد انقطع . فإن السلطان محمود ابن



السلطان مصطفى تولي السلطنة حين خلع عمه السلطان أحمد سنة ثلاث وأربعين ومات سنة ثمان وستين ولم يعتب . ولم يولد له أصلاً . فتولى بعده أخوه السلطان عثمان ومات في سنة اثنتين وسبعين ولم يولد له أيضاً . فتولى بعده ابن عمه السلطان مصطفى هذا — رحمه الله تعالى — فلم يولد له إلى هذه السنة . فلماً وُلِدَ له هذا الولد حصل له ولجميع أهل مملكته سرور عظيم ببقاء هذا النسل المبارك . وأرسل إلى أقطار ممالكه بالبشائر والأمر بالزينة في البلدان ، وعمل المقرحات ، فمكث قبجي باشا بالحضرة بقية شهر رمضان .

### وصف مهر جان

ولما دخل شوال أمهل مولانا ريثما انقضت زينة العيد ، ثم أمر بزينة البلد . وإطلاق المدافع أياما متوالية . وكتب بذلك إلى جميع القلاع والحصون بعمله . فزُيِّنَتِ الأسواق المُعْتَبَرَةُ أفخر زينة . كسوق البشامقيين ، وسوق الترك ، وسوق السلسلة . وسوق العطارين . وسوق الشواشين . وهذه الأسواق كلها متجاورة . فاتصلت الزينة بها مسافة طويلة من غير فصل ، وزُيِّنَ غير هذه من الأسواق بنواحي البلاد ، واحتفل الناس في ذلك احتفالا عظيما ووقع بين أهل الأسواق التنافس والتفاخر ، فبالغوا في الاحتفال : وأتوا بضروب الأمتعة الرفيعة من الستائر المذهبة ، وصنوف الديباج . وكسوا بذلك الدكاكين والحيطان ، وعلّقوا المرايا المزوّقة ، وقناديل الذهب والفضة ، والمنجانات (١) الضاربة بأنواع النغم . ولم يتركوا شيئا من الآلات الفاخرة ، وكسّى البيوت المنسوجة / بالذهب والفضة ، وأنواع اللعب والفرج والأمور الغريبة إلا أتوا به . واحتفلوا أيضا في نفائس الأطعمة والأشربة والاستكثار منها في كل ليلة ، وتعظيم من يأتي إليهم من النظارة برسم الفرجة وخدمته أحسن خدمة . ورتّبوا في كل ليلة من أنواع الملاهي وآلات الطرب على اختلاف أنواعها ما يجعل عن الوصف ، واستجلبوا

[١٦ - ب]

(١) بالأصل الانجابات والأقرب ما ذكرنا لأن المنجانات جمع منجاة ، وهو اصطلاح مغربي للمنقالة أي الساعة الدقاقة المعلقة.

حذاق المغنّين والضربيين ، وبذلوا لهم كل نفيس . ويستدعون أعيان الناس في كل ليلة وينصبون لهم الكراسي المبطّنة بصنوف الحرير المزوّقة بالذهب ، ويستدعون قبجي باشا ليشاهد صنيعهم واحتفالهم فكان ما يراه من ذلك يسره ويعجبه غاية الإعجاب ، وجعلوا لعباً تستفز الخواطر ، وتحبس الأبصار من التصاوير الغريبة كوقوع الحرب بين صورة الأسد وصورة النمر وغير ذلك . ورتّبوا جميع ذلك على أحسن ترتيب وأبدع نظام ، وصرفوا فيه أموالا جلية ، واستمر ذلك نصف شهر وهزعت الناس من المدن والقرى بقصد الفرجة ، فكانت هذه الزينة المباركة أحد الأسباب التي وهنت أمر وسلات ، وهونت أمرهم ، فان جميع من كان في قلبه شيء من أمرهم لم يرأى احتفال مولانا — أدام الله بهجته ومسرته — بما احتفل به علموا أنه متهاون بهم ، غير مكترث بشأنهم ، ولا مهتم بخلافهم ، فأسقط ذلك هيبتهم من الصدور ، وبسطت الأعراب أيديهم بالغارات على أطراف الجبل ، وتكالبوا عليه ، واستمر ذلك إلى آخر ذي الحجة من السنة ١١٧٥ .

وكان أبو الضياف ابن أبي الحسن كاهية الباجية نازلا بمحلتته على سليانه ، فبلغه أن أهل وسلات يتزلون بمواشيهم إلى بئر بسفح الجبل يسمى بئر الأضراس يسقون منه ، فركب في خيله ومعه العرب حتى بلغ البئر فكمن بمكان قريب منه يترصد لحوق بقية خيله . فانفلت فرسان من عنده فأغاروا على البئر ولم يشعر بهم فوجدوا عليه غنما فساقوها . وهرب من كان على البئر من أهل وسلات ، وتحصنوا بمكان ودخنوا إلى إخوانهم (١) . فنزلت إليهم طائفة فأدركوا أولئك الفرسان وقتلوا منهم فارسا وأخذوا فرسه وافتكوا غنمهم . فلما رأت خيل أبي الضياف الكامنون معه الدخان فزعوا وظنوا أن إسماعيل غزاها فهربوا ، ولم يبق مع أبي الضياف إلا اثنا عشر فارسا فقصد ناحية الدخان ، واستحس من الفرار ، فتلقيه فارس يركض من الخيل المنهزمة فأخبره بما وقع لهم ، فسار أبو الضياف قدماً ، فقتل له : « ما تصنع ؟ تغرر

(١) علامة الخطر التدخين.



بنفسك . ونحن قليلون لا غناء عندنا ؟ » فقال : « لا أقل من [ أن ] أرى العدو بعيني وأرجع » . فلما قرب من الخيل إذا بالأصوات مرتفعة بالغناء من ورائه . وإذا هم أهل وسلات الذين نزلوا راجعين بغنمهم التي انتزعوها . فنظر فإذا هو حائل بينهم وبين الجبل . فقصدهم فلما رأوه ظنوه إسماعيل نزل إليهم فتلقوه فرحين . فلما قربوا منه شن عليهم الغارة بتلك الخيل القليلة فسقط في أيديهم . وألقى الله في قلوبهم الرعب . وهزمهم هزيمة شتعاء فقتل منهم ثلاثين رجلا . وأسر أكثر من مائة . وساق الغنم والأسارى بعد أن نزع أسلحتهم ورجع بهم . وكان ذلك عند غروب الشمس فلم يزل سائرا بهم ليلته إلى الصباح ، وتراجع إليه كثير من خيله فأعانوا على سوق الأسارى إلى أن بلغ إلى محلته . فأرسل بهم إلى الحضرة .

ثم بعد أيام عاد إلى غزوهم ومعه محمد بن سلطان شيخ الحناشنة — كان قد أتى في قومه منجدا وخادما لمولانا بقتال أهل وسلات — فصعدوا الجبل إلى أن بلغوا الجبل إحدى القرى به فكمنوا . وأرسلوا فرسانا قليلين فأغاروا عليهم . فتسامعوا وركب إسماعيل فانهزم أولئك الفرسان أمامه إلى أن بلغوا حيث الكمين فثاروا عليهم . فكانت الكثرة على أهل وسلات . وانهزم إسماعيل وقتل من جنده جماعة . وأسر منهم تسعة عشر رجلا . ورجع أبو الضياف بالأسارى ، وأرسل بهم إلى الحضرة .

## لما رأى مولانا الخبر انتهاء ثورة وسلات

ولما بلغ إسماعيل أن مولانا — زاده الله توفيقا — استبقى الأسرى ولم يقتل منهم أحدا استراب لذلك ، ورأى لأهل وسلات تغيثا وانكسارا ، ووجدوا عظيما على أسأراهم ، ولا يزال الرجل منهم يأتيه ويجلس إليه وولده وأخوه وأبوه وابن عمه أسير . فخشى أن تحمليهم الشفقة على أقاربهم على الطاعة والإنابة لمولانا أعزه الله تعالى ، وود أن لو كان قتلهم . فحميت بذلك نفوسهم . وقوى غضبهم وحردهم .

وانضم إلى هذه الوقائع أن مولانا — سدد الله آراءه — رأى رأيا كان فيه كل صلاح وسداد : وهو أنه كتب أوامره السعيدة إلى جميع العرب بأقطار المملكة حيثما كانوا بالتتهيث والاستعداد ، وأن يكونوا على أهبة الحرب إلى أن يرسل إليهم من يستنفرهم إلى حيث يأمرهم ، فلما بلغ ذلك إسماعيل استراب له . وخشي أن يكون عن مواطاة من أهل وسلات لِمَا أجهضهم من قتل رجالهم وأسرهم . وارتابهم وأنكرهم وأنكروه ، فعزم على الفرار .

فلما كان يوم الخميس منسلخ ذي الحجة ركب وأظهر أنه يريد أن يطلق للعرب الذين معه من أولاد سعيد وغيرهم رواتبهم ، وأخفى أمره إلى أن نزل من الجبل من غربيه ، وركب الطريق إلى قسنطينة / حيث أبوه [18] مستقر . فشاع الخبر بذلك في الجبل فركب القائد أحمد السهلي في أولاده وأهل بيته ومن تعلق به واتبه هاربا فارا بنفسه . ولما رأى ذلك أهل وسلات تحيروا وألقى الله الرعب في قلوبهم . وسلبهم الرأي وأعماهم عن طريق التدبير . وبقوا فوضى غير مجتمعين على كلمة . فلما جن عليهم الليل أقبلوا نازلين من الجبل بحرهم وذرايرهم أفواجا متفرقين من كل ناحية . ولا علم لأحد ممن حولهم من الأعراب بأمرهم . فلم يشعروا بهم إلا وهم نازلون على ما وصفنا ، فاستقبلوهم ينهبون ويأخذون ، وصعدوا الجبل ونهسوا جميع قراه ، واستولوا على ما فيها ، وامتألت أيديهم من الغنائم والأموال . وبلغ الخبر أبا الضياف كاهية فأقبل حتى صعد الجبل يوم الجمعة غرة المحرم سنة ست وسبعين (1763/1176) فوجده خلاء بلقعا والعرب تنهب وتأخذ ما قدرت عليه . وطار الخبر بذلك إلى مولانا — أدام الله نصره وتأييده . فوصل إليه البشير يوم الجمعة المذكور فأرسل الوزير الاجل الحاج علي بن عبد العزيز لتسكين الأعراب ، وتسديد الأمور . والنظر في شأن أهل وسلات . فوصل في أسرع مدة وقرر الأمور ومهداها .



## جلاء اهل وسلات

وأمر مولانا - أعزه الله تعالى - بأهل وسلات أن يتفرقوا في البلاد ، ويسكنوا حيث شاءوا منها ، ولا يعودوا إلى جبلهم البتة ، وأمنّهم وعفا عنهم أجمعين ، وأطلق أساراهم ، ولم يُرق دم رجل واحد منهم . وعفا أيضا عن العرب الذين ظاهروهم على الفتنة أجمعين ، وأمر أن يعود كل فريق منهم إلى أهله وأمن الناس وسكن البلاد ، ورتب الأمور ، واستقرت الأحوال على أحسن نظام . وبقي جبل وسلات خلاء خاويا على عروشِهِ إلى وقتنا هذا .

وأما إسماعيل فإنه بلغ إلى قسنطينة واجتمع بأبيه وأقام مدة ، ثم انتقل إلى الجزائر فهو فيها إلى الآن ، وحسم الله تعالى مادة هذه الفتنة ، ووقى شرّها ، وكفّى أمرها .

ومن الاتفاقات الغريبة أن فتح الله تعالى لمولانا ثلاثة فتوح عظام كل واحد منها في يوم الخميس من ذي الحجة . وذلك أن فتح تونس والظفر بعليّ باشا وقتل ولده محمد باي كان في يوم الخميس ليست خلّون من ذي الحجة سنة تسع وستين كما سيأتي - إن شاء الله تعالى ، وفتح جمال وفرار إسماعيل منها واستباحة الجند لها كان في يوم الخميس غرة ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين كما تقدم . وفتح وسلات وفرار إسماعيل منه ونزول أهله كان في يوم الخميس منسلك ذي الحجة من سنة خمس وسبعين .

## ذكر ما قيل من الشعر في فتح وسلات

تهنئة لمولانا أدام الله تعالى هناءه

قال الفقيه الأجل (عبد اللطيف الطويّر القيرواني) (1) :

19 - أ / فَتَحُ وَنَصْرُ وَإِسْعَادُ وَإِقْبَالُ  
لِإِمْنٍ لَهُ خَضَعَتْ صَيْدُ وَأَقْبَالُ

(1) قاضيهما وكبير مفتاهيهما شاعر مطيل مجيد ذو تصرف في المعاني وعاطفة نبيلة في شعره ، انظر ابن أبي الضياف (7) 17 ، محمد النيفر 2 : 41 .

وَمِنْ لَهُ هِمَّةٌ شَمَاءُ قَدْ سَحِبَتْ  
لَهَا عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَارِ أَذْيَالُ  
وَمَنْ سَرِيرَتُهُ طَابَتْ وَسِيرَتُهُ  
غَرَاءُ سَارَتْ بِهَا فِي الْمُلْكِ أَمْثَالُ  
عَلِيٌّ ابْنُ حُسَيْنٍ مِنْ لَهُ فَخْرُ  
عَلَى الْمُلُوكِ وَإِعْظَامُ وَإِجْلَالُ  
سَهْلُ السَّجَايَا نَظِيفُ الْعَرُضِ صَيِّتُهُ  
عَذْبُ الْمَوَارِدِ فَيَاضُ وَمِنْهَالُ  
جَمُّ الْفَضَائِلِ مَأْمُونُ الْغَوَائِلِ مَحُ  
مُودُ الْفَعَائِلِ مِعْطَاءُ وَمِفْضَالُ  
صُبْحُ السِّيَادَةِ وَضَاحُ (1) بَغْرَتُهُ  
إِذَا ضَفَا لِدَيَّاجِي الْخَطْبِ سِرْبَالُ  
نُورُ الْبَشَاشَةِ لَمَاعُ بِجَبْهَتِهِ  
كَأَنَّهُ مِنْ تَوَالِي الْبِشْرِ سَيَّالُ  
لَا تَحْسَبِ الْبَدْرَ يَحْكِي نُورَ بَهْجَتِهِ  
الْبَدْرُ يُدْرِكُهُ نَقْصُ وَإِكْمَالُ  
لَا تَحْسَبِ الْغَيْثَ يَحْكِي فَيْضَ نَائِلِهِ  
الْغَيْثُ يَغْشَاهُ إِقْلَاعُ وَإِمْحَالُ  
يُولِي النَّدَى وَيُوَالِيهِ بِلَا مَهَلٍ ،  
وَيَعْتَرِي السُّحْبَ إِبْطَاءُ وَإِمْهَالُ  
حَاذِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِ لَوَالِدِهِ ،  
وَاللَّيْثُ يَحْذُوهُ فِي الْأَخْلَاقِ أَشْبَالُ

(1) في ز : وضاء .



مَلِكُ النَّزَاهَةِ . لَا لِهَوٍّ وَلَا طَرَبٍ  
 وَلَا أَغْنَى وَلَا جَامٍ وَجِرِيَالٍ  
 خَلَقَ وَسِيمٌ وَخَلَقَ كَالنَّسِيمِ سَرَى  
 وَهَنَا عَلَى الزَّهْرِ قَدْ غَدَاهُ هَطَالٌ  
 أَقَامَ لِلْحَقِّ أَرْكَانًا مُشِيدَةً  
 إِذْ لَمْ تَلُحْ لِرُسُومِ الْحَقِّ أَطْلَالٌ  
 فَحُكْمُهُ لَيْسَ فِي تَصْرِيفِهِ عِلَلٌ  
 وَفِعْلُهُ فِيهِ تَصْحِيحٌ وَإِعْلَالٌ  
 لَهُ لِسَانٌ بِذِكْرِ اللَّهِ عَوْدَةٌ  
 وَخَاطِرٌ فِي جَلَالِ اللَّهِ جَوَالٌ  
 أَسَّ الْعُلَا وَإِيَّاسٌ فِي نَبَاهَتِهِ  
 إِنْ عَنَّا لِلْأَمْرِ إِبْهَامٌ وَإِشْكَالٌ  
 كَشَافٌ مُبْهَمَةٌ . فَتَّاحٌ مُغْلَقَةٌ  
 وَدُونٌ إِدْرَاكِه بَابٌ وَأَقْفَالٌ  
 إِذَا تَأَمَّلَ فِي مِرْآةِ فِكْرَتِهِ  
 بَدَأَ لَهُ مِنْ خَفِيِّ الْحَالِ تِمْثَالٌ  
 لَيْثُ الْحُرُوبِ وَبَدَّادُ (١) الْخُطُوبِ إِذَا  
 يَرْتَاغُ لِلْحَرْبِ فُرْسَانٌ وَأَبْطَالٌ  
 لَهُ الْجَوَانِحُ وَالْأَهْوَاءُ جَانِحَةٌ  
 سَوَى رَعَاعٍ رَعَايَا عَنْهُ قَدْ مَالُوا (٢)  
 عَائَتْ بِأَنْحَاءِ إِفْرِيقِيَّةٍ فَرَقٌ  
 طَالَ الزَّمَانُ وَمَا عَنْ طَبْعِهِمْ مَالُوا

(١) في ز . ح . ب . س . د . ر .

(٢) من هذا البيت بدء تاريخ الثورة بهذه القصيدة التي هي كالملحمة وبدأ بحوادث جمال.

لَا جَمَلُ اللَّهِ جَمَالًا . لَقَدْ نَزَلَتْ  
 بِهِمْ مِنْ الْخُلْفِ آجَالٌ وَأَوْجَالٌ  
 شَقُّوا النُّعَصَا . وَتَمَادَوْا فِي ضَلَالَتِهِمْ  
 فَحَلَّ سَاحَتَهُمْ خَطْبٌ وَأَهْوَالٌ  
 / بِالْإِرْبَعَاءِ لَقَدْ حَاطَ الْخَمِيسُ بِهِمْ  
 كَمَا أَحَاطَ بِسَاقِ الرَّجُلِ خَلْخَالٌ  
 فَبَعْضُهُمْ مِنْ شُعُوبِ ذَاقَ كَدَّاسَ رَدَّى ،  
 وَبَعْضُهُمْ فِي شِعَابِ الْأَرْضِ قَدْ سَالُوا  
 «فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ» (١)  
 وَنِسْوَةٌ وَمَسَاكِينٌ وَأَطْفَالٌ  
 سَاقُ الشَّقَاؤِ إِلَيْهِمْ كُلُّ دَاهِيَةٍ  
 فَمَا الَّذِي صَنَعَ الْبَاغُونَ ؟ مَا نَالُوا ؟  
 أَوْلَيْتَهُمْ مِنْكَ عَفْوًا عَنْ جَرَائِمِهِمْ  
 إِذْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْقَوْمَ جُهَالٌ  
 لَا زِلْتَ بِالْعَفْوِ بَعْدَ الظُّفْرِ مُتَّسِمًا  
 فَالْعَفْوُ لَيْسَ لَهُ مَذْمُومَةٌ حَالٌ  
 وَغَرَّ وَسَلَاتٍ مِنْ أَطْمَاعِهِمْ خِدَعٌ  
 فَسَاقَهُمْ لِمَهَاوِي الْهَلَكِ آمَالٌ  
 لَاحَتْ أَكَاذِيبُ أَطْمَاعٍ لَهُمْ فَعَدَوْا  
 كَمَا يَلُوحُ لَالُ الْخَيْبَةِ الْآلُ (٢)  
 وَبَايَعُوا الْمُرْتَضَى الْبَاشَا أَبَا حَسَنِ  
 عَلِيًّا ابْنَ حُسَيْنٍ ثُمَّ قَدْ حَالُوا

(١) انقباض رابع راد حسنة ما عطف عليه.

(٢) الآل : السراة.



وَأَحْتَلَّ مَنْزِلَهُمْ مِثْلَ النَّزِيلِ بِهِمْ  
 كَيْمَا يَزُولُوا عَنِ الشَّحْنَا . فَمَا زَالُوا  
 لَا طِبَّ يَنْجَعُ فِي حَقْدِ النُّفُوسِ وَقَدْ  
 يَشْفِي الضَّغَائِنَ هِنْدِي وَعَسَّالُ  
 خَانُوهُ عَهْدًا ، فَخَابُوا صَفْقَةً خَسِرَتْ  
 خُسْرًا لِمَنْ بِصُوعِ الْغَدْرِ يَكْتَالُ  
 مَا أَنْكَرُوا مِنْهُ إِلَّا أَنْ شِيَمَتَهُ  
 حِلْمٌ وَعَفْوٌ وَإِنْصَافٌ وَإِفْضَالُ  
 مَا أَنْكَرُوا مِنْهُ إِلَّا أَنْ دَوْلَتَهُ  
 غَرَاءُ ، لَيْسَ لَهَا فِي الْمُلْكِ أُمْتَالُ  
 بَرَائِرُ فِي وَخِيمِ الْبَغْيِ قَدْ رَتَعُوا  
 وَمَرْتَعُ الْبَغْيِ لِلْبَاغِينَ قَتَالُ  
 طِبَاعُهُمْ لِضُرُوبِ الشَّرِّ مَائِلَةٌ  
 وَالشَّبَهُ لِلشَّبهِ جَذَابٌ وَمِيَالُ  
 كَانَتْهُمْ فِي نِطَاقِ الْخُلْفِ قَدْ خَلِقُوا  
 إِنْ يَسْمَعُوا دَاعِيًا لِلْخُلْفِ يَنْتَالُوا  
 إِنْ الْإِبَاءَ مِنْ الْآبَاءِ شَنْشَنَةٌ  
 تَوَارَتْهُمَا وَأَعْمَامُ وَأُخُوَالُ  
 يَمْشِي الْهُوَيْنَا سِوَاهُمْ إِنْ أَتَى خَطَلًا  
 وَهُمْ لَهُمْ فِي طَرِيقِ الْغَيِّ إِرْقَالُ  
 أَمَا نَهَتَهُمْ عَظِيمَاتُ بِهِمْ نَزَلَتْ  
 قَبْلًا ؟ وَمَاذَا لَقِيَ بِالْقُرْبِ جَمَالُ ؟  
 وَحَارَبُوا الْأَصْلَ (1) فَاجْتَثَّتْ أَصُولُهُمْ  
 وَنَالَهُمْ مِنْهُ أَنْكَالُ وَأَكْبَالُ

(1) أصل المدوح وهو أبوه حسين بن علي.

رَاحُوا أَيَادِي سَبَا (1) فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ  
 وَفِي الْفِيَّافِي لَهُمْ حُلٌّ وَتَرْحَالُ  
 فَلِلصَّغَارِ صَغَارُ . وَالرَّجَالِ رَدَى .  
 وَلِلْحَلَالِ إِحْصَانُ وَإِحْلَالُ  
 وَخَالَفُوا مِنْ فُرُوعِ الْأَصْلِ أَوْسَطَهُمْ  
 فَنَالَهُمْ مِنْهُ خُسْرَانُ وَأَنْكَالُ  
 [إِنَّ الْأَمِيرَ لَظِلُّ اللَّهِ مُنْبَسِطُ  
 فِي الْأَرْضِ يَأْوِي لَهُ مَنْ سَاءَهُ الْحَالُ] (2)  
 وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً يَبْغِي إِهَانَتَهُ  
 يَنْلَهُ فِي عَمْرِهِ بؤْسٌ وَإِذْلَالُ  
 / وَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ  
 لَدُكَّ مَنْ بِيَدَيْمِ الْغَيِّ (3) يَخْتَالُ  
 أَفْعَالُهُمْ أَصْبَحَتْ أَفْعَى لَهُمْ وَكَمَا  
 دَانُوا يُدَانُونَ وَالْعُمَمَالُ أَعْمَالُ  
 قَالُوا : (وَحِيدٌ) ! فَقُلْنَا : «اللَّهُ نَاصِرُهُ  
 وَسَوْفَ يَعْضُدُهُ بِاللَّهِ أَنْجَالُ»  
 شَاءُوا الْقِرَاعَ ، فَقُلْنَا : دُونَكُمْ جَبَلًا  
 فَنَاطِحُوهُ ، فَأَنْتُمْ فِيهِ أَوْعَالُ  
 يَكْفِيكُمْ الْبَغْيُ تَدْمِيرًا وَتَهْلُكَةً  
 فَإِنَّ عَقْبَاهُ أَكْبَالُ وَأَغْلَالُ  
 فَالْرَّشْدُ يَنْجَحُ آتُوهُ . وَإِنْ ضَعُفُوا ،  
 وَالْغَيُّ يَقْصُرُ أَهْلُوهُ . وَإِنْ طَالُوا

(1) مثل من تسبى أهل سببا اثر سبيل العزم انظر الميداني 1 : 287 وانظر الزبيدي 1 : 77 .

(2) هذا البيت ساقط بالأصل ومثبت في غيره . والبيت بعده مرتب عليه .

(3) في ز : الحز ، والبيت تضمنين لحديث نبوي .



رَأَى ذِمَامَ دِمَاءٍ أَنْ تَرَأَى إِذَا  
 مَا هَيَّجَ الْحَرْبَ إِقْدَامُ وَإِجْفَالُ  
 يَخْشَى إِلَهَهُ . وَيَخْشَى أَنْ تَبَاحَ لَهُمْ  
 يَوْمَ الْكَرْبَةِ نِسْوَانُ وَأَطْفَالُ  
 فَسَلَّمَ الْأَمْرَ لِلْمَوْلَى وَأَهْمَلَهُمْ :  
 إِذْ لِلْأُمُورِ مَوَاقِيتُ وَآجَالُ  
 بِالْحَصْرِ قَابِلَهُمْ . بِالْجُوعِ قَاتِلَهُمْ :  
 وَالْجُوعُ لِلْجَمْعِ مُجْتَاحُ وَمُقْتَالُ  
 دَعَا أَبَا مَالِكٍ (١) فَاحْتَلَّ سَاحَتَهُمْ  
 لِأَنَّهُ لِقَوَى الْأَقْوَامِ حَلَالُ  
 وَمَنْ أَبُو مَالِكٍ دَبَّتْ سَلَافَتُهُ  
 فِيهِ تَقَطَّعُ أَمْعَاءُ وَأَوْصَالُ  
 إِذَا تَخَلَّلَ جُثْمَانًا وَهِيَ خَلَالُ  
 وَلَيْسَ يَنْفَعُهُ قَبْضُ وَإِسْهَالُ  
 يُطْفِئُ الْحَرَارَةَ إِذْ تَشَدُّ شُعْلَتُهُ  
 فَاعْجَبَ لِمَا فِيهِ إِطْفَاءُ وَإِشْعَالُ  
 فَتَالَ بِالصَّبْرِ مِمَّا كَانَ أَمَلُهُ  
 مَا لَيْسَ يَبْلُغُ بِالْحِيلَاتِ مُحْتَالُ  
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَأْمُونُ ، نَيْتُكُمْ  
 تَغْتَالُ مَنْ بِشِبَاكِ الْمَكْرِ يَحْتَالُ  
 تَخَيَّلُوا الشُّمَّ مِنْ وَسَلَاتِ تَعْصِيهِمْ  
 وَكَيْفَ بَعْصِمُ مِمَّا حُمَّ أَجْبَالُ ؟  
 وَأُصْعَدُوا فِي ذُرَاهَا ثُمَّ أَرْهَقَهُمْ  
 إِلَى النَّوَازِلِ وَالْأَخْطَارِ انْزَالُ

(١) أبو مالك : كلمة الجوع.

زُهَاءُ سَيْتَمِيْنِ الْبَرْدَى نَزَلُوا  
 وَالْحَيْفُ لِلْحَتَفِ دَعَاءُ وَنَزَالُ  
 فَعُصْبَةُ هَامُهَا بِالْقُصْبِ قَدْ قُضِيَتْ  
 وَسِيقَ مِنْهَا إِلَى عَلِيَّكَ أَحْمَالُ  
 جُسُومُهَا لِسِبَاعِ الْوَحْشِ قَدْ تَرَكَتْ  
 وَلَائِمًا ، فَعَلَيْهَا الطَّيْرُ تَنْشَالُ  
 وَزُمْرَةٌ فِي شِبَاكِ الْبَغْيِ قَدْ عَلِقَتْ  
 فَسَاقَهَا ، وَلَهَا فِي السُّوقِ أَكْبَالُ  
 بِيَمْنٍ نَيْتِكَ الْغُرَاءِ حُشْتَهُمْ (١)  
 وَأَنْتَ فِي قِصْرِكَ الْمَعْمُورِ مُحِلَّالُ  
 جَاءُوا عِرَاقَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَائِحِهِمْ  
 وَمِنْ ذَمِيمِ لِبَاسِ الْبَغْيِ أَسْمَالُ  
 أَمَنْتَ رَوْعَتَهُمْ . سَتَرْتَ عَوْرَتَهُمْ .  
 كَسَوْتَهُمْ . وَلَكُمْ بِالْعَقْرِ إِفْضَالُ  
 / تَضَعُضَعُ الْجَبَلُ الْبَاغِي بِرَابِرِهِ  
 وَهَزَهُ مِنْ هَلَاكِ الْقَوْمِ زَلْزَالُ  
 حَتَفَ لَهُمْ جَاءَ بِالنَّصْرِ الْقَرِيبِ لَكُمْ  
 وَالْحَتَفُ لِلْفَتْحِ فِي مَقْلُوبِهِ فَالُ  
 كَالْفَجْرِ إِنْ ظَهَرَتْ حِينًا بِشَائِرُهُ  
 يَلُحُّ مِنْ النُّجُورِ لَأَلَاءُ وَإِقْبَالُ  
 أَنْتَ نَصْرُ بِلَا خَيْلٍ وَلَا خَوَلُ  
 مَا إِنْ تَخَيَّلَهُ وَهُمْ وَلَا بَالُ  
 كَانَتْ عُرَى الْبُؤْسِ وَالْبُلُوَاءِ مُبْرَمَةً  
 فَحَلَّتْهَا مِنْ خَفِي الْأَطْفِ حَلَالُ

(١) حشمتهم : من حوش الصبيد إلى الحياة .



حَلَّ الْمُحَرَّمُ بِالْبُشْرَى لَكُمْ . وَلَهُ  
 عَلَيْهِمْ بِطُلُوعِ النَّحْسِ إِهْلَالُ  
 فِي الْمُحَرَّمِ بَاتَ الْقَوْمُ فِي رَجَبٍ (١)  
 لَهُمْ بِوَسَلَاتٍ وَيَلَاتٍ وَإِعْوَالُ  
 وَأَنْزَلَتْهُمْ لَكَ الْأَقْدَارُ مِنْ قُنَنٍ  
 وَلَيْسَ لِلْبَيْضِ وَالْخُطْبِيِّ إِعْدَالُ  
 صَاحِ الْغُرَابِ بِشَمْلِ الْقَوْمِ فَاعْتَسَفُوا  
 مَهَامِهِ الْفِيحِ . رُكَّابُ وَرَجَالُ  
 تَقَسَّمُوا بَيْنَ مَكْلُومٍ وَمُسْتَلَبٍ ،  
 وَهَالِكٍ بِالْصَّدَى لَمْ يَرَوْهُ آلُ  
 جَلَوْا حِفَاةً عُرَاةً مِنْ مَسَاكِينِهِمْ  
 لِمَا جَنَوْا . وَلَهُمْ فِي الْبَيْدِ وَلُؤَالُ  
 الهمُّ مُنْتَظِمٌ . وَالشَّمْلُ مُنْتَشِرٌ .  
 وَالْقَلْبُ مُسْتَعِيرٌ . وَالْدَّمْعُ حَطَّالُ  
 أَسْتَارُهُمْ هُبِكَتْ ، عَوْرَاتُهُمْ كُشِفَتْ  
 وَإِنَّمَا هِيَ إِدْبَارُ وَإِقْبَالُ  
 عَلَى الْبِغَالِ رِذَالُ . فِي الْمَنَازِلِ قَدْ  
 تَاهُوا . فَلَمْ تَنْجُ أَرْضَالُ وَأَبْغَالُ  
 كَمْ قَرْيَةٍ قَبْلَهُمْ بِالْخُلْفِ قَدْ بَطِرَتْ  
 فَعَالِهَا مِنْ خُطُوبِ الدَّهْرِ أَغْوَالُ  
 وَالْقَيْرَوَانُ دَهَتْهَا أَيُّ دَاهِيَةٍ  
 وَهُمْ مَعَ الْأَصْلِ . لَا خَانُوا وَلَا زَالُوا (٢)

(١) في رجب : في فزع . وفيه تورية ومشكلة محرم .

(٢) من هنا مبدا وصف أهل القيروان بعد موت حسين بن علي فيهم . وهو وصف معجب من شاهد عيان .

سَيْنِ خَمْسًا أَقَامُوا فِي حَيَاطَتِهِ .  
 وَمَالَهُمْ عَنْهُ تَحْوِيلُ وَإِبْدَالُ  
 طَوَى الطَّوَى زَمَرًا مِنْهُمْ وَأَزْعَجَ أَقْدُ  
 وَآمًا إِلَى الْبَيْنِ أَخْطَارُ وَأَهْوَالُ  
 حَتَّى قَضَى نَحْبَهُ فِيهِمْ فِدْبُ لَهُمْ  
 مِنْ الْمَكَارِهِ حَيَاتُ وَأَصْلَالُ (١)  
 وَبَدَدَتْ شَمْلَهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ  
 أَيْدِي الْخُطُوبِ فَلَا أَهْلُ وَلَا مَالُ  
 خَلَّتْ مَسَاكِينُهَا . جَلَّتْ سَوَاكِينُهَا .  
 فَأَهْلُهَا فِي فَلَاةِ الْأَرْضِ أَرْسَالُ  
 حَرَّ الْهَجِيرَةِ يَكْوِي فِي جُلُودِهِمْ .  
 كَأَنَّهُمْ فِي ظِلَالِ الْأَمْنِ مَا قَالُوا  
 تَجَرَّعُوا مَرَرَ الْبَلَاةِ . وَكَانَ لَهُمْ  
 مِنَ الْأَمَانِ وَخَفَضِ الْعَيْشِ سَلْسَالُ  
 فَكَمَ مِنَ الْخَيْدِ وَالْأُسْتَارِ قَدْ بَرَزَتْ  
 خَرِيدَةٌ . كَاعِبٌ . هَيْفَاءُ . مَيْكْسَالُ  
 تَحْكِي الْغَزَالَةَ لِأَلَاءِ . وَقَامَتُهَا  
 لَهَا عَلَى الْغُصْنِ تَعْجَابُ وَتَيْمِيَالُ  
 / كَالْظَّبْيِ جِيدًا وَالْحَظَا . فَمَقْلَتُهَا  
 مَكْحُولَةٌ مَا لَهَا مِيلُ وَكَحَالُ  
 مَقْصُورَةُ الطَّرْفِ . كَانَتْ فِي مَقَاصِرِهَا  
 وَطَرَفُهَا بَعْدُ فِي الْبَيْدَاءِ جَوَالُ  
 عَنْ أَعْيُنِ الْإِنْسِ قَدْ كَانَتْ مُحَجَّبَةً  
 فَصَارَ يَلْحَظُهَا وَحْشُ وَأُورَالُ

(١) أصلال : جمع صل وهو اخبث الحيات .



لِلشَّمْسِ ضَاحِيَةً أَضْحَتْ وَكَانَ لَهَا  
فِي الْخَيْدَرِ مِنْ كَيْلِ الْأَسْتَارِ أَضْلَالٌ  
تَسْتَرَّتْ بِبِلْيَالِي الشَّعْرِ إِذْ سَلَبَتْ  
أَثْوَابَهَا فَعَالِيَهَا الشَّعْرُ أَسْدَالُ  
تَبْكِي عَلَى الصَّخْرِ كَالْخَنْسَاءِ حِينَ بَكَتْ  
صَخْرًا أَخَاهَا . وَلَا عَمَّ وَلَا خَالُ  
إِنْ بَانَ حُرَّاسُهَا عَنْهَا فَحَارِسُهَا  
فِي الْبَيْدِ طَرْفٌ سَرِيعٌ ائْتَمَكَ نَبَالُ  
وَسَادُهَا الصَّخْرُ مِنْ بَعْدِ الْحَرِيرِ غَدَا .  
وَفَرَشُهَا بَعْدَهُ تَرَبُّ وَأَرْمَالُ  
فَالْعَيْنُ هَامِيَةً . وَالرَّجُلُ دَامِيَةً  
وَالْقَلْبُ فِيهِ حَزَازَاتٌ وَأَشْعَالُ  
وَالْخِصْرُ يُنْهَضُهَا طَوْرًا فَيَقْعِدُهَا  
عَنْ خَطْوِهَا مِنْ كَثِيبِ الرَّدْفِ ائْتَمَالَ  
عَجِبْتُ لِلشَّمْسِ لَمْ تُكْسَفْ وَقَدْ طَلَعَتْ  
مِنْ الْخُدُورِ شَمُوسُ الْأَرْضِ تَخْتَالُ  
لَا تَسْأَلُنْ عَنْ حَدِيثِ الْقَوْمِ كَيْفَ جَرَى  
فَشَرَحُ مَنْ حَاوَلَ التَّفْصِيلَ إِجْمَالَ  
عُقْبَاهُمْ هَذِهِ كَانَتْ ! فَكَيْفَ بِيَوَسْلَاتٍ ،  
وَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ ضَلَالُ (1)  
جَازُوا الْخُدُودَ ، وَمَكَرَ اللَّهُ قَدْ أَمِنُوا  
وَلَيْسَ عَمَّا أَتَوْا لِلَّهِ إِغْفَالُ

(1) تعود وانعطاف إلى حوادث وسلاط ، وهنا تنجلي عواطف النفس الكريمة في الاعتذار عن الموار  
والملب العقور عنهم .

سَلِ السَّبَاسِبَ مَاذَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ  
يُسَبِّحُكَ عَنْ شَرْحِ حَالِ الْقَوْمِ تَسْأَلُ  
صَالِ الْبَغَاةِ وَتَارَ الْحَرْبِ قَدْ وَقَدُوا  
وغيرهم بِلَطَى الْهَيْجَاءِ هُمْ صَالُوا (1)  
جَلَّ الْمُهَيِّمِينَ مَنْ أَحْكَمَهُ خَفِيتُ  
عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا الْأَذْهَانُ وَالْبَالُ  
وَأَنْتَ أَعْطَاكَ مَا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا  
مِنْ الْمُلُوكِ الْأُولَى فِي مَجْدِهِمْ غَالُوا  
حِلْمٌ وَعَدْلٌ وَعَقْفٌ بَعْدَ مَقْدَرَةٍ  
وَعَفَّةٌ وَسَعَادَاتٌ وَإِقْبَالُ  
هُمْ بِالْجَحَافِلِ قَدْ صَالُوا وَقَدْ غَلَبُوا .  
وَأَنْتَ بِاللَّهِ غَلَّابٌ وَصَوَّالُ  
وَيَمْنَعُونَ أَوْدَاهُمْ رَغَائِبُهُمْ  
وَأَنْتَ فِي اللَّهِ لِلْأَعْدَاءِ بَدَّالُ  
وَالنَّاسُ يَبْغُونَ مِنْكَ الْبَطْشَ مُنْتَقِمًا  
وَأَنْتَ فِي الْعَقْفِ رَغَابٌ وَمِيَّالُ  
الْجَوَرِ رَامُوا ! وَقَالُوا : «عِنْدَكُمْ خَوَرٌ !»  
وَأَنْتَ تَشْرُكُ مَا رَامُوا وَمَا قَالُوا  
اللَّهُ أَثْنَى عَلَى الْعَافِي (2) وَأَنْتَ لِمَا  
أَثْنَى الْمُهَيِّمِينَ قَفَاءٌ وَفَعَالُ  
وَالرَّاحِمُونَ لِيَمَنَ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُهُمْ  
مَنْ فِي السَّمَاءِ (3) . بَذَا قَدْ صَحَّ ائْتَمَالَ

(1) في جميع النسخ : (رجال البغاة . . . قد صالوا) . ولا يستقيم لذلك معنى اللهم الا ان يكون  
قوله : قد صالوا ، اقباس فيه اكفاء يريد قوله تعالى « ثم انهم لصالوا المحيم » اذ ان  
ذلك الجانسة مع اول البيت فاصحح على هذا التقدير .

(2) ايمان من قوله تعالى « والعافين عن الناس الآية » .

(3) تضمين الحديث المشهور المتسلسل بالاولية : « الراحمون يرحمهم الرحمن تعالى » ارحموا من  
في الارض يرحمكم من في السماء .



/ حَاشَاكَ . حَاشَاكَ . أَنْ تُثَنِّيَ عَقُوبَتَهُمْ  
 فَحَسْبُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ مَا تَالُوا  
 الْعَقُوبُ شِيَمَتُكُمْ . وَالْحِلْمُ حَالِيَتُكُمْ .  
 وَالْخَيْرُ بُغْيَتُكُمْ ! وَالْقَوْمُ جُهَالُ  
 وَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ ظِلُّ اللَّهِ مُنْبَسِطٌ  
 عَلَى الْأَنْامِ لَكُمْ بِالْعَدْلِ إِظْلَالُ  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا فَضْلَ عَلَيْكَ سِوَى  
 لِلَّهِ . فَهُوَ لَهُ مَنْ وَإِفْضَالُ  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَا تَالَتِكَ مَائِمَةٌ  
 مِنْهُمْ . فَهُمْ حَاوَلُوا بَغْيًا . وَهُمْ صَالُوا  
 هُمُ الَّذِينَ جَنَوْا . هُمُ الَّذِينَ جَلَوْا .  
 وَلِلشَّقَاقِ بِهِمْ بَدَأٌ وَإِكْمَالُ  
 وَاللَّهُ يُؤَلِّيكَ تَأْيِيدًا فَأَنْتَ إِلَى  
 عِبَادِهِ بِعَظِيمِ النُّصْحِ لَمْ تَالُوا  
 أَسْنَى الصَّلَاةِ مَقَامًا وَالسَّلَامِ عَلَى  
 خَيْرِ الْأَنْامِ يَلِيهِ الصَّحْبُ وَالْآلُ  
 وقال صاحبنا الاجل الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الكافي  
 المعروف بأبي عتور (1) الصفاقسي القرشي :  
 لِلَّهِ مَا أَحْلَى سُرُورًا جَاءَنَا  
 بِبِشَارَةٍ تَمَّتْ بِهَا الْأَفْرَاحُ  
 قَدِمَ الْبَشِيرُ بِهَا إِلَيْنَا لَيْلَةً  
 غَرَاءَ مُشْرِقَةً ، فَطَابَ الرَّاحُ

(1) هو أصل البيت العنودي العثماني نسبا . انظر النيفر وغيره .

طَابَ الزَّمَانُ بِطَيْبِ حُسْنِ حَدِيثِهَا  
 فِي مَجَالِسِ زَالَتِ بِهِ الْأَتْرَاحُ  
 نَاهِيكَ مِنْ مَلِكٍ بِهِ كَالْكُوكَبِ الـ  
 سَدْرِي بَدَأَ ، وَجَبِينُهُ وَضَاحُ  
 بَدْرٌ مَنِيرٌ فِي سَمَاءِ سَعَادَةٍ :  
 الْوَجْهُ مِنْهُ كَأَنَّهُ الْمِصْبَاحُ  
 مُتَجَلِّلٌ بِبَهَائِهِ مُتَهَلِّلٌ  
 مُتَوَكِّلٌ ، وَالنَّاصِرُ الْفَتْاحُ  
 فَتَحَ الْآلَهُ لَهُ بِخَيْرِ غَنِيمَةٍ  
 وَأَنْحَلَ مُغْلَقُهَا وَجَا الْمِفْتَاحُ  
 جَادَ الزَّمَانُ بِهَا عَلَى طُولِ ، وَمَا  
 أَدْرَاكَ مَا هِيَ ، مِينَةٌ وَصَلَاحُ  
 فَأَنَا الَّذِي اسْتَبْطَأْتُهَا . فَكَأَنَّنِي  
 اسْتَمْرَضُ الْأَيَّامَ وَهِيَ صِحَاخُ  
 حَتَّى تَفْضَلَ رَبَّنَا بِمَغَانِمِ  
 وَأَنْتَ لِيَالِي الْوَصْلِ وَهِيَ مِلَاحُ  
 وَتَبَسَّمَ الزَّهْرُ الْأَرِيحُ بِحَضْرَةِ  
 وَتَبَاشَرَتْ وَبِوَصَالِهَا الْأُرُوحُ  
 وَتَمَايَلَتْ أَغْصَانُ رَوْضَةِ مَالِكِ  
 لِيَكْمَالِهَا وَجَمَالِهَا نَرْتَاخُ  
 وَتَرَنَّمَتْ أَطْيَارُهَا ، وَتَعَانَقَتْ  
 أَشْجَارُهَا ، وَعَبِيرُهَا فَوَاحُ  
 أَقْمَارُهَا طَلَعَتْ ، وَطَالِبُ سَعْدِهَا  
 — إِنْ شَاءَ رَبِّي — دَائِمًا مُلْتَاخُ



وَتَزَيَّنْتَ تِلْكَ الرَّبُوعُ . وَأَوْقَدْتَ  
فِيهَا الشَّمْسُوعُ . وَصُنْتَ الْأَقْدَاحُ  
[ 22 - أ ] / وَجَلَوْتُ فِيهَا لِلْوَصَالِ عَرَائِسًا :  
الْخَدُّ وَرْدٌ . وَالثُّغُورُ أَفَاحُ  
وَنَخَلَعْتُ فِيهَا لِلنَّجْمِ مَلَابِيسًا  
وَكَذَا الْعِدَارُ . وَمَا عَلَيَّ جُنَاحُ  
وَتَنَظَّمْتُ مِنْ حُرِّ النَّارِ نَفَائِسًا  
وَنَشَرْتُ مَنَظُومًا . وَذَلِكَ مُبَاحُ  
وَأَبِيحَتِ الْأَنْفَاسُ فِي طَلَبِ الْعُلَا :  
وَكَذَا دِمَاءُ الْبَائِحِينَ تَبَاحُ  
وَتَكَامَلَتْ لَدَانَا حَتَّى لَقَدْ  
غَابَ الرَّقِيبُ . وَهَمْنَا مُنْزَاحُ  
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نَصْرِ سَمَا  
وَيَ أَنَانَاهُ الْعَلِيِّ الْفَتَاحُ  
قَصَمَ الْعِدَا . وَمَحَا الرَّدَى . فَصَفَا الْمَدَى .  
وَجَلَا الصَّدَى . فَالْأَيْلُ مِنْهُ صَبَاحُ  
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي هَشَّتْ إِلَى  
تَأْمِيلِهِ الشُّعْرَا . وَفِيهِ فَلَاحُ  
يَا مَنْ هُوَ الْغَيْثُ الْغِيَاثُ الْمُرْتَجَى  
فِي الْمَحَلِّ إِذْ كِلْتَا يَدَيْهِ سَمَاحُ  
أُنْدَى مِنَ الْبَحْرَيْنِ حَقًّا كَفَّهُ .  
بَلْ جُودُهُ لِلْبَرِّ مَكِّي فَضَاحُ  
مَنْ لَمْ يَفْزُ بِشِمَائِلِ أُعْطِيَتْهَا  
لِلْغَايَةِ الْقُصُوى عَلَيْهِ جُنَاحُ

مَنْ رَامَ جَانِبَكَ الْعَلِيَّ إِذَا يَدَا  
سَقَّتْ عَلَيْهِ بِالنُّوَّاحِ رِيَّاحُ  
فَالْجِسْمُ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ لِيُخْدَمَ  
وَالْقَلْبُ لَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ بَرَّاحُ  
خُذْهَا أَبَا حَسَنٍ عَلِيًّا كَأَعْبَا  
عَدْرَاءَ بَلْ حَوْرَاءَ وَهِيَ رَدَّاحُ  
أَمْتُ مَدِيحِكَ تَبْتَغِي نَيْلَ الرِّضَا .  
فِي ثَغْرِهَا الْمَشْرُوبُ وَالتَّفَاحُ  
دَامَتْ لَكَ الْعُلْيَا فَقُلْتُ مُؤَرَّخًا :  
« إِنَّا لَنَا بَيْقَاتِكَ اسْتِرْوَا حُ »  
وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ سَمِيَّةُ الْقِيروَانِي الْكَاتِبُ :  
هَنَاءُ سَنَا الْإِقْبَالَ فِيهِ يُبَاشِرُ  
وَمِنْ نَخْوَةِ لِنَصْرِ فِيهِ الْبَشَائِرُ  
تَبَسَّمَ وَجْهُ الدَّهْرِ بَعْدَ عُبُوسِهِ  
وَوَجْهُهُ عَلِيٍّ بِالْبَشَاشَةِ زَاهِرُ  
مَلِكٍ لَهُ فِي نَخْوَةِ الْمُلْكِ بَهْجَةُ  
وَذِكْرُ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَرْضِ سَائِرُ  
تُسَاعِدُهُ الْأَقْدَارُ فِي كُلِّ مَا يَشَا  
فَيَقْمَعُ مَنْ عَادَاهُ . وَالرَّبُّ قَادِرُ  
أَيَخْشَى وَنَصْرُ اللَّهِ يَرْعَى جِيُوشَهُ ؟  
وَيَحْظَى بِمَا شَاءَ مَنْ لَهُ اللَّهُ نَاصِرُ  
أَنَاهُ بِشِيرِ الْخَيْرِ يَوْمًا . فَأَصْبَحَتْ  
عَلَيْهِ لَآلِي الْبِشْرِ . وَهِيَ نَوَاضِرُ



وَأَحْشَاؤُهُ فِيهَا رِيَاضٌ مَسْرَّةٌ  
وَأَحْشَاءُ أَهْلِ الْبَغْيِ فِيهَا خَنَاجِرٌ

طَغَوْا وَبَغَوْا وَالْآنَ قَدْ آنَ حَتَفُهُمْ  
وَمَا اللَّهُ عَنْهُمْ غَافِلٌ . فَهُوَ حَاضِرٌ

[22-ب] / رَمَتْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ الْمَنِيَّةِ بَغْتَةً  
فَعَافَتْهُمْ لِلْخُبثِ حَتَّى الْمَقَابِرِ

وَالْبَسَتِ الْأَحْيَاءُ يَدُ السَّبْيِ ذَلَّةً .  
فَأَبْغَضَهُمْ بَادٍ رَأَاهُمْ وَحَاضِرٌ

فَقُلْ لَدَوِي الْعَصِيَانِ : «هَذَا جَزَاؤُكُمْ  
جَنَيْتُمْ . وَمَنْ يَجْنِي لَهُ الدَّهْرُ رَاجِرٌ»

فَلِلْخَيْرِ فَعْلُ ابْنِ الْحُسَيْنِ مُحَرَّكَ ،  
وَمَنْطِقُهُ الدَّرِّيُّ (1) لِلْكَسْرِ جَابِرٌ

فَيَا وَبَحَ مِنْ عَادَاهُ ! لَمْ يَلْقَ نَهْضَةً  
يَعِيشُ مُهَانًا وَهُوَ لِلْخَفَضِ عَائِرٌ

إِذَا حَلَّ بَطْنُ الْأَرْضِ قَالَ مُؤَرَّخًا :  
(فَدَارَتْ عَلَى أَحْيَاءِ الْأَعَادِي الدَّوَائِرُ) (2)

وقال :

وَسَلَّاتُ أَضْحَى (3) لِلْبَلَاءِ مُصَاحِبًا  
وَعَالِيَهُ قَدْ صَبَّ الْإِلَهُ مَصَائِبًا

وَالْبَغْيِ مَزَّقَ سَاكِنِيهِ كَأَنَّهُ  
جَوْ يُسَزَّقُ بِالرِّيَّاحِ سَحَائِبًا

(1) في ز : السروي .

(2) التاريخ صحيح بحساب الف بواحد على طريقة هذا الشاعر .

(3) في ز : م : امسى .

أَمْهَلَتْهُمْ . وَبَعَثَتْ سَيْفَ سِيَّاسَةٍ

فِيهِمْ . فَأَظْهَرَ فِي الشُّحُورِ عَجَائِبًا

فَخَلِيلُهُمْ بَعْدَ الصَّفَا عَادَاهُمْ  
وَوَدُودُهُمْ لِلْعَيْبِ أَصْبَحَ هَارِبًا

دُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا فِي زِينَةٍ  
وَأَحْلُمُ عَلَى مَنْ جَاءَ نَحْوَكَ تَائِبًا

زَأَنْتُ بِكَ الدُّنْيَا فَقُلْتُ مُؤَرَّخًا :  
«أَمْسَى عَدُوُّكَ يَا مُزَيْنُ خَائِبًا»

وهذه المقطوعة صالحة في شعره ، سهلة الألفاظ منسجمة ، إلا أن قوله في التاريخ : يا مُزَيْنُ من الألفاظ العامة السافلة التي لا ينبغي أن تقع في خطاب الملوك ولا في مدائحهم - ولا سيما إن كانت الرواية عنه بكسر الياء - هذا مع اقتداره على التاريخ وتفردّه فيه بالانسجام والسهولة وعدم الحشو والتكلف والمناسبة للمقصود واختصاصه فيه بالبديهة .

وله أيضا . وقالها قبل الفتح :

جَاءَتْ سَعُودُكَ بِالْهِنَاءِ مُبَشِّرَةٌ  
وَبَطُولِ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ مُخْبِرَةٌ

أَوْقَاتُكَ ابْتِهَاجَتْ . وَأَوْقَاتُ الْعُدَا  
رَاحَتْ مُقْبَحَةً الْوُجُوهِ مُغَيَّرَةٌ

وَعَدَّتْ مَيْسَرَةً أُمُورِكَ كُلُّهَا  
وَأُمُورُ أَرْبَابِ النِّفَاقِ مُعَسَّرَةٌ

مَا شِئْتَهُ الْأَقْدَارُ تَفْتَحُ بَابَهُ  
فَيَجِيءُ سَهْلًا مِنْ إِلَهٍ قَدَرَةٌ

مَنْ كَانَ عَوْنُ إِلَهِهِ مَعَهُ فَلَا  
يَشْقَى وَيُظْفَرُ بِالذِّدِيِّ قَدْ خَيْرَةٌ



احذر أبا الحسن العبد ! لئلا تمان قد  
أوصى ابنه . ومن الأعادي حذر  
لا تطمئن لهم فإن قلوبهم  
بدخان نيران النكال معك  
لما استنار سماءنا بك أصبحت  
كالشمس ذاتك في العيون منورة (1)  
وإذا تبدى من محياك الحيا  
قال النوري : « سبحان من قد صورته »  
/ بالحلیم قربت البعيد . وبالدكا  
أضحت لديك المشكلات محررة  
بك من لأحنف قد أشاع مزية ؛  
وإياس من في العالمين تذكره ؛  
لو طال غيظك في النوري يوماً على  
عمرو لأجبنه وفوراً أقبره (2)  
لك راحة بحيان النوال طويلاً  
ويد لجاتم بالسماح مقصرة  
يسقي القريرض ابن الحسين رحيقه  
فيهز تيهاً بالمعاني المسكرة  
وله العلوم تروق في أوراقها  
وبها يعز إذا أتته مقررته  
ما في ملوك الارض طراً مثله  
أعضاؤه بشدى العفاف معطرته

[2-أ]

كالبحر للنائي يزف سحابه  
كرماً . وللداني يمسكن جوهره  
يا سيد الأمراء والملك الذي  
أحيا الندى بعد الدثور وأظهره  
إن رمت أن ترضي الآله وخلقه  
فأخل دياراً بالفساد معمره  
جبل البرابرة البغاة كأنه  
كلب عقور لا يبالي معشره  
صحفته (1) فوجدته برقابهم  
وعقولهم ، تباً له ما أغدره  
من جاءه وبه أراد حماية  
يلقى الإهانة والعنا . والمحقرة  
يا ويحه إذ جاء في تاريخه :  
« وسلات قبحه الإله ودمره »

وقال أيضا قبل الفتح :

تهياً لما شئت فالوقت راق  
وسعدك قام على متن ساق  
وتصر الإله إليك أتى  
معيماً على هزم (2) أهل النفاق  
وصب على من جفاك البلاء  
وحمله الدهر ما لا يطاق

(1) لا يظهر النص في الا في لفظ جبل وهو مذكور في البيت قبله . ومصحفه جبل .

(2) بالاسفل : عزم . واصلاحه من ص .

(1) في ز ، م : مقدره .

(2) في ز : اجبره . وكأنه يريد ابن معد يكره .



فبدرُ معاليك إشراقه

بدا . (1) وهلال العدا في المسحاق

بعثت لقطع يدي زرعهم

جئوشا بيها واسع الأرض ضاق

إذا نزل الجيش في حيتهم

يحيي جموعهم بالفراق

كأن الحمام لهم عاشق

فبادر أعناقهم بالعناق

فيعذب للناس تعذيبهم

ولكن لهم هو مر المذاق

وكل من المفسدين غدا

حزينا وطعم المنيّة ذاق

أبا الحسن ابن الحسين انتقم

من الخائنين بشد الوثاق

/ لقد ضعف البغي بعد القوى

وأصبح من ضعفه في السباق

لك الفرج المحض إذ أرخوا :

«أذلّ السعير بلاء التفاق»

وقال الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي : (2)

حاجة المدح ليحلو الغزل

حاجة الصب لأولي القبل

(1) في ز ، ص : نما .

(2) هو عين هذه الطبقة واماءها ، واله منتهى الصناعة واحكامها ، وشعره يجمع بين قوة المعنى وجرالة اللفظ بحسن تصرفه وتمكنه من اللغة ، وديوانه حدير بالدراسة والنظر الا ان الموجود من نسخه متواطعا عما فيه من التحريف والبياضات ، ويظهر ان له اصلا واحدا سقيما ولذلك تركنا كثيرا من مشكل ابياته الى حريّة فهم الادباء . وفاته سنة 1190/1776 انظر النيفر 2 : 36 وغيره .

ما على مانعها لو سمحت

نفسه يوما بيها من ثقل

منيّة ماطاني الوقت بيها

مطل غيلان (1) برجع الطلل

أكتفي فيها (2) بوعد كاذب

أشغل البال به عن عدلي

يقنع الممحروم بالدون كما

يقنع الأعمى بأدنى الحول

ثم إني ليتني - إن لم أنل

ما أرجي - سالم من عدل

يا عدولي . لا يضيع وقتك في

ما تعاني . إني في شغل

إن أبت نفسك من نصحي لهما

فأنا ذا عاذل في العذل

وإذا لم تذق المعنى فلا

تنفرد بالرأي فيه ، وسل

إن عقلا واحدا لا ينشني

لعقول الكل بادي الخبل (3)

لا تقل لي ملغزا : قد جمعت

كل أو صاف النهي في رجل

(1) غيلان هو ذو الرمة الشاعر المكثر من مناجاة الاطلال كقوله :

ليلة موحشا طلل يلوح كأنه خلس

(2) في ز ، ح والديوان : منها .

(3) حكمة سامية ، ويلاحظ ان الشاعر فضل قصيده بالحكم ، وكلما اراد الانتقال من غرض الى آخر انى بحكمة كالقفلة للسابق والتاميس لللاحق وذلك من محكم صناعته .



هَلْ تَرَى بَيْنَ الْبَرَايَا ثَانِيًا  
لِعَلِّي بَنٍ حَسِينٍ بَنٍ عَلِيٍّ ؟  
نَادِرٌ . قَدْ غَلِطَ الدَّهْرُ بِهِ  
يُمْنَعُ النَّقْضُ بِهِ فِي الْجَدَلِ  
بَلْ بِهِ النَّقْضُ عَلَى مَنْ يَدَّعِي  
نَقْصَ أَيَّامٍ أَنْتَ عَنْهُ أَوَّلُ  
مَلِكٍ لَمَّا يَصِفُ وَاصِفُهُ  
فَتَحَّ الْعَيْنُ لِيَلَهُو الْمُقَلِّ (1)  
لَوْ سَعَى الْوَهْمُ إِلَى تَصْوِيرِهِ  
قَبْلَ أَنْ يُجَلِّيَ لَهُ . لَمْ يَصِلْ  
أَعْجَزَ الْمُسْرِعِ أَنْ يُدْرِكَ مَا  
جَارَهُ هُوَ بِسَيْرِ الْمُهْمَلِ  
أَبْصَرَ الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ مَنْ رَأَى  
كُلَّ مَا فِيهَا كَرِيهَ النَّفْلِ  
فَتَحَامَى فَضْلَهَا إِذْ لَمْ يَقُلْ  
فِي نَقْمِيسِ حَارَ مِنْهَا : هُوَ لِي  
وَأَسْتَوَى وَالنَّاسَ فِيمَا عِنْدَهُ  
مَا عَدَا الْعِرْضَ وَبَيْضَ الْكِلَلِ  
قَارَعَ (2) النَّاسَ عَنِ الْحِلْمِ فَلَمْ  
يُبْقَ مِنْ حَافٍ وَلَا مُنْتَعِلِ

(1) البيت مشكل . ولما فيه حازمة كما انت في ز . اي لا يقدر واصفه على وصفه لكثرة محاسنه . وفي البيت بعده توضيح لهذا المعنى . وفي الاصل « ما يصف » وبأياه الوزن . وفي الديوان بدل لما « اما » مركبة من ان الشرطية وما الزائدة فتكون جملة العجز واقعة في جواب الشرط ومعناها على الوجهين ان المدح يوافر محاسنه انت الانظار والهي القل عن النظر الى غيره .  
(2) في ز . ح : نازع . وهما بمعنى . . .

خِصْلَةُ الْحِلْمِ ثَقِيلٌ حِمْلُهَا  
كَبُرَتْ قَدْرًا عَلَى ذِي فَشَلٍ  
/ تَنْسِفُ الطَّوْدَ . وَهَلْ يُسْطَى عَلَى  
جَبَلٍ عَاتٍ بِغَيْرِ الْحِيلِ ؟  
حَالٌ مَسْطُورٌ (1) إِذَا مَا ذَاقَهَا  
ذُو حِجْيٍ جَاءَتْ بِأَمْرِ جَلَلٍ  
هُوَ مَا هُوَ ! مَارِدٌ قَدْ عَظُمَتْ  
شَأْنُهُ أُمْلَاكُ مَاضِي الْمَلَلِ (2)  
جَرَّ ذَيْلَ الْبَغْيِ تِيهًا رَافِعًا  
رَأْيَةَ الْخُلْفِ بِأَعْلَى الْقُلَلِ  
وَأَنْتَضَى مِنْ عَزَمِهِ مَا يُنْتَضَى  
وَرَمَتْ أَنْحَاؤُهُ بِالشَّعَلِ  
بَيْنَمَا التَّدْبِيرُ سَوَى سَيْفِهِ  
نَاهِيضًا فِي حَوْلِهِ وَالْحِيلِ  
إِذْ أَتَى اللَّهَ بِنَصْرٍ قَاطِعِ  
مُنَّةٍ (3) الْبَيْضِ وَسُمْرِ الْأَسَلِ  
يَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ قَدْ ضُمِنَتْ  
جُمْلًا كَمْ تَحْتَهَا مِنْ جُمَلِ  
أَصْبَحَ الْعَانِي بِهَا يَنْقُضُ مَا  
أَحْكَمَ الشَّدُّ بِهِ مِنْ وَثَلِ (4)

(1) علم قديم على جبل وسلات .  
(2) في ز : السدول .  
(3) السيف الطود .  
(4) العاني : الابس . والوثل : الجمل .



وَعَدَا يَمْدُفُ مَا فِي بَطْنِهِ  
 قَدْ دَفَّ مِنْ أَغْرَقٍ عَلَيَّ التَّمِيلُ (1)  
 كُلُّ رَجُلٍ فَارَقَتْ مَرْكَزَهُ  
 خُطِفَتْ مِنْ حِينِهَا فِي كَبَلِ  
 سَيْمِ الْأَسِيرِ مِنْ تَعْدَادِهِمْ  
 وَاشْتَكَى الْقَيْدُ بِهِمْ مِنْ مَلَلِ  
 سَلْ فَسِيحِ الْأَرْضِ عَنْ أَفْلَاذِهِ  
 أَيْنَ مَرَّتْ مِنْ فِجَاجِ السُّبُلِ  
 يُخْبِرُ الصَّادِقُ عَنْ أَحْوَالِهِ  
 أَنَّهَا سَاخَتْ وَلَمْ تَنْتَقِلِ  
 دُفْعَةً قَدْ طُمِسَتْ أَعْلَامُهُ  
 عَجَبًا مِنْ عَجَلَةٍ فِي الْعَجَلِ  
 سَنَةٌ مَاضِيَةٌ فِيمَنْ بَغَى  
 أَنْ يَرَى فِي الْبَغْيِ عَكْسَ الْأَمَلِ  
 أَكْذَبَ الْحُسْنُ بِجَمَالٍ . وَقَدْ  
 كَانَ مَشْهُورًا كَيَوْمِ الْجَمَلِ  
 فَتَحَ الْحَيْنَ لَهَا - إِذْ فَتَحَتْ  
 بَارْتِكَابِ الْخُلْفِ - بَابَ الزَّلَلِ (2)  
 فَغَدَّتْ مِنْ جَهْلِيهَا الْفَاحِشِ مِنْ  
 بَابِ الْأَعْرَابِ لِبَابِ الْبَدَلِ

(1) فهم المعجز مشكل ، والعل كالعلل : الشرب بعد الشرب ، وذلك من النمل مدعاة لغدق ما في بطنه هذا على الأصل . وفي ز ، ح : من اعرف بيت النمل واعرف محرف اغرق فيكون على معنى التمثيل بمن صب الماء على بيت النمل فهاجها للخروج .

(2) باب الزلل ، معمول فتح ، وفيه اشتغال .

كَيْفَ تَخْطِي مِنْ تَعْدَى طَوْرَهُ  
 صَرْعَةً يَهْوِي لَهَا فِي التَّلَلِ  
 فَمَضَى السَّيْفُ بِهِمْ فِي غُلَّةٍ  
 وَاشْتَفَى مِنْ دَمِهِمْ بِالْعَلَلِ  
 فَادْكُرِ الْأَيَّامَ فِي النَّاسِ تَجِدُ  
 يَوْمَهُمْ هَذَا كَيَوْمِ الظَّلَلِ  
 مَا لِعَمْدُونَ عَمُوا عَنْ شَأْنِهِ  
 وَهُوَ كَالشَّمْسِ دَنَتْ لِلطُّفَلِ  
 أَوْ نَسُوا مِنْ أَمْرِهِ النَّهَائِلِ مَا  
 كَانَ ، وَالْعَهْدُ بِهِ لَمْ يَطُلِ  
 نَصَبُوا الْحَرْبَ لِمَنْ أَلْوَى بِهِ  
 وَاحْتَسَاهُ أَكْلَةً فِي الْأُكُلِ  
 / وَتَنَادَوْا كُلُّ رَهْطٍ يَدْعِي  
 أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا لَمْ يَقُلِ  
 مَا اسْتَتَمُوا الرَّأْيَ حَتَّى عَايَنُوا  
 نَقْمَةَ اللَّهِ الَّتِي لَمْ تَزَلِ  
 عَايَنُوا الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ  
 شِرْكَةً مَا بَيْنَهُمْ وَالْوَعَلِ  
 كُلُّ شَيْءٍ كَاشِفٌ عَنِ أَجْرَدِ ،  
 كُلُّ فِتْرٍ كَاشِفٌ عَنْ بَطَلِ  
 فَإِذَا أَبْصَارُهُمْ زَائِغَةٌ  
 مِنْ بَلَايَا مَا بِهِ مِنْ قَبَلِ  
 ثُمَّ نَاطَتْ غَايَةَ الْحَرْبِ بِهِمْ  
 حَلَقَ الْأَذْقَانِ وَصَفَعَ الْقُدُلِ



غَمَّةٌ مَا انْكَشَفَتْ حَتَّى انْجَلَتْ  
عَنْ سَدَى (1) الرَّأْيِ وَمَحْضِ الْخَلَلِ  
يُنْعِبُ النَّصْحُ . وَلَا يَنْفَعُ فِي  
فَاسِدِ الْأَذْهَانِ ضَرْبُ الْمَثَلِ  
يَا أَمِيرًا طَلَعَتْ دَوْلَتُهُ  
تَتَسَامَى غُرَّةً فِي الدُّوَلِ  
تَبْسُطُ النَّفْسَ بِسِنِّ بَاسِمِ  
وَمُحِيًّا مَا بِهِ مِنْ بَسَلِ (2)  
يُنْشِدُ الْمُنْصِيفُ فِي تَوْصِيْفِهَا  
شِعْرَ تَمَامٍ . وَبَيَّتَ الْهَيْدَلِ  
نَائِتَهَا لَا مُعْمَلًا فِي ذَائِلِ  
لَا وَلَا فِي الْيَعْمَلَاتِ الذُّبُلِ  
بَلْ وَلَا اسْتَعْمَلَتْ فِي تَحْصِيلِهَا  
— عَمَلَ الْغَادِرِ — بَعْضَ الْغِيَلِ  
طَهَّرَتْ مِنْ نَجَسِ السَّفَكِ وَمِنْ  
صَرَخَةِ النَّاعِي بِصَوْتِ الشَّكْلِ  
صَدَقَتْ أَنْ ذَكَرَتْ فِي فَخْرِهَا  
عَنْ سِوَاهَا مِثْلَ قَوْلِ الْجَبَلِيِّ  
وَهِيَ أَعْلَى أَنْ تُرَى مُخْطِئَةً  
رُشِدُهَا فِي قَوْلِهَا وَالْعَمَلِ  
حَيْثُ رَدَّتْ كُلَّ مَنْ يَخْطُبُهَا .  
وَاسْتَجَابَتْكَ . وَقَالَتْ : بَجَلِ (3)

(1) بالضم وبالفتح : المجهل الساقط (يحسب الإنسان أن يترك سدى).

(2) كدريه المنظر.

(3) بجل — يفتضح فيكون — كنتم وزنا ومعنى .

فَاسْتَوَى الْأَشْهُادُ وَالْحَاكِمُ فِي  
أَنْتَ الْأَكْفَى وَبِالْمَهْرِ مَلِي  
أَيُّ عَقْلٍ . بَعْدَ هَذَا . يَمْتَرِي  
فِي وَضُوحِ الْحَقِّ . وَالْحَقُّ جَلِي ؟  
أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي أَمْدَاحُهُ  
قَصَرَتْ عَنْهُ فَهِيَ فِي خَجَلِ  
إِنْ فَتَحًا جَاءَكَ الْمَأْمُونُ فِي  
وَسْطِهِ . فَتَحْ بِرَبْحِ عَجَلِ  
سَعْدُ إِقْبَالٍ وَبَخْتٍ مُؤَذِّنُ  
بِالْأَمَانِيِّ وَالْهِنَا الْمُتَّصِلِ  
مَلِكٌ مِنْ مَلِكٍ مِنْ مَلِكٍ  
أَنْشِطُ الْمُلُوكِ بِهِ مِنْ عَقْلِ  
إِهْنِ بِالْفَتْحِ . وَبِالرَّبْحِ مَعًا .  
فِي هَذَا مَوْلِدِ خَيْرِ الرُّسُلِ  
عَائِدًا مِنْهَا إِلَى أُمَثَالِهَا  
صَالِحِ الْحَالِ . بَعِيدِ الْأَجَلِ  
يُضْبِحُ الْمُلُوكُ بِكُمْ مُبْتَسِمًا  
ثُمَّ يُنْسِي مَائِسًا فِي جَدَالِ  
/ لَا يَرَى فِي رُمُوحِكُمْ مِنْ قِصَرِ  
لَا وَلَا فِي سَيْفِكُمْ مِنْ كَلَلِ  
إِي . وَلَا أَعْرَضْتُمْ عَنْ شَاعِرِ  
جَاءَ بِالْأَجْمَلِ غِبَّ الْأَجْسَلِ  
عَادَةُ السُّوقِ إِذَا مَا جَاءَهَا  
عَارِفُ التَّجَرُّ بَدَا بِالْدَقْلِ (1)

(1) الدقيل اسوا النمر . عكس اصطلاحنا الآن . ومراده الاعتذار عن تأخير الهناء بأنه تراك اول  
الضمائر المتعرجة . القفار .



ذَهِيلَ الدَّهْنِ وَلَكِنْ مَدْحُكُمْ  
 يُلْبِسُ الْخَامِلَ أَبْهَى الْحَالِ  
 رُمَتْهَا دُرًّا بِبَحْرِ زَاخِرٍ  
 أَوْ دَرَارٍ أَطْلَعَتْ فِي الْحَمَلِ  
 نَازِلًا لِلْغَوْرِ فِيهَا تَارَةً  
 ثُمَّ أُخْرَى صَاعِدًا عَنْ زُحَلِ  
 كَيْ أَحْلَيْهَا بِأَحْلَى ذِكْرِكُمْ  
 وَأَحْشَى زَيْنَهَا عَنْ عَطَلِ  
 فَإِذَا أَنْشِدَ مِنْهَا جَانِبٌ  
 سَارَ فِي الْآفَاقِ سَيْرَ الْمَثَلِ  
 شُكْرُ نِعْمَاكَ الَّتِي قَلْبِي لَهَا  
 خَاضِعٌ عَنْ ذِكْرِهَا لَمْ يَحُلْ  
 كَيْفَ أَنْسَى لَيْلَةً نَادَيْتَنِي :  
 ثِقْ بِكَفِّي يَا غَرِيقَ الْوَجَلِ !  
 وَأَنَا أَحْجِلُ فِي حِجَلِ (١) الرَّدَى  
 يَا لَهُ ! بَعْدًا لَهُ مِنْ حِجَلِ  
 بَيْنَ أَنْيَابٍ وَظُفْرِ نَاشِبٍ  
 تَنْشِيرُ الْأَعْظَمَ بَعْدَ الْعُضَلِ  
 أَسْأَلُ اللَّيْلَ عَنِ النَّجْمِ وَلَوْ  
 طَلَعَ النَّجْمُ شَفَى مِنْ عِلِّي  
 أَمْسَحُ الْجَفْنَ وَلَا دَمْعَ بِهِ :  
 يَقْلُقُ الدَّمْعُ إِذَا لَمْ يَسِلْ  
 فَاعْتَنَمْتُ الْأَجْرَ مُمْتَازًا بِهِ  
 جَاذِبًا لِي مِنْ عَظِيمِ الْوَحَلِ

(١) الحِجَلُ : القَد.

قَالِبًا قَلْبِي إِلَى مُعْتَادِهِ  
 جَابِرًا كَسْرِي بِحَمَلِ الْحَمَلِ  
 رَحْمَةً لِي وَلَأَفْرَاحٍ دَبَوَا  
 مَا لَهُمْ تَحْتَ السَّمَاءِ مِنْ وَآلِ (١)  
 لَوْ تَمَادَّتْ بِهِمُ الْحَالُ مَضَوَا  
 بَعْدُ شَتَّى ، فِي عِدَادِ الْهَمَلِ  
 إِنَّمَا يَبْنِي كَذًا مَنْ خُلِقَتْ  
 نَفْسُهُ سَالِمَةً مِنْ دَغَلِ  
 يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى ، حَالِفًا :  
 إِنَّمَا أَنْتَ أَمِيرٌ وَوَلِي  
 فَابْقَ فِي الْخَيْرِ الْمُهْنَا غَادِيًا  
 رَائِحًا فِي خَيْلِهِ وَالْخَوَلِ  
 وَأَصْحَبِ الدَّهْرِ كَمَا تَخْتَارُهُ  
 ظَافِرًا فِيهِ بِأَقْصَى أَمَلِ

وقوله في هذه القصيدة : «ما لعمدونَ عَمُوا عَنْ شَأْنِهِ الْخ» إشارة  
 إلى مُخَالَفَةِ «عمدون» بجلهم وعصيانهم إثرَ فَتْحِ وِسْلَاتٍ ، فخرج  
 إليهم الوزير الأجل رجب خزنة دار بالمَحَلَّةِ / واستنفر لهم العرب وقاتلوهم  
 فأذعنوا بالطاعة وأدوا له ما عليهم من المجابي والأعشار ، ورجع عنهم ،  
 وذلك في أوائل سنة ست وسبعين [1763/1176] .

وقال الأديب البارِعُ (علي الغُرَابِ الصَّفَاقِسي) ، وهي رسالة تشتمل على  
 تواريخ بديعة نثرا ونظما :

«الحمد لله الذي أذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، ورفع الْفِتْنَ وَالْمِحْنَ ، والصلاة  
 والسلام على من اتَّخَذَهُ اللهُ عَلَى وَحْيِهِ أَمِينًا . وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ

(١) النَوَالُ : المَوْتَل والمَلَجَا.



فَتَحَنَّنَ مُبِينًا . وَأَرْسَلَهُ إِلَى كَافَّةِ الْخَلْقِ بِبَشِيرَةٍ وَنَذِيرَةٍ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا . إِلَى  
مَنْ نَازَلَ حَصُونِ الْمَعَالِي حَتَّى اسْتَفْتَحَ أَغْلَاقَهَا . وَبَارَزَ كُفَاةَ الْمَعَانِي حَتَّى  
مَدَّتْ بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ أَعْنَاقَهَا . وَضَرَبَتْ السَّعَادَةَ عَلَيْهِ رِوَاقَهَا . وَاتَّخَذَتْ  
مِنْ نَعْلَيْهِ نِيطَاقَهَا . وَعَالَجَ عَقْمُ الْآرَاءِ حَتَّى أَنْتَجَ أَرْحَامَهَا . وَزَاوَلَ  
أَبْكَارَ الْمَعَاقِلِ حَتَّى فَتَكَ خِتَامَهَا . وَأَصْبَحَتْ الْأَيَّامُ لِأَبْوَابِهِ خَادِمَةً .  
وَالسَّعُودُ عَلَى لَثَمِ أَعْتَابِهِ مُتَزَاحِمَةً . أَلَا وَهُوَ رَئِيسُ الْأَمْرَاءِ . وَسَيِّدُ  
الْعُظَمَاءِ وَالْكَبْرَاءِ . صَاحِبُ اللُّوَاءِ السَّاطَانِيَّةِ . وَالْمَوْكِبِ الْخَافَانِيَّةِ .  
الْمُصِيبِ بِسَهْمِ الْقَوْلِ وَالرَّأْيِ . مَوْلَانَا السَّلْطَانُ الْبَاشَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنِ  
الْمُقَدَّسِ الْمَرْحُومِ حُسَيْنِ بِنَايِ أَمَدِ اللَّهِ بِالْعِزِّ فِي وَلَايَتِهِ . وَحَرَسَ رِيَاضَ  
مُلْكِهِ وَكَلَّاهُ بِحَسَنِ لُطْفِهِ وَعَيْنِ رِعَايَتِهِ .

أما بعد فقد ورد علينا من المَسْرُة ما أغار على بُغَاةِ الْهَمُومِ فَأَجْلَاهَا مِنْ  
أَوْطَانِهَا . وَجَارَ عَلَى عِدَاةِ الْأَسْقَامِ فَاسْتَأْصَلَهَا مِنْ أَيْدَانِهَا . حِينَ اتَّصَلَ  
بِنَا أَنْ الْبُغَاةَ أَصْبَحَ أَكْثَرُهُمْ بِمَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ يَلْتَجِئُونَ . «وَجَاءَ أَهْلُ  
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ» . وَأَخْبَرُوا أَنَّ رُؤُوسَهُمْ فَرَّوْا هَارِبِينَ .  
«وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» . وَأَخَذَ كُلُّ مَنْهُمْ فِي مَفَرِّهِ مَحَجَّةً .  
وَجَاءَ مُخْبِرُهُمْ بِذَلِكَ يَقُولُ مُؤَرِّخًا : (فَرَّ ابْنُ يُونُسَ بَانْتِهَاءَ حِجَّةً) .  
[1175] وَذَلِكَ حِينَ رَأَوْا أَنَّهُمْ مَا وَرَدَتْ طَوَائِفُهُمْ إِلَى مَكَانِ غَازِينَ . إِلَّا  
«وَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» . «وَأَخَذُوا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا»  
وَأَصْبَحُوا : «لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» . وَصَارَتْ  
جُلَاصُ كُفُوءٍ لَهُمْ دُونَ الْأَجْنَادِ . فَمَزَقَتْ شَمْلَهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَوَادَ .  
وَأَقْبَلَتْ بِأَكْثَرِ رُؤُوسَائِهِمْ رُؤُوسًا بِلَا أَجْسَادَ . «وَأَخْرَجَتْ مَقَرَّتَيْنِ فِيهِ  
الْأَصْفَادَ» . فَاشْتَدَّ بِهِمُ الْإِشْفَاقُ . وَضَاقَ عَلَيْهِمُ الْخَنَاقُ . وَبَلَغَتْ الرُّوحُ  
التَّرَاقِي وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ «مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» وَلَا  
وَاقَ . فَأَيَقَنُوا بِالْهَلَاكِ عَتِيدًا . وَفِي ذَلِكَ التَّارِيخِ «زَلَزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا» .  
[1176] وَحِينَ تَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ إِلَى الْبَوَارِ صَائِرُونَ . «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

مِنْ يَسْتَبْشِرُونَ» . وَأَنَّهُمْ «إِنْ يَتَّبِعُواكُمْ يُوَلِّوْكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا  
يُنْصَرُونَ» . وَمَا أَمَرُوا «أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .  
تَفَرَّقَ أَصْحَابُ الْبَاغِي عَلَيْهِ . «وَوَظَّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» .  
بَعْدَ أَنْ سَلَبَ كُلُّ مَنْهُمْ بِهِذِهِ / الْفِتْنَةِ نِعْمَتَهُ الَّتِي كَانَ يَحْوِيهَا . «وَأَصْبَحَ  
يَقْتَلِبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا» . وَفَسَدَ مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الْجَبَلِ  
مِنْ التَّحَصُّنِ بِذَرَاهِ . «وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ» .  
حِينَ عَكَسَ اللَّهُ أَمَالَهُمْ . وَصَرَّمَ حَبَالَهُمْ . فَمَا تَلَبَّثُوا بِهِ إِلَّا بِسِيرَةٍ  
«وَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» فَخَذَلَ اللَّهُ  
أَنْصَارَهُمْ . وَجَعَلَ غَنِيْمَتَهُمْ فِرَارَهُمْ . وَحَقَّ اللَّهُ آثَارَهُمْ . «وَأَوْرَثَكُمْ  
أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ» . وَانْقَرَضَتْ عَصْبَةُ الْبُغَاةِ الْمُفْسِدِينَ . «وَقَطَعَ  
اللَّهُ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .  
فَطَالَمَا أَنْذَرُوا بِالْقَوْلِ الْفَصْلَ . وَأَمَرُوا بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ .  
وَقِيلَ لَهُمْ : «لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ» . فَلَمْ تُغْنِ  
عَنْهُمْ النُّذُرُ بِمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْغَيِّ وَالْجَهْلِ . وَالْقُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى  
التَّهْلُكَةِ بِذَلِكَ الْفِعْلِ . وَزَعَمُوا أَنْ الْفِرَارَ يَحْمِيهِمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ فِي الْوَعْرِ  
وَالسَّهْلِ . «قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ  
الْقِتْلِ» . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هِنَاءِ سَيِّدِنَا حَيْثُ قَادَ اللَّهُ لَهُ أَعْدَاءَهُ بِالطَّاعَةِ وَالِامْتِثَالِ .  
وَأَقْبَلَتْ خَاضِعَةً إِلَيْهِ بِالْمَسْكِنَةِ وَالْإِذْلَالَ . «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ  
الْقِتَالَ» . فَأَخَذَتْهُمْ بِسَعْدِكَ . لَا بِجَنْدِكَ . وَحَارَبَتْهُمْ بِجَيْشِ الصَّبْرِ .  
لَا بِجَيْشِ الْحَصْرِ . إِذْ كَانَ فِي تَرْكِ مَحَارِبَتِهِمْ . وَعَدَمِ الْاهْتِمَامِ بِهِمْ . أَشَدَّ  
الْإِهَانَةَ لَهُمْ وَالِاحْتِقَارَ . وَسَبَبُ فِي اسْتَهْوَانِ الْبَادِيَةِ لَهُمْ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ  
الِاسْتِصْغَارِ . فَيَسَّالَهَا بِشَائِرِ خَلْعِنَا عَلَى الْبَشِيرِ بِهَا مِنْ الطَّرِبِ عَقُولُنَا .  
وَمَسَرَاتِ رَدْدِنَا بِهَا إِلَى الشَّبَابِ مَشَايِخُنَا وَكُهُولُنَا . وَتَكَفَّلَتْ لَنَا بِدَفْعِ  
الْخَطُوبِ الدَّوَّاجِ . وَشَفَاءِ الدَّاءِ الْعُضَالِ وَتَعْدِيلِ الْمِزَاجِ . فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى  
لِسَيِّدِنَا دَوَامَ التَّايِيدِ . وَالْعُمُرَ الْمَدِيدِ . وَإِذْعَانَ الْخَلْقِ بِالطَّاعَةِ . وَتَأْيِيدَ  
الْمُلْكِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ . وَهَذِهِ تَوَارِيخُ فِي الْمَعْنَى :



وَسَلَاتِ كُمْ غَرَّ بِيَمِينِ أُمِّهِ  
قَبِيحَ  
مَا مَعَهُ مِنْ قُوَّةٍ مِنْهُمْ  
تَلَفَنِي وَلَا مِنْ دِرْهَمٍ حَاضِرٍ  
أَمَّا تَرَى تَارِيخَهُمْ : (مَالَهُمْ  
مِنْ قُوَّةٍ مَعَهُ وَلَا نَاصِرٍ)  
1175

غيره

سِرُّ إِلَى الْأَعْرَابِ أُمَّمُ أَرْضَهُمْ  
إِذْ أَتَى الْفَتْحُ وَذُو الْبَغْيِ تَنَحَّى  
وَأَنَّاكَ النَّصْرُ فِي تَارِيخِهِ :  
(أُمُّهُ) إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحًا  
1176

غيره

مَوْلَايَ هَذَا الْعَامُ جَاءَ بِفَتْحِهِ  
يَسْعَى بِتَعْظِيمٍ لَكُمْ وَتَكْرُمٍ  
وَبِحَلِّ وَسَلَاتٍ أَتَاكَ مُؤَرَّخًا :  
(قَدْ حُلَّ وَسَلَاتٍ بِيَدِهِ مُحَرَّمُ)  
1174

/ وقال مهنثا :

[26 - ب]

مَوْلَايَ يَهْنِيكَ هَذَا الْفَتْحُ مَبْتَكِرًا  
مِنْ غَيْرِ جَيْشٍ وَلَا سَيْفٍ بِهِ شُهُرَا  
لَا بِلِ بِيَجِيْشَيْنِ جَيْشِ الصَّبْرِ يَصْحَبُهُ  
جَيْشٌ مِنْ السَّعْدِ لَا يَنْفَكُ مُنْتَصِرًا  
قَادَ الْعِدَا لَكَ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ  
بِأَسْرِهِمْ مِنْ أَقَاصِي أَرْضِهِمْ أُسْرًا

هَمُّ أَذْعَلُوا طَاعَةً مِنْ خَوْفِهِمْ . وَأَتَى  
كُلُّ إِلَيْكَ بِثَوْبٍ الذَّلِّ مُتَزِرًا  
عَفَوْتَ عَنْهُمْ جَمِيعًا إِذْ أَتَوْكَ ، وَلَا  
عَفَوْتُ عَلَى مِثْلِ ذَنْبٍ مِنْهُمْ صَدْرًا  
لَكِنْ سَجِيَّةُ نَفْسٍ مِنْكَ قَدْ كَرُمْتُ  
لِتَغْنَمَ الشُّكْرَ . وَالْمَحْظُوطُ مِنْ شُكْرًا  
وَفَرَّ ثَائِرُهُمْ يَطْوِي الْفَلَاةَ وَلَوْ  
أَتَاكَ مُؤْتَمِنًا لَمْ يَرْتَقِبْ ضَرَرًا  
فَاللَّهُ أَعْطَاكَ أَخْلَاقًا مُقَدَّسَةً  
وَحُسْنَ صَبْرٍ عَلَى الْأَحْدَاثِ مُنْتَصِرًا  
جَاءُوا وَلَمْ يَقْنَعُوا بِالْمُلْكِ ، ثُمَّ رَضُوا  
بِغْنَمِهِمْ مِنْ فِرَارٍ مِنْكَ مُسْتَتِرًا  
تَحَصَّنُوا مِنْكَ فِي الْأَجْبَالِ مِنْ حَذَرٍ  
وَلَا يَلَامُ امْرُؤٌ مِنْ ضِيْغَمٍ حَذَرًا  
فَلَمْ تَجْهَزْ لَهُمْ جَيْشًا يُحَارِبُهُمْ  
إِذْ جَمَعَهُمْ جَمْعٌ تَكْسِيرٍ وَإِنْ كَثُرَا  
لَيْسُوا بِكُفَّاءٍ لِتَجْهَيزِ الْجِيُوشِ لَهُمْ ،  
لَكِنْ جِلَاصٌ لَهُمْ كُفَاءٌ وَإِنْ قَصُرَا  
مَا اللَّيْثُ يَرْضَى قِتَالِ الثَّعْلِبَانِ وَلَا  
بَازٍ يُبَارِزُ عُصْفُورًا لِيَفْتَخِرَا  
خَانُوا الْعُهُودَ وَبِالنَّعْمَاءِ قَدْ بَطَرُوا  
أَخْسِرَ بِيَمَنِ خَانَ عَهْدَ اللَّهِ أَوْ بَطَرَا  
هُمْ آثَرُوا الْمَكْرَ مِنْ خُبْثٍ فَحَاقَ بِهِمْ  
وَالْمَكْرُ مَا حَاقَ إِلَّا بِمَنِ مَكَّرَا



قُلْ لِّلشَّكَّيِّينَ : «مَا الدَّاعِي الَّذِي خَرَجُوا  
 بِهِ عَنْ آبَائِهِمْ حَسْبَيْنِ سَيِّدِ الْأُمَرَاءِ ؟  
 الْمَالِكِ الْكَامِلِ الْبَاشَا الْأَعْمَرِ عَمَلِي  
 بَنِي حَسِيدِ الْمَزَايَا فَاقْدِرِ النَّظَرَ  
 مَلِيكَ حِلْمٍ وَعَفْوٍ فِي الْجَنَابَةِ لَا  
 يَشْنِيهِ عَدُوٌّ عَدُوْلٍ طَالَ أَوْ قَصُرَا  
 فَالْعَفْوُ مِنْهُ عَلَى ذَنْبِ الدُّلَّةِ  
 طَعْمًا مِنَ الْأَخْذِ لِلْجَنَابِيِّ . وَإِنْ كَبُرَا  
 مَا رَدَّ عَافِيهِ مَحْرُومًا . وَرَاحَتُهُ  
 كَنَهْرٍ سَيَحْنُونَ . بَلْ مِنْ رَاحَتِيهِ جَرَى  
 لَمْ يَخْلُ عَنْ دَرَسِ فِقْهِ الدِّينِ مَجَالِسُهُ  
 يَوْمًا . وَلَا مِنْ حَدِيثِ الْمُصْطَفَى هُجْرًا  
 يَكَادُ لَوْ شَاءَ — مَنْ تَقْوَى الْإِلَهِ — لَهُ  
 تَأْتِي الْحَجَارَةُ سَعِيًّا لَوْ دَعَا الْحَجَرَ  
 تَرَاهُ بَدْرًا مُنِيرًا فِي مَوَاقِبِهِ  
 وَفِي النَّزَالِ عَلَى جَمْعِ الْعِدَى شَرًّا  
 إِذَا رَأَاهُ الْعِدَى وَلَّتْ مُقَهْقِرَةً :  
 هَلْ يَثْبُتُ الْوَحْشُ إِنْ لَيْتُ الشَّرَى كَشْرًا ؟  
 مَوْلَايَ . شُكْرًا عَلَى فَضْلِ الْإِلَهِ . فَلَمْ  
 يُحْرَمْ زِيَادَةَ فَضْلِ اللَّهِ مَنْ شُكِرَا  
 إِنَّا نُهَنِّئُكَ بَلْ كُلِّ الْأَنْبَاءِ بِكُمْ  
 غَدَتُ تَهْنَأُ . وَالْمُدَاحُ وَالشُّعْرَا  
 / هَذَا وَإِنِّي مُذْ فَارَقْتُ حَضْرَتَكُمْ  
 حِلْفُ الضَّنَى . فِي إِسَارِ الْحَصْرِ مُنْحَصِرَا

[27 - أ]

حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ عَمَلِي بِشَائِرِكُمْ  
 جَاءَتْ بِإِطْلَاقِ ذَلِكَ الْأَسْرِ مُبْتَدِرَا  
 لَا زَالَ مَلِكُكَ . يَا مَوْلَايَ . مُقْتَرِنَا  
 بِالْعِزِّ وَالسَّعْدِ وَالْإِقْبَالِ مُعْتَمِرَا  
 وَالْدَّهْرِ عَبْدُكَ لَا يَنْفَكُ مِنْتَهِيَا  
 إِذَا نَهَيْتَ . وَمَأْمُورًا إِذَا أَمِرَا

وقلت أنا :

مِهَادٌ لِيَجَنَّبَ الْعِزَّ ظَهَرُ السَّلَاحِ  
 وَبَرْدٌ لِيَصْدُرَ الْمَجْدِ حَرُّ الْمَضَارِبِ  
 وَسُمُرُ الْعَوَالِي لِلْمَعَالِي دَعَائِمُ  
 وَبَيْضُ الْمَوَاضِي سَلَمٌ لِلْمَرَاتِبِ  
 فَلَا وَأَبِي . لَا يَبْلُغُ الْمَجْدَ عَاجِزُ  
 يُعَدِّلُ نَفْسًا بِالْأَمَانِي الْكُؤَاذِبِ  
 وَلَكِنْ فَتَى قَدْ جَرَّدَ السَّيْفَ طَالِبَا  
 بِهِ مِنْ حَقُوقِ الْمَجْدِ أَسْنَى الْمَطَالِبِ  
 يَهَابُ الدَّنَايَا أَنْ تُدَنِّسَ عِرْضَهُ  
 وَلَيْسَ لِأَسْبَابِ الْمَنَايَا بِهَائِبِ  
 يِعَافُ وَرُودَ الْمَاءِ لَيْسَ بِهِ دَمٌ  
 وَيَتْرُكُ طَعْمًا نَالَهُ غَيْرَ غَاصِبِ  
 فَذَلِكَ إِنْ يَظْفَرُ فَأَكْرَمُ ظَافِرٍ .  
 وَإِلَّا فَعَدُوُّ السَّيْفِ فِي كَفِّ هَارِبِ  
 هِيَ الْحَرْبُ مِنْ يَعْلَقُ بِهَا يَبْلُغُ الْمُنَى .  
 وَهَلْ نَالَ أَقْصَى الْمَجْدِ غَيْرُ الْمُحَارِبِ ؟



وَمَنْ لَا يَهَبُ يَغْلِبُ . وَمَنْ كَانَ ضَارِبًا  
بِسَيْفٍ عَلَيَّ كَانَ أَغْلَبَ غَالِبِ  
أَمِيرُ الْعُلا وَالْحِلْمِ وَالْيَأْسِ وَالنَّدَى  
وَأَشْجَعُ مِقْدَامَ وَأَكْرَمُ وَاهِبِ  
مَلِيكَ تَسَامَى فِي الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا  
بِحَيْثُ غَدَا مَشَوَاهُ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ  
تَبَوَّأَ مِنْهَا حَيْثُ إِنَّ يَبْغِ رُتْبَةً  
يَمْدُ إِلَيْهَا مِنْ عِلِّ كَفَّ جَاذِبِ  
بَصِيرٍ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا  
يُرِيهِ حِجَاهُ شَاهِدًا كُلَّ غَائِبِ  
وَكُلُّ يَرَى صَدْرَ الْأُمُورِ وَإِنَّمَا  
تَبِينُ مَزِيَّاتُ النُّهَى فِي الْعَوَاقِبِ  
رَجَاحَةُ عَقْلٍ حَنَكْتُهُمَا تَجَارِبِ  
وَهَلْ رَجَحَ الْأَلْبَابَ مِثْلُ التَّجَارِبِ ؟  
وَلِإِقْدَامُ مَنْ لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ ، وَالْفَتَى  
يَنَالُ الْمُنَى مَا كَانَ لَيْسَ بِرَاهِبِ  
يَخِفُ إِلَى دَاعِي الْوَعَى مُتَهَلِّلًا  
يُجَرَّرُ أَذْيَالُ الْقَنَا . وَالْقَوَاضِي  
يُبَارِي جِيَادَ الْخَيْلِ فِي خِيَلَانِهَا  
كَأَنَّ مَجَالَ الْحَرْبِ بَيَاضُ الْمَلَاعِبِ  
يُظَنُّ دَمُ الْأَبْطَالِ فِي مَتْنِ سَيْفِهِ  
تَوَرَّدَ خَدٌّ . فَوْقَ خُضْرَةِ شَارِبِ  
/ وَطَعْنَةُ رُمَحٍ ، تَحْتَ ضَرْبَةِ سَيْفِهِ  
هِيَ الْمُقْلَةُ النَّجْلَاءُ مِنْ تَحْتَ حَاجِبِ

[27 - ب]

هُوَ الْقَائِدُ الْجَرْدُ السَّلَاحُ لِلْوَعَى .  
تَقَوَّتْ غَدَاةَ السَّبْقِ طَرَفَ الْمُرَاقِبِ  
تَطِيرُ وَقَدْ خَاضَتْ إِلَى الرَّسْغِ فِي الدَّمَآ  
كَعِقْبَانِ جَوْ دَامِيَّاتِ الْمَخَالِبِ  
رِيَّاحُ أَثَارَتِ مِنْ غُبَارِ سَحَائِبِ  
تَرَى الشُّقْرَ مِنْهَا بَرَقَ تِلْكَ السَّحَائِبِ  
عَمْدُنَ إِلَى عَمْدُونِ مِنْ بَعْدِ وَقْعَةٍ  
بِوَسْلَاتِ سَالَتْ بِالدَّمَآ السَّوَاكِبِ  
كَذَا الْجَبَلَيْنِ أَبْطَرَّتْهُ فَوَاضِلِ  
بِنُعْمَاكَ لَا تُحْصَى بِحِسْبَانِ حَاسِبِ  
أَفْضَتْ النَّدَى فِيهِمْ . وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ  
بِضَرْبِ الطَّلَى يَنْقَادُ . لَا بِالْمَوَاهِبِ  
فَبَدَلْتَهُمْ إِذْ بَدَلُوا الطَّوْعَ جَفْوَةً  
حِرَابًا بِمَا أَوْلَيْتَهُمْ مِنْ حَرَائِبِ  
وَسَقَمَتْ لَهُمْ لَيْلًا مِنَ الْجَيْشِ بِيضُهُ  
نُجُومٌ هَوَتْ مِنْ هَامِهِمْ فِي مَغَارِبِ  
فَجَاءَ تِلْكَ وَقْدًا بَعْدَ وَقْدِ رُءُوسِهِمْ .  
وَلَيْسَ لَهَا غَيْرُ الثَّقَنَّا مِنْ رَكَائِبِ  
لَنْ لِنَ صَدِئَتْ أَفْكَارُهُمْ مِنْ غَوَايَةِ  
فَنَفْسِي كَفَّكَ السَّيْفُ الصَّقِيلُ التَّرَائِبِ  
وَإِنْ أَظْلَمَتْ أَبْصَارُهُمْ مِنْ عَمَايَةِ  
فَمِنْ رَأْيِكَ النُّورُ الْمُرِيلُ الْغِيَاهِبِ  
وَمَا زِلْتُ تُولِي كُلَّ يَوْمٍ عَلَيْهِمْ  
كَتَائِبَ نَصْرٍ . أُرْدِفْتُ بِكِتَائِبِ



/ مَدَحُكَ حُبًّا فِي عِلَاكَ وَرَغْبَةً .  
 وَمَا أَنَا فِي غَيْرِ الْمُعَالِي بِرَاغِبٍ  
 إِذَا كُنْتَ تَرْضَى بِاجْتِلَاءِ غَرَائِبِي  
 عَلَيْكَ . فَمَا لِي وَاجْتِدَاءُ الرِّغَائِبِ ؟  
 فَدُونِكَ مِنْ حُرِّ الْكَلَامِ مَدَائِحًا  
 كَعَقْدٍ مِنَ الْيَاقُوتِ فِي جِدِّ كَنَائِبِ  
 مَعَانٍ لِإِفْرَاطِ السَّنَا لَوْ تَجَسَّمَتْ  
 لَزَادَتْ فَرِيقًا فِي النُّجُومِ الشَّوَابِ  
 لَقَدْ سَلَ مِنْكَ اللَّهُ سَيْفًا مُهَنَّدًا  
 فَلَا فَلَ مِنْهُ الدَّهْرُ عَضْبَ الْمُضَارِبِ  
 وَعَزَّزَ مِنْكَ النَّيِّرِينَ بِثَالِثِ  
 فَدُمْتَ عَلَى طُولِ الْمَدَى غَيْرَ غَارِبِ

وهذه القصيدة عارضت بها قصيدة لأبي عبد الله محمد الوري مدح بها  
 مخدمه علي باشا وهي من غرر شعره مطلعها :

هُوَ الْعِزُّ فِي سُمُرِ الْقَنَا وَالْقَوَاضِ .  
 وَإِلَّا فَمَا تُغْنِي صُدُورُ الْمَرَاتِبِ (1)

وَبَقِيَتْ هَاهُنَا أَشْعَارُ كَثِيرَةٌ أَضْرَبْنَا عَنْهَا لَعْدَمَ بَلَاغَتِهَا وَعَدَمَ نَبَاهَةِ  
 قَائِلِهَا .

وفي ليلة الإربعاء لتسع عشرة من صفر من سنة ست وسبعين وُلِدَ لِمَوْلَانَا  
 — أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى — وَلَدُهُ الْأَسْعَدُ الْأَمْجَدُ الْمُحْفَظُ بِعَيْنِ الْعَنَاءَةِ . الْمُصُونُ  
 بِحِفْظِ الرِّعَايَةِ ، الطَّاهِرُ الْمُبَارَكُ الْمَيْمُونُ مَوْلَانَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْمَأْمُونُ ،

(1) نقلها ابن أبي الضياف 2 : 134 وعقبها بتشكيت على المؤلف حيث لم ينقلها ونقل ما دونها ،  
 والعذر له كونها ليست من موضوعه .

إِلَى أَنْ أَتَوْا مَا بَيْنَ عَانٍ مُشَدَّدٍ  
 وَبَيْنَ شَرِيدٍ لَائِدٍ بِكَ تَائِبٍ  
 وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ سُبَّةٌ إِنْ أَخَذَتْهُمْ .  
 فَلَيْسَ سَطَا الْمُؤَلَّى لِعَبْدٍ بِعَائِبٍ  
 قَسَوْتَ لَهُمْ حَتَّى مَلَكَتْ قِيَادَهُمْ  
 فَعُدْتَ إِلَى مَا اعْتَدْتَ مِنْ لَيْنِ جَانِبٍ  
 عَفَوْتَ فَلَمْ تَسْتَبِقِ لِلْعَفْوِ غَايَةَ  
 وَفَرَجْتَ عَنْهُمْ عِنْدَ ضَيْقِ الْمَدَاهِبِ  
 وَلِلْحُرِّ — إِنْ كَانُوا كَذَلِكَ — خَجَلَةٌ  
 مِنَ الْعَفْوِ أَنْكَى مِنْ عِقَابِ الْمُعَاقِبِ  
 أَبَا الْحَسَنِ افْخَرُ . فَالْمُلُوكُ بِأَسْرِهَا  
 مُقَصَّرَةٌ عَنْ بَعْضِ هَذِي الْمُتَاقِبِ  
 أَتَيْتَ بِفَرَضِ الْمَكْرُمَاتِ وَنَقْلِهَا .  
 وَأَكْرَمَهُمْ مَنْ لَا يُخِلُّ بِوَأَجِبِ  
 خَطَبْتَ الْعُلَا بِالسَّيْفِ حَتَّى مَلَكَتْهَا  
 وَلَيْسَ بِكَفٍّ لِلْعُلَا كُلِّ خَاطِبِ  
 عَجِبْتُ لِرُمَحٍ وَارِدِ أَبْحَرِ النَّدَى  
 بِكَفِّكَ يَثْنِي عِطْفَ ظَمَّانٍ شَاحِبِ  
 وَأَصْفَقَ مِنْ وَجْهِ النَّمِيَّةِ صَارِمِ  
 نَظَرْتُ إِلَيْهِ فَاثْنَيْ غَيْرَ ذَائِبِ  
 عَدَلْتُ وَلَمْ تَعْدِلْ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى .  
 وَأَوْرَدْتَ مِنْهُ كُلَّ صَافِي الْمَشَارِبِ  
 وَعَمَّ الْوَرَى ذَا الْعَدْلِ إِلَّا رَوَاحِلًا  
 لَوْفَرِكَ هَاضَتِهَا ثِقَالُ الْحَقَائِبِ



وقاد الله تعالى شر ما كان وما يكون . وهو شقيق مولانا أبي محمد حمودة باشا  
حفظه الله تعالى . وقال في تاريخه أبو العباس أحمد سديقة :

نَجْمٌ بَدَأَ مِنْ طَالِعِ مَيِّمُونَ  
بِسَمَاءٍ مُلْكٍ مُحَرَّرٍ مَأْمُون  
دَارُ الإِمَارَةِ أَشْرَقَتْ فَرَحًا بِهِ .

وَتَلَلَاتِ كَالذُّلُوفِ السَّكَنُونَ  
سَعِدَتْ مَنَازِلُهُ وَقَدْ زَادَتْ بِهِ  
حِصْنًا يَفُوقُ عَلَى أَجَلِ حِصُونِ  
يَحْمِي الْمُهَيِّمِينَ ذَاتَهُ وَيَصُونُهَا

مِنْ عَيْنِ مَعِيَانٍ وَسُوءِ عِيُونِ  
لِعَلِيِّ بَاشَا بْنِ الْحُسَيْنِ مُؤَرَّخًا :  
(فخرٌ جَلَا بِمُحَمَّدِ السَّمَاءُونَ)

وقال أيضا :

تَجَلَّ سَعِيدٌ بِالْفَلَاحِ مُؤَيَّدٌ  
فِي كُلِّ يَوْمٍ عِزُّهُ يَتَجَدَّدُ  
وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِ الْمَعَالِي أُمُّهُ .

وَلَهُ السَّلَامَةُ قَدْ سَعَتْ تَتَوَدَّدُ  
فَالْأَمْنُ بِالْمَأْمُونِ مُتَّصِلٌ إِذَا  
مَا كَانَ مُنْتَبِهًا وَإِذْ مَا يَرْفُودُ  
وَالسَّعْدُ فِي الْعُلَيَاءِ قَالَ : مُبَشِّرًا

أَرْخُ : (بَدَأَ قَمَرُ السُّرُورِ مُحَمَّدٌ)

وفي يوم السبت غرة جمادى الثانية من هذه السنة [1176] خرج مولانا - أيده  
الله تعالى - بمحلته / المنصورة لتمهيد البلاد وتسكينها . وتقرير الأمور وترتيبها .  
وخرج الوزير الأجل رجب خزنه دار بمحلة العسكر . فوصل مولانا - أيده

[28 - ب]

الله تعالى إلى القيروان وأقام بها وانفصل عنه خزنه دار بمحلة إلى الجريد  
فاستخلص مجاييه ونهض إلى [جبل] بني عياش . وكانوا قد خالفوا ومنعوا  
مجاياهم . فنازلهم حتى أذعنوا بالطاعة واستسلموا وانقادوا . وأدوا له ما  
عليهم من المال . فرحل عنهم راجعا . وخرج الوزير الفاضل الحاج علي بن  
عبد العزيز بمحلة أخرى وتوجه إلى المثلث واستخلص منهم أموالا كثيرة  
ورجع . وفي أيام إقامة مولانا بالقيروان أعطى عطايا جساما . وفرق أموالا  
عظاما . في أهل القيروان والعرب الذين كانوا محاصرين لرسالات وغيرهم ،  
وَقَرَّرَ الأحوال ومهداها . ورتب الأشياء في مواضعها . وعاد إلى حضرته  
تصحبه السلامة والتأييد . وكان دخوله إليها يوم الخميس لاثنتي عشرة  
بقيمن من رجب . فكانت مدة مغيبه عنها ثمانية وأربعين يوما . وفي ذلك  
يقول أبو الحسن علي الغراب يهتبه بعودته إلى الحضرة :

زَارَ بَعْدَ الْجَنَفِ وَخُلِفِ الْعُهُودِ (1) :

يَا لِيَالِي الْوِصَالِ . بِالْفُتُورِ عَوْدِي  
زَارَنِي وَالْعَيْنُونَ قَدْ كَحَلَّتْهَا

رَاحَ أَيْدِي الدُّجَى بِمِيلِ الْهَجُودِ  
حَامِلَ الصُّبْحِ وَالْدُّجَى مِنْ مُحِبًّا  
وَفُرُوعِ عَلَيْهِ مِثْلِ الْبُنُودِ

حِينَ جَلَى الشُّعُورَ عَنْهَا شَهِدْنَا  
طَلْعَةَ الشَّمْسِ فِي اللَّيَالِي السُّودِ  
سَاحِرُ الطَّرْفِ لَيْسَ يُنْكَرُ مِنْهُ

فِعْلٌ سِحْرٍ . وَقَدْ أَتَى بِشُهُودِ :  
حُبِّهِ بِالْفُتُودِ وَاللَّحْظِ دَاعٍ .

وَبِنَجْمٍ مِنْ خَدِّهِ مَرَّضُودِ

(1) في ز . ح : الوعود.



ذُو قَوَامٍ مِنَ الْأَرَاكِةِ أَحْنَى  
وَفُؤَادٍ أَقْسَى مِنْ الْجُلُودِ  
تَتَهَاوَى الْبُدُورُ فِي الْأَفْقِ شَوْقًا  
لِسَنَا وَجْهِهِ هَوِيَّ السَّجُودِ  
فَالَيْ كَمْ أَسِيرٌ وَجْدِي فِيهِ  
وَهَوَاهُ يَسْرُتَنِي فِي الْوُجُودِ ؟  
جَحَدْتَنِي لَامٌ جَحَدْتُ هَوَاهَا (1)  
مِنْ عِدَارِيهِ ! فَهِيَ لَامُ الْجُحُودِ  
بَاتَ يَجْلُو لَنَا حُمِيًّا عَلَى رَوْ  
ضٍ مُحْيَا زَهَا بِوَرْدِ الْخُدُودِ  
أَرِدُ الْعَذَابَ مِنْ لَمَاهُ وَأُسْتَقِّ  
طِيرُ لِي بِالْحَيَا مِيَاهَ الْوُرُودِ  
فِي رِيَاضِ زَهْتِ بِمُزْهِرِ عُودِ  
وَهَزَارِ شَدَا بِمُزْهِرِ عُودِ  
وَسَوَاقٍ بِهَا جَوَارٍ عَلَيْنَا  
وَجَوَارٍ مِنَ السَّوَاقِي الْغِيدِ  
وَعَلِيلُ النَّسِيمِ مَرَّ بِآسِ  
يَشْتَفِي مِنْ زَلَالِهَا بِوُرُودِ (2)  
/ لِي قَضَى السَّعْدُ بِالْمُنَى وَشُهُودِي  
كُلُّ غَضٍّ مِنْ غَضْنِهَا أُمْلُودِ  
مَا سِوَاهَا عَلَى الْقَضَاءِ شُهُودُ ،  
أَتَرَى قَاضِيًا بَغِيرَ شُهُودِ ؟

(1) جملة دعائية معلقة ، أي أن جحدت هواها ، وهذا من ولوع الغراب بالنورية ولا سيما بالمصطلحات العلمية.

(2) في ز : بـرود.

أَيَّ يَوْمٍ نَظَّمْتَهُ بِحَبِيبِ  
وَزَهِيرِ (1) بِطِيبِ نَظْمِ الْعُقُودِ  
وَعُصُونُ الرِّيَاضِ تَرْقُصُ وَجَدًا  
فِي حُلَى زَهْرَهَا بِخُضْرِ الْبُرُودِ  
لَا بِمَرِّ النَّسِيمِ تَرْقُصُ بَلْ مِنْ  
طَرَبِ هَزَاهَا ، وَوَجْدٍ شَدِيدِ  
لِقُدُومِ الرِّضَا الْمَلِكِ عَلَيَّ  
بَايِنَا ابْنِ الْحُسَيْنِ سَعْدِ الْوُجُودِ  
مَلِكُ مَا انْتَشَتْ غَمَائِمُ حَرْبِ  
عَنْهُ إِلَّا أَنْجَلَتْ بِصَرْعِ الْأَسُودِ  
مَلِكُ مَا انْتَشَى عَنِ الطَّرْدِ إِلَّا  
بِعَدُوٍّ فِي إِثْرِهِ مَصْفُودِ  
إِنْ يَسْأَلُ الْحُسَامُ تَخْمَدُ عِدَاهُ  
وَتَسِيلُ الدَّمَاءُ بَعْدَ الْجُمُودِ  
فَوْقَ سَبَاقَةِ إِذَا صَالَ عَنْهَا  
فِي الْعِدَى فَالْبُرُوقُ تَحْتَ الرُّعُودِ  
إِنْ يَشُبُّ الْعَدُوُّ نِيرَانِ حَرْبِ  
مِنْهُ كَانَتْ عَلَيْهِ ذَاتَ وَقُودِ  
وَعَدَا حَرْهَنَ بَرْدًا عَلَيْهِ  
وَسَلَامًا ، كَأَنَّهَا مِنْ خُمُودِ  
مَلِكُ مَا جِدَّ حَلِيمٌ كَرِيمٌ ،  
جُودُهُ نَاسِخٌ لِكُلِّ وَجُودِ

(1) نورية باسم شاعرين.



نَاشِرُ الْعُدَالِ . وَهُوَ لِلْجَوْرِ طَامٍ .  
 وَأَقْبَفَ فِي الْأَحْكَامِ عِنْدَ الْحُدُودِ  
 مُقْتَفٍ لِلْهُدَى . بِهِ الشَّرْعُ أَضْحَى  
 وَهُوَ رَحْبُ الْفِنَا (١) رَفِيعُ الْعُمُودِ  
 صَالِحُ الْفِعْلِ . صَادِقُ الْقَوْلِ . وَافٍ  
 بِوَفَا الْعَهْدِ . مُنْجِزٌ لِلْوَعْدِ  
 يَقْطَعُ الدَّهْرَ بَيْنَ تَدْرِيسِ عِلْمٍ .  
 وَرُكُوعٍ لِرَبِّهِ وَسُجُودِ  
 بِصَحِيحِ الْحَدِيثِ وَالْعِلْمِ لَا ذَا .  
 وَعِلْمُومِ التَّفْسِيرِ وَالتَّوْحِيدِ  
 قَدْ تَحَلَّى بَعِيفَةً وَوَقَارٍ  
 وَتَقَى وَافِرٍ . وَفَضْلٍ مَزِيدٍ  
 وَبِعِزِّ مَضَى . وَقُوَّةٍ صَبْرٍ .  
 وَعِلَالٍ هِمَّةٍ . وَرَأْيٍ سَدِيدٍ  
 سَارَ مِنْ تُونِسَ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ  
 مُسْتَمِدًّا بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ  
 هِمَّةُ الْقَطْعِ لِلْفَسَادِ . وَإِصْلَاحِ  
 جَمِيعِ الْبِلَادِ بِالتَّمْهِيدِ  
 وَأَتَى وَالْأَنَامُ تَشْنِي عَلَيْهِ  
 بِمَدِيحِ الْفِعَالِ وَالتَّحْمِيدِ  
 أَمِنَتْ سُبُلُهُمْ مِنَ الْخَوْفِ فَلَيْئًا  
 مَنْ بِهَا وَالِدٌ عَلَى مَوْلُودِ

(١) الفناء بالكسر : الساحة امام البيت . وهو ممدود . ومصره ضرورة .

نَحْنُ مِنْ رَوْضِ أَمْنٍ دَوْلَتِهِ فِي  
 خَفَضِ عَيْشٍ بِهِ . وَظِلِّ مَدِيدِ  
 / عَجَبًا نَحْنُ مِنْهُ فِي خَفَضِ عَيْشٍ  
 وَتَرَانَا مِنْ خَفَضِهِ فِي صُعُودِ  
 أَيُّهَا الْمَالِكُ الَّذِي يَحْتَمِي عَنْ  
 حَدِّ أَوْصَافِهِ الْعُلَا بِحُدُودِ  
 أَنْتَ بِالْأَمْنِ وَالسَّعَادَةِ مَقْرُونٌ ،  
 وَبِالْفَضْلِ وَالْمَقَامِ الْحَمِيدِ  
 أَنْتَ مِنْ حِصْنِ رَبَّنَا فِي أَمَانٍ  
 مِنْ عِيُونِ الْعِدَا وَكَيْدِ الْحَسُودِ  
 تَسْتَمِدُّ الْكَوَاكِبُ السَّعْدَ مِنْكُمْ  
 حِينَ تَقْضِي عَلَى الْوَرَى بِسُعُودِ  
 لَوْ دَعَوْتَ الشُّجُومَ حَالَ صُعُودِ  
 لَتَهَاوَتْ إِلَيْكَ حَالَ الصُّعُودِ  
 لَوْ دَعَوْتَ الْجِبَالَ وَهَيَّ رَوَاسٍ  
 لَسَعَتْ نَحُوكُمْ بِغَيْرِ سُجُودِ  
 قَدْ كَفَّتَكَ السُّعُودُ كُلَّ كَرِيهٍ  
 وَكَفَّتَكُمْ حَرْبَ الْعَدُوِّ الْعَنِيدِ  
 مَا سَعَى بِالْخِلَافِ عَنْكَ — وَإِنْعَامُكَ  
 عَمَّ الْبِلَادَ — غَيْرُ كَنُودِ  
 سَتَقُودُ الْعُصَاةَ مِنْ سَهْلِ أَرْضِ  
 وَجِبَالِ بِالسَّعْدِ قَبْلَ الْجُنُودِ  
 وَأَرَى كُلَّ بَلَدَةٍ خَالَفَتْكُمْ  
 قُورِنَتْ بِالْخِلَاءِ وَالتَّهْدِيدِ



كل عاصي يخالف لك اليوم ينسى  
 سجع ولو كان يحسبي بشمود  
 جرأ المتفسدين حليمك حتى  
 طمعوا في الوجود بالمتقود  
 أفان غر حليمك الغمر هلا  
 أرغم السعد منك أنف الحقود  
 بك ريض الزمان قبل . وأضحى  
 أنسا بعد نفرة وشرو  
 فأبشرين بالفتوح إثر فتوح  
 لك . واطفر بغاية المتقود  
 فهلال السماء يكمل بدرأ  
 إن بدا . وهو آخذ في المزيد  
 وتكفا بمقدم لك فيه  
 موسم للورى وأعظم عيد  
 بعد أن شفتنا لك الشوق حتى  
 كاد يشتا فكم حشا الجانود  
 شاق كل الورى . وشاقت إليكم  
 كل عجم . وناطق ووليد  
 سرت نحو الخضراء فاخضر منها  
 كل ذاب بكم وبابس عود  
 أنت لو لم تسر إليها لسارت  
 لك بالدور والبناء المشيد

فلك الأرض بالزهور تحالت  
 وهني من خضر نبثها في برود  
 هاك مني حسان خود تهان  
 في علاكم تزرى بحسن الخدود  
 صغتها من عليل فيكر قريح  
 وجواري قريحتي في جود (1)  
 / من زمان له اجتهدا بقذفي  
 بين وأش وجاهل وحسود  
 فمر الدهر يا أمير البرايا  
 ينكفي (2) عني إساءتي ووعيدي  
 عهد الدهر لا يخالف يوما  
 عنك أمرا . وقد وفى بالعهود  
 فلو الدهر عنك خالف يوما  
 لرأى الخلف منه غير سيد  
 ثقب بأمن وعز ملك مهنا  
 بدوام البقا وطول الخلود  
 وفي يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من ذي القعدة من هذه السنة أعني  
 سنة ست وسبعين وُلِدَ لمولانا - شدَّ الله عضده - النجل الأطهر . والكوكب  
 الأزهر . الأسمى الأسنى المبارك الأرشد الأمجد مولانا أبو عمرو عثمان ،  
 وقاه الله طوارق الحدَثان .

وفي يوم الخميس لسبْع خلت من شهر ربيع الثاني سنة ثمان وسبعين  
 (1764/1178) كان ختان ولدَي مولانا - أيده الله تعالى - الأكبرين القمرين

(1) في بعض النسخ تعليق على هذا البيت نصه : لعمري قد صدق في هذا البيت .

(2) في 2 : ينكف . ج : ينكف .



النَّيِّرَيْنِ مَوْلَانَا أَبِي الرَّبِيعِ سَلِيمَانَ . . . وكانت ولادته ليلة الأحد الثامن عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين . . . ومولانا أبي محمد حمّوده باشا . . . أبواه الله تعالى ووقاه . . . وولدي أخيه مولانا أبي الثناء محمود ومولانا أبي الفدا إسماعيل . . . ولم يحتفل مولانا . . . أعزه الله تعالى . . . في ختانهم بأكثر من إفاضة الصدقات وتعميم الإحسان . . . فاختن من أولاد الفقراء . . . [المستورين زهاء] (1) خمسمائة صبي . . . ورسم لكل واحد منهم أن يعطى كسوة تليق بحاله من الجوخ وغيره . . . ودراهم للنفقة . . . ورسم أن يُجهز طائفة من الأبنكار المستورات اليتامى وغيرهن بجهازهن اللائق بهن إلى أزواجهن . . . ونظر في أهل السجون فأطلق منهم خلقا كثيرا وقضى عن المدينين منهم ديونهم . . . ولم يستبق إلا من لم يسوّغ الشرع إطلاقه كمسجون في قتل نفس . . . أو حراقة . . . أو غير ذلك .

الاستبانة  
الفرقة

### [القصائد الختانية]

وهنا الشعراء بقصائد كثيرة . فممن أحسن في ذلك وبلغ الغاية أبو عبد الله محمد بن أحمد الوردغي في قوله وهي من غرر شعره :  
هَذَا الْخِتَانُ . وَقَدْ دَعَوَهُ طَهُورًا .  
خَلَعَ الزَّيْمَانُ بِهِ عَلَيْكَ سُرُورًا  
فَرَحَ بِخُصُّكَ بِالْكَرَامَةِ أَوْلًا  
وهنا يعمُّ الخَيْرَيْنِ أخيرًا  
وعلى المنازل من بهاء بشاشة  
كالنَّازِلِينَ . فَهَلْ وَجَدْتَ شعورًا ؟  
أخفيته تبعًا لقولة صادق :  
«أخفوا الختان» وما اتخذت مشيرًا

(1) الزيادة من ح . م .

فَرَكَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى إِخْفَائِهِ  
كَالْمِسْكَ زَادَ مَعَ الْخَفَاءِ ظُهُورًا  
وَلِمِثْلِهِ مِنْ كُلِّ مَا تُعْنَى بِهِ  
خَطَرٌ . كَمَا كُنْتَ أَنْتَ خَطِيرًا  
عَجَبًا لَهُ مِنْ مَعْرَكٍ خَضَعْتَ بِهِ  
نَفْسُ الشَّجِيعِ وَقَدْ رَأَى يَسِيرًا  
/ ذَكَرَتْ بِهِ الْأَرْحَامُ (1) يَوْمَ وَلَادِهَا  
فَعَدَّتْ تَجَادِبُ حِدَّةٍ وَفُتُورًا  
وَزَمَانُهُ إِنْ طَالَ كَانَ دَقِيقَةً .  
وَيَسْكَادُ يَبْلُغُ فِي الْخِيَالِ شُهُورًا  
مَا لِلْمُزَيْنِ (2) فِيهِ ؟ كَيْفَ تَنَاوَلَتْ  
كَفَّاهُ فِي فَلَكَ الْبَهَاءِ بُدُورًا  
أَخَذَتْ بِجُزْءٍ لَوْ يُقَاسُ بِمِثْلِهِ  
مُلْكُ الْقِيَاصِرِ . كَانَ بَعْدُ قَصِيرًا  
وَبَعْدُ هَيْكَلُهُ لِكُلِّ عِيُونِهِمْ  
أَهْلُ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ نُورًا  
أَفَلَا اتَّقَى مِنْ دُونِ ذَلِكَ ثَوَاقِبًا  
تُذَكِّي عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَاتِ سَعِيرًا  
لَوْلَا الْخَلِيلُ (3) لَعَاقَهُ عَنْ أَخْذِهِ  
حَرْبٌ يَشِيبُ لَهُ الْوَلِيدُ صَغِيرًا

(1) يعني أن المدوح لما ضم ابني أخيه إلى نفسه في الختان ذكر ذلك ما بينهما من رحم منذ نشأتهما . وأكد هذا المعنى بقوله بعد : فوصلت رحمك الخ . . .

(2) الخلق وهو الذي كان يحن الأطفال لعهد غير بعيد .

(3) أي سنده في الختان .



لَكِنَّ سَلِيمَانَ الْمُعَوِّذُ بِاسْمِهِ  
 سَبَقَ النَّدَاءَ إِلَى النِّزَالِ ضَرِيرًا  
 فَتَخَلَّلَ الْأَوْجَالَ ثُمَّ أَزَاحَهَا  
 وَأَلَانَ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ عَسِيرًا  
 وَكَفَّاهُ فِي ذَلِكَ الْمَجَالِ مُحَمَّدٌ  
 فَأَمَاطَ عَنْ وَجْهِهِ الْخَلَاصِ سُتُورًا  
 وَدَعَا بِمَحْمُودٍ فَجَدَّ (١) إِبْجَابَةً  
 وَتَلَاهُ إِسْمَاعِيلُ بَعْدَ نَضِيرًا  
 فَتَظَاهَرُوا بِبَنِي شَقِيقٍ أَبِيهِمْ  
 حَتَّى يَكُونُوا فِي الْمَالِ ظَهِيرًا  
 وَقَضَوْا عَلَى وَفْقِ الْمُرَادِ مَآرِبًا  
 كَانَتْ تَتَوَقَّعُ لَهَا النُّفُوسُ دُهِورًا  
 وَقَضَيْتَ مَا لِلَّهِ عِنْدَكَ حَقَّهُ :  
 إِنْ لَمْ تَكُنْهُ . فَمَنْ يَكُونُ شُكُورًا ؟  
 فَوَصَلْتَ رَحْمَتَكَ رَافَةً وَأَقَمْتَهَا  
 أَعْلَى مَقَامٍ فِي الْجِنَانِ كَبِيرًا  
 وَأَضَفْتَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِهَذِهِ  
 أَمَمًا أَفْضَتْ لَهَا النَّوَالِ نَمِيرًا  
 فَبَدَلْتَ فِي تَحْسِينِ بِنَّةٍ جَمْعِهِمْ  
 مَالًا يَغِزُّ عَلَى الْمُلُوكِ غَزِيرًا  
 وَبَلَغْتَ فِي إِبْلَاحِ خَيْرِكَ لِلنُّورَى  
 حَتَّى مَلَأْتَ مِنَ السُّرُورِ قُبُورًا

(١) بالاصل : فاسرع ، ولا يترن ، والاصلاح من بعض نسخ الديوان .

فَلَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ رَأْتَهُ كَرِيهَةً :  
 وَإِذَا حَلَفْتَ فَلَا أَقُولُ فُجُورًا  
 مِنْ ذَا يُجَادِلُ نَفْسَهُ فَيَرُدُّهَا  
 نَحْوَ الْمَلِيحِ عَنِ الْقَبِيحِ غَيُورًا ؛  
 قَدْ كَانَ ذَلِكَ وَالْحِجَارَةُ رَطْبَةً ،  
 وَالْآنَ يُوجَدُ فِي الْكِتَابِ سُطُورًا  
 حَتَّى بُعِثَتْ مُجَدِّدًا لِمَآثِرِ  
 لَبِثَتْ عَلَى طُولِ الزَّمَانِ دُثُورًا  
 أَحْيَيْتَهَا . وَفَعَلْتَ مَا تُنْسِي (١) بِهِ  
 أَجَلًا . وَيُكْثِرُ فِي الْمَعَادِ أَجُورًا  
 تِلْكَ الشَّجَاعَةُ : لَا جَرَاءَةَ فَاتَكَ  
 يَدْعُو لَهَا عِنْدَ الْقِصَاصِ ثُبُورًا  
 فَارْبَحْ إِذْنُ يَا ابْنَ الْحُسَيْنِ . وَكَلْنَا  
 يَلْقَى بِرَبِّحِكَ رَوْضَةً وَغَدِيرًا  
 / فَهَوِ الْمُنَى ، أَخَذَ الْوَدُودُ بِحِظِّهِ  
 مِنْهُ . وَبَاتَ بِهِ الْحَسُودُ ضَرِيرًا  
 بَعَثْتَ يَدُ الْإِقْبَالِ - لَمَّا أَنْ بَدَأَ  
 وَجْهَ الْفُتُوحِ - بِهِ إِلَيْكَ بِشِيرًا  
 كَمْ بَعْدَ يَوْمِكَ ذَا الْمُبَارِكِ مِنْ جَنَى  
 تَجْنِيهِ مِنْ هَذَا الْغِرَاسِ نَضِيرًا  
 فَلَا أَنْ حِينَ تَوَصَّلُوا لِمَنَازِلِ  
 قَطَعُوا لَهَا مِنْدُ الْوِلَادِ وَغُورًا

(١) بخلاف من أنسى بالجمع ، من أنسى الله في أجه أي أحره .



وَتَطَاوَلَتْ خِطَطُ الْإِمَارَةِ نَحْوَهُمْ .  
وَالَهُمْ أَعْدَتْ رُتْبَةً وَسَرِيرًا  
فَالْخَيْلُ مُصْغِيَةٌ لَهُمْ أَذَانُهَا  
تَبْغِي بِهِمْ جِهَةَ النَّجَاحِ عُبُورًا  
فَرِحَتْ (١) لِهَذَا النَّوْبِ فِي أَشْطَانِهَا  
فَرَحًا وَسَوَتْ لِلظُّهُورِ ظُهُورًا  
وَمَعَاقِدُ التَّيْجَانِ قَدْ عَقِدَتْ لَهُمْ  
وَبِهِمْ تَفَاخِرُ غَيْبَةٍ وَحُضُورًا  
وَمِنْ الطُّبُولِ تَحَفُّزٌ لِبُرُوزِهِمْ  
إِذْ يَقْرَعُ الدَّاعِي لِذَلِكَ نَفِيرًا  
وَمِنْ الْبُنُودِ تَطْلُعٌ لِمَسِيرِهِمْ  
حَتَّى تَسِيرَ مَعَ الْقَتَامِ نُسُورًا  
فَالْيَوْمَ قَدْ صَدَرَتْ بِشَائِرُ سَعْدِهِمْ  
وَعَدَا تَرَاهُمْ فِي الصُّفُوفِ صُدُورًا  
أَعْبَاءُ مَجْدٍ أَنْتَ وَحَدَاكَ حُزْنَتُهَا  
كَذَبَ الْمَنَازِعُ ! هَلْ يَعْدُ نَظِيرًا ؟  
فَبِهِمْ أَقَمْتَ الْمُلْكَ قَوْمَةً مُعْرِسٍ .  
وَبِهِمْ أَدَرْتَ عَلَى الْإِيَالَةِ سُورًا  
وَبِهِمْ لِأَمْرِكَ نَهْضَةٌ وَلِصُونِهِمْ  
مَنْعُ النِّوَاهِي أَنْ تُفِيدَ نَقِيرًا  
مَا فَرَدُّهُمْ مَهْمًا اخْتَبَرْتَ بِوَاحِدٍ .  
بَلْ هُوَ أَلْفٌ أَوْ يَزِيدُ كَثِيرًا

(١) في ح . الدُّوَانِ . فرحت وهي السب للمسيان . والنوب مصدر ناب وهو ما ينوب الانسان من المرات . انظر المسان ن و ب ومراده هنا مناسبة الختان .

كُلُّ يَفِيضُ عَلَى أَخِيهِ تَحَنُّنًا .  
وَلِوَالِدَيْهِ مَهَابَةٌ وَبُرُورًا  
طَبِعُوا كَمَا طَبَعَ الْكَرِيمُ أَبُوهُمْ  
كَرَمًا يَعْدُ لَهُ الْغَمَامُ حَقِيرًا  
وَسِيَاسَةً جَذَبَتْ حَبَائِلُ لُطْفِهَا  
قَلْبَ الْكَفُورِ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَفُورًا  
يَا سَيِّدًا ظَهَرَتْ طَلَائِعُ وَدِّهِ  
فَسَعَى لَهَا سَاعِي الْمَدِيحِ سَفِيرًا  
هَدَى بُنْيَةَ خَاطِرٍ أَهْدَيْتُهَا  
شَرَحَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْوَدَادِ ضَمِيرًا  
تَحْظَى . فَيَقْصُرُ يَوْمُهَا ، بِحَدِيثِهَا ،  
وَتَكُونُ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ سَمِيرًا  
قَصَرَتْ عَلَيْكَ مَلَابِسًا مِنْ غَزَلِهَا .  
لَسَكِنْ تَخَافُ - إِذَا نَظَرْتَ - قُصُورًا  
وَلَرُبَّ بَعْضٍ شُوِيَ عِرِّي يَرْنُو لَهَا  
شَزْرًا ، وَيُكْثِرُ فِي الْخُلَاءِ زَنْبِيرًا  
حَسَدًا يُشَكِّكُ فِي تَحَقُّقِ حَمَلِهَا  
مِنْ حُبِّ ذَاتِكَ مَا يُحْمَلُ عِيرًا  
وَيَظَلُّ يَخْبِطُ فِي مَدَى أَغْرَاضِهَا  
لَا عَنْ هُدًى ! وَمَتَى يَكُونُ بَصِيرًا ؟  
/ وَلَوْ اسْتَبَانَ مِنَ الضَّالَّةِ مَرَّةً  
لَمَنْحَتْهُ عِوَضَ الزَّئِيرِ زَفِيرًا  
لَكِنْ تَرَكْتُ حَدِيثَهُ ، وَأَرَا حَنِي  
عِلْمِي بِكَوْنِكَ بِالصَّحِيحِ خَبِيرًا



فَمَحَكَ نَقْدَكَ لَيْسَ يَتَّقِي دُونَهُ

بَيْنَ الْهَيْدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ زُورًا

فَلَكَ الْمُنَى . وَلِكُلِّهِمْ . وَلَنَا بِكُمْ

مَا صَافَحَتْ شَمْسُ السَّمَاءِ ثَبِيرًا

وقال الفقيه الاجل أبو محمد عبد اللطيف الطوثير :

سُعُودُكَ بِالْمَسْرَةِ وَالتَّهَانِي

وَإِقْبَالُ . وَإِسْعَادُ . وَبُشْرَى

[تَبَسُّمُ لِلزَّمَانِ تُغُورُ بِشْرًا]

وَهَزَّ الْمَلِكُ عَطْفِيَهُ سُرُورًا

لَكَ الْآيَامُ قَدْ خَضَعَتْ رِقَابًا

وَفِي أَوْجِ السَّعَادَةِ وَالْمَعَالِي

قَضَى سَعْدُ السُّعُودِ حَقُّهُ فَرَضُ

خِتَانِ ابْنِي عَلِيٍّ بِأَسَا مَعَ ابْنِي

خِتَانِ شَعَشَعَ الْآفَاقُ نُورًا .

خِتَانِ الْبَسَ الدُّنْيَا جَمَالًا

خِتَانِ بَهْرَجَ الْعُلَيَّاءُ مَا إِنْ

جَنِينَا الطَّيِّبَاتِ فَمَا فَتَقَدْنَا

وَطَارَدْنَا اللَّذَائِدَ فِي حِمَاهُ

فَصَيَّرْتَ الْخَرِيفَ لَنَا رَبِيعًا

لَوْ أَنَّ الْبَدْرَ أُمَكَّنَهُ نَزُولُ

تَوَدُّ الشُّهُبُ لَوْ رُقِمَتْ فَكَانَتْ

وَلَوْ نَجَّمُ الثَّرِيَّا كَانَ عَقْدًا

أَيَا خِتَانُ مَا أَقْسَاكَ قَلْبًا .

رُويْدَا ، وَاتَّحِدَا ، وَارْفُقَا ، تَمَهَّلْ

وَأَثَبْتَ الْخِتَانُ لِكُلِّ قَلْبٍ

وَقَدْ غَادَرْتَ أَوْجُهَنَا ارْتِيَاعًا

/ عَهْدُنَا أَنْكَ الْأَدْنَى مَحَلًّا

وَكَيفَ رَقِيتَ أَفْلَاكَ الْمَعَالِي

وَكَيفَ وَصَلْتَ لِلْأَقْمَارِ حَتَّى

وَكَيفَ تَنَاوَلْتَ يَمْنَاكَ حَقًّا

عَهْدُنَا الرُّشْدَ مِنْكَ وَمَا عَهْدُنَا

فَكَيْفَ بَسَطْتَ لِلْأَشْبَالِ كَفًّا

دَخَلْتَ لِأَجْمَةِ الْأَسَدِ السَّيْنَتِي (1)

جَرَحْتَ فَرَاهِدًا فِيهَا بِقِطَّةٍ

جَزَاكَ عَلَيَّ صَنِيْعِكَ كُلَّ خَيْرٍ

فَقَالَ : «لَبِستُ سَابِغَةً حَمَتْنِي

وَتَقَتُ بِسُنَّةِ الْمُخْتَارِ حَقًّا

فَقَدْ سَنَّ الْخِتَانُ لَنَا وَوَصَّى

عَلَيَّ أَنِّي أَنْطُتُ بِهِمْ كَمَالًا

قَطَطْتُ ذُبَالًا مَجْدًا فَاسْتَنَارَتْ

أَسَلْتُ دَمًا بِهِ يُلْفَى شِفَاءُ

وَزَهْرًا لِلْعُلَا أَخْرَجْتَهُ مِنْ

وَحَلِّي سِيَادَةَ أَبْرَزْتُ مِنْهُ

فَنَقَضِي عَيْنُ تَكْمِيلِي لِأَنِّي

وَفِي سِلْكِ الرِّجَالِ لَهُمْ نِظَامُ

وَسَوْفَ يَرَوْنَ أَقْيَالًا مَلُوكًا

يُقَصِّرُ «قَيْصَرُ» عَنْهُمْ «وَكَيْسَرِي»

لَقَدْ ظَهَرَتْ شَهَامَتُهُمْ صَغَارًا

فَمَسَدُ رَأْوَا الْمُقَصِّصِ تَبَادَرُوهُ .

(1) الحزبي ، والإجمة : مساواة .

ثَبَاتَ الْخَوْفُ فِي قَلْبِ الْجَبَانِ

كَأَنَّ صُبِغَتْ بِلَوْنِ الرَّغْفَرَانِ

فَكَيْفَ ظَهَرَتْ فِي أَعْلَى مَكَانٍ ؟

وَصِرَتْ مَعَ الْكُؤَاكِبِ فِي قِرَانٍ ؟

مَسَسَتْ الْجِسْمَ مِنْهَا بِالْبَنَانِ ؟

شُمُوسًا أَشْرَقَتْ وَسَطَ الْمَغَانِي ؟

بَنِي الْأَسَادِ تَوَسَّمُ بِاخْتِنَانِ

وَلَيْتُ الْمَلِكُ مِنْكَ عَلَى عِيَانٍ ؟

جِهَارًا غَيْرَ مُرْتَاعِ الْجَنَانِ

وَبِتَّ مِنْ الْغَضَضَفَرِ فِي أَمَانِ

وَلِحَسَانِ يَجَلُّ عَنْ الْبَيَانِ

وَطَلَّتْ بِهَا يَقِينًا فِي صَوَانِ

فَبِتَّ مِنَ الْمُسَخَّرِ فِي ضَمَانِ

بِهِ مِنْ جُمْلَةِ الْفِطْرِ الْحَسَانِ

وَمَا أَنَا فِي الْخِتَانِ لَهُمْ بِيْجَانِي

فَعَقْدُ جُمَانِيهَا بِالْقَطْ قَانِي

مِنْ السُّكَلَبِ الْمُبِيرِ بِلَا تَوَانِي

كَمَائِمِهِ . وَلَسْتُ لَهُ بِيْجَانِي

عَقَائِقُهُ الْمَصُونَةِ فِي الصَّوَانِ

شِعَارُ الدِّينِ أَصْبَحَ فِي خِتَانِي

بِإِعْدَارِي . فَعُدْرِي فِي بَيَانِ

لَهُمْ شَأْنٌ عَظِيمٌ أَيُّ شَأْنِ

كَذَا «خَاقَانُ» مَعَ «عَبْدِ الْمَدَانِ»

وَمَا خَبِرُ الْمُخْبِرِ كَالْعِيَانِ

وَرَأَحَمَ أَوَّلَ الشُّبْلِينَ ثَانِي



وَقَدْ عَرَفُوا بِأَنَّ لَهُ كَلَامًا  
كَذَلِكَ أَبْوَهُمْ فِي الْحَرْبِ يَمْضِي  
/ وَجَدَهُمْ الْهَزْبُ حُسَيْنُ بَاي  
وَأَشْبَالُ الْغَضَنْفَرِ لَيْسَ تَحْدُو  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . سَمَوْتَ فَخْرًا  
لِيَهْنِكَ سُنَّةٌ لِلدِّينِ قَامَتْ  
لِيَهْنُ الدَّوْلَةُ الْغَرَاءُ خَتْنُ  
لَكَ الْفَخْرُ الَّذِي يَعْلُو الثَّرِيًّا  
وَذَاتُ تَبَهَّرُ الْأَبْصَارَ حُسْنًا  
وَلَوْعُ بِالْشَفَاءِ وَبِالْبُخَارِي  
وَبِالْفِقْهِ الَّذِي اسْتَخْرَجَتْ مِنْهُ  
نَظِيفَ الْعِرْضِ أَرُوعَ عِبْقَرِيًّا  
فَلَمْ يَسْتَصْبِ قَلْبُكَ ذُو دَلَالٍ  
وَلَمْ يَسْتَهْوِهِ نَغَمُ الْغَوَانِي  
وَرَأَحُكَ لَمْ تَمُدَّ لِحْمَلِ رَاحٍ  
جَلِيلُ الْقَدْرِ لِلْجَلَّى تَنَادَى  
إِذَا قَارَعَتْ فِي الْهَيْجَاءِ جَمْعًا  
تَحُلُّ عِقَالُ بِأَسَاهَا إِذَا مَا  
وَأَذْكَى فِي الْفِرَاسَةِ مِنْ إِيَّاسٍ  
فَلَا يَخْفَى احْتِيَالُ أَخِي دَهَاءٍ  
مُحَاوَلُ شَأْوِكُمْ فِي الْفَضْلِ يَبْغِي  
وَوَافِرُ بَحْرِ فَضْلِكُمْ مَدِيدُ  
إِذَا مَا يَمَّمُ الْعَافِي ذَرَاكُمُ  
أَقَمْتَ الْخَلْقَ فِي رَوْضَاتِ أَمْنٍ

كَمَا عَرَفَ الْكُفَى الْهِنْدَوَانِي  
لَهَا لَمْ يَشْنِهْ الذِّكْرُ الْيَسَانِي  
لَهُ الْوُثْبَاتُ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ  
سِوَى أَخْلَاقِهِ لَا الثَّغْلَانِ  
وَدَامَ لَكَ الْهِنَاءُ مَعَ الْأَمَانِي  
دَعَائِمُهَا . لَهَا الْإِسْعَادُ بِنَانِي  
بِهِ الْقَمَرَانُ فِي سَعْدِ الْقِرَانِ  
وَيَقْضُرُ عَنْ مَدَاهُ الْفَرْقَدَانِ  
مُكَمَّلَةٌ بِأَخْلَاقِ حِسَانِ  
وَذِكْرُ اللَّهِ جَلَّ وَبِالْقُرْآنِ  
مَعَانِي لَيْسَ يُدْرِكُهَا مُعَانِي  
هَضُورًا ذَا تَأَنٍّ لَا تَوَانِي  
يُحَاكِي طَلْعَةَ الْقَمَرِ الزَّيَّانِ  
وَلَا صَوْتُ الْمِثَالِثِ وَالْمِثَانِي  
تُدَارُ بِكَفِّ مَخْضُوبِ الْبِنَانِ  
وَكَفِّ ضَرُورَةٍ أَوْ فَكِّ عَانِي  
تَوَلَّى الْجَمْعُ مُضْطَرِبِ الْعِنَانِ  
أَتَاخَتْ بِالسَّكَلَاكِلِ وَالْجِرَانِ  
وَأَعْرَفَ بِالْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي  
عَلَيْكَ . وَلَا يَقْعَقُ بِالشَّنَانِ (١)  
سِبَاقُ الصَّافِنَاتِ عَلَى أَتَانِ  
وَإِنْ قَصُرَتْ عِبَارَاتُ اللِّسَانِ  
يُبَادِرُ بِالصَّلَاتِ بِلَا أَذَانِ  
جَنَاهَا مِنْ يَدِ الْجَانِينَ دَانِي

عَفِوَتْ عَنِ الْجَنَانَةِ مِنَ الرَّعَايَا .  
وَصُنَّتْ عَنِ الْحَدِيدِ دَمَ الْأَعَادِي  
جَعَلَتْ مَحَلَّهُ خَتْنُ الْيَتَامَى  
/ فَكَمْ مِثِينَ قَدْ طَهَّرَتْ مِنْهُمْ  
كَسَوْتَ جَمِيعَهُمْ وَأَنْلَتْ مَالًا  
وَأَطْلَقْتَ الْأَلَى فِي السَّجْنِ حَتَّى  
وَلِلصَّدَقَاتِ قَدْ أَجْرَيْتَ بَحْرًا  
فَعَمَّمْتَ السَّرُورَ بِهَا ، وَكَانَتْ  
بِذَاتِكَ مَعَ صِفَاتِكَ يَا إِلَهِي :  
وَأَوْصَافِ الْجَلَالِ وَكُلِّ وَصْفٍ  
وَكُلِّ اسْمٍ عَلِمْنَاهُ وَمَا لَمْ  
وَحَقَّ مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْبَرَائِيَا  
مَنْ ابْتَهَجَتْ بِهِ الْأَكْوَانُ نُورًا .  
لَهُ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ انْشَقَّ قَطْعًا  
وَمِنْ رِيحِ الصَّبَا نَصَرْتَهُ حَتَّى  
وَمَنْ صَارَ الْيَسِيرُ بِهِ كَثِيرًا .  
بِضْرَعِ الشَّاةِ مَرَّ السَّكْفُ مِنْهُ  
وَسَبَّحَتْ الْحَصَى فِي الرَّاحِ مِنْهُ  
وَحَاطَبَتُهُ الذَّرَاعُ بِأَنَّهُ قَدْ  
وَعَيْنُ قَتَادَةٍ قَدْ رَدَّ لَمَّا  
إِلَيْهِ شَكَا الْبُعِيرُ بِلَا امْتِرَاءٍ  
وَحَنُّ الْجِدْعُ لَمَّا نَاءَ عَنْهُ .  
وَجَاءَتْ نَحْوَهُ الْأَشْجَارُ تَسْعَى  
وَبِالرُّسُلِ الْكِرَامِ وَكُلِّ مَلِكٍ  
وَحَقَّ الْآلُ وَالْأَصْحَابُ طَرًّا .

(١) الحسان بالضم : المرسى .

فَأَنْتَ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَيُّ حَانِي  
وَمَا أَلْبَسْتَهُمْ ثَوْبَ امْتِهَانٍ  
وَأَهْلُ الْعَجْزِ عَنْ دُرِّ الْأَمَانِي  
طَهُورًا مِنْ رِيَاءٍ وَامْتِنَانٍ  
جُزَيْتَ بِهِ الْمَنَازِلُ فِي الْجِنَانِ  
تَحَمَّلْتَ الْقَضَاءَ عَنِ الْمُدَّانِ  
مِنْ الْبَيْضَاءِ وَالذَّهَبِ الْمُصَّانِ  
إِلَيْكَ مِنَ الْمَكَارِهِ كَالْجُنَانِ (١)  
صِفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَعَانِي  
يُنَزَّهُ أَنْ يُقَاسَ بِكُلِّ فَانِي  
قَدِيمٍ لَيْسَ يُحْصَرُ بِالزَّمَانِ  
شَفِيعِ الْخَلْقِ مِنْ إِنْسٍ وَجَانٍ  
وَأَشْرَقَ مِنْ سِنَاهِ النِّيرَانِ  
عَلَى نِصْفَيْنِ شَوْهِدٍ بِالْعِيَانِ  
كَفَّتُهُ عَنِ الْمُهَنْدِ وَالسِّنَانِ  
وَفَاقَ الْمُدَّ مَمْلُوءَ الْجَفَّانِ  
عَلَى يَبَسِ فَجَادَتِ بِاللَّبَّانِ  
وَكَلَّمَهُ الْجَمَادُ بِلَا لِسَانٍ  
حَوَى سُمًّا بِقَصْدِ الْامْتِحَانِ  
بِخَدِّ مِنْهُ سَالَتْ كَالْجُمَانِ  
وَفِي شَكْوَاهِ أَفْصَحَ بِالْبَيَانِ  
كَمَا بَاحَ النُّمُتِمْ بِافْتِتَانِ  
وَوَظَّلَلَ فِي الْهَجِيرَةِ بِالْعِنَانِ  
لَهُ عِنْدَ الْإِلَهِ عَظِيمُ شَأْنِ  
لِئُوثِ الْحَرْبِ فِي يَوْمِ الطَّعَانِ

(١) مثل أصله ما يقع له بالشَّنَانِ جمع من القربة اليابسة يحركه الحب الأبل على السير .  
يضرِبُ مَنْ لَا يَنْخَدُعُ بِالْبَاطِلِ انْظُرِ الْمِيدَانِي ٢ : ٢١٥ .



وَحَقِّ الصَّالِحِينَ بِسُكُلٍ قَطِيرٍ .  
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْفَظُهُ مِمَّا  
 وَسَدَّدَهُ لِمَا قَدْ كَانَ فِيهِ  
 / أَطْلَعَ عَمْرًا لَهُ فِي الْخَيْرِ وَأَخْتَمَ  
 وَصْنُ أَنْجَالِهِ النَّجَبَاءِ مِمَّا  
 سَلِيمَانَ الرِّضَا سَلَّمَ وَسَخَّرَ  
 أَنْبُلَ حَمُودَهُ بِأَشَا الْمُرْتَضَى مَا  
 وَكُنْ لِمُحَمَّدٍ الْمَأْمُونِ مِمَّا  
 وَعَثْمَانَ السَّرِيِّ أَدِمَ عِلَاةُ  
 وَمَحْمُودٍ وَإِسْمَاعِيلَ حَصَنُ  
 أَعِيدُ كَمَا لَهُمْ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ  
 أَيَا مَلِكٍ رَقِي فَلَكَ الْمَعَالِي  
 زَفَقْتُ إِلَيْكَ لِلْإِعْدَارِ عَذْرًا  
 وَمَا أَلْبَسْتُهَا حُلُلَ الْمَعَانِي  
 مُحَلَّلَةً بِمَدْحِكَ فَهِيَ تَحْكِي  
 تُغَطِّي وَجْهَهَا مِنْكُمْ حَيَاءً  
 مَخَافَةً أَنْ تُعَامِلَهَا بِنَقْدٍ  
 بَعِيْنٍ رِضَاكَ فَانْظُرْهَا وَسَامِحْ  
 وَدُمْتَ مَعَ الْبَتِينَ قَرِيرَ عَيْنٍ

وقال الكاتب أبو العباس أحمد سميّة :

يَوْمُ الْخَمِيْسِ السَّابِعِ الْمَيَدُونِ مِنْ  
 بِحُلُولِ ثَالِثِ سَاعَةٍ مِنْهُ بَدَأَ  
 هُنَّ الْأَمِيرَ بِخَمْسِ أَيْتَاتٍ لَهَا

ثَانِي الرِّبْعَيْنِ الْبَتَاءِ فِيهِ جُلَسِي  
 خَتْنُ الْمُلُوكِ بَنِي الْمَلِكِ الْأَكْمَلِ  
 عَشْرٌ بِكُلِّ فَرِيْدَةٍ لَمْ تَجْهَلْ

(1) كذا بالأصول ، ولا يفيد المقابلة بالودود ويمكن تحريكه . العبدان مخدفا للضرورة من العبدان وهو المعيان . انظر الزبيدي في المسحوك ع ١٠٠ .

وَأَجْعَلُهُمْ فِي عَيْنِ مَعْيَالٍ أُنْثَى .  
 قُلْ . وَالْقَبُولُ عَلَى الْإِلَهِ مُؤَرَّخًا :  
 فَأَثْبَتَ الْبَاءَ مِنْ فِعْلِ الْأَمْرِ الْمُعْتَلِّ فِي قَوْلِهِ : أَحْمِسِي . لِيَتِمَّ لَهُ عَدَدُ  
 التَّارِيخِ . وَهَذَا مُعْيَبٌ جَدًّا .

وقال أيضا :

هَنِيئًا وَبُشْرَى . أَمِيرَ النُّورَى .  
 / جَلَسْتَ وَأَنْتَ وَحِيدٌ عَلَى  
 كَسَاكَ الْإِلَهِ وَالْبَسَهُمْ  
 فَأَعْدَارُ أَنْجَالِ تَاجِ الْعُلَا  
 مَلُوكُ يَدُ الْأَمْنِ تَخْتِنُهُمْ

بِحِصْنٍ مَنِيْعٍ حَوْتُهُ بَنُوكُ  
 سَرِيرِ الْمَعَالِي وَهُمْ أَنْسُوكُ  
 مَلَا بَيْسَ حَفَظَ تُزِيلُ الشُّكُوكُ  
 عَلَيَّ تَنْظُمٌ نَظْمُ السُّلُوكُ  
 بِيَمْنٍ . فَأَرْخُ : (خِتَانُ الْمُلُوكِ)

وَكَانَ بَعْضُ الْعُدُولِ مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ النَّظْمَ أَتَانِي بِهِذَا التَّارِيخِ وَهُوَ  
 (خِتَانُ الْمُلُوكِ) وَادَّعَاهُ لِنَفْسِهِ وَلَا أَدْرِي هَلْ سَمِعَهُ وَانْتَحَلَهُ أَوْ تَوَافَقَ فِيهِ  
 مَعَ سَمِيَّةَ . وَسَأَلَنِي أَنْ أَضْمِنَهُ بِأَيْتَاتٍ لِيَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى بَعْضِ مَسَارِبِهِ .  
 فَقُلْتُ :

لِيَخْتَنَ أَوْلَادُكَ مَوْلَى الْمُلُوكِ .  
 لِلدُّنْيَا سُرُورًا بِهِ  
 نَقْصَانُ مَبْنَى زَادَ مِنْ طَبِيْعِهِ  
 رَأَيْتَ فِيهِمْ كُلَّ مَا تَرْتَجِي  
 فَنَيْسِي غَمْدٍ أَعْرَاسَهُمْ تُجْتَلَى

مَحَاسِنُ كَالشَّمْسِ عِنْدَ الدُّلُوكِ  
 تُغَرُّ ابْتِسَامَ مِثْلِ دُرِّ السُّلُوكِ  
 مَعْنَاهُمْ كَالْمَسْكِ فَتَا يَصُوكُ  
 كَمَا رَأَى فِيكَ رَجَاهُ أَبُوكُ  
 وَالْيَوْمَ تَارِيخُ : (خِتَانُ الْمُلُوكِ)

وقال صاحبنا الأديب الكاتب الأجل عبد الله محمد الدرنأوي (1) :

هَنَاءٌ وَأَفِرُّ الْأَجْزَا جَلِيلُ  
 وَبُشْرَى عَمَّتْ الْآفَاقَ طَبْرًا  
 بِخَتْنِ لَوْ مَحَاسِنُهُ تَرَاءَتْ

مَدِيدٌ وَالسُّرُورُ بِهِ طَوِيلُ  
 وَسَعْدٌ بِالسَّمَاكِ لَهُ وَصُولُ  
 لِبَدْرٍ الْأَفْقِ أَدْرَكُهُ الْأَفُولُ

(1) الشاعر نقل ولى رئاسة الكتاب بعد أحمد الاصبوم وتوفي سنة 1211/1787 . النيفر 2 : 62 .



هو الملك الزكي الباشا المرجي  
إمام . بل همام . بل غمام .  
وشغل دائم بعلم دين  
وأبحاث بها رقت ودقت .  
وبالآداب معرفة . ونقد  
سري . ألمعي . أوحد .  
تأزر بالعفاف فلم تملنه  
ففي حلم وفي عزم وحزم  
له ، إن أمن النجاني ، عهود  
لقد عانى الزمان . لذا لديه  
ولا يخفاه من حال البرايا  
ولا عضد له في الملك إلا  
وأنجال له نجبا ولكن  
مآثره الجليلة أنبأتنا  
وتأهيك البرية بايعته .  
أيا ملك الورى يهنيك ختن  
وتخت الملك . والتاج المحلى  
كذا الرايات والجند المفدى  
لأبناء دروا . وهم بمهد  
قدم بهم . فديتك في سرور  
فيآله من ختان قد أريعت  
ومذ قد كان في زمن سعيد

[3 - ب]

إذا ما تابنا أمر مجهول  
له خلق كباطينه جميل  
ولاسيما . بما قال الرسول  
فكم في فهمها حارت عقول  
به خجلت له الشعرا الفحول  
نبيه . فاضل . حبر . نبيل  
شمائل ذي جمال أو شمول  
ومحضر الفضل ليس له مثل  
تزول الراسيات ولا تحول  
تساوى الصعب منه والدلول  
لفطنته . كثير أو قليل  
قوي السعد . والرأي الأصيل  
لدى الهينجاء أشبال تصول  
بعاقبة إلى الحسنى تؤول  
ولا نهب يلوخ ولا قتيل  
به العلواء تاهت والخيل  
ورمخ الطعن . والسيف الصقيل  
لعمرك والإقامة والرحيل  
أمورا ليس تدر كها الكهول  
قرير العين . ما هبت قبول  
به الأعداء وأنسر الخليل  
أتى التاريخ : (ختنهم جميل)

وقال الكاتب أبو عبد الله محمد بن قاسم بن غانم (1) :

حان الختان وقد أبرزت أقمارا  
يوم أضاء الدراري نور بهجته  
قد صيغ حلي العواني من عشيته  
ترى الحدائق مالت من مسرته  
يا أيها الملك المبدى فضائله  
هذا الختان الذي عمت (3) محاسنه  
أبشر بغرسك إن الروض إن قطعت  
واسعد فإن بدور السعد قد طلعت  
يا خير من حل بالخضراء مبتهجا  
تهدي إليك الليالي بمن غرت بها  
/ ما كل شجر متى يفتتر منتظما  
خذها تهنيك بالأفراح ناطقة  
جاءت تقبل في الأقدام راغبة  
فاعطف أبا الحسن الباشا الرضا كرمًا  
دامت إليك وللابناء مملكة  
عليه أزكى صلاة الله ما طلعت  
وآله الخمر والأصحاب ما عبث

وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد العصفوري (5) :

هناك يعم الخلق طرا مع البشري  
بختن بني الباشا الذي قد علا قدرا

(1) كذا بالأصل . وفي غيره (ابن أبي القاسم) وبه ذكره النيفر 2 : 53 ووسمه بالكاتب  
أيضا وهو مغمور لم ترو له إلا هذه القصيدة . وسنأتي أخبار حسين بن علي الآتية قطعة من  
قصيدة في تهنيته بولاية ابنه محمد باي محال للفقيه أبي القاسم ابن غانم ذكر أنها طويلة  
جدا . وربما كان هذا أبا لأول وكلاهما لم يحفظ بترجمة .

(2) في ز : سداد .

(3) في ج : م : زانست .

(4) كذا بالأصل وله معنى في الجملة والاولى : زاد .

(5) أديب عريق ينسب إلى ابن عصفور النحوي كذا في النيفر 2 : 50 توفي 1785/1199 .



أمير الهندي المؤلى الأجل ملكينا  
هو ابن حسين الباي من صال ملكه  
أمير علاء في التواجد ضيافته  
أمير الحجا والمجد والحلم والتقى  
له البأس في يوم الوغى يبتز العدا  
إذا خفقت راياته في جيوشه  
بعدل قضى . يعفو عن الذنب قادرا  
له همة علياء تعلو إلى السما  
إذا ما ملوك الأرض تاهت بملكها  
ملكك يحب العدل طبعاً وشأنه  
إذا عدل السلطان لم يخش حاد ثا  
يرى منتهى الأمر الذي رام فعله .  
ويسبر أحوال الرجال برأيه .  
يعي سمعه قول الصواب مراعيًا  
ينزه نأديه من اللغو والهدى  
له خلق المأمون في حال حكمه  
/ بديهته ذكرى إياس وحده .  
وفي الحمام أقصى أحنفاً فكأنما  
بمبسمة يسبي نفوسا تكادرت  
تملكني حباً . وتيمم منهجتي .  
ولكنها جالت على كل مصقع (1)  
وأرضى نفوس الخلق أحيى مواتها  
فصار لإفريقية البشر والهنأ  
أراه إله العرش . جل جلاله .  
كهولاً وشباناً يطيعون أمره

(1) في ز : مفصّل .

علي باي المستنيل الشمس والبدرا  
ينأخر أملاك البرايا به فخرًا  
بكل سماء أخص الشهب الزهرا  
وكل جميل . ما علمنا به نكرًا  
بهيته من دون أن يعمل البترا  
وقابلها الأعداء خرّوا لها دُعرا  
ويقبل من ذي الذنب عن ذنبه عذرا  
يزينها باللين مجتنباً كبيراً  
فمالك علي باشا بتيه به جبراً  
لمن حبه لم يوليه أبداً هجراً  
فلم يدخر خوف العدو قنا سمرًا  
فليس يرى من حزمه ناقصاً أمرًا  
ويقضي على علم وقد أحكم السرا  
ويظهر في أذنيه عند الخنا وقرأ  
ويهجر فحش القول مجتنباً هجراً  
ورأي رشيد دون أن يعمل الفكرًا  
ولسكنه في كل أحكامه أدري  
معاوية ألقى بآذانه سرا  
ويخجل برقا إن تألق والفجراً  
فأبدى لسانه في محاسنه شكراً  
تصدى لحسبان يروم لها حصراً  
محيّاه . مهما لاح في موكب سراً  
وما أحسن الوجه الذي يصحب البشرًا  
بنييه ماوكاً يقتفون له الأمرا  
يشدون من أكناف ملك له الأزرًا

ويرضون ما يرضى امتثالاً وطاعة  
يقرون منه العيس بالمجد والحجي  
يضاهونه في عفة وصيانة  
ففضل على الإنسان من كان نجله  
كساطانا الباشا بوالده اقتدى .  
يدبر أمر الملك يوماً بوقته .  
ووقتا لإيقاع الفروض بوقتها  
ووقتا لدرس العلم حالاً مقدراً  
حدّث رسول الله سيّدنا الذي  
إذا ما روى ما في الإمام رواية  
يُصاحبه الأشياخ فيه وأجره  
فلما أراد النختن وجه رأيه  
فأوسعهم فضلاً . وأوسعهم كسبي .  
فيمنّاه يمن لا يفارقه الجدّي  
وما فيه من عيب سوى أن فضله  
تجود القوافي عند قصد مديحه :  
/ وتأتي المعاني بازدهام فربما  
ترأت لعين الدهر كالشمس ضحوّة  
تعلم كتاب المديح له النشرا  
فلم تكن بالتشبيب في مدحه لهما  
خبرت بني الدنيا وأملأ كها الألى

وهم أمراء تحت أحكامه الكبرى  
وأفعال خير منهم لم تزال تتري  
وفصل قضاء ليس يتبعه قهراً (1)  
يشابهه . يبقى له في الوري الذكراً  
يتابع في أفعال خيراته الأثرًا  
ووقتا لفصل الحكم مجتنباً وزراً  
يحصلها بالنفل يكتسب الأجرًا  
ووقتا لخير الذكر ينشره نشرًا  
روايته طابت عن المقتدي نشرًا (2)  
تري كل ذي سمع من السر في السرا (3)  
يضاعف بالتسبيب . لا عدم النصراً .  
لختن زها مئين مكتسباً أجرًا  
لإعذارهم يستدخر الأجر للأخرى  
ويسراه بالتيسير لا تعرف العسرا  
كثير مداه لا يحيط به خبرًا  
يخوض الفتى لجأ فيجري به مجرى  
تورث ذا الآداب في شعره حصراً  
وتنظر من لا يهتدي نظراً شزراً  
ونظام نثر المدح في مدحه الشعرا  
ينازعني (4) المعنى فلم تستطع صبراً  
رقوا في المعالي ثمت اقتعدوا النسرا

(1) هذا البيت مشطور من بيتين فيما عدا الاصل . وتامه بعد الصدر :

..... بهم قد يغوص البحر يستخرج الدر . وحلم وعلم لا يشاب بشبهة . وفصل قضاء  
البحر ..... لكن النسخين ز . م قد خلّصا من أبيات 21 بعده انفرد بالاصل . ص . والكل  
من ههبل الشعر .

(2) في م : روايته طالت على المتدي نشرًا .

(3) في ج : سرا . بالتكبير والقصر . ضد ضرا . والامام هو البخاري .

(4) عليه ينازعني .



فلَمْ أَرِ لِبَاشَا مُشِيلاً تَجَسَّعَتْ  
لَنْ كَانَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْمُرْتَضَى مَضَى  
حِمَى بِاسْتِلَالِ السَّيْفِ دَوْلَةَ هَاشِمٍ  
فَهَذَا عَلَيُّ نَصْرَةَ اللَّهِ سَيْفُهُ  
غَدَا مِنْ بَنِي التُّرْكِيِّ سَيْفًا مُهَنَّدًا  
يُسَمِّيهِ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ أَحْمَدُ  
وَذَلِكَ مُحَمَّدُودٌ لِأَحْمَدَ فَادُّرِهِ  
إِلَى أَنْ أَتَى هَذَا الْمَلِكُ بِيَدِهِ نَا  
يَرَى الْمَدْحَ يَجْرِي فِي أَرْيَادِ مَحَاسِنِ  
فَتَجَاءُ تَهْ أَبْكَارُ الْقَصَائِدِ سُبْقًا  
مِنْ الْأَدْبَاءِ الْأَمْعِيَّينَ مَنْ هُمْ  
لَهُمْ بِاقْتِدَارٍ فِي الْبَيَانِ تَقْدَامُ  
فَتُخَذُ مِنْ بَنَاتِ الْفِكَرِ بِأَخِيرِ آخِذِ  
سَمَا حَسَنَهَا الْوَضَاحُ كَالشَّمْسِ فِي الضُّحَى  
فَكَيْفَ وَقَدْ وَافَتْكَ بِالْأَدْرِ سَاطِعًا  
تَهَادَى دَلَالًا بِالْجَمَالِ وَأَصْلَهَا  
مُهَذَّبَةٌ الْأَخْلَاقِ وَأَفِيرَةُ الْحُلَى  
تَتِيهِ عَلَى الْأَبْكَارِ بِالْفَخْرِ وَالْثَنَا .  
مُطَوِّقَةٌ بِالْمَجْدِ فَالْحَمْدُ زَائِدُ  
تَرَى بَعْلَهَا خَيْرَ الْمُلُوكِ وَحَلِيِّهَا  
/ فَلَا زَالَ فِي الْمَلِكِ السَّعِيدِ مُؤَيَّدًا

[36 - ب]

خَصَمَاتٍ لَهُ كَالزَّهْرِ لَمْ أَلْقِهَا الدَّهْرُ  
عَلِيًّا يَسْمَى جُرْدُ السَّيْفِ وَالشَّعْرُ  
وَشَهْرَتُهُ فِي الْبَاسِ جَنَازَاتِ الشَّعْرِ  
فَإِعْمَادُ سَيْفِ الْجَوْرِ أَكْسَبَهُ الْفُجُورُ  
لِدَوْلَتِهِمْ بِاللَّهِ مُنْتَصِرًا نَصْرًا  
لِنَصْرَتِهِ بِاللَّهِ قَدْ جَانِبَ الْمَكْرَ  
فَنَالَ بِهِ فَخْرًا يَنْدِلُ لَهُ كَيْسَرِي  
فَنَازَعَهُ فِي الْفَخْرِ أَخْفَى لَهُ ذِكْرًا (1)  
فِي زَادُ فَضْلًا فِي الْمَكَارِمِ مُنْشَرًّا  
تُهْنِيهِ بِالْمَدْحِ الَّذِي يُشَبِّهِ السَّحْرَا  
فَتُحَوَّلُ جَرَى تَبْيَانِ أُمْدَانِهِمْ نَهْرَا  
وَفَصْلُ خُطَابِ الْمَصَاقِبِ قَدْ أُرْزَى  
مُخَدَّرَةٌ غِيْدَاءَ حَالِيَةٍ بِسُكْرَا  
تَرَأَتْ لَعِينٍ وَهِيَ لَمْ تَبْرَحِ الْخَدْرَا  
تُنْضَدُ بِالْيَاقُوتِ تَسْتَحْقِرُ الشَّدْرَا  
وَقَدْ وَجَدْتُ كُنْهًا فَكَانَ بِهَا أَحْرَى  
كَقَطْرِ النَّدى (2) وَافَتْ لِبَغْدَادِ مِنْ مِصْرَا  
وَتَبْدِي حَيَاءً وَهِيَ فِي خَيْدِ رَهَاءِ عَدْرَا  
عَلَى حُسْنِهَا زَادَتْ بِإِبْدَاعِهِ وَفُرَا  
مِنْ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ فِي حَقِّهِ نَزْرَا  
بِنَصْرِ عَزِيزٍ يَصْحَبُ الْيَمْنَ وَالْيَسْرَا

(1) هذه الأبيات على غاية من التفكك والغثاثة ولا تخلو عن تصحيف وتواطت عليه النسخ وكان الشاعر بعد أن نظمه ممدوحه على أبي يوسف الدولة على الحمداني وفضله بأن نصرة الله هي سيفه قارنه بأبيه حسين وأنه كان عضيداً للسلطنة العثمانية لأن دولته كانت على عهد السلطانين أحمد الثالث ومحمود الأول . ثم أتى ابنه علي هذا قصيدته على أبيه حتى أخفى ذكره . وهو أقصى ما يفهم .

(2) هي ابنة خماروية ابن طواون التي زمت إلى الحليفة العباسي ببغداد .

بِحِجَابِ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِنَا الَّذِي  
أَعْلِيَهُ صَلَاةُ اللَّهِ مَا قَالَ مُنْشِدٌ :  
وَقَالَ أَيْضًا :

هَنَا جَمِيعَ الْعَالَمِينَ إِمَامُ .  
هَنَا هَذَا الْمَلِكُ قَدْ حَمَاهُ بِنَصْرِهِ  
ذُو الْمَحْتَدِ الْعَالِي عَلِي بِأَشَا الرِّضَا  
نَجَلُ الْأَمِيرِ حُسَيْنِ بَايِ الْمُرْتَضَى  
فَهُوَ الْهَزْبُ . الْأَسَدُ تَخْشَى بَطْشَهُ  
قَطَعَ الضَّرَاعِمَ . وَالْمَخَافُ مَا لَهَا  
فَالشَّاةُ تَرْعَى لَا تُرَاعُ . وَأَهْلُهَا  
فَلَأَجَلُ ذَا أَرْدَحِمِ الْأَنَامُ تَوْمَةُ  
مُتَنَفِّسِينَ ظِلَالِ حَضْرَةِ مُلْكِهِ  
لَا يَسْتَوِي مِنْ رَاعٍ رُوعَ رَعِيَّةٍ  
وَمَنْ اسْتَرَدَّ الْخَوْفَ أَمْنَا وَاحْتَسَى  
وَتَوَاتَرَتْ أَنْبَاءُ سَطْوَةِ بِنَاسِهِ  
وَمَنْ اغْتَدَى فِي الدِّينِ شَهْمًا فَاضِلًا  
حَازَ الْمَحَاسِنَ يَافِعًا . وَسَمَا بِهَا  
مُتَأَيَّدًا بِدِكَاةٍ عَتَلُ ثَاقِبُ .  
طَارَتْ إِلَى الْأَقْطَارِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ  
لِأَمْلِكِ طَوْرًا فِي تَدْبِيرِ أَمْرِهِ .  
لِحَدِيثِ خَيْرِ الْخُلُقِ فِيهِ عِنَايَةٌ :  
وَالدَّرُّ أَوْضَحَ بِالْحِجَى مُخْتَارُهُ  
أَمَّا الْحَيَاءُ فَشَأْنُهُ مُتَوَاتِرُ

(1) هذا البيت زائد على الأصل في ز . ح . م .

(2) في ز : ودشاره .

شَدَى ذَكَرَهُ الْأَذْكَى لَنَا يَشْرَحُ الصَّدْرَا  
هَنَا يَعْمُ الْخَلْقُ طَوْرًا مَعَ الْبَشْرِ (1)

مَلِكُ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ هَمَامُ  
حِفْظُ الْإِلَهِ فَمَا الْقَنَاءُ وَحُسَامُ  
مَوْلى النَّجَابَةِ وَالذَّكَاءُ . الْفَهَامُ  
مَنْ عَدْلُهُ بَيْنَ الْمُلُوكِ عَصَامُ  
دُونَ الزَّرِيرِ . سَمِيدُ . ضِرْغَامُ  
فِي أَرْضِهِ بِحِمَى الْإِلَهِ مُقَامُ  
بِالْأَمْنِ فِي ظِلِّ الْخِيَامِ نِيَامُ  
مَنْ شَاسِعَ الْأَقْطَارِ . قَادَ زِمَامُ  
فَهُمْ نِيَامُ فِي الْأَمَانِ قِيَامُ  
بِالرُّوعِ . فَهِيَ مَدَى الزَّمَانِ ذِمَامُ  
بِحِمَاهُ مَنْ قَدْ قَضَيْتَهُ لِنَامُ  
فِي اللَّهِ حَتَّى هَابَهُ الظَّلَامُ  
خَضَعَتْ لَهُ شَمُّ الْأَنْوِفِ وَهَامُ  
مُسْكَنُهُ . فَكَأَنَّهُ بِهَرَامُ  
تَجْرِي بِحُسْنِ حَدِيثِهِ الْأَقْلَامُ  
أَخْبَارُهُ الْحُسْنَى وَهْنُ ضِيخَامُ  
وَالْعِلْمُ آوِنَةُ وَفِيهِ غَرَامُ  
فَلِذَا يَرَى لِرُؤَايِهِ يِعْتَامُ  
بِشَهَادَةِ الْأَشْيَاحِ حِينَ يُرَامُ  
وَمَشَارُهُ (2) الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ



بِعَنَافٍ ذَيْلٍ مَا يَلِمُ بِرِيَّةٍ  
نَالَ الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا حَتَّى غَدَا  
/ بِسِيَّاسَةِ يَعْقُوبَ (1) فِيهَا سَائِسٌ  
وَبَشَاشَةٌ يَسْبِي بِهَا مُهَجَّ الْوَرَى .  
وَكَهْمَةٌ الْمَنْصُورِ هَمَّتْهُ الَّتِي  
رَكِبَتْ مَدَائِحُ الْبَحَارِ وَأَصْحَرَتْ  
أَثْنَى عَلَيْهِ أَوْلُو النَّهْيِ وَلَوْ أَنَّهُمْ  
جَلَبَبَ التَّمِيرَ الْعَذَبَ صَائِبُ رَأْيِهِ  
مِنْ كُلِّ ذِي كَبِيدٍ عَرَاها قَبْلَهُ  
فِي كُلِّ دَرْبٍ مَسْبُوعٌ مُتَدَفِّقٌ  
مَاءٌ مَعِينًا مِنْ مَسْكَنٍ شَاسِعٍ  
وَرَدَّ الْوَرَى سَلْسَالَهُ بِسُهُولَةٍ .  
وُفِّقَتْ لِلْخَيْرِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ  
أَعْطَاكَ يَا بَايَ الزَّمَانِ مَكَارِمًا  
فَاشْكُرْ مَوَاهِبَهُ يَزِدُّكَ مَوَاهِبًا  
وَاهِنًا بِخَتَنِ بَنِيكَ أَمْلاكِ الْوَرَى  
أَبْقَاهُمْ سُبْحَانَهُ لَكَ عُدَّةٌ  
يَتَعَلَّمُونَ مَكَارِمًا خَوْلَتْهَا  
يَقْفُونَهَا بِعُنَايَةٍ . وَمَنْ اعْتَنَى  
حَتَّى تَرَى إِقْرَارَ عَيْنِكَ مِنْهُمْ  
وِيرَاعُ تَوْقِيعٍ . وَحِكْمَةُ عَالَمٍ .  
دُمُ فِي ابْتِهَاجِكَ فِي الَّذِي خَوْلَتْهُ

فِيضَلًا فَمَا يَمُرَّادُهُ الْإِمَامُ  
مَلِكًا تَخِرُّ لِعِزِّهِ الْأَعْلَامُ  
لِخِيَالِهِ أَوْ خِلَافَتِهِنَّ غُلَامُ  
وَسَبَا الْبَرَائِيَا تُغْرِهُ الْبَسَامُ  
صَعِدَتْ فَحَطَّ بِهَا الْإِمَامُ هِشَامُ (2)  
وَتَحَدَّثَتْ يَمَسُّنُ بِهَا وَالشَّامُ  
سَكَّتُوا لِأَثْنَى الدَّهْرِ وَالْأَيَّامُ  
حَتَّى ارْتَوَى فِي تُونِسَ الْأَقْوَامُ  
زَمَنَ الْمَصِيفِ فِي الظَّمَاءِ أَوَّامُ  
مِنْ عُنْصُرٍ لِلْوَارِدِينَ مَرَامُ  
مَا رَامَهُ مِنْ قَبْلِهِ الْحُكَّامُ  
مِنْ مَبْزَلٍ (3) مَلَأَ الْإِنَاءَ غُلَامُ  
أَخْبَارُ سَيِّدَنَا عَلَيْهِ سَلَامُ  
رَبُّ كَرِيمٍ وَاهِبُ عِلَامُ  
فَبِشْكُرٍ نَعْمَاهَا تَزِيدُ كِرَامُ  
سَعِدَتْ بِهِمْ وَبِعَدْلِكَ الْأَعْوَامُ (4)  
يَبْغُونَ مَا تَبْغِي وَأَنْتَ إِمَامُ  
بِالطَّبْعِ . وَهِيَ عَلَى سِوَاكَ حَرَامُ  
بِخِلَالِ وَالِدِهِ . فَذَلِكَ هُمَامُ  
وَيَسُرُّ فِي بُمْنَاهُمْ الصَّمَامُ  
وَالْيَسْرُ فِي كَفِّ الْيَسَارِ لَجَامُ  
مَنْ قَلْبٍ ذِي مِقَّةٍ دَعَاهُ ذِمَامُ

تَقْضِي بِمَا تُرِيدُ - فَأَنْتَ مُوَفِّقٌ -  
مَنْ كُلُّ مَنْ جَعَلَ الْفَخَارَ دِتَارَهُ  
فِي كُلِّ شَيْءٍ رُمَّتْهُ لَكَ عِزْمَةٌ  
وَقِيَاسُ شَكْلِكَ دَائِمًا هُوَ مُنْتَجِجٌ  
لَا زِلْتَ فِي التَّدْبِيرِ بِصُحْبِكَ الْهُدَى  
/ فِي مُلْكِكَ السَّامِي تَدُومُ مُخْلَدًا

وقال الفقيه صالح الكواش (1) :

إِنْ الْغُصُونُ إِذَا شَدَّ بَنَتَهَا ابْتَهَجَتْ  
وَالشَّمْعُ أَيْضًا إِذَا مَا قُطَّ فَضْلَتُهُ  
كَذَا الْيَرَاعُ إِذَا هَدَّ بَنَتُهُ انْتَضَمَتْ  
فَنَقِي الْخِتَانِ رُقِي لِلصَّبِيِّ إِلَى  
فِي أَمِيرٍ لَهُ الْأَمَالُ طَائِعَةٌ  
هَذَا ابْتِدَاءُ مَسَرَّاتٍ وَيَتَّبِعُهَا  
دُمْتُمْ سَمَاءً بَلَا غَيْمٍ وَلَا كَدَرٍ  
حَتَّى تَرَى لِبْنِي أَبْنَائِهِمْ غُرَرًا  
بِحُرْمَةِ الْفَاتِحِ الْمَحْمُودِ مَنْزِلَةً  
خَيْرِ الْأَنَامِ وَخَيْرِ الْعَالَمِينَ هُدَى  
عَلَيْهِ مِنْ نَفَحَاتِ الْقُدُسِ نَاسِمَةٌ

وقال أبو الحسن علي الغراب (2) :

مَاءَ الْحَيَاةِ أَرَى بِشَغْرِكَ . أَوْ لَمَيَّ

بِذَبِيحٍ صَبْرِي لِلصَّبَابَةِ أَوْ لَمَا

(1) أشهر علماء تونس في عصره وابعدهم صنبا واصرحهم في الحق واشدهم انكارا للمنكرات وله في ذلك مواقف ناله فيها الإبعاد والنفي ولكنها اكسبه شهرة الدهر ، وشعره قليل في المناسبات ووفاته سنة 1804/1218 . انظر ابن أبي الضياف 7 : 44 ، النفر 2 : 64 .

(2) هذه القصيدة عليها كلفة الصنعة وقد ضاعت معانيها في الخناسات والسوريات وطالعتها شاهد على ذلك .

(1) كانه يريد يعقوب المنصور الموحد . والشبهة سخيف .

(2) أراد المنصور ابن أبي عامر الحاجب الذي استبد على الحلقة الاموى هشام المؤيد بالاندلس فارفع الاول وانحط الثاني .

(3) الميزل آلة فتح الدنان استعمله لما تسميه بالابزيم . وفي بقية النسخ منزل .

(4) في ز ، م : الأيام .



وَبَدَارَ عَيْدٍ دَرَّ فَيُضِرُّ مَدَامُ عَيْسِي  
يَوْمَ يَضُرُّ بِرَقٍّ مِنْهُ حِينَ تَبَسُّمًا  
بِبَرِّيقِهِ غَصَّ الْمَشْشُوقُ بِرِيقِهِ .  
وَبَيْتُهُ تَرَكَ الْفُؤَادَ مَتَّيَّمًا  
لَوْ قُلْتُ : عَلَّ بِمَاءٍ فِيكَ حَشَى عَسَى  
يُشْفَى . لَجَاوَبَ : دَعْ عَسَى وَلَعَلَّمَا  
نَبَتْ الْعِيدَارِ بَدَا بِفَيْضٍ مَدَامُ عَيْسِي  
وَالنَّبْتُ يُبْدِيهِ الْغَمَامُ إِذَا هَمَى  
لَا يَدْبُلُ الْوَرْدُ النَّضِيرُ بِخَدِّهِ  
يَوْمًا لِمَا يُسْقِيهِ مِنْ مَاءِ اللَّحَى  
وَالْخَالُ عَبْدٌ حَارِسٌ مِنْ وَجْهِهِ  
فِي رَوْضَةٍ مِنْ رَائِعِ حَوْلِ الْجِمَى  
وَحَمَى الْمُبَرَّدَ مِنْ لَمَاهُ بِمَا انْتَضَى  
مِنْ هِنْدٍ مُقْلَتِهِ فَصَيْنَ بِمَا احْتَمَى  
إِنْ مَرَّ - وَهُوَ يَمِيلُ فِي حُلَلِ الْبَهَا -  
تَرَكَ التَّقِيَّ الْخِلْوَ صَبًا مُغْرَمًا  
صَلَّى عَلَى الْجَمْرِ الْفُؤَادَ مُسَلِّمًا :  
لِلَّهِ مَا صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَا  
يَهْتَنُّ عَدْلُ قَوَامِهِ فَتَحَالَهُ  
عَلَّمَ الْأَمِيرُ تَلَاهُ حِينَ تَقْدَمَا  
/ مَلِكِ الْوَرَى الْبَاشَا عَلَيَّ مَنْ غَدَا  
يُرْوِي بِمِرَّاهُ الصَّدَاةَ مِنَ الظَّمَا  
تَجُلُّ الْأَمِيرُ حُسَيْنُ بَايَ مَنْ بِهِ  
نَلْنَا رَضَى عَيْشٍ يَلْدُ . وَأَنْعَمَا

[38 - أ]

وَالَيْكَ لَهُ ذَهْنٌ وَصِدْقٌ فِرَاسَةٌ  
تَسْتَخْرِجُ الْأَمْرَ الْخَفِيَّ الْمُبْهِمًا  
[قُرْنُ الصَّوَابِ بِرَأْيِهِ . فَلِإِيَّاهُ لَا  
يُوحَى . وَلَكِنْ لِلْإِصَابَةِ الْهَيْمًا] (1)  
لَمْ يَخْطِ فِي قَوْلٍ وَلَا فَعْلٍ فَمَا  
فِعْلٌ مَضَى يَوْمًا عَلَيْهِ تَنْدَمَا  
فَرَعٌ عَرِيقٌ فِي الْفَخَامَةِ ثَابِتٌ  
وَفَخَارُهُ فَوْقَ الثَّوَابِتِ خِيَمًا  
شَرَفٌ تَأْصَلَ مِنْ حُسَيْنٍ هَلْ يَرَى  
شَرَفٌ عَلَى شَرَفِ الْحُسَيْنِ تَقْدَمَا ... ؟  
مَا انْفَكَ فِي رَوْعٍ وَجُودٍ كَفَّهُ :  
يُجْرِي النَّدى يَوْمًا وَيَوْمًا بِالْدَمَا  
غَمَرَ الْوَرَى . وَيَرَى النَّوَافِلَ فِي الْعَطَا  
يَوْمَ النَّدى فَرَضًا عَلَيْهِ مُحْتَمًا  
فَاللَّيْتُ رَامَ تَشَبُّهًا بِكَ فَاجْتَرَا  
لَمَّا رَأَى لَدَى الْحُرُوبِ مُقْدَمَا  
وَهَمَى السَّحَابُ الْغُرَّ يَحْكِي نَيْلَكُمْ  
لَمْ يَحْكُ نَائِلُكَ السَّحَابُ . وَإِنَّمَا ...  
يَا مَنْ إِذَا أَمْرٌ تَعَدَّرَ كَشَفُهُ  
أَمْسَى لَهُ فِكْرٌ عَلَيْهِ مُتَرْجِمًا  
يَا مَنْ مَفَاتِيحُ الْكُنُوزِ مَدِيحُهُ  
وَلَوْ أَنَّهُ بِالرَّصْدِ كَانَ مُطْلَسَمًا

(1) البيت ناقص بالأصل ومثبت في جميع النسخ .



يَا مَنْ إِذَا دَبَّرْتُ إِكْسِيرَ الثَّنَا  
فِي وَصْفِهِ كَانَ الْغِنَى لِي مَعْنَمَا  
لَوْلَا اخْتِلَالُ الْكَوْنِ بَعْدَ نِظَامِهِ  
مَا كَانَ يَتْرُكُ فِي الْبَرِيَّةِ مَعْدَمًا  
أَنْتَ الَّذِي أَنْبَاءُ ذِكْرِكَ قَدْ عَلَتْ  
فَمَلَأْنَ مَا بَيْنَ الْبَسِيطَةِ وَالسَّمَاءِ  
أَنْتَ الَّذِي أَنْوَارُ بَشْرِكَ أَشْرَقَتْ  
كَادَتْ لِبَطَاعَتِكُمْ تَقُودُ الْأَنْجُمَا  
أَنْتَ الَّذِي عَزَمَاتُ فِعْلِكَ جَاوَزَتْ  
فِي سَبْقِهَا فَلَكَ التَّجُومِ الْأَعْظَمَا  
أَنْتَ الَّذِي دَفَعَاتُ جُودِكَ أَفْصَحَتْ  
بِشَنَائِكُمْ مَنْ كَانَ أَخْرَسَ أَبْكَمًا  
أَنْتَ الَّذِي آيَاتُ حِلْمِكَ لَوْ دَعَتْ  
[رَضْوَى لِحَاجَاكَ بِالرَّضَاءِ مُسَلِّمًا]  
[أَنْتَ الَّذِي رُحْمَاكَ لَوْ نُشِرَتْ عَلَى]  
رِمَمِ الْقُبُورِ نُشِرَتْ مِنْهَا الْأَعْظَمَا  
وَكَفَفَتْ كَفَّ الظَّالِمِينَ فَلَا يُرَى  
أَحَدٌ أَتَى مِنْ دَهْرِهِ مُتَظَلِّمًا  
وَأَقَمْتَ أَرْكَانَ الشَّرِيعَةِ إِثْرَ مَا  
فِينَا تَدَاعَى رُكْنُهَا وَتَهْدَمَا  
مَوْلَايَ يَهْنِيكَ الْخِتَانُ لِأَنْجُلِ  
شَرَفُوا الْمُلُوكَ نَبَاهَةً وَتَكَرَّمَا  
وَهُمُ «سُلَيْمَانُ» الرَّضَى وَشَقِيقُهُ  
«حَمُودَةُ» . أَعْظَمُ بِكُلِّ مِنْهُمَا

وَأَبْنَا أَخِيكَ [وَذَاكَ] «مَحْمُودُ» وَمَنْ  
يُدْعَى «بِاسْمَاعِيلَ» أَنْتَ أَبُوهُمَا  
/ أَوْتَادُ مَمْلِكَةٍ ، وَأَسَدُ فَرَائِسِ ،  
شُهْبٌ إِذَا لَيْلُ الشَّدَائِدِ أَظْلَمَا  
وَهُمُ إِذَا جَرَحَ الرِّمَانُ بِنَابِهِ  
كُلُّ لِيذَاكَ الْجُرْحِ أَصْبَحَ مَرَهَمًا  
خَتْنٌ بِهِ عَظُمَ السَّرُورُ فَثِقَ بِهِ  
أَنْ قَدْ أَتَى لِدَوَامِ مُلْكِكَ سَلَامًا  
وَبِإِثْرِهِ يَأْتِي الْبِنَاءُ مُؤَسَّسًا  
لِدَوَامِ مُلْكِكُمْ دَوَامًا مُحْكَمًا  
أَمْسَى لآلَاتِ الْخِتَانِ تَنَافُسَ  
فِي الْخَتْنِ سَالَ دَمًا وَهَزَّ بِهِ ، كَمَا  
شَرُفَتْ عَلَى الْآلَاتِ آلَةُ خَتْنِهِ .  
وَتَقُولُ فِي عَرْضِ الْفَخَارِ لِمَنْ سَمَا :  
(لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى  
حَتَّى تُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمَاءُ) (١)  
وَالْخَتْنُ نَقْصٌ يَسْتَتِمُّ مَحَاسِنًا ،  
فَاعْجَبْ لِنَقْصِ كَيْفَ جَاءَ مُتَمِّمًا  
يَقْوَى الذُّبَالُ بِقِطْعِهِ . وَالْمُسْلُوكُ قَدْ  
يَذْكُو بِمَا تُلْفِيهِ عَنْهُ مُخْتَمًا  
كَالْقِطْعَةِ لِلْأَقْلَامِ يُسْرِعُ جَرِيئَهَا  
أَبَدًا ، وَيَنُمُو الْغُصْنُ مَهْمَا قُلِمَا



لَمْ يَدْرَ طِيبُ اللَّبِّ وَهُوَ بِقَشْرِهِ .  
 وَالْدَّرُّ فِي أَصْدَافِهِ مَا فُخِّمًا  
 وَغَدَوْتَ تُتْبِعُهُمْ بِخَتْنِ بَنِي الْوَرَى .  
 وَأَقَمْتَ فِيهِمْ بِالْمَسْرَةِ مَوْسِمًا  
 وَكَسَوْتَهُمْ حُلَلًا تَرُوقُ مَحَاسِنًا  
 وَعَلَى جَمِيعِهِمْ قَضَتْ لَأَنْعَمَ  
 وَعَمَمْتَ بِالصَّدَقَاتِ كُلَّ فَتَى . فَلَمْ  
 تَسْتَشِنْ فِيهِمْ مُوسِرًا أَوْ مُعَدِمًا  
 وَفَكَكْتَ أَسْرَ الْمُذْنِبِينَ بِأَسْرِهِمْ  
 فِي ذَا الْخِتَانِ . فَلَسْتَ تَتْرُكُ مُجْرِمًا  
 أَسْقَطْتَ حَقَّكَ عَنْهُمْ . وَغَدَوْتَ فِي  
 حَقِّ الْوَرَى لِأَدَائِهِ مُسْتَأْزِمًا  
 وَأَرَدْتَ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ جَمِيلَهُ  
 نَيْلَ الْمُثُوبَةِ . لَا رِبَاءَ مُذَمَّمًا  
 فَاسْعَدْ بِهِ وَاهِنًا هِنَاءً لَمْ تَزَلْ  
 أَبَدًا بِهِ فَوْقَ الْمُلُوكِ مُعَظَّمًا  
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْأَعَزُّ مَكَانَهُ .  
 وَإِلَيْهِ تَقْتَادُ السُّعُودُ الضَّيِّغَمَا  
 خُذْ مَدْحَ رَوْضٍ فِي عِلَاقِكَ مَدْبَحٍ  
 مِنْ فَيْضِ كَفِّكَ لِلزُّهُورِ مُنَمَّمًا (١)  
 وَاجْنِ الْفَوَاحِي مِنْهُ مَا تَخْتَارُهُ .  
 وَاجْعَلْ إِثَابَتَهُ الرِّضَا . فَلَرُبَّمَا ...

(١) كذا بالأصل ، ويناسه (كالزهور) ، وفي ز : بالزهور مستهجا .

أَنْهَى مَلَاذِي بِالْعَلَا أَنْجَالَكُمْ  
 أَرْجُو بِهِمْ فِي بَابِ عِزِّكَ مَعْلَمًا  
 فَاسْعَدْ حَيَاتَكَ بِالْبَنِينَ وَكُنْ بِهِمْ  
 فِي طِيبِ عَيْشٍ لَا تَزَالُ مُنْعَمًا  
 وقال أيضا :

خِتَانٌ بِالْمَسْرَةِ زَادَ (١) عِزَّهُ  
 / بِأَنْجَالِ الْمَلِكِ عَلَيَّ بَيِّ  
 مَلِكٍ لَمْ يَرْمُ مَلِكٌ يُحَاكِي  
 فَكَنْزُ النَّاسِ مِنْ ذَهَبٍ لِيَذْخِرَ  
 فَقِيسِي الْأَخْرَى الدُّعَاءُ يَبْقِيهِ نَارًا  
 فَيَا لِلَّهِ مِنْ خَتْنِ كَرِيمٍ  
 تَتَّبِعُ سُنَّةَ الْمُخْتَارِ فِيهِ  
 وَأَتَّبِعُهُ بِخَتْنِ بَنِي الْبَرَايَا  
 لَقَدْ عَظُمَ السُّرُورُ بَيْنَا فَكُلُّ  
 وَدَامَ خِتَانُكُمْ بِالْعِزِّ يَأْتِي  
 وَرَاحَ لِكُلِّ حِلْمٍ يَسْتَفِزُهُ  
 عَلَى ثَوْبِ الْمَمَالِكِ زَانِ طَرْزُهُ  
 أَقْلٌ عِلَاقُهُ . إِلَّا بَانَ عَجْزُهُ  
 وَمِنْ خَيْرِ الدُّعَا وَالْمَدَحِ كَنْزُهُ  
 وَفِي الدُّنْيَا مِنَ الْآفَاتِ حِرْزُهُ  
 أَزَالَ حَزَاةَ الْأَحْشَاءِ حَزَّهُ  
 وَلَمْ يَعْدِلْ إِلَى مَا شَاعَ نَبْزُهُ  
 وَأَطْلَقَ مِنْ بَيْطُنِ السَّجْنِ حَجْزُهُ  
 كَغُصْنٍ وَالسُّرُورُ هَوَا يَهْزُهُ  
 بِيَتَارِيخٍ : «خِتَانٌ دَامَ عِزُّهُ»

وقال أيضا :

سُرُورًا جَنِينًا وَسِرًّا عَجِيبًا  
 وَقَدْ عَمَّ كُلَّ الْوَرَى أَنْسُهُ  
 فَلَمْ يَشْكُ دَهْرًا أَخُو حَاجَةٍ  
 بِخَتْنِ بَنِي الْمَلِكِ مَنْ لَمْ تَجِدْ  
 أَسُودَ شَرِّ ، وَنُجُومَ سَرِّ .  
 «سَلِيمَانُ» يَتْلُوهُ «حَمُودَةُ»  
 أَعَادَ الشَّبَابَ وَزَانَ الْمَشِييَا  
 فَلَمْ تَرَ فِي النَّاسِ شَخْصًا كَثِيبًا  
 وَلَا أَوْحَشَ الْبَيْنِ يَوْمًا غَرِيبًا  
 لَهُمْ فِي بَنِي الدَّهْرِ يَوْمًا ضَرِيبًا  
 شُمُوسُ ضُحَى فِي الْعَلَا (٢) لَنْ تَغِيْبَا  
 وَنَجَلَا مَلِكٍ تَسَامَى حَسِيْبَا

(١) في ز : دام وهو أصوب ليوافق عبارة التاريخ ويحصل منه رد المعجز على الصدر وهو مقصود .

(٢) في ز : المسلا .



أَيَا مَلِكِ الْفَضْلِ فَاهْتَدِ وَطِيبْ      يَدُ الْخَالِصِ قَلْبٌ وَصَدْرٌ رَحِيمٌ  
وَأَصْغِرْ لِمَا قَالَ تَارِيخُهُ :      «خَتْنٌ بِهِ اللَّهُ زَادَكَ طَيْبًا»  
وقال أيضا :

خَتْنٌ      لَأَنْجَالِ عَلِيٍّ      بَنِي الْمَلِكِ الْمُنْتَبِهِ  
فِي ثَالِثٍ مِنْ سَابِعٍ      مِنْ رَابِعٍ لَمْ يَشْتَبِهْ  
يُعْرِفُ مِنْ تَارِيخِهِ :      (خَتْنٌ هُنَاكَ دَامَ بِهِ)

وأشار بقوله في ثالث من سابع البيت إلى أنه وقع في الساعة الثالثة من  
اليوم السابع من الشهر الرابع من السنة إلا أنه ذكر الثالث وهو وصف  
الساعة على تأويلها بالجزء ونحوه .

### [خرجة جبائية]

[39 - ب] وفي هذه السنة 1178 خرج مولانا - أيده الله تعالى - في محلته / الشتائية ،  
وخرج معه أبناؤه - حفظهم الله تعالى . وهي أول خُرْجَة خرجوها معه .  
وكان ذلك يوم الأحد لَيْسَتْ خلت من رجب . وفي خروجهم يقول الأديب  
أحمد سميّة الكاتب مؤرخاً :

حَلَّتْ مَحَلَّ فَلَاحِ أَنْجُمٍ لِعَلِيٍّ  
حُلُولِ شَمْسِ الضُّحَى فِي دَارَةِ الْحَمَلِ  
إِنَّ الْبُدُورَ إِذَا أَمَتْ عَلَى شَرَفٍ  
سَنَا ذُكَاءً (١) اكْتَسَتْ ضَوْءًا بِلَا مَهَلٍ  
بُدُورُ سَعْدٍ . كَبِيرُ السَّعْدِ سَاعَدَهُمْ .  
وَالْمُلُوكُ حَلَّاهُمْ بِالْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ  
عَيْنُ السَّلَامَةِ تَرَعَاهُمْ وَتَحْرُسُهُمْ  
مِنْ عَيْنِ حَاسِدِهِمْ بِالسُّوءِ لَمْ تَصِلْ

(١) بالضم من أسماء الشمس.

تَفَرِّي لُحُورَ أَعَادِيهِمْ جَلَّالَتُهُمْ  
وَعَزَّاهُمْ يَقْمَعُ النَّمَامَ ذَا الْحَيْلِ  
بِالْأَيِّ وَالسُّورِ الرَّحْمَنِ يَحْفَظُهُمْ .  
وَبِالنَّبِيِّينَ يَحْمِيهِمْ . وَبِالرُّسُلِ  
وَبِالْمَلَائِكَةِ الْأَخْيَارِ يَمْنَعُهُمْ  
مِنْ الْإِسَاءَةِ وَالْأَهْوَالِ وَالْكَسَلِ  
لَهُمْ تَقُولُ الْعُلَا : «طَبِئْتُ فَطَبِئْتُ بِكُمْ»  
لِغَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي الْحُكَّامِ لَمْ تَقُلْ  
حَلَّ الْمَسَامِيعِ وَأَسْمَعُ مِنْ مُؤَرِّخِهِمْ :  
«فَالسَّرُّ حَفَّ بِأَنْجَالِ الْأَمِيرِ عَلِيٍّ»

وقال [يمدح مولانا ويؤرخ سفرته هذه] :

سَقَرٌ سَعِيدٌ مَدَّةُ الْإِقْبَالِ :  
سِرٌّ حَيْثُ شِئْتَ تَوْمُكَ الْأَمَالِ  
وَالسَّعْدُ مُمْتَلِئٌ لِأَمْرِكَ طَائِعِ  
وَلِكُلِّ شَيْءٍ شِئْتَهُ فَعَّالٌ (١)  
مَا سِرْتُ فِي سُبُلٍ وَقَائِدُكَ الْهَنَاءُ  
إِلَّا وَعَنْهَا تَذْهَبُ الْأَهْوَالُ  
فَالْأَمْنُ لَا يَنْفُكُ عَنْكَ دَقِيقَةً  
فَاهْتَدِ بِهِ . لَكَ طَابَ مِنْهُ وَصَالُ  
وَالْيَمْنُ طَوْعَ يَدَيْكَ فِيهِ مُلَاحِظٌ ،  
مَا عِنْدَهُ مَلَلٌ وَلَا إِهْمَالُ  
وَالْغَيْثُ يَنْزِلُ إِنْ نَزَلْتَ بِمَنْزِلِ  
فَرَحًا ، لِأَنَّ كَلِيكُمَا هَطَّالُ

(١) في ز : تسال.



وَالْخِصْبُ يَظْهَرُ مِنْهُ وَجْهٌ مُطْرِبٌ  
وَالْجِدْبُ يَخْفَى وَجْهُهُ الْهَيْوَالُ  
بِسَنَّا حِجَاكَ تَزُولُ ظُلُمَةُ مُشْكِلٍ  
وَبِحُسْنِ رَأْيِكَ تَحْسُنُ الْأَحْوَالُ  
فَإِذَا ارْتَحَلْتَ انْفَعُ . وَضُرَّ . وَصُلَّ . وَجُلَّ  
عَنْكَ السَّلَامَةُ مَا لَهَا تَرَحُّالُ  
وَإِذَا أَقَمْتَ أَنَّهُ . وَمُرَّ . وَأَفِيدَ . وَجُدَّ  
لِعَظِيمِ عِزِّكَ تَخَضُّعُ الْإِبْطَالِ  
فَنَسِيمُ ذِكْرِكَ لِلْأَحِبَّةِ مُنْعَشٍ  
وَحُسَامُ نَصْرِكَ لِلْعِدَا قَتَالُ  
اللَّهُ أَنْتَجَ مِنْكَ خَيْرًا لِلْوَرَى  
وَبِفَضْلِهِ لَكَ تَنْتِجُ الْأَنْجَالُ  
لَا غَرَوْ أَنْ أَخَذُوا عَلَيْكَ مَكَارِمًا  
فَاللَّيْثُ تَأْخُذُ طَبْعَهُ الْأَشْبَالُ  
/ يَا أَيُّهَا الْبَاشَا أَبَا الْحَسَنِ الَّذِي  
عَدِمْتَ مِنْ الْأَمْرَا لَهُ الْأُمُثَالُ  
بِشْرَاكَ بِالسَّفَرِ السَّعِيدِ تَرَى بِهِ  
خَيْرًا . وَيَصْحَبُ مُلْكَكَ الْإِجْلَالُ  
وَاهْنًا بِهِ إِذْ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :  
«سَفَرٌ سَعِيدٌ مَدَّةٌ الْإِقْبَالُ»

وقال أيضا :

لَكَ طَوْدٌ عِزٌّ فِي ذُرَى الْعُلْيَا عَلِي  
وَسَعَادَةٌ تَكْوِي عِدَاكَ بِمِشْعَلِ

مُرَّ . وَأَنَّهُ . وَارْفِدَ . وَأَنْتَبَهَ . وَأَقْعُدَ . وَقَمَّ .  
وَأَقِمَّ . وَسِرٌّ فِي حِفْظِ جَبَّارٍ عَلِي  
عَيْنُ الْعَيْنَايَةِ لَا حَظَّتْكَ . وَكُلُّ مَنْ  
لَحِظْتَهُ حَصَلَ مَقْصَدًا لَمْ يَحْصُلْ  
سَفَرُ السَّلَامَةِ فِيهِ تَحْظَى بِالْمُنَى  
وَالسُّوءُ عَنْكَ وَعَنْ بَنِيكَ بِمَعَزَلِ  
لَمَّا دَعَاكَ الْأَمْنُ قُلْتَ مُؤَرَّخًا :  
«سِرٌّ فِي أَمَانِ الْمَالِكِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ»  
وَأَنْتَهَى مَوْلَانَا إِلَى الْقَيَرَوَانِ وَأَقَامَ بِهَا وَأَحْسَنَ إِلَى أَهْلِهَا بِوَافِرِ  
عَطَائِهِ . وَأَرْسَلَ وَزِيرَهُ الْأَجَلَّ رَجَبَ خَزَنَةِ دَارٍ إِلَى الْجَرِيدِ بِمَحَلَّةِ الْعَسْكَرِ ،  
وَرَحَلَ رَاجِعًا إِلَى حَضْرَتِهِ فَادْخَلَهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً . [بَقِيْن]

وقال أبو الحسن علي الغراب يُهَنِّئُهُ بِعُودِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ :

تَبَسَّمَ وَجْهُ الْأَرْضِ وَأَفْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ  
وَقَدْ لَاحَ نَجْمُ الزُّهْرِ كَالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ  
وَقَدْ أَرَجَتْ أَرْجَاءَ تُونِسَ وَأَنْجَلَتْ ،  
وَأَصْبَحَتْ الْخَضْرَاءُ فِي حُلَلٍ خَضِرِ  
لِمَقْدَمِ مَوْلَانَا أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا  
عَلَيْهِ فَعَلَّى شَأْنَهُ مَالِكُ الْأَمْرِ  
وَقَدْ طَرِبَتْ أَعْلَامُهَا وَتَبَاشَرَتْ  
وَكَادَتْ لَهُ تَفْشِي التَّحِيَّةِ بِالْجَهْرِ  
وَلَوْلَا أَتَاهَا مُسْرِعًا عِنْدَمَا أَتَى  
لَسَارَتْ لَهُ مِنْ شَوْقِهَا . أَوْ لَهُ تَسْرِي



## [ انشاء الأسطول الحربى ]

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَنْشَأَ - أَيْدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - مَرَكَبَيْنِ بِرَسْمِ الْجِهَادِ  
فِي الْبَحْرِ . وَكَانَ إِنشَاؤُهُمَا بِحُلُقِ الْوَادِي وَرُمِيَّتَا إِلَى الْبَحْرِ فِي شَهْرِ رَبِيعِ  
الْأَوَّلِ وَذَكَرَهُمَا شِعْرَاؤُهُ فِي أَشْعَارِهِمْ . فَمِنْ قَوْلِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ  
أَحْمَدَ الْوَرُغِيِّ :

أَعْلَى هِيَامِي فِيكَ لَوْمُ الدَّوْمِ ؟  
كَلَّا ! فَهَذَا الْقَوْلُ غَيْرُ مَسْلَمٍ (1)  
فَلِمَ اتَّفَقْنَا فِي الْخُضُوعِ لِبَارِقِ  
بَعَثَ الْهَوَى مِنْ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ ؟  
قَصَدُوا سُلُوكِي عَنْكَ كَيْ يَسْتَأْثِرُوا  
نَظَرُوا ! وَلَكِنْ فِي فِضَاءِ مُظْلِمِ  
يَا غَايَةَ حُبِّسَ الْمُؤَمِّلُ دُونَهَا  
حُبِّسَ الْمُلِحَّ عَلَى وَقَاءِ الْمُعْدِمِ  
بَلَغَ التَّشَوُّفُ نَحْوَ عَطْفِكَ حَدَّهُ :  
فَمَتَى يَقُولُ لِي الزَّمَانُ : تَقَدَّمَ ؟  
وَأَرَاكَ تَنْدُبُنِي لِصَبْرِ ، فَأَتِنِي  
بِكَمْفِيلٍ عَافِيَتِي لَوَقْتِ الْمَغْرَمِ  
هَيِّنْ عَلَيْكَ - وَقَدْ مَلِئْتُ مِنَ الْكَرَى -  
سَهْرِي لِأَنْظُرَ قِصَّتِي فِي الْأَنْجُمِ

(1) هذه القصيدة من أعجب ما للورغى ، وأعجب ما فيها أنه سلخ زهاء عشرة أبيات برسمها من  
قصيدة لابن زمرك (انظر المقرئ 4 : 70 بولاق) دون إشارة أو تضمين أو استشهاد .  
وهو أمير مستغرب جدا من شاعر قدير مثل الورغى الذي يؤخذ بما لا يؤخذ به غيره من  
الشعراء . والابيات المسروقة هي : 18 - 10 - 20 - 40 - 43 - 44 - 51 - 52 - 53 -  
وعجز 60 من هذه القصيدة ذكرناها في الجملة هنا لتنبه اذهان الناقدين ، ولا يشفع له تغيير  
بعض المفردات كإبدال الرجال بالمشاة مع استعمال بقية البيت لفظا ومعنى ، ولعله كان حين  
القول غير مستريح البال فاستعمل بضاعة الرجال .

أَتَى بَيْسَنَا بِشَرِّ عَلَى الْعَطْفِ مُشْبِيءٍ  
وَعَنْ تَيْلٍ مَا يَرْجُو الْمُؤَمِّلُ مِنْ بَيْسَرِ  
وَأَقْسَمَ مَنْ لَاقَاهُ يَوْمَ قَدُومِهِ  
وَقَابَلَهُ لَمْ يَشْكُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ  
أَيَا رَاصِدًا سَعَدَ الْكَوَاكِبِ طَالِعًا  
مَطَالِعُهُ تُغْنِيكَ عَنْ طَالِعِ الْبَدْرِ  
سَنَا الْوَجْهَ دُرِّيُّ لَهُ . وَهُوَ دُرَّةٌ :  
أَلَا فَانْظُرُوا الدُّرَى فِي ذَالِكَ الدُّرَى  
تَرَاهُ عَلَى شَهْبَاءَ صَافِنَةٍ إِذَا  
جَرَّتْ فَاتَتْ الشُّهُبَ الْجَوَّارِي إِذْ تَجْرِي  
هُوَ الْبَحْرُ وَهِيَ الرِّيحُ حَامِلَةٌ لَهُ  
وَلَا غَرَوَ أَنَّ الرِّيحَ حَامِلَةَ الْبَحْرِ  
وَلَا ذَتْ بِهِ أَنْجَالُهُ الرُّهُرُ مِثْلَمَا  
تَرَى بَدْرَ تَمَّ حُفَّ بِالْأَنْجُمِ الرُّهُرِ  
/ أَوِ الدُّرَى بِالنِّيَاقُوتِ حُفَّ مُرْصَعًا [40 - ب]  
أَوِ اللَّيْثِ مَحْفُوفًا بِأَشْبَالِهِ الْغُرَى  
تَرَى خَلْفَهُ الْأَعْلَامَ ، وَالطَّبْلُ ضَارِبٌ  
عَلَى خَفَقِهَا رَعْدٌ وَبَرْقٌ عَلَى الْإِثْرِ  
عَسَاكِرُهُ أَسْدُ الشَّرَى وَسِلَاحُهَا  
أَظَافِرُهَا ، وَالْأَسْدُ تَفْرَسُ بِالْظَفْرِ  
حَمَاهُ إِلَهُ الْعَالَمِينَ وَصَانَهُ  
مِنْ السُّوءِ بِالْأَسْرَارِ مِنْ سَوْرِ الدَّكْرِ  
بِحَاجَةِ رَسُولِ اللَّهِ أَفْضَلَ شَافِعِ  
إِذَا مَا اشْتَكَى الْعَاصُونَ مِنْ ثِقَلِ الْوِزْرِ



أَعْدُو لِيَتَرَبَّعَ السُّطَالِيعُ فَتُجَدِّدُ  
وَأَرْوَحُ لِلتَّسْلِيسِ رَوْحَهُ مَتَّبِعُ (1)  
وَأَطَالِيعُ الْبُرْجِيسِ كَيْفَ تَقَلَّتْ  
حَرَكَاتُهُ . وَهَلِ اسْتَوَى فِي التَّوَامِ  
فَوَقَعْتُ فِي طُرُقِ الثُّجُومِ . وَمَا أَنَا  
بِمُقَلَّدٍ لِمُرْمَلٍ وَمُنَجَّمٍ  
إِنْ كُنْتُ لِي يَاحَبَّذَا ! أَوْلَا فَمَا  
بَالِي أَفْتَشُ عَنْ قَضَاءِ مَبْنِيهِمْ ؟  
بَلْ حُسْنُ وَجْهِكَ قَدْ رَأَيْتُهُ حَاكِمًا  
بِنَجَاحِ أَمْنِيَّتِي . وَقُرْبِ الْمَغْنَمِ  
فَجَعَلْتُهُ فِيمَا أَحَاوِلُ نَصْبَتِي  
وَزَجَرْتُهُ نِي فَتَحِ فَأَلِ مُعْجَمِ  
وَرَجَوْتُ بَخْتًا أَسْتَكِينُ بِكُنْهِ  
فِي لَيْلَةٍ لَيْلًا . وَيَوْمِ أَيُّومِ (2)  
فَقَضَى بَانَ الْبَخْتِ أَصْبَحَ كُلَّهُ  
لَابْنِ الْحُسَيْنِ الْأَكْرَمِ ابْنِ الْأَكْرَمِ  
فَقَضَى لِأَوْحَدٍ فِي الْكَمَالِ مُوَفَّقٍ  
مِلَّةَ النَّوَظِيرِ . وَالضَّمَائِرِ . وَالْقَمِ  
سَهْلِ الْخَلَائِقِ حَيْثُ كَانَ وَإِنْ يَقُمْ  
فِي الْحَقِّ قَامَ قِيَامَ صَعْبِ مِغْنَمِ  
/ مَلِكٍ أَفَاضَ عَلَى الْبَسِيطَةِ عَدْلَهُ .  
فَالشَّاةُ لَا تَخْشَى اعْتِدَاءَ الضَّيْفِغَمِ

[41 - أ]

(1) إشارة إلى علم كانوا يدعون به كشف المستقبل وهو التنجيم . وكان للملوك به ولع كبير . وذكر بعض مصطلحاته مع أسماء بعض النجوم تبعاً بمعرفة .  
(2) أفعل تفضيل .

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَاتَ فِيهَا سَاهِرًا  
يَهْدِي الْأَمَانَ إِلَى الْعَيْنِ النَّوْمِ  
مِنْ غَيْرِ مَا ضَجَرَ . وَلَا بَطَرٍ . وَلَا  
جَوْرٍ . وَلَا كِبَرٍ . إِذَا لَمْ يُلْزَمِ  
نَسِي الْأَنَامِ بِهِ سَمَاحَةً «حَاتِمِ» .  
وَشَجَاعَةً «الْعَبْسِيِّ» «وَابْنِ مُكَدَّمِ» (1)  
وَأَنَالَهُمْ مِنْ حِلْمِهِ وَحَنَانِهِ  
مَا لَا يَكُونُ . وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَقْدَمِ  
وَبِهِ الْعِنَايَةُ فِي إِيَالَتِهِ الَّتِي  
بُنِيَتْ عَلَى أَسْ الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ  
غَرَبَتْ بِهِ الْأَقْدَارُ عَنْهَا بَرْهَةً  
وَرَمَتْ بِهِ بَيْنَ السَّهْمِ وَالْمِرْزَمِ (2)  
وَأَسْتَعْجَمَتْ (3) أَخْبَارُ مَطْلَعِ نَجْمِهِ  
عَنْ عَائِفِ دَرَبٍ . وَعَنْ مُتَوَسِّمِ  
وَحَطَا مَوَاطِيءَ قَلٍّ مَنْ يَخْطُو بِهَا  
لَا تَهْتَدِي فِيهَا الْقَطَاةُ لِمَجْثَمِ  
كَمْ غَمْرَةٌ قَلَعَتْ (4) عَلَى مُتَخَبِّطِ  
مَنْهُ يُجَالِدُ بِالْأَشَدِّ الْأَحْزَمِ

(1) ضرب مثل بمشامير العرب . والعبسي هو عنترة . وابن مكدم هو ربيعة . وقد ذكره ابن زمرق في قافيته أيضاً .  
(2) إشارة إلى التجاء ممدوحه في فتنة ابن عمه إلى الجزائر وتقلبه فيها . والسها والمرزم نجمان متباعضان .  
(3) استجمعت حقيقت واسمبهمت . وهي في م . وبالأصل استعجبت ولا معنى لها .  
(4) كذا بالأصل . والمراد افلعت وانكشفت عن مجاله شديد حازم . وفي م : مغلت بالكسر وإيها معنى يساق بها بعده في الجملة . والمباغل التي أرضعت ولدها وهي حامل فاعل . كأنه يشبه دواية البانما الطارئة بولد معتل من الغل . لما ساورها من الاضطراب . فلما بلغ أوان الجنين جاءت به على قدر دون علة .



حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْأَوَانَ جَنِينُهَا  
 وَوَقَّتْ بِقَدَرٍ فِي الْحِسَابِ مُتَمِّمٌ  
 خَلَصَتْ كَأَسْهَلِ مَا يَكُونُ . وَإِنَّهَا  
 ظَفِرَتْ بِهِ مِنْ بَعْدِ طَوْلِ تَلَوِّمٍ  
 لَا بِالتَّغْلِبِ . بَلْ بِحَقِّ . ثُمَّ مَا  
 فِيهَا - لِغَيْرِ اللَّهِ - مِنَّةٌ مُنْعِمٍ  
 وَأَفَادَةٌ التَّمَحِيصِ عِلْمَ فِرَاسَةٍ  
 لَوْلَا مَلَأَ زَمَّةُ النَّوَى لَمْ يُعْلَمِ  
 حِكْمُ تَزْيِيدِ لِمَنْ تَأَمَّلَ عِبْرَةً  
 وَتَقَيَّدَ التَّعْمَى بِشُكْرِ الْمُنْعِمِ  
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ  
 مَا شَبَّتِ الْأَدَابُ بَعْدَ الْمَهْرَمِ  
 أَدْرَكَتْهَا فَرَفَعَتْ مِنْهَا خَامِلًا  
 وَأَزَلَّتْ عَنْهَا كُلَّ زَيْفٍ مُدْغَمٍ  
 وَلَقَدْ سَبَقَتْ بَأْنَ أَحْزَمَ مَنْ مَضَى  
 أَعْطَى لِذَلِكَ مِنْهُ فَضْلَ تَهَمُّمٍ  
 وَلَأَنْتَ أَجْدَرُ مَنْ تَرَى أَيْامَهُ  
 مَرْقُومَةً بَيْنَ السُّطُورِ بِمِرْقَمِ  
 أَنْتَ الْأَخِيرُ زَمَانُهُ . وَقَدْ اعْتَدَى  
 مَنْ قَالَ : «إِنَّ الْفَضْلَ لِلْمُتَقَدِّمِ»  
 أَوْ لَمْ تَكُنْ أَحْيَيْتَ كُلَّ فَضِيلَةٍ  
 وَتَفَخَّتْ مِنْهَا فِي رَمِيمِ الْأَعْظَمِ ؟  
 وَجَعَلْتَ حِفْظَ الدِّينِ أَوَّلَ خَصْلَةٍ  
 تُعْنَى بِهَا . وَبِمِثْلِ جَدِّكَ يَحْتَمِي

أَجْرَيْتَ سُرْعَانَ الْجِيَادِ كَأَنَّهَا  
 أَسْرَابُ طَيْرٍ فِي التَّنَوُّفِ حَوْمٍ  
 كَتَبَتْ حُرُوفُ النَّصْرِ مِنْ شِيَّانِهَا  
 مَا كَانَ أَغْنَى عَنْ حُرُوفِ الْمَيْسَمِ  
 وَكَتَنَزَتْ مِنْهَا كُلُّ أَرْثَمٍ أَشْقَرٍ  
 وَرَبَطَتْ فِيهَا كُلُّ أَقْرَحٍ أَذْهَمٍ (1)  
 / مِنْ كُلِّ مُنْحَفِرٍ لِحِطْفَةٍ بَارِقٍ  
 قَدْ كَانَ يَسْبِقُ لِمَنْحَةِ الْمُتَوَهِّمِ  
 طَرَفٌ يَشْكُ الطَّرْفُ فِي اسْتِثْبَانِهِ  
 فَكَأَنَّهُ ظَنٌّ بِصَدْرِ مُرْجَمٍ  
 فَهِيَ النَّقَايَةُ يَوْمَ مَحْفَلِ زِينَةٍ  
 وَهِيَ الْوَقَايَةُ يَوْمَ شَرِّ مُضْرَمٍ  
 وَأَطْرَتْ عِقْبَانَ السَّفِينِ بِرَسْمِ أَنْ  
 تَبْتَزَّ غَرْبَانَ السَّفِينِ الْمُجْرَمِ  
 شَكَرَتْ بِحَلَقِ الْوَادِ فَضْلَكَ عِنْدَمَا  
 هَيَّأَتْهَا زُمْرًا . وَلَمْ تَتَكَلَّمِ  
 وَبَدَتْ عَلَيْهَا مِنْ سِمَاتِكَ نَخْوَةٌ  
 لَمَّا اسْتَقَلَّتْ فِي سَوَاءِ الْخِضْرَمِ  
 فَتَمَايَلَتْ طَرَبًا . كَبِطْلٍ خَادِرٍ  
 نَظَرَ الْفَرِيَسَةَ فِي خِلَالِ عَرْمَرَمِ  
 عَجَبًا لَهَا مِنْ صُورَةٍ قَدْ رُكِبَتْ .  
 أَعْجَازُهَا قَامَتْ مَقَامَ الْبِلْدَمِ (2)

(1) أوصاف للخليل . وشيئانها : ألوانها من الوشي . والرثم : حركة : بياض في أنف الفرس .  
 والنقرة : حمرة صافية في لونه . والقرحة : بياض في وجهه دون الغرة . والذهمة : السواد .

(2) البلدَم : معتمد الصدر . والعروف : سكان السفينة الذي يسيرونها بذيبيها في عجزها .



يَمْشِي الْمَشَاةَ بِبَطْنِهَا . وَجَمِيعُهُمْ  
عَنْ مَوْطِيءِ الْقَدَمَيْنِ لَمْ يَتَقَدَّمْ  
وَمَنْوَعِ الْحَرَكَاتِ (1) قَدْ رَكِبَ الْهَوَا  
يَمْشِي عَلَى خَطِّ بِهِ مَتَوَهَّم  
فَإِذَا هَوَى فِي جَوْهٍ ثُمَّ اسْتَوَى  
عَايَنْتَ طَيْرًا حَلَّ صُورَةَ آدَمِي  
وَجَرَتْ بَعَيْنُ اللَّهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ  
تُرْخِي الرُّخَاءَ لَهَا عِنَانِ الْمُلْجَمِ  
ضَمِنَ النَّجَاحَ لَهَا وَفَاقُ بُرُوزِهَا  
يَوْمَ الْخَمِيسِ لِسَعْدِهَا الْمُتَقَدَّمِ (2)  
فِي لَيْلَةٍ بَهَرَ النُّفُوسَ عَظِيمُهَا  
بِظُهُورِ آيَاتِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ  
شَقِيَّتُ بِهِ أُمَّمُ الضَّلَالِ وَرَوَّعَتْ  
مِنْ غَيْضِ مَا نَهَرَ وَقَصُرِ مِثْلَمِ  
وُخْمُودِ نِيرَانِ أَطَالُوا وَقَدَّهَا  
وَصَرِيحِ أَصْنَامِ بِهَا مُتَحَطِّمِ  
تِلْكَ الرَّئِيسَةُ لِلْيَالِي مِثْلَمَا  
أَنْتَ الرَّئِيسُ بِهَا لِكُلِّ مُعَمَّمِ  
وَلَعَلَّكَ اسْتَغْنَمْتَ مِنْ بَرَكَاتِهَا  
مَا يُكْسِبُ الْأَسْطُولَ أَفْخَرَ مَغْنَمِ  
فَاهِنًا بِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ كَائِنٌ  
بِجَمِيلِ فَضْلِ اللَّهِ لَيْسَ بِأَجْدَمِ

(1) وصف لقلع السفينة الذي يرحبها في البحر فيمشي به على خط وهمي.

(2) إشارة إلى تاريخ إطلاقها يوم الخميس السابق للمولد النبوي من سنة 1178 (6 سبتمبر 1704).

وَالْيَلَكُ مِنْ حَرِّ الْكَلَامِ عَقِيلَةٌ  
طَلَعَتْ بِشَوْبٍ مِنْ خَطَاكَ (1) مُسْتَهْمِ  
شَمَخَتْ عَلَى خُطَايِهَا . لَمْ يُبْدِهَا  
-- وَمُطِيلِ عُمْرِكَ -- غَيْرُ شُكْرِ الْمُنْعَمِ  
فَهِيَ الْمِثَالُ لِمَا طَوَيْتُ ، وَإِنَّهَا  
وَقَفَتْ بِبَابِكَ وَقِفَةَ الْمُسْتَرْحِمِ  
جَاءَتْ لِتَهْنِئَةِ الْأَمِيرِ وَكُلِّ مَنْ  
عُنِيَ الْأَمِيرُ بِهِ بِهَذَا الْمَوْسِمِ  
فَاسْلَمَ لَهُ وَلِمِثْلِهِ وَلِمِثْلِهِ  
وَهَلُمَّ جَرًّا فِي الْهَنَا . ثُمَّ اسْلَمِ  
وَقَالَ الْأَدِيبُ الْبَارِعُ عَلِيَّ الْغَرَابِ :  
/ بِشَائِرُ فِي الْإِسْلَامِ زَادَ بِهَا عِزًّا ،  
وَآيَاتُ نَصْرِ نُورِهَا يُذْهِبُ الرَّجْزَا  
بِهَا قَوِي الدِّينِ الْقَوِيمِ وَإِنَّمَا  
بِهَا الْكُفْرَ وَلَّى مُدْبِرًا وَأَنْشَنَى عَجْزَا  
سَوَابِحُ فُلْكِ لِلْمَعَالِمِ (2) أَنْشِئَتْ  
يُسَابِقُ أَفْلَاكِ السَّمَاءِ جَرِيهَا وَخَزَا  
يَفُوزُ بِأَجْرِ مَنْ عَلاَهَا وَمَغْنَمِ  
إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ رَكَبُوا غُرَى (3)  
عَلَيْهَا لِيَوَاءُ الْعِزِّ وَالنَّصْرِ خَافِقُ  
وَلَكِنْ جُمُوعُ الْكَافِرِينَ بِهَا تُخْزَى

(1) كذا يجمع النسخ ولا معنى له . والأقرب من حلاك جمع حلية وهو أشبه به في الرسم .

(2) في بقية النسخ : للعوالم ، وهو أنسب لمساوغة الأفلاك التي هي عوالم أخرى .

(3) اقتباس من آية 156 بآل عمران.



إِذَا لَقِيَ الْإِسْلَامَ كَفَرًا بِهَا تَرَى  
جميع العبدى أسرى . وأعناقهم حَزَى (1)

[عليها من الرحمان حِرْزٌ من العبدى  
على أنها للمسلمين غَدَاتٌ حِرْزًا] (2)

فَمَنْ لِيَجْهَادِ الْكَافِرِينَ بِهَا اسْتَوَى  
بِأَجْرِ جَزِيلٍ رَاحَ أَوْ مَغْنَمٍ يُجْزَى

لَقَدْ كَانَ جَيْدُ الْبَحْرِ فِي الْغَزْوِ عَاطِلًا  
إِلَى أَنْ أَتَتْ هَازِي الشَّوَانِي (3) لَهُ طَرَزًا

كَأَنَّ الْجَوَارِيَ الْمُنْشَأَتَ بَيَادِقَ .  
وَكُلُّ غَدَا مِنْ هَذِهِ بَيْنَهَا فِرْزًا

تَرَدَّى بِهَا الْكُفَّارُ ثَوْبَ مَدَلَّةٍ  
وَقَهَرٍ . وَثَوْبُ الْعِزِّ مِنْهُمْ قَدْ ابْتَرَأَ

إِذَا سَمِعَ الْمُسْتَأْمِنُونَ بِغَزْوِهَا  
نَعَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَهُ وَلَهُ عَزَى

أَلَسْتَ تَرَاهُمْ حِينَ جُرَتْ وَأُدْهِشُوا  
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تُكَلِّمُهُمْ رَمَزًا (4)

صُمُوتًا فَلَمْ تَحْتَسْ مِنْ أَحَدٍ لَهُمْ  
— إِذَا لَاحَ — أَوْ تَسْمَعُ لَهُ فِي الْمَلَا رَكْزًا (5)

(1) الظاهر أنه جمع لحرب بمعنى محروز . يسوى فيه المذكور والمؤنث . وهو جمع فباسى  
مطرود . قال ابن مالك :

فعلى لوصف كقنيل وزمن وهالك وميت به قمن

(2) هذا البيت مزيد على الاصل وهو بجمع السخ .

(3) جمع شوة بفتح فسكون : سفينة حربية قديمة .

(4) اقتباس من آية 41 بآل عمران .

(5) اقتباس من آية بآخر مريم .

إِذَا نَشَرَتْ لِطَرْدٍ أَشْرَعَةً لَهَا

شَهِدَتْ بِهَا الْعِقْبَانُ تَخْتَطِفُ الْوَزَا  
كَأَنَّ صَارِخَ الْبَارُودِ مِنْهَا وَبَيْضُهَا

رُجُومٌ هَوَتْ إِثْرَ الصَّوَاعِقِ بِالْأَرْزَا  
طَرَارِيدُ كُلِّ كَالطَّوَاوِيسِ خَفَقَتْ

وَأَعْلَامُهُ مِثْلُ الْبُرُوقِ إِذَا فَرَزَا (1)  
جَرَى (2) لِلْأَعَادِي بِالْجَنَّا حَيْنَ طَائِرًا

وَلَا عَجَبٌ . فَهَوَ (الْغُرَابُ) لَهُ الْمَغْزَى  
لَتَيْنِ سَوَّدُوا بِالْقَارِ مِنْهُ جَوَانِبًا

فَإِنْ بَيَاضَ الْغُنْمِ فِي وَجْهِهِ أَجْزَا  
يَصُولُ بِأَبْطَالِ الْجِهَادِ كَأَنَّهُمْ

عَفَّارِيَتْ جِنِّ فِي الْوَعَى حَرْبُهُمْ وَخَزَا  
إِذَا قَابَلَ الْكُفَّارَ فِي الْحَرْبِ إِنَّمَا

تَعَالَبَ لَأَقْتَهَا أَسُودُ الشَّرَى وَكُزَا  
تَشَاهِدُ بِيضَ الْهِنْدِ حَلَّتْ رِقَابَهُمْ

وَتُبْصِرُ لِلِسْمَرَا بِأَعْيُنِهِمْ غَمَزَا  
تَرَى أَلْفًا لِلْقَطْعِ فِي وَصْلِهَا بِهِمْ

وَلَكِنْ تَرَى فِي كُلِّ رَأْسٍ بِهَا هَمَزَا  
جَوَارٍ بِأَسَدِ الْغَابِ وَالْقَضْبُ دُونَهَا

تُنَاجِزُ شِرْكَ الرُّومِ فِي وَضْعِهَا نُجْزَا  
جَمِيلَةٌ صُنْعٍ مِنْ صَنِيعِ مُمْلَكِ

جَمِيلُ الْمَزَايَا قَدْرُهُ جَاوَزَ الْجَوَزَا

(1) البيت مشكل في معناه وفي عدم التطابق بين مذكوره ومؤنثه ومفردة وجمعه . وأقرب ما يستصلح  
به وضعه : طراريد كل كالطواويس خفقه \* وأعلامه مثل البرق إذا قزَا  
ومعنى قزَا : أفرغ

(2) ج : يسرى .



أَبِي الْحَسَنِ الْبَاشَا عَلِيِّ ابْنِ مَالِكٍ  
 حُسَيْنِ الَّذِي إِحْسَانُهُ يَمْلِكُ الْمُرْزَا  
 / هَمَى مِنْ سَمَاءِ الْمَكْرُمَاتِ الَّتِي مَتَى  
 يَرُمُهَا السَّوَى اسْتَزَرَى بِهِ الدَّهْرَ وَاسْتَهْزَا  
 [42 - ب] مَلِكُ إِذَا مَا الْحَادِثَاتُ رَأَيْتَهُ  
 تَوَلَّتْ عَلَى الْأَعْقَابِ تَبْتَدِرُ الْقَفْزَا  
 بِهِ عَادَ نَهْجُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ آمِنًا  
 وَدَانَتْ جَمِيعُ الْمُفْسِدِينَ لَهُ غَرَزَا (1)  
 مَلِكُ إِذَا أُمِّتَ أَرْضًا مَخُوفَةً  
 وَسِرَّتْ بِهَا فَاجْعَلْ عَلَيْكَ اسْمَهُ حِرْزَا  
 وَلَوْ فِي الْجِبَالِ الشَّمَّ أَنْفَذَ عَزْمَهُ  
 لَعَادَتْ جِبَالُ الْأَرْضِ مِنْ عَزْمِهِ جُرْزَا (2)  
 لَقَدْ سَاسَ دَهْرًا لَوْ إِلَى «اسْكَنْدَر» انْتَهَى  
 لَسَلَّمَ ! مَا نَالَتْ يَدَا عَزْمِهِ عَجْزَا  
 كَفَى عَقْلُهُ فِي الْكَشْفِ عَنْ كُلِّ غَامِضٍ  
 وَعَنْ حَكْمِ تَخْمِينِ الطَّوَالِعِ وَالْحَزَا  
 لَهُ مُشْكِلَاتُ الْعِلْمِ تَرْفَعُ حُجَبَهَا  
 بَدَارًا . وَمِنْ دُونِ السَّوَى حُجِرَتْ حِجْرَا  
 يَكَادُ عَوِيصُ الْأَغْزِ يَنْطِقُ مُفْصِحًا  
 لَهُ بِخَفِيِّ السَّرِّ إِنْ حَاوَلَ الْأَغْزَا  
 وَأَجْزَا بِتَفْرِيقِ النَّضَارِ عَفَاتَهُ  
 فَأَعْظِمُ بِمَالٍ مِنْ تَفْرِقِهِ أَجْزَا (3)

(1) مصدر غرز كعلم ، إذا اطاع بعد العصيان .  
 (2) الأرض المُرْزُ بضمين : التي لا تنبت ، واسكان الراء ضرورة .  
 (3) اجزا في أول البيت مخفف من اجزا (فعل ماض) ، وفي آخره جمع جزء ، وفيه تورية  
 باجزا وجناس تام بينهما .

فِرَاحَتُهُ وَالْمَالُ لَنْ يَتَقَارَنَا .  
 وَقَدَّرْتُهُ وَالْعَفْوُ فِي قَرْنٍ لُزَا (1)  
 أَيَا طَالِبًا عِلْمَ الْكُنُوزِ أَجِدْ لَهُ  
 مَدِيحًا تَجِدُ فِي طَيِّ أَمْدَاحِهِ كَنْزَا  
 وَقَدْ سَارَ لِلْمَرْسَى لِيَقْضِيَ نَزْهَهُ  
 بِرَوْضَاتِهَا يَطْوِي لَهَا الْأَرْضَ مُؤَنَزَا (2)  
 فَمَا رَوْضَةً إِلَّا تَمَنَّتْ يَزُورُهَا  
 وَلَا مَسْلِكَ إِلَّا اشْتَهَى فَوْقَهُ جَمْرَا  
 تَرَى صَهَوَاتِ الْخَيْلِ تَحْسُدُ بَعْضُهَا  
 بِمَا قَدْ عَلَا مِنْهَا ، وَصَارَ بِهَا رَمْرَا  
 إِلَّا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي عَزَّ رُتْبَةً  
 وَيَطْلُبُ مِنْ رِضْوَانِ رَبِّ الْعُلَا فَوْزَا  
 لِيَتَهَنِكَ سَفْنٌ لِلْجِهَادِ صَنَعَتْهَا  
 وَفِي مَوْلِدِ الْمُخْتَارِ أَجْرِيَّتَهَا حَفْزَا  
 تَيَمَّنْ بِهَا وَاسْعِدْ فَإِنَّ لَهَا بِكُمْ  
 نَجَاةً لِبَرِّ الْبَرِّ تَبْلُغُهُ وَفْزَا  
 فَبِاللَّهِ مُجْرَاهَا — إِذَا رَكِبُوا بِهَا —  
 وَبِاللَّهِ مُرْسَاهَا (3) إِذَا وَقَفَتْ وَكُزَا  
 لَكُمْ مُنْشَأَتُ الْغَزْوِ فِي الْبَحْرِ أَجْرِيَّتُ  
 وَلِي مُجْرِيَاتُ (4) الْمَدْحِ فِي مَجْدِكُمْ تُعْزَى

(1) القرن : بحركة الجبل ، والمسر : السعد ، وممراده تلازم هذين الوصفين في ممدوحه عكس  
 الأمرين الأولين ، وفيه طباق .

(2) مستعجلا .

(3) اقتباس من آية 41 بسورة هود .

(4) في ج . م : منشآت المدح في بحركم .



حَسْبِيَ كُلُّ فُلْكَ مُنْشَدٍ فِي الْبَحْرِ  
رَبِّي . وَصَوَّارِيهِ بِهِ السَّرُّو وَالْأَرْزَا  
عَجِبْتُ ! وَقَدْ جَرُّوهُ لِلْبَحْرِ إِنَّمَا  
مَنْ الْبَحْرِ قَدْ جَرُّوهُ إِلَى الْبَحْرِ مُفْتَنًا (1)  
وَلَوْ أَنْ نُوحًا يَرْكَبُ الْفُلْكَ ثَانِيًا  
لَمَا اخْتَارَ فِي الدُّنْيَا سِوَاهُ وَلَا اعْتَزَا  
لَكُمْ مَوْلِدُ الْمُخْتَارِ جَاءَ مُهَنَّا  
بِفُلْكَ نَجَاةٍ مِثْلُهُ فِي الْوَرَى عَزَا  
وَقَالَ : بَعِزَّ الدِّينِ وَالْغُنْمِ ثِقُ بِهِ  
وَأَرْخُ : (بِهِ يَحْوِي الْغَنَائِمَ وَالْعِزَّ)

/ وقال الفقيه أبو العباس أحمد العُصفوري :

سَفِينُ نَجَاةٍ أَدْرَكَتْ مَا تَرُومُهُ  
وَسَالَ (2) بِهَا بَحْرٌ بِهِ مَاتَ رُومُهُ  
وَسَلَّمَهَا اللَّهُ الْعَزِيزُ مِنْ الْأَذَى  
وَأَيَّدَهَا نَصْرٌ لَهُ تَسْتَدِيدُهُ  
تَبِيدُ جُيُوشُ الْكُفْرِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ  
وَتَرْجِعُ بِالْغُنْمِ السُّفْلَى (3) خُصُومُهُ  
وَتَحْمِلُ سَبِيَّ الرُّومِ مِنْ أَرْضِ كُفْرِهِمْ  
إِلَى تُونِسٍ وَالسَّبِي شَدَتْ كُلُّومُهُ  
بِمَرْسَاةٍ حَلَقِ الْوَادِي قَدْ أَنْشَأَتْ لَهَا  
حَمَاءٌ وَنَفَعًا لِلْأَمِيرِ عَمُومُهُ

(1) المفتن : الغالب كما في الفيروزآبادي .

(2) في ح ، م : وسالها .

(3) اسم مفعول من قولهم « اقل فلان » إذا ذهب ماله . وفي بقية النسخ بالقاف ، وكلاهما ناب .

هُوَ الْبَيَّ مَوْلَانَا عَلِي بِأَشَةِ الرِّضَا  
مَنْ ارْتَسَمَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ رُسُومُهُ  
سَلِيلُ حُسَيْنِ الْبَيَّ مَنْ نَالَ هِمَّةً  
إِلَى الْفُلْكَ الْأَعْلَى السَّنِي نُجُومُهُ  
مُقَلَّدُ أَعْنَاقِ الرِّجَالِ أَبَادِيًا  
تَبِيدُ لِيَالِي الدَّهْرِ . وَهِيَ تَدُومُهُ  
رَأَى خَلَلَ الْبَرِّ اسْتَقَامَ بِرَائِهِ  
وَصَارَ حَمِيدًا بِالسَّدَادِ ذَمِيمُهُ  
فَعَادَ بِلَحْظِ الرَّأْيِ يَنْظُرُ بَحْرَهُ .  
وَمِينَاهُ ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ سَقِيمُهُ  
وَأَنْشَأَ أَسْطُولًا تَنَوَّعَ شَكْلُهُ  
تَدَبَّرُهُ آرَاؤُهُ وَرُقُومُهُ  
يَسِيرُ بِمَا يُبْدِيهِ صَاحِبُ رَأْيِهِ  
فَيَرْضَى بِهِ مَنْ حَنَّكَتْهُ عُلُومُهُ  
وَلَا يَرْعَوِي عَنْهُ الْمُهَنْدِسُ ذُو الْحِجَا  
وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْفِكْرِ فِيهِ هُمُومُهُ  
يَرَى مُنْتَهَى الْأَمْرِ الَّذِي رَامَ فَعَلَهُ  
فَيُوقِعُهُ تَنْزَاحٌ عَنْهُ حُسُومُهُ  
يَتَابِعُ بِرًّا بَرَّهُ أَهْلَ وَدِّهِ  
وَيَنْعِشُهُمْ مَشْمُولُهُ وَنَسِيمُهُ  
وَيَغْضِي حَيَاءً عِنْدَ سَقْطَةِ زَاهِفٍ  
فَمَا قَالَ مُرْتَابٌ قَلْتَنِي سُمُومُهُ (1)

(1) راهب : غليل . وفي م : راهب . وقلنتي : او قلنتي . او قلنتي سمومه على اختلاف النسخ كلها .  
نابيه . وأعله اراد : فما نال مرتابا يقتل سمومه .



وَيَعْمَلُهُ الشُّجَارُ مِنْ كُلِّ بَلَدَةٍ  
وَأَمَّنْهُمْ عَدْلٌ لَهُ وَحُلُومُهُ  
وَأَعْلَنَ بِالْأَمْوَالِ مَنْ كَانَ خَائِفًا  
يُهَوِّلُهُ وَسْوَاسُهُ وَغَمُومُهُ  
رَأَاهُ يُعِيدُ النَّاسَ مِنْ شِدَّةِ الْأَذَى  
وَقَدْ صَدَّ عَدُوَّ الْعَادِيَّاتِ رَحُومُهُ  
سِيَاسَتُهُ تَقْضِي بِكُلِّ فَعَالِهِ  
فَلَمْ يُلَفِ ذُو نَقْدٍ لَهُ مَا يَلُومُهُ  
سَقَاتِنُ مِينَاتُ الْبِلَادِ لَأَمْنِهَا  
فَمَا سَامَهَا مِنْهُ الرَّدَى وَهَجُومُهُ  
تَرَكَنَ لِمَرْسَى تُونِسٍ كُلَّ نَجْعَةٍ  
وَلَوْ عَلِمَتْ أضعَافَ مَا قَدْ تَرُومُهُ  
يَحْطُ بِهَا أَحْمَالُهُ كُلُّ سَافِنٍ  
وَلَمْ يَلْقَ بَخْسًا فِي الَّذِي قَدْ يَسُومُهُ  
لِذَا كَثُرَتْ فِيهَا التَّفَارِيقُ : مَنْ غَدَا  
يُغَالِي بِأَمْدَاحٍ لَهَا لَا أَلُومُهُ  
/ وَمَنْ يَمْتَدِّحُ أَمْلَاكَ دَهْرِهِ تَلْقَاهُ  
كَنِيًّا إِذَا لَمْ يَمْتَدِّحْ مِنْ أَشِيمِهِ  
فَسُوقُ امْتِدَاحِ الْبَايِ لِلنَّاسِ نَافِقُ  
وَعَطَّرَهُ الْمَدْحُ الَّذِي لَا يَرِيمُهُ  
رَأَى الْمَجْدَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ثَوَى بِهِ  
فَلَا زَمَهُ . لَا زَالَ عَنْهُ لُزُومُهُ  
وَأَصْبَحَ مَخْدُومًا بِأَمْدَاحِ الْسُّنَنِ  
وَمَنْ نَالَ مَجْدًا فَالْمَدِيحُ خَدِيمُهُ

[43 - ب]

يَلَا زَمَهُ فِي صُحْبَةِ الْمَجْدِ ثَاوِيًا  
لُزُومٌ نَدِيمٌ يَصْطَلِقِيهِ نَدِيمُهُ  
يَزِيدُ غَرَامًا حُبَّهُ فِي حَشَا الَّذِي  
يُشَاهِدُ مِنْ إِفْضَالِهِ مَا يُدِيمُهُ  
مَتَى رَامَ تَقْصِيرًا مُرِيدُ مَدِيحِهِ  
تَلُوحُ صِفَاتُ . وَالْبَيَانُ خَصِيمُهُ  
فَتَخْرُجُ مِنْ أَفْكَارِهِ دُرٌّ حَكَّتْ  
قَلَائِدَ دُرٍّ بِالشُّدُورِ نَظِيمُهُ  
تَشُوقُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَالذَّهْنُ . وَالْحَشَا .  
كَشُوقِ الَّذِي يَصْبُو إِلَيْهِ حَمِيمُهُ  
وَتَرْتَاحُ لِلتَّكْرَارِ كَالْمُحْتَسِي طَلَاً  
وَمَنْ لَمْ يَرَ التَّكْرَارَ فَهِيَ غَرِيمُهُ  
تُنَازِعُهُ حَبًّا لِذِكْرِ مَلِكِيكِيهَا  
أَمِيرًا رَسَا فِي الصَّالِحَاتِ صَمِيمُهُ  
عَلَيْهِ مِنَ النَّصْرِ الْمُفَاضِ عِبَابُهُ  
وَتَسْلِيمُ ذِي الْعَرْشِ الْمَجِيدِ غِيُومُهُ  
وفي [يوم الأحد] من رجب من هذه السنة كان رجوع الدرّ إلى صدّقه ،  
ونِصْلُ السيفِ إلى قِرابِهِ ، وهِلَالُ الْمَجْدِ إِلَى سِرَارِهِ ، وَشَمْسُ الْحُسْنِ  
إِلَى مَغْرِبِهَا . بِوَفَاةِ ابْنِ مَوْلَانَا وَرَيْحَانَتِهِ النَّجْلِ الطَّاهِرِ الْمُقَدَّسِ  
أَبِي الرَّبِيعِ سَلِيمَانَ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ عُوذَةً لِسَعَادَةِ مَوْلَانَا مِنْ أَعْيُنِ حُسَادِهِ ،  
وَنَادِرَةً فِي جَرِي الْأُمُورِ عَلَى خِلَافِ مُرَادِهِ . وَبِأَعْجَابٍ لِلْمُنَايَا تَخَذَلُهُ  
فِي نَجْلِهِ وَتَنْصُرُهُ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالرَّجُلِ . وَطَالَمَا شَغَلَهَا بِالْأَعَادِي فَلَمْ تَقْنَعْ  
بِذَلِكَ الشُّغْلِ . وَلِلدُّنْيَا تَضَاقِقُهُ فِي سَلِيلِهِ وَقَدْ وَسَّعَهَا عَلَى أَبْنَائِهَا . وَتَسْتَرِدُّ  
مِنْهُ مَا وَهَبَتْهُ وَقَدْ وَهَبَهَا - مِنْ غَيْرِ اسْتِرْدَادٍ - حِلْيَةً جَمَالِهَا وَبَهَائِهَا . وَإِنْ



دَهْرًا قَاسَمَهُ فَكَانَ مَتَرُوكَهُ حَمُودَةً بِأَشَا لَمَسَجِيُونُ فِي مَقَاسَمَتِهِ . وَمَرْبُوحٌ عَلَيْهِ فِي مُشَاطَرَتِهِ . فَإِذَا قِيسَتْ مَا أَخَذَ بِمَا أَبْقَى . عَلِمْتَ أَنَّ حَظَّ مَوْلَانَا دَائِمًا دَوِ الْأَوْفَى . وَجَدُّهُ أَبَدًا هُوَ الْأَعْلَى . جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْبَاقِي خَلْفًا مِنَ الْغَابِرِ . وَخَلَّدَ هَذَا الْمُلْكُ فِيهِ وَفِي بَنِيهِ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . وَلَمْ تُسْمَعْ فِي تَأْبِينِهِ كَلِمَةٌ شَاعِرٍ . تَرَكَهَا لَذِكْرِهِ الْمُثِيرَ لِلشَّجَنِ . وَالبَاعِثَ لِلْحَزَنِ . وَالجَالِبَ لِدَاعِيَةِ الشُّوقِ . وَالجَازِبَ إِلَى الصَّبَابَةِ بِالطُّوقِ .

وفي يوم الأحد لستَ خلون من رجب من سنة إحدى وثمانين خراج نصره الله بمحلته الشتائية فبلغ القيروان وأفاض / وأبل إحسانه جريا على رسمه وعادته - أدامها الله تعالى - وأرسل وزيره رجب خزنة دار بمحلة العسكر إلى الجريد فاستوفى مجابيه . ورجع - أيده الله تعالى - إلى حضرته فدخلها يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شعبان (1) .

**ذكر ما خص الله تعالى به مولانا - أيده الله تعالى -**  
من محاسن الاخلاق وكرم الطباع وشرف الخلال، وحميد الخصال

### [مقدمة نفسية نفيسة]

اعلم أن الله تعالى بقدرته القاهرة . وحكمته الباهرة . قد ركَّب في الإنسان ثلاث قوى جعلها منشأً لأكثر الفضائل والردائل التي توجد في الإنسان . وهي : قوة العقل . وقوة الشهوة . وقوة الغضب . إلا أنه - سبحانه وتعالى - جعل قوة العقل من بين هذه القوى خاصة بالإنسان يمتاز بها عن سائر الحيوان . وأما القوتان الأخريان - أعني قوة الشهوة وقوة الغضب - فهي موجودة في جميع الحيوان يشارك فيهما الإنسان سائرُهُ .

(1) هنا يفتقر ترتيب الكتاب إلى النسخ على طريقتين ، فالأصل قطع عن أحداث مدة الباى على ابن حسين ودخل في فصول سيرته وأخلاقه ، وغيره من النسخ استمر على بقية الأحداث ووصلها بالتاريخ وجعل فصول السيرة بالآخر ، وأخلاف الطريقتين إنما هو في الكيف لا في الكم حيث لا تزيد أحدهما على الأخرى بشئ ولا تنقص . وقد سلطنا في الطبع طريقة الأصل كما هو المتبع مع كونها مساندة على تقسيم الكتاب إلى جزئين معادلين في السيرة والتاريخ .

ثم إن كل واحدة من هذه القوى الثلاث المذكورة لها ثلاث مراتب : إفراط . واعتدال . وتفريط . ولا يتم للإنسان حسن الخلق إلا بالرتبة المتوسطة منها : أعني اعتدالها واستواءها . فاعتدال قوة العقل هو أن تكون بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الحسن والقيح في الأفعال ، وفي قوتَي الشهوة والغضب أن تكونا داخلتين تحت حكم العقل الجاري على قانون الشرع ، منقادتين له غير مستوليتين عليه ولا قاهرتين له . واعتدال هذه القوى ، ووقوعها على الترتيب الواجب فيها ، ودخول قوتَي الشهوة والغضب تحت حكم العقل والشرع ، وضبطهما تحت إشارتهما . هو المعبر عنه بالعدل . فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا . ويتفاوت الناس في حسن الخلق بحسب تفاوت الاعتدال في جميع هذه الصفات وفي بعضها .

ثم إن أممات الفضائل الجامعة لجميع شعبها . والمحيط بها بجميع أنواعها أربعة أخلاق ناشئة عن اعتدال هذه القوى الثلاث . وهي : الحكمة . والشجاعة . والعفة . والعدل . فالحكمة ثمرة اعتدال قوة العقل . والشجاعة نتيجة اعتدال قوة الغضب ، والعفة ثمرة اعتدال قوة الشهوة - وتقدم أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها - فيه تتسم جميع الأمور . ولذلك قيل : بالعدل قامت السموات والأرض .

أما الحكمة التي هي فضيلة القوة العقلية فهي قسمان : حكمة علمية - وتسمى الحكمة النظرية - وحكمة خلقية . وتسمى العقل العلمي .

فالحكمة النظرية هي العلم بالله تعالى وصفاته . وملائكته . وكتبه . ورسله . وأصناف خلقه . وتدبير ملكه . وأحوال البداية والإعادة خلقا وأمرا . / وأحوال المعاد من السعادة والشقاوة إلى غير ذلك من معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه .



والحكمة الخلقية هي : العلم بالخيرات في الأعمال . ولهذا سُميت بالعقل العلمي . وبها يسوس الإنسان نفسه وأهل منزله وأهل ببلده وأهل مملكته — إن كان ممن بلغ رتبة ذلك — وهي العلم بصواب الأفعال وتدبير أحوال هذا العالم على ما يقتضيه العقل النظري . وبها تسوس النفس القوة الغضبية . والقوة الشهوانية . وتُقَدَّر حركاتها على الحد (1) الواجب في الانقباض والانبساط . وقد تكفلت الشريعة المطهرة ببيان جميع جزئيات الحكمة العلمية . وبيان الصواب في جميع الأفعال وتدبير أحوال العالم على وجه تعجز عنه عقول البشر . ولهذا أسقط حكماء الإسلام هذا القسم من بين سائر أقسام الحكمة .

وأما الشجاعة التي هي فضيلة القوة الغضبية . فهي أن تكون تلك القوة قوية الحمية . متزايدة . ومع ذلك تكون متقادة للعقل المتأدب بالشرع في إقدامها وإحجامها .

وأما العفة التي هي فضيلة القوة الشهوانية فهي انقياد تلك القوة — على يسر وسهولة — للقوة العقلية الجارية على الآداب الشرعية حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها .

وحيث كانت هذه الفضائل الثلاث ناشئة عن اعتدال القوى الثلاث وتوسطها على ما تقدم فلا جرم يكتنف كل واحدة منها رذيلتان إحداهما في جانب الإفراط ناشئة عن إفراط القوة . والأخرى في جانب التفريط ناشئة عن ضعفها . فيحصل هناك رذائل سبت : هي أمهات الرذائل الجامعة لجميع أنواعها المختلفة . والمحيطة بجملة خبائثها المتفرقة . فيكتنف فضيلة الحكمة الخبث والبلى . فالخبث هو طَرَف إفراطها وزيادتها . وهي حالة يكون الإنسان بها ذا مكبر وحيلة باطلاق الغضبية والشهوانية لتتحرر كما إلى المطلوب حركة زائدة على القدر الواجب . والبلى هو طَرَف تفريطها ونقصانها عن الاعتدال . وهي حالة للنفس تقصُر بالغضبية والشهوانية عن القدر الواجب . ومنشؤه بَطْء الفهم وقلة الإحاطة

(1) في ز : الجز.

بصواب الأفعال . ويكتنف فضيلة الشجاعة الشهوانية والجبن . فالشهوة طرف الزيادة على الاعتدال . وهي الحالة التي يُتقدم بها الإنسان على الأمور المخطرة التي يجب في العقل الإحجام عنها . والجبن طرف النقصان . وهي الحالة التي بها تنقبض حركة القوة الغضبية عن القدر الواجب فتصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام . ويكتنف فضيلة العفة الشره والخمود الشهوة . فالشره إفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستبجحها القوة العقلية وتنهى / عنها . والخمود هو قصور الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضي العقل تحصيله . فالوسط هو المحمود في الجميع والطرفان مذمومان جدا . وعن هذا عبّر صلى الله عليه وسلم بقوله : خَيْرُ الأمور أَوْسَاطُهَا (1) وأما العدل فيقابلة رذيلة الجور المضاد له .

ويندرج تحت فضيلة الحكمة : حسن التدبير . وجودة الذهن . وثقابة الرأي . وصواب الظن . كما يندرج تحت رذيلة الخبث الدهاء ، والجربزة (2) . وتحت رذيلة البلى : الغمارة (3) . والحُمق . والجنون .

ويندرج تحت فضيلة الشجاعة : الكرم . والنجدة . والثبات . والشهامة . وكبر النفس . والحلم . والاحتمال . وكظم الغيظ . والتؤدة (4) . والوقار . كما يندرج تحت رذيلة الشهوانية : الجساسة . والصلف (5) . والبذخ (6) . والاستيشاطة (7) . والتكبر . والعجب . وتحت رذيلة الجبن : التذالة (8) . والدثة . والجزع . والنكول . وصغر النفس . والهلع . والتجسس . والمهانة . والانقباض عن تناول الحق الواجب .

(1) بالاضم : خيار الأمور أوسطها وهو مخالف للرواية . والحديث أخرجه الشعراوى في الغريب عن ابن السمعاني ولا وجود له بالكتب المشهورة .

(2) مصدر جربز - فارسي معرب : وصف للخبث المحال من الرجال .

(3) الحمول .

(4) التؤدة : الثاني والوقار . وكان عطفه عليها تفسيرى .

(5) ادعاء ما فوق القدر إعجابا وتكبرا .

(6) التكبر والعالي .

(7) استشاط عليه : احتدم حقا .

(8) التذلل : الخفض في حالاته كلها .



ويندرج تحت فضيلة العفة : السخاء . والمسامحة . والتَّصَبُّر . والسَّخَاءُ ،  
والانْبِسَاط . والدَّمَائَةُ . والانتظام . والقناعة . والورع . والطلاقة .  
والمُسَاعَدَةُ . والظُّرْف . وقِلَّةُ الطَّمَع . وَحُسْنُ الهَيْئَةِ — أي الزينة  
التي لا رُعُونَةَ فيها .

كما يندرج تحت رذيلتي الشرِّ والخمود — أعني كلال الشهوة — :  
الوقاحة ، والخبث ، والحِرْص ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والهتكة (1) ،  
والكرآزة (2) ، والمجانة ، والعبث ، والشكاسة (3) ، والملق . والحسد .  
والشماتة ، والتذلل للأغنياء . واحتقار الفقراء . إلى غير ذلك .

فأمتهات محاسن الأخلاق هذه الصفات والفضائل الأربع — أعني الحكمة  
والشجاعة والعفة والعدل — والباقي فروعها . وكل من جمع كمال هذه  
الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً . يرجع الخلق كلهم  
إليه . ويقتدون به في جميع الأفعال . ومن انفك عن جملة هذه الأخلاق  
كلها واتصف بأضدادها استحق أن يُخْرِجَ من بين العباد والبلاد . فإنه  
قد قُرب من الشيطان اللعين المُبْعَد . فينبغي أن يُبْعَد . ولم يُبْعَث رسول  
الله — صلى الله عليه وسلم — إلا لِيَتِمَّ مَحَاسِنُ الأخلاق كما قال . وقد  
أشار القرآن العظيم إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : « إنما  
المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في  
سبيل الله أولئك هم الصادقون » (4) . فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب [هو  
قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي  
يرجع إلى] (5) قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال  
قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال . وقد وصف الله تعالى / الصحابة  
رضي الله تعالى عنهم فقال : « أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » (6)

[45 - ب]

(1) عدم المبالاة بالفضيحة.

(2) هي في الأصل البيوسة ، وفي اليد البخل.

(3) العسر في المعاملة .

(4) القرآن سورة الحجرات : 15 .

(5) الزيادة من ز .

(6) القرآن سورة الفتح : 29 .

إشارة إلى أن الشدَّة موضعا . وللرحمة موضعا . وليس الكمال في الشدة  
بكل حال ولا في الرحمة بكل حال .

وما بلغ أحد منتهى كمال الاعتدال في هذه الأخلاق الأربعة التي هي  
أمتهات الفضائل ، وأصول الكمالات إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه ، وكل من قرب منه في هذه  
الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربته من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم .

إذا تمهَّدت هذه المقدمة وأحيطت بها خبرا فاعلم أن الله تعالى قد  
أمدَّ مولانا — أيده الله تعالى — بالنصيب الأوفر من محاسن الأخلاق ، والحظ  
الأوفى من هذه الأصول والفروع التي هي نفائس الأعلام ، وأبعد عنه  
أضدادها التي هي رذائل الشيم . المنافية لما طُبِعَ عليه من المجد والكرم .  
ونحن نقيم لك — على اتصافه بكل خلق منها — شاهد عدل من آثار ذلك  
الخلق الصادرة عنه . فإن دلالة الأفعال التي هي آثار الأخلاق على  
تلك الأخلاق قطعية لا يتصور فيها التخلف . فإن من تكرر منه  
الإقدام في المخاوف والافتحام في الشدايد المرة بعد المرة دل ذلك  
على اتصافه بالشجاعة قطعاً . وكذا من صدر منه الاعطاءات المتتابعة من  
غير منع كان ذلك دليلاً على اتصافه بالسخاوة ، وهكذا في كل خلق .  
وهذا معنى ما يقال : « دِلَالَةُ الْفِعْلِ أَقْوَى مِنْ دِلَالَةِ الْقَوْلِ » . فإنه  
مخصوص بالأفعال الناشئة عن الأخلاق التي هي أسباب لها . فإن دلالتها  
على تلك الأخلاق أقوى من دلالة القول . فإننا نقطع بأن دلالة الاعطاءات  
على السخاوة أقوى من قول المعطي : أنا سخّي . أو قول غيره عنه :  
إنه سخّي . فإذن صدور هذه الآثار عن مولانا — أعزّه الله تعالى —  
أقوى دليل على تحليته بها وتخليه عن أضدادها . وإلا لزم اجتماع الضدين  
وإنه محال . فنقول :



فقد أخذ أصول عقائده ببرايمها عن شيخه إمام والده أبي المحاسن يوسف برتقيز - رحمه الله تعالى . وذلك على طريقة أهل السنة والجماعة . من غير زيادة على ذلك ما يشوش الفكر ويشتت النظر من مباحث الكلام والحكمة التي نهى كثير من الأئمة عن الخوض فيها . وإنما القدر الواجب على المكلف أن يعرف ما يجب في حق الله تعالى وما يستحيل وما يجوز . ومثل ذلك في حق رسله - عليهم الصلاة والسلام - الداخل فيه أحكام المعاد ببراهينه القطعية العقلية . المستمدة من الأدلة الثقلية . وما عدا ذلك فالأولى ترك الخوض فيه . فقد قال الإمام فخر الدين الرازي في وصيته التي كتبها عند موته : « إني قد حصلت جميع العلوم المدونة بقدر الإمكان البشري . ثم رفضت ذلك ورجعت إلى ما في كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد إحكام أصول العقائد » . أو كلاماً / هذا معناه طال عهدي به . ونقل عن إمام الحرمين - رحمه الله تعالى - ما يقرب من هذا . وهذا المقدار الذي رجع إليه الإمام هو الحاصل أولاً لمن اقتصر على تعلم أصول عقائده ببراهينها من غير خوض في فضول المباحث الحكيمة ونحوها .

[46 - أ]

كما أخذ عن شيخه المذكور طرفاً صالحاً من الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة - رضي الله عنه . ولم تطل المدة حتى كان من وقعة سمنجة ما كان . وخرج مع والده - رحمه الله تعالى - وشغلته مباشرة الحروب ومقارعة الأبطال عن طلب العلم وتحصيله . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن استقر ركبته العالي بالحضرة واستقل بالأمر . وجلس على أريكة السلطنة . فأظهر من محبة العلم وتعظيم أهله وإكرامهم أمراً بعد العهد بمثله . فقترب العلماء واصطنعهم . وعظم مراتبهم . ورفع منازلهم . واعتنى بالذاكرة والتدريس بمجلسه العالي فلم يغفل أوقاته من ذلك مع تحمله بأعباء السلطنة . وقيامه بجميع مصالح الرعية . ومباشرة ليلجليل والحقير من

أمرهم بنفسه . وأكثر اعتناؤه بالحديث الشريف . فقد عمر أوقاته بدراسته وروايته . وله فيه أسانيد وروايات وإجازات سيأتي ذكر بعضها . والتزم ختم صحيح البخاري في كل عام ختمه . يعقد له مجلساً بين الظهريين ، فيرويه إمامه الذي يصلي به الخمس . ويحضر المجلس من العلماء من تكون ثوبتهم المبيت بحضرته العلية تلك الليلة . ويحضر شرح القسطلاني وشرح العيني ليرجع اليهما فيما أشكل فهمه أو ضبطه ، وختمه يكون في كل عام ليلة سبع وعشرين من رمضان فيحضره أبناؤه السعداء ، وجميع الفقهاء ، وأكابر الدولة ، فيقرؤون ختمه من القرآن العظيم ، ثم يروي الراوي فيختم . وإذا انتهى إلى قوله : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن » : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . أخذت الجماعة في التسبيح والتحميد والتهليل . ثم يدعو الإمام وتؤمن الجماعة على دُعائه . ثم يتدىء الختم الثانية في ذلك المجلس لئلا تنقطع الرواية كما يتدىء من يختم القرآن بعد ختمه فيقرأ الفاتحة والآيات من سورة البقرة لئلا تنقطع القراءة . وليكون كالحال المرتحل . على ما ورد في الحديث . ثم ينفذ الموكب . وقد أفاض عليهم - أيده الله - سجال إحسانه . وهكذا في كل عام على الدوام . وأما غير صحيح البخاري من كتب التفسير ، والحديث ، والسير ، والفقه ، فإنما يقرأ بحضرته العلية ليلاً ، فإنه قد انتخب جماعة من العلماء ورتبهم للمبيت عنده للتحصيل ، والمباحثة ، والذاكرة ، والمحاضرة . ووزعهم على ليالي الأسبوع ، بحيث يبيت عنده في كل ليلة منهم طائفة يدرسون كتاباً لا يقرأ إلا في / تلك الليلة . وكلما ختم كتاب بدىء مكانه غيره . فقرئ بمجلسه العالي كتب كثيرة منها صحيح مسلم . وسنن أبي داود ، وسنن الترمذي . والموطأ للإمام مالك رضي الله عنه . والجامع الصغير للحافظ السيوطي . والشفا للقاضي عياض ، والمواهب اللدنية للقسطلاني . والاكتفاء للحافظ أبي الربيع ابن سالم الكلاعي . ومنها تفسير القاضي ناصر الدين البياضاوي . وتفسير الخازن .



ومنها شرح العيني على الكشاف . وشرح الشيخ يوسف برتقليس على  
القدوري . والدور المختار على تنوير الأبصار في فقه الإمام أبي حنيفة  
رضي الله عنه . وتقع في ذلك مباحث ومناظرات بين الفقهاء . ثم لا تخلو  
ليلة من الليالي من بر وإلطف وإحسان لأهلها من الفقهاء قل ذلك أو جل .  
بحيث لا ينصرفون إلا بصلة وتكرمة . وربما مناهم وأطلق لهم في  
اقتراح ما شاءوا مع قضاء حوائجهم . وإجابة مطالبهم وإجازة شفاعتهم .  
ولقد اتفق في ليلة من الليالي أن قال لهم : « لَيْسَ أَلَنِي كُلِّ وَاحِدٍ مَا شَاءَ  
فَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ مَا سَأَلُوا فَمَثَلُ بَعْضِهِمْ بِقَوْلِ نَصِيبٍ :

فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ  
وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَمَائِبُ

فاستحسن الاستشهاد والشاهد وتفاوضوا في تضمين البيت مدحاً له  
— أعزه الله تعالى — ولم يكن في تلك الجماعة من يحسن النظم . فلما انصرفوا  
أتى إلي بعضهم وسألني تضمين البيت . ولم أكن إذ ذاك اتصلت بخدمة  
حضرتة العالية — فضمنتها ودفعت له النسخة . فلما كان في مثل تلك الليلة  
من الجمعة القابلة وعادوا للمبيت عنده — أيده الله تعالى — قرئت القصيدة  
عليه فاستحسنها وأخذ النسخة وعرضها على بقية الفقهاء الملازمين لمجلسه  
الرفيع . ولما اشتهرت القصيدة انتدب جماعة من الشعراء لمعارضتها فأتى كل  
واحد منهم بقصيدة ضمنها البيت المذكور . وهم الفقيه الكاتب أبو عبد الله  
محمد بن أحمد الورغي . والفقيه الأديب أبو العباس أحمد العصفوري .  
والأديب البارع أبو الحسن علي الغراب الصفاقسي . وها أنا أعرض عليك  
القصائد الأربع . وأكل الترجيح فيما بينها إلى الأنظار السديدة . قلت أنا :

إِلَيْكَ وَإِلَّا مَا تُشَدُّ الرِّكَائِبُ  
وَمِنْكَ وَإِلَّا مَا تُنَالُ الرِّغَائِبُ  
تَوَجَّهْتَ الْآمَالُ نَحْوَكَ . فَأَنْشَنْتُ  
وَمَا آمِلُ فِيمَا تَرَجَّكَ خَائِبُ

تَسْبِغُ مَلُوكَ الْأَرْضِ ! مَنْ لِسَالِيكِ

أَبِي الْحَسَنِ الْبَاشَا عَلِيٍّ يُقَارِبُ ؟  
وَمَنْ كَأَبِيهِ . يَوْمَ فَخْرٍ بِوَالِدٍ .

حُسَيْنَ الَّذِي التَفَتَ عَلَيْهِ السَّوَاكِبُ ؟  
/ وَمَنْ تَوَرَّقُ الْأَغْصَانُ فِي الْمَحَلِّ كَفَّهُ ؟

وَمَنْ يَكْشِفُ الْغَمَّاءَ ، إِنَّ نَابَ نَائِبُ ؟  
وَمَنْ فِي هُجُومِ الْخُطْبِ يُعْمِلُ رَأْيَهُ

فَيَمْنُضِي نَفَاذًا ، حِينَ تَنْبُو الْقَوَاضِبُ ؟  
سِوَاكَ بِحَدِّ السَّيْفِ أَصْبَحَ غَالِبًا .

وَأَنْتَ لِمَنْ نَاوَاكَ بِالصَّفْحِ غَالِبُ  
تُقَابِلُ بِالْعَفْوِ الْمُسِيءَ . وَإِنَّمَا

أَفْدَتَ بِهِ مَا لَمْ تُفِدْهُ الْكُتَائِبُ  
فَكَانَتْ لَكَ الْعُقْبَى بِذَلِكَ وَإِنَّمَا

تُبَيِّنُ فَضِيلَاتِ الْعُقُولِ الْعَوَاقِبُ  
وَأَحْرَزْتَ حَمْدًا وَاسِعًا وَمَثُوبَةً

وَنِلْتَ مُرَادًا لَمْ يَنْلَهُ الْمُعَاقِبُ  
وَبَاتَ الْوَرَى فِي ظِلِّ أَمْنِكَ نَوْمًا

وَأَرْوَاهُمْ — فِيمَا تُنِيلُ — مَوَاهِبُ  
وَقُمْتَ بِكُلِّ الْمَسْكُومَاتِ مُحَافِظًا

عَلَيْهَا ، كَأَنَّ النَّفْلَ عِنْدَكَ وَاجِبُ  
وَقَرَّبْتَ أَهْلَ الْعِلْمِ حَتَّى غَدَتْ لَهُمْ

مَنَازِلُ مَجْدٍ ، دُونَهُنَّ الْكُوَاكِبُ  
تُفِيدُهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا وَنَائِلًا

وَفَضْلَ حِجِّي قَدْ حَنَكْتَهَا النَّجَارِبُ



إذا عرض الإشكال وأرتجّ فنههم  
 فذَهْنُكَ وَقَادَ . وَرَأَيْكَ صَائِبُ  
 وَلَا غَرَوُ . هَذِي عَادَةٌ قَدْ أَلْفَتْهَا :  
 إغَاثَةُ مَنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدَاهِبُ  
 فكمْ لُحْتُ فِي لَيْلٍ مِنَ الْحَرْبِ فَانْجَلَتْ  
 بِوَجْهِكَ وَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْغِيَاهِبُ  
 تَخْوَضُ غَمَارَ الْحَرْبِ لَا مُتَنَكِّرًا .  
 وَلَا الْقَلْبُ خَفَاقٌ . وَلَا الْوَجْهُ شَاحِبُ  
 تَصُولُ وَجَيْشٍ مِنْ وَرَائِكَ رَاهِبُ  
 صَدِيقٌ . وَجَيْشٍ مِنْ أَمَامِكَ هَارِبُ  
 وَمَا الْغَيْثُ هَتَانًا — عَلَى نَفْعِهِ الْوَرَى —  
 بِأَكْثَرِ جَدْوَى مِنْكَ ، لَوْ عَدَّ حَاسِبُ  
 أَفْضَتْ نَدَى كَفَيْكَ فِي النَّاسِ أَبْحَرًا  
 وَبِالدَّلْوِ أَقْصَى مَا تَصُوبُ السَّحَابُ  
 إِذَا زَارَكَ الْوَفْدُ انْتَنَوْا وَجَمِيعُهُمْ  
 مِنَ الْبَحْرِ ذِي التِّيَّارِ لِلدَّرِّ جَالِبُ  
 فَيَشْكُرُكَ الرُّكْبَانُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَبَا  
 وَتَشْكُوكَ مِنْ ثِقَلِ الْعَطَايَا الرَّكَابُ  
 وَمُنْذُ صَدَرُوا — وَالْعَيْسُ كَالنَّخْلِ إِذْ زَهَا —  
 سَأَلْنَاهُمْ كَيْفَ الْعُلَا وَالْمَنَاقِبُ ؟  
 فَعَاجُوا فَأَتْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ .  
 وَلَوْ سَكَّتُوا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ  
 وَبَعْدَ نَحْوِ عَشْرِ سِنِينَ مِنْ نَظْمِي لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَقَفْتُ عَلَى بَيْتَيْنِ  
 أَنَشِدَهُمَا أَبُو عَثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي جَعْفَرٍ التُّجَيْبِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْمَحْ السَّحَرُ مِنْ  
 رُوحِ الشَّعْرِ» وَلَمْ يَنْسِبْهُمَا لِأَحَدٍ وَهَمَا :

إِلَيَّ وَإِلَّا لَا تُشَدُّ الرِّكَائِبُ وَمِنِّْي وَإِلَّا لَا تُنَالُ الرِّغَائِبُ  
 وَعَنْيَ وَإِلَّا فَالْمُحَدَّثُ كَاذِبٌ وَفِيَّ وَإِلَّا فَالْمُؤَمَّلُ خَائِبُ  
 / والبيت الاول منهما هو مطلع قصيدتي بعينه ! فلم أدر هل كنت رأيت  
 البيتين في غير الكتاب المذكور — لأنني لم أقف عليه قبل — ونسيتُهُمَا بعد  
 أن علقنا بحفظي ؟ أو كان ذلك من توارد الخواطر ؟ وبودّي أنني كنت  
 اطلعت عليهما قبل أن تسير قصيدتي وتذهب في الناس ، فكنت أسقطُ  
 هذا البيت منها .

وقال أبو عبد الله محمد الوريغي وقد كان رسول بعض الملوك بالحضرة  
 فأشار إليه :

أَقْصَرُ وَالتَّطْوِيلُ فِي الشُّكْرِ وَاجِبُ  
 لِمَنْ فَضَّلَهُ فِي كُلِّ مَا شِئْتَ غَالِبُ  
 [وأهدي اللبّيسَ النّاقِصَ القَدْرَ لِلَّذِي  
 عَنْ النِّقْصِ فِي كُلِّ الْمَشَاهِدِ غَائِبُ] (1)  
 إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى لِي وَالِدُ  
 وَلَا لِي فِي الْآتِي مِنَ الدَّهْرِ صَاحِبُ  
 تُنَادِي مَزَايَا ابْنِ الْحُسَيْنِ أَلَا انْهَضُوا  
 بِوَجِبِ إِطْرَائِي ! وَأَيْنَ الْمُجَاوِبُ ؟  
 كَأَنَّ بَنِي الْأَشْعَارِ صَمُّوا عَنْ النِّدَا  
 بَلَى ! فَاتَهُمْ فِي ذَاكَ طَبَعٌ مُنَاسِبُ  
 فَوَا عَجَبًا مِنْهَا وَمَنْيَ وَمِنْهُمْ  
 وَفِي كُلِّ قَوْلٍ لِلْفُهْمِ مَرَّابُ (2)

(1) هذا البيت ساقط بالأصل ومثبت ببقية النسخ.

(2) كذا بالأصل . وفي غيره : مشارب . وفي الديوان : مشارب . ولكل معنى . والآخر السب.



أَمَّا إِنَّهَا عَيْنٌ حَسَّانٌ تَبَرَّجَتْ  
وَلَيْسَ لَهَا عَنْ عَيْنٍ مَنْ رَأَى حَاجِبُ  
كَأَنِّي أَنَا وَحْدِي رَأَيْتُ عِيُونَهَا  
تَغَامِرُنِي . وَالْغَمَزُ لِلصَّبِّ جَالِبُ  
أُطَلَّتْ وَأَيَّامُ الْمَكَارِمِ عَنَسَتْ  
عَلَى حِينِ شَاخِ الدَّهْرِ فَهَيَّ الْغَرَائِبُ  
فَأَصْبَحَتِ الْأَيَّامُ فِي عُنُقُونِهَا  
وَقَامَ لَهَا مِنْ مَقْعَدِ الدَّهْرِ طَارِبُ (1)  
فَلَا خَيْرَ إِلَّا وَهُوَ كَالْعَدْلِ لَا زِبُ .  
وَلَا شَرَّ إِلَّا وَهُوَ كَالظُّلَمِ عَارِبُ  
فَهَذَا بِي طَرِيقُ الْحَمْدِ فِيهِ تَوَضَّحَتْ  
لِمَنْ هُوَ فِي شُكْرِ الْمَرْيَةِ رَاغِبُ  
وَإِنْ أَلْسُنُ الْأَقْوَالِ كَلَّتْ فَإِنَّمَا  
عَلَى أَلْسُنِ الْأَحْوَالِ مِنْهَا الضَّرَائِبُ  
فَأَغْنَاهُ فَيْضُ الْجُودِ عَنْ كُلِّ مَطْلَعِ  
وَفِي كُلِّ صُنْعٍ (2) مِنْ أَيْادِيهِ جَانِبُ  
وَأَجْلَالُ أَمَلِ الْعِلْمِ طُرّاً لِأَجْلِيهِ  
وَأِشَارُهُمْ . حَتَّى يَغَارَ الْأَقَارِبُ  
وَدِقَّةُ فَهْمٍ لِلْعَوِيصَةِ رَامَهَا  
أَخُو فِطْنَةٍ أَوْ لَجَّ فِيهَا الْمُشَاغِبُ  
وَمَعْرِفَةُ الْفَضْلِ الْحَقِيقِ لِأَهْلِهِ  
وَأَكْرَامُ مَنْ يَدْنُو لَهُ أَوْ يُجَانِبُ

(1) في ز : معقل العز ضارب.

(2) الصواب ما بالديوان : \* عن كل مصفح \* وفي كل صفح . وهو المناسب لأطراد المعنى في اشتهاار المزايا واستغنائها عن أوائل البلغاء في كل ناحية.

وَأِنْصَافُهُ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرَ سَاخِطِ  
وَلَا مُنْكَرٍ ، إِنْ جَاءَ لِلْحَقِّ طَالِبُ  
وَنُصْرَةُ مَلْهُوفٍ . وَإِحْسَانُ عَشْرَةٍ ،  
وَكُظْمٌ لَغِيْظٍ ، حِينَ يَجْفُو الْمُغَاضِبُ  
وَجَبَرُ كَسِيرِ الْقَلْبِ بَاتَتْ هُمُومُهُ  
تُغَالِبُهُ عَنْ نَوْمِهِ وَيُغَالِبُ  
وَحِفْظُ لَذِكْرِ اللَّهِ عَنْ وَصْمِ فَتْرَةٍ ،  
وَأَصْدَقُ مَا فِي الذِّكْرِ مَا هُوَ دَائِبُ  
وَرَعْيُ جَنَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ  
يُلَاحِظُهَا مِنْهُ التَّقِيُّ الْمُرَاقِبُ  
/ فَيَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي يَقْظَانِنَا  
بِدَوْلَتِهِ حُلْمٌ ، - وَحَاشَاكَ - كَاذِبُ  
لَكَ اللَّهُ مِنْ قُطْبٍ تَدُورُ بِأَوُجِهِ  
مَشَارِقُ أَمْدَاحِ الْوَرَى وَالْمُغَارِبُ  
لِمَا أَنْكَ اسْتَوْجِبَتْهَا بِشَمَائِلِ  
يُسَلِّمُهَا الرَّاضِي وَمَنْ هُوَ غَاضِبُ  
دَفَعَتْ بِهَا فِي صَدْرِ كُلِّ مُمَلِّكٍ  
يَرَى أَنَّهُ فَوْقَ السُّهْمِ أَوْ يُقَارِبُ  
فَمَرَّتْ عَلَى أَسْمَاعِهِ فَيْكَ مِدْحَةٍ  
تَقْبِضُ مِنْهَا جِيدُهُ وَالْعَرَّاقِبُ  
فَمَا وَسِعَتْهُ الْأَرْضُ حَتَّى أَرَا حَهُ  
عَنْ الْفِكْرِ فِي اسْتِعْلَامِ شَأْنِكَ نَائِبُ  
فَوَجَّهَ مُرْتَادًا يُخَلِّفُ أَهْلَهُ  
عَلَى رَغْبَةٍ فِي رَجْعِهِ وَهُوَ رَاهِبُ



فجاءَ وَمِنْ قَدَامِهِ الْأَمْسُ قَائِدٌ  
وَمِنْ خَلْفِهِ حَبْلُ الْمَخَافَةِ جَاذِبٌ  
وَعَايِنَ مَا بَيْنَ السَّمَاطَيْنِ بَرَزَخًا  
تَدْبُ بِهِ رِجْلَاهُ . وَالرَّأْسُ رَاسِبٌ  
وَقَدْ حَسَدَتْ عَيْنَاهُ رِجْلَيْهِ أَنْ سَعَتْ  
بِبَهْوٍ تَوَدُّ السَّعْيَ فِيهِ الثَّوَابُ  
وَمَا شَغَلَتْهُ الدَّارُ تَلْعَبُ بِالنَّهْيِ  
عَنِ الْفِكْرِ فِي تَزْوِيرِ قَوْلٍ يُنَاسِبُ  
وَلَمَّا افْتَتَحْتَ الْقَوْلَ طَيَّرْتَ سِحْرَهُ  
وَضَاقَتْ عَلَيْهِ فِي الْخُلَاصِ الْمَذَاهِبُ  
وَشَاهَدَ مَا لَمْ يَنْخَرِطُ فِي حِسَابِهِ  
وَأَسْمِعَ مَا لَمْ تَنْتَخِبْهُ الْأَعَارِبُ  
وَوَلَّى عَلَى الْأَعْقَابِ تَصْغُرُ نَفْسُهُ  
وَمَخْدُومُهُ . وَالْمُنْتَمِي . وَالْمُصَاحِبُ  
وَأَنْذَرَ مَوْلَاهُ بِأَنْ وَرَاءَهُ  
تَمَامَ جَلَالٍ هَذَبَتْهُ التَّجَارِبُ  
وَأَنَّ مَلُوكَ الْأَرْضِ قِسْمَانِ بَعْدَهُ :  
فَذُو الْهَزَلِ مَمْقُوتٌ . وَذُو الْجِدِّ تَاعِبٌ  
فَهَذَا حَدِيثِي فِيكَ أَسْنَدْتُ بَعْضَهُ .  
وَعِشْ لَتَرَى الْبَاقِي - عَدَّتْكَ النَّوَائِبُ -  
وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ مَدِيحِكَ بِالَّذِي  
يُبَاهِتُنِي فِيهِ - إِذَا غِبْتُ - عَائِبُ  
وَهَلْ لِي اعْتِدَارٌ فِي انْتِحَالِي نَاقِصًا .  
وَمَادِحُ ذِي زَيْدٍ بِانْقِصَ عَائِبُ

عَلَى أَنْ مِنْ أَمْدَى لِيغِيرَكَ مَدْحُهُ  
عَلَى قَدْرِ مَا أَسْدَى . لَهُ الْعُدْرُ وَاجِبُ  
كَعْدْرِ نَصِيبٍ إِذْ تَبَجَّحَ لِلَّذِي  
قَضَاهُ نَصِيبًا ضَمَّهُ وَهُوَ رَاكِبُ  
فَقَالَ : - وَلَوْ لَاقَاكَ يَا بَحْرُ لَمْ يَقُلْ ،  
وَقَدْ أَفْعَمَتْ دُنْيَاهُ مِنْكَ الْمَنَاقِبُ  
(فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ،  
وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ)  
وقال أبو العباس أحمد العُصفوري :  
مَعَالِيكَ جَلَّتْ مَا حَوَى الْحَصْرَ حَاسِبُ ،  
أَيَادِيكَ لِلْعَافِينَ سَحْبُ سَوَاكِبُ  
/ وَرَأَيْكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُوَفَّقُ ،  
وَقَهْمُكَ فِي حَلِّ الْعَوِصَاتِ ثَاقِبُ  
فِيَا أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيَّ بِأَشَةِ الرِّضَا  
سَكِيلَ حُسَيْنِ الْبَايِ . فِيكَ الْعَجَائِبُ  
جَمَعْتَ خِصَالَ الْمَجْدِ لَمْ تَبْقَ سُودَدًا  
لِيغِيرَكَ . حَتَّى جَانِبَتْكَ الْمَعَائِبُ  
وَصَاحَبَكَ الْحِلْمُ الْغَزِيرُ مَعَ الْعُلَا .  
فَتَغْضِي وَتَخْشَى مِنْ دَهَاكِ الْكَتَائِبُ  
وَوَافَاكَ عِلْمٌ إِذْ طَلَبْتَ كَأَنَّهُ  
مُحِبُّ ذِكَاكَ مِنْكَ فَهُوَ مُصَاحِبُ  
مُحْيَاكَ إِذْ يَبْدُو بِغِيْهِبِ حِنْدَسٍ  
أَرَانَا الضُّحَى وَأَنْزَاحَ عَنَّا الْغِيَاهِبُ



يزيد على بدار الدجى عند تسمه :  
 أما غائبه من كائنات فيه غائب ؟  
 يسامر في الأسحار قبل قراءة  
 بناديه مما يرتضى ويناسب  
 بمعسول النفاظ أراها كسكر  
 وأفعاله كالراح . فيها غرائب  
 فتسكر ذا صحو . وتنعش ساكرا .  
 وتفرح ذا شجو . لها السمع شارب  
 بها الميت يحيى خالدا عند بشها .  
 فعندي فيها ما حبيت رغائب  
 فما ذا المدام الفرقف الراح والطلا  
 إذا ما تجلّيتها الكؤوس السواكب ؟  
 لها كل معنى تضد الذوق ذره .  
 فجاء بسحر . وهو للعقل سالب  
 متى رام في نظم له حصر مدحه  
 ملكك قواف . أعجزته المناقب  
 فيا أحلم الأملاك من غير ذلة  
 ولكن لتقوى الله . والله حاجب  
 ووافاك حتى صار فيك سجية  
 فلم تستطع دفعا له . فهو جاذب  
 وأيقنت أن الله أولاك حفظه .  
 فتعظم الحفيظ الله . جل المراقب  
 وقيت الردى . والله يضحك الهدى .  
 ويبقيك ما لاحت بليل كواكب

قد بصر ملكا قد أدرك وراثة  
 فتاهت علوا من علاك المراقب  
 ودامت لك الدنيا دواما مؤبدا  
 فحكمت فيها الجود . والله واهب  
 فتقادت إليك اليعملات خفيفة  
 عفاة الجدى . واليعملات نجائب  
 فأثقلتها من أنعم في حقائب  
 فسارت بهم سيرا خطاها تقارب  
 (فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله .  
 ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق)

وقال الغراب :

لبابك تزجى بالمديح الركايب .  
 وتبسم في وجه العفاة المطالب  
 / وفك الشنا صدق . وإن أطرا النورى .  
 وفي غيرك المدح الذي قيل كاذب  
 يسكاد الجماد الصائد ينطق شاهدا  
 بفضلك . والأشجار عنه كواكب  
 فلو قيل : من أركى الملوك بأسرها ؟  
 لقلت : علي بن الحسين - تجاوب -  
 ملكك أقرت أنها دون قدره  
 طوالع آفاق العلا والغوارب  
 له خلق لم يبق طيب نشره  
 على الزهر طيبا ظنه - الدهر - حاسب



وَلَوْ لَا انْخِسَافُ الْبَدْرِ مِنْ نُورِ بَشِيرِهِ  
لَقُلْنَا سَنَاهُ عَنْ سَنَا الْبَدْرِ نَائِبُ  
وَأَدَابُهُ الْغَرَاءُ مِنْ فَرَطٍ لُطْفِهَا  
بِهَا الْحَيَّوَانُ الْعُجْمُ كَادَتْ تُخَاطَبُ  
تَغْدَى لِبَانَ الْحِلْمِ مِنْ قَبْلِ حُلْمِهِ  
وَقَبْلَ لِبَانِ الشَّدي إِذْ هُوَ حَاجِبُ  
إِذَا مَا بَدَأَ مِنْ جَمْعِهِ فِي مَوَاقِبِ  
فَبَدْرُ بِهِ أَمْسَتْ تَحْفُ الْكَوَاكِبُ  
إِذَا فِي أَرْضِي الْمَحَلِّ حَلَّتْ خِيَامُهُ  
بِهِ اعْشَوْشِبَتْ وَأَنْهَلَتْ عَنْهَا السَّحَابُ  
إِذَا صَالَ فِي يَوْمِ الْوَعَى بِحِمَامَتِهِ  
لِطَرْدٍ . وَهَزَّتْهُ الْجِيَادُ السَّلَاحُ  
تَطِيرُ إِلَى الْأَعْدَاءِ عَقْبَانُ خَيْلِهِ  
أَسْنَتْهَا لِطَائِرَاتٍ مَخَالِبُ  
يُغَادِرُهُمْ صَرَعَى الْكُمَاةِ لَهُمْ عَلَى  
فَرَائِسِهِمْ مِنْهَا الطِّيُورُ جَوَازِبُ  
سَمَا لِسَمَاءِ الْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا  
بِهِ جَاهِلٌ حَاوِي الْعُلُومِ وَغَائِبُ  
رَفَعَتْ مَقَامَ الْعِلْمِ فِي نَصَبِ أَهْلِهِ  
أَلَا فَاَعْجَبُوا مِنْ رَافِعٍ وَهُوَ نَاصِبُ  
مَلِكٌ تَحَلَّى بِالتَّقَى فَحُلِيَّةُ  
غَدَتْ - عَنْ حِلَالِهَا - تَصْطَفِيهِ الْكَوَاكِبُ  
لَهُ الْجُودُ طَبْعًا حَازَهُ . لَا تَكَلَّفْنَا .  
وَأَيْنَ مِنَ الطَّبَعِ النَّدَى الْمُتَكَاسِبُ ؟

وَإِنْ أَمَّهُ رَاجٍ لِدَفْعِ نَوَائِبِ  
دَهَتْ . كَشِفَتْ عَنْهُ الْخُطُوبُ النَوَائِبُ  
ذَا مُعْتَفٍ يَوْمًا حَبَاهُ رَغِيَّةُ  
تَعُودُ مِنَ الْعَافِي تَنَالُ الرِّغَائِبُ  
يُوَالِي الْعَطَا لِلْمُعْتَفِي مُتَتَابِعًا .  
مَوَاهِبَ تَتَلُو إِثْرَهُنَّ مَوَاهِبُ  
وَلَا عَيْبَ فِي نِعَمَاهُ إِلَّا لِأَنَّهَُا  
يَضِيقُ بِهَا الْمَأْوَى لِمَنْ هُوَ رَاغِبُ  
مَحَتْ حَسَدَ الْحُسَادِ حَتَّى غَدَوْا بِهَا  
وَكُلُّ عَدُوٍّ لِلْعَدُوِّ مُصَاحِبُ  
تَرَى نُجُبَ الْعَافِينَ عَنْكَ صَوَادِرًا  
مُثْقَلَةً . مِنْهُنَّ تَشْكُو الْغَوَارِبُ  
حَقَائِبُهُمْ مُلْتَمِنٌ مِنْكَ وَإِنَّمَا  
حَقَائِبُ تَبْرِ مَا تُقِلُّ النَّجَائِبُ  
غَدَوْا كُلَّمَا مَرُّوا بِحَيٍّ وَبَلَدَةٍ  
ثَنُّوا نَحْوًا مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّكَائِبُ  
/ (وَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ  
وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ)

والبيت المذكور يقوله نَصِيبُ الشاعر المشهور من أبيات يمدح بها سليمان  
ابن عبد الملك لما حضر مجلسه مع الفرزدق في قضية مشهورة (1) .

(1) القضية في الاصفهاني 1 : 244 - وابن خلكان 5 : 137 . وخلصتها ان سليمان استنشد الفرزدق  
شعرا اراده مدحا له فانشده في اييه غالب فاعرض عنه واستنشد نصيبا فانشده شعرا منه :  
قفوا خبروني عن سليمان انني لعروفيه يا اهل ودان طالب  
فما جئوا ... الخ



ولما رأى طلاب العلم ومن فيه أهلية التعلم إحسانه أيداه الله تعالى المتتابع على الفقهاء وتعظيمه إياهم والشفاعة إلى جانبهم رغبوا في تعلم العلم وانكبوا عليه . فكثرت طلاب العلم . وعمرت الجامعات الأعظم جامع الزيتونة بالدروس . في جميع الفنون المتداولة . فصرف إليهم . أعزاه الله تعالى . وجهه عنايته . فأطلق لهم المرتبات الواسعة والوظائف النافعة . واتصل الأمر على هذا الشأن إلى أن دخلت سنة ثلاث وثمانين وقد تكاملت عمارة الجامع بالدروس . وتوافرت المدرسون والطلبة . فاقضى نظره السديد أن يشتركهم بإحسانه . ويفيض عليهم سجال إنعامه وإكرامه . وأتى بها أكثر من لم يسبق إليها . ومأثرة باقية على وجه الدهر لم يحتمل خاطر أحد عليها . وذلك أنه أمر فضبط له مال الجزية بأسره . ورفع إليه حسبانته . وكتبت له جريدة بأسماء المدرسين بالحضرة من أبنائها ومن الغرباء الواردين عليها لطلب العلم . وأسماء المتأهلين من الطلبة . ووزع عليهم مال الجزية كله . فعين لكل مدرس مرتباً في مقابلة التدريس . ولكل طالب [متأهل] مرتباً دون الأول إعانة لهم على تحصيل العلم الذي هم بصدد . فضاق عنهم مال الجزية لكثرتهم . فزادهم فواضل أوقاف جليلة محبسة على مصالح يفضل عنها بعد إقامة ما عنت هي له . مال له بال يقرب من محصول الجزية . ووزعه عليهم أيضاً . بعد أن شاور أهل العلم في صرف فواضل الأوقاف المذكورة في هذا المصرف . فأفتوه بالجواز بناء على أن لصاحب الأمر أن يتصرف في أحباس الولاية والعمال ونحوهم ويصرفه فيما يراه من وجوه المصالح . فحصل النفع العام لطلاب العلم [وبعث من دواعيهم] . وهكذا فعل بفقهاء المدن من عمله كفقهاء القيروان . وسوسة . وصفاقس . والمنستير . وباجة . والكاف . وقفصة . وغيرها . فعين لهم المرتبات الواسعة من الجزية وفاضل الأوقاف . غير أن القيروان لما لم تكن مسكناً لأهل الجزية لعدم سكنى الكفار بها . تعظيماً لآثار الصحابة رضي الله عنهم . صرف إلى فقهاءها [جزية جربة] وفي ذلك من اللطيفة أن أهل جربة لما كان معظمهم على غير مذهب أهل السنة لم يكونوا أهلاً لصرف جزية بلدهم إليهم . فعُدل بها عنهم

إلى أهل القيروان المستزمنة ببلدتهم عن سكنى المخالفين للدين . ثم بعد هذا كله أوقف على المدرسين وقفاً عظيماً من عقار انجر له بالإرث في والدته المقدسة . ودفعه إلى ناظر أوقاف المدرسين يقسم عليهم غلته . والعادة جارية في الحضرة بأن الفقهاء المترشحين في ديوان / الجند من الحنفية يعفون من الخدمة والسفر . وتطلق لهم رواتبهم . لكن كان ذلك - في الدول السالفة - مخصوصاً بأماثل العلماء وأهل الوظائف منهم . حتى جاءت دولة مولانا - أدامها الله تعالى - ففعل ذلك بكل من تعاطى قراءة العلم منهم حتى حصل ذلك لجل المتدئين . وبهذا السبب كثر طالبو العلم منهم . وخرجت منهم جماعة نجباء .

ولما أنشأ تربته المطهرة بساباط عجم أنشأ مدرسة مجاورة لها (1) وأوقف عليها أوقافاً واسعة . ورتب بها مدرسين في فنون شتى . وطلبة . وأجرى عليهم الجرايات الواسعة التي لم تكن في مدرسة من المدارس غيرها . وسأني تفصيل ذلك - إن شاء الله تعالى . وعلى الجملة فاعتناؤه بالعلم الشريف وبحمليته قد بلغ من الشهرة مبلغاً ألحقه بالمعلومات الضرورية .

### واما الحكمة الخلقية

فيعدل عليها ما أخذ به نفسه من الأعمال الصالحة والطاعات . والقربات والمواظبة على الخيرات . وأنا أذكر منها هاهنا ما لا يدخل تحت خلق من الأخلاق الآتية . أمّا ما هو داخل تحت شيء منها ككثرة الصدقات الداخلة تحت السخاوة . وطهارة الذيل الداخلة تحت العفة . ونحو ذلك فأؤخر الكلام فيه إلى موضعه . من ذلك المحافظة على أداء الصلوات لمواقيتها . بحيث لا يحفظ عنه تأخير صلاة من الصلوات عن وقتها في حضر أو سفر . مع تعديل أركانها . والقيام بسننها وفنائها .

(1) من المسكنة الكبرى المعروفة بمدرسة التربة الكبيرة فرما بينها وبين مدرسة والده المقابلة أيضاً المعروفة بالتربة الصغيرة.



والمحافظة على الطهارة . والمبالغة في التحذر من النجاسة . وإتقان الوضوء وإتمام إسباغهِ . والقيام بالسُّننِ الراتبة . وعدم الإخلال بشيء منها في مُعظم الأوقات . ومنها المداومة على حضور مجالس العلم من التفسير والحديث والفقه وغيرها على ما مرّ تفصيله . ومنها المواظبة على الأذكار والأوراد ليلاً ونهاراً بحيث لا يفتُر لسانه عن ذكر الله تعالى في غالب أوقاته فقد اتَّخذ الذِّكر دَيْدَنًا . ورطب به لسانه فهو يستعمله حتى في وقت جلوسه للحكم والقضاء . وفي وقت سَمَرِهِ . وغير ذلك من الأوقات التي يشتغل فيها بقضاء المصالح والحوائج . مع كونه قد أفرد وقتين للذكر لا يعمل فيهما عملاً سواه . وهما من بعد صلاة الصُّبح إلى أن تَمُضِيَ ساعة من النَّهار . ومن بعد صلاة المغرب إلى العِشاء . فقد ألزَمَ نَفْسَهُ ذِكْرَ كَلِمَةِ التوحيد ثلاثة آلاف مرة في كل يوم . فلم يترك ذلك منذ سنين متطاولة . ولا في أيام الحروب الشديدة . مع ما التزمه من الأوراد والأذكار وغير ذلك . وله في ذلك أسانيد وإجازات عن الشيوخ فقد أخذ ورد [الإمام] العلامة سيدي أحمد بن ناصر الدرعي (1) عن الشيخ سيدي عبد الحفيظ [الزواوي ابن دوابلاده] الخنقي . وهو يرويه عن صاحبه سيدي أحمد بن ناصر — رحمه الله تعالى . وقد أجازهُ الشيخ سيدي عبد الحفيظ عن سيدي أحمد بن ناصر بسنده المعروف في الطريقة . ولنذكره تبركاً به فنقول :

[50 — ب] روى سيدي / أحمد بن ناصر . عن سيدي محمد بن ناصر ، عن سيدي عبد الله بن حسين [القبَّاب] (2) . عن سيدي أحمد بن علي الحاحي (3) . عن سيدي أبي القاسم الغازي (4) . عن سيدي علي بن عبد الله الفيلاي . عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني . عن سيدي أحمد زروق . عن سيدي أحمد ابن عقبة [الحضرمي] . عن سيدي علي القرافي . عن سيدي أحمد ابن عطاء الله .

(1) مرجع ما سيذكر من الأسانيد إليه وهو من اعلام المغرب ومصوفيه له رحلة طبعت بفاس على الحِجر سنة 1320/1902 توفي سنة 1129/1717 .

(2) الزيادة من ثبت الأمير .

(3) فيه : الحزرجي بدل الحاحي .

(4) في ز : التازي .

عن سيدي أبي العباس المرسي . عن سيدي أبي الحسن الشاذلي . عن سيدي عبد السلام ابن مشيش . عن سيدي عبد الرحمان العطار (1) . عن القُطب أبي الحسن علي . عن القُطب تاج الدين . عن القُطب شمس الدين . عن القُطب زين الدين . عن القُطب إبراهيم البصري . عن القُطب أحمد المرواني . عن القُطب سعيد . عن القُطب فَتَح السَّعُود . عن القُطب الغزواني . عن القُطب جابر . عن سيّد الأقطاب وأولهم سيّدنا الحسن ابن سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما . عن أفضل جميع الخلق سيّدنا مُحَمَّد — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ثم وَرَدَتْ عليه إجازة من الشيخ العلامة الفاضل سيدي يوسف بن محمد بن محمد بن ناصر ابن أخي سيدي أحمد بن ناصر القائم مقامه الآن — فسح الله في أجَلِهِ . ونصّ المقصود منها : « وقد بلغنا كتابك ، وفهمنا مضمونه ، ومأخذك عمّن ذكرت — قدّس الله سيره . فأحمد الله على ذلك . وقد زدنا فيك محبة بما ذكرت من توفيق الله تعالى لك إلى ما أنت عليه من رحمة الغريب ، ونهَج مَنْ هُداه السميع القريب ، فحمدنا الله لك ، وطلبنا لك الزيادة من فضله . وعليه فنأمرُك أن تُحاسب نفسك بقانون الشريعة لتعلم ما أنت عليه . وقد أجزناك في كل ما أخذته عن السيّد عبد الحفيظ قولاً وفِعْلاً . وأجزناك أيضاً في سائر مروياتنا ومسموعاتنا عن الأشياخ ، تُحدِّثُنا بما بكل ما تجوز — لنا وعنا — روايته بِشَرَطِ أهل الإجازة المُعْتَبَر . من الثبوت والاحتساب واحترام العلم وأهله . فقد اتّصلت لنا رواية الكتب الستة . والشفا لِعِيَاض ، والمواهب اللدُنِّيَّة ، وحِلْيَةُ أبي نعيم ، والترغيب والترهيب ، وإحياء علوم الدين ، والجامعين الصغير والكبير ، وكتر العمّال ، والفتوحات المكية . روايةً ودرايةً . أما الدراية فعن عدّة من العلماء — رحمهم الله تعالى . وأما الرواية فعن العلامة شيخ الجماعة بالديار الفاسيّة سيدي مُحَمَّد بن عبد السلام بناني — رحمه الله

(1) هنا يقترب سياق السند بين الأصل — وهو ما يعطيه شيوخ الطرق إريدتهم — وبين سند الأمير الحرز . وهو بعد العطار — ويسميه المدني — عن التنايري يرفعه إلى الشبلي عن الحنيد عن السري عن الكرخي عن حبيب عن الحسن البصري عن الحسن السبط وللنقاد مطاعن فيه ولا سيما فيما بالأصل من مجاهيل .



تعالى . وهو عن عِدَّة من العلماء كالشيخ أبي علي الحسن اليوسي . والشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي . والشيخ عبد السلام جسون . وكل بطريقه في فِهْرِسْتِه . وعن إمام الحرم الشريف سيدي محمد بن الطيب الفاسي عام حجتنا . وهو عام اثنين وستين ومائة وألف . وعن أخينا أبي عمران سيدي موسى بن محمد بن محمد بن ناصر . عن العمّ الشيخ البركة سيدي أحمد بن محمد بن ناصر . وهو عن والده - رحمهم الله تعالى - سيدي محمد بن ناصر . عن البابي - ح - وعن أبي العباس المجذوب وسيدي أحمد بن إبراهيم السباعي . عن العمّ المذكور . وعن والده أبي إسحاق سيدي / إبراهيم السباعي . عن البابي المذكور . عن الشبراملي . عن النجم الغيطي . عن السنهوري بسنده إلى الحافظ بن حَجَر . والشيخ ابن الطيّب يروي عن العمّ . وعن مؤلف المنح البادية في الأسانيد العالية سيدي محمد الفاسي وأشياخه في فِهْرِسْتِه . وعن العلامة سيدي محمد ابن عبد الله . عن ابن سليمان الرّسموكي . عن اليوسي . وعن السيد عبد الله ابن أحمد الريكامي . عن العمّ أيضا . عن والده . عن الشيخ ابن سعيد المرختي السوسي . وهو عن مولانا عبد الله بن علي بن طاهر الحسني . وهو عن عمه . عن النجم الفاسي بِطَرُقِهِمْ كُلِّهَا حَسَبَ فَهْرِسْتِهِمْ . وعن أبي العباس الهلالي رحمه الله . عن الشيخ أحمد الحبيب السلجماسي . وعن الشيخ الحفناوي المصري والإسكندراني . والشيخ الطبلاوي عام حجتنا المذكور . وأخذ الجدّ أيضا سيدي محمد بن ناصر عن أبي عبد الله محمد ابن أحمد المصمودي . وهو عن أبي زكرياء يحيى السراج . عن العلامة ابن هارون . عن الإمام ابن غازي . عن أشياخه المعامرين في فِهْرِسْتِه . وأخذ أيضا عن العلامة أبي الحسن علي بن يوسف اللكتاوي التمارزي التهرجاني . وهو عن العلامة التتائي . وهو - رحمه الله - عن والده . وعن أبي علي الحسن ابن عثمان الجزولي . عن الإمامين ابن غازي والقوري . وعمنا أحمد - رحمه الله - يروي عن صفّي الدين القشاشي بأسانيده أيضا . ويروي أيضا عن أبي سالم العياشي . عن أشياخه المذكورين في فِهْرِسْتِه : الاقتناء . والمنظومة .

[ ٥١ - أ ]

وغيرهما كما في الرحلة . وعن الشيخ العلامة المحقق أبي العباس أحمد ابن محمد الورزيري دفين تطاون - صانها الله تعالى . وهو - رحمه الله تعالى - عن عادة منهم عمنا المذكور . وعمه أبو عبد الله محمد الصغير ابن عبد الله بن حسين التجموري المدفون قرب ابن القاسم العتي وأشهب - تغمدهم الله برحمته وأسكنهم فسيح جنته . وهو يروي عن عدّة مغاربة ومشاركة . كما يروي عنهم السيد [أحمد] المذكور . ويروي عن الحافظ اللافظ الحجة سيدي أحمد ابن مبارك السلجماسي إمام الجماعة بناس بالقرويين . عن عدة من أشياخه . وأروي أيضا عن الشيخ المجاهد سيدي محمد بن محمد بن عبد الله الورزيري صنو السيد أحمد . وهو عن ميارة الصغير وعن البناني الملقب بالمحوجب . وعن العلامة التسمطيني . وعن الحافظ سيدي محمد بن زكري . وعن الزكي العلامة سيدي محمد العربي بردلة . الفاسيين وكل عن أشياخه . ولولا خوف الإطالة لتبعنا الأسانيد كلها حتى تكون دفترًا عظيمًا . ولكن حسبنا التبرك بذكر هؤلاء فقد أجازونا والحمد لله في العلوم الإسلامية معقولا ومنقولا . حديثا وتفسيرًا . ونحوًا وتصريفًا . وأدبًا وعروضًا . وتوقيتًا وتوحيدًا . وتعديلًا . ومصافحة . ومشابكة . ومناولة . ومعانقة . [وضيافة] بالماء والتّمر وبالحديث المسلسل أول كل شيء في المجالس وبقراءة سورة «الصف» وقراءة سورة «ألم نشرح» واليمنى على الصدر / واليسرى أسفلها . وبجميع ما ذكرت أجزّت السيّد علي بساي ابن حسين بساي كما أجازني أشياخي في جميعه . وبكل ما تصحّ روايته من مسموع ومقروء وتقييد . وأذنت له في تلقين الذكر لمن أراد من أولاده وعياله وزدته في ورده أحد عشر ألفًا من يا لطيف يا لطيف كل يوم ، وأذنت له في قراءة المُسَبَّحات العشر عند كل طلوع شمس وغروبها . وحزب التّوّوي . وحزب البحر . والوظيفة الزّروقية . والصلاة المشيشية مؤكّداً عليه في الإقبال على الله . والتوكّل عليه . والاعتصام بحبله . موقنا أن الله تعالى لم يخلقنا في الدنيا إلاّ لنعبر إلى الآخرة عليها . وأوصيته بالغباء . وبالاقتصاص من القرناء للجَمَاء فإنك مسئول عن رعيتك . فأعِدْ لسؤالك ما استطعت . فإن سائلك لا تخفى عليه خافية في

[ 51 ]



الأرض ولا في السماء . والله يرعاكم . ويحفظكم . ويتولى بيمينه أموركم  
ويأخذ بأيديكم ويعزكم . ويدفع عنكم كل سوء . آمين . وفي أربع  
وعشرين من صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف . كتب عبيد الله تعالى . عن  
فرط هول نسأل الله العفو والعافية . — يوسف بن محمد بن محمد بن ناصر تاب  
الله عليه . آمين . انتهى .

ولمولانا — أيده الله تعالى — تعظيم زائد . وتوقير كبير لجانب سيدي أحمد  
ابن ناصر . واعتناء بكل من هو منتم إلى طريقته . وداخل في دائرته . حتى  
لقد بلغه عن بعض أصحابنا من الطلبة وهو ميلاد [بن سليمان] المؤدب أنه منتسب  
إلى طريقة الشيخ ومواظب على ورده . ففرض له عدة حاجات وإذا ذكر  
عنده يقول : ذاك أخي من الطريقة الناصرية . ولقد ورد على الحضرة سنة  
ثمان وثمانين شاب مغربي ادعى أنه ابن أخي سيدي يوسف بن ناصر فاهتز  
له مولانا — أعزه الله تعالى — وبالغ في إكرامه وأعطاه عطايا ضخمة وأجازه  
بجوائز جزيلة . وأوصله إلى كل مقترح اقترحه . وكثر الطعن عليه من المغاربة  
بأنه كاذب في دعواه . ودعى في نسبه . وإنما هو طالب من طلبة الزاوية  
الناصرية . وأثبتوا ذلك بشواهد وقرائن . وبلغ ذلك مولانا — بلغ الله آماله —  
على وجهه فلم يصدده عن إتمام ما أسدي إليه . ولا ردّه عن إنجاز جميع  
ما وعده به . حتى انصرف من عنده موفورا محبوبا . وورد قبله على الحضرة  
أحد تلامذة الشيخ سيدي يوسف بن ناصر اسمه عبد الله بن المقدّم وهو رجل  
فاضل من أهل الصلاح . وله ولأبيه اختصاص بالبيت الناصري . فاستزاره  
مولانا — أيده الله تعالى — وأحسن إليه . ولما صدر راجعا إلى المغرب كتبت  
عن مولانا — أعزه الله تعالى — إلى سيدي يوسف بن ناصر كتابا ذكرت فيه  
السيد عبد الله المذكور ونصه :

«المقام الذي تُقْتَبَس منه أنوار المعارف . وتستنح منه لَمَحَات  
العوارف ، ويتفيا على الأنام ظِلُّه الوارف . وتَصْرِفُ منه القلوب إلى حَضْرَةِ  
الْقُدْسِ الصَّوَارِف ، وتنسكب فيه من خَشْيَةِ الله تعالى الدُمُوع / الذَّوَارِف .

منهبط البركات وينبوع العرفان . ومسحط رحال الأفاضل من كل  
قاص ودان . حضرة الأستاذ الأعظم والملاذ الأعظم الطيب الطاهر ، ذي  
المنقب والمفاخر . العلامة الفاضل ، الرباني الكامل . مولانا أبي المحاسن  
سيدي يوسف بن ناصر . أدام الله عليه من معارفه إمدادها ، وأتم نعمته  
عليه وزادها . ولا أغفله من وَاَرِدَ نَفْحَةٍ ، وعائد مِنْحَةٍ ، [وَهَبَةٍ  
قُرْبَةٍ] ، ورَهْبَةٍ رَقْبَةٍ — آمين — السلام التام الكريم . الطيب المبارك  
العميم . يخص مقامكم الأعلى . ومثابستكم المثلى . ورحمة الله تعالى  
وبركاته . وبعد فقد كتبناه إليكم — كتب الله لكم الحُسنى وزيادة . وسنّى  
لكم المحلّ الأسنى في دار السعادة — من خُصْرَاءِ تونس — حرسها الله —  
استجلاباً لصالح أدْعِيَتِكُمْ التي نَعْتَدُهَا أَوْفَى جَنَّةٍ . ونعتمدها من  
الأسباب الموصلة إلى الجنة . وتأكيذاً لعَهْدٍ مودّتكم التي نراها من أوكد  
الطاعات التي تُقَرِّبُنَا إلى الله زُلْفَى . وأنفع القربات التي تُبَلِّغُنَا عند الله المقام  
الأسنى . وعلى ما استقرّ من حُسْنُوكُمْ عَلَى الْمُرِيدِ وِبرّكُمْ به ،  
وحِرْصِكُمْ على تقويمه وتهذيبه . ألاّ تَنْسَوُنَا من دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ تكون  
لنا ذُخْرًا في المعاد . ووَاقِيَةً لنا وَلذُرِّيَّتِنَا من كَيْدِ الْأَعْدَاءِ وَالْحَسَادِ . فهذا  
ما يَسْتَوْجِبُهُ انْتِمَاؤُنَا إلى طريقتكم المَرْضِيَّة . ودخولنا في دائرة  
سِلْسِلَتِكُمُ الْعَلِيَّةِ ، ضَاعَفَ اللهُ لِدَيْكُمُ النِّعْمَاءَ . وجزاكم عنا أحسن  
الجزاء بمنّة . هذا وقد ورد علينا السيّد أبو محمد عبد الله ابن المقدّم رضيع  
لبان مجدكم ، ونجم فللك سعدكم . صادرا عن حجّته التي ظهرت عليه  
علامات قبولها . وزيارته التي لاحت عليه أنوار حصولها . راجعا من  
حضرتمكم إلى بيته الذي منه خرج . ووَكَّرَهُ الذي منه دَرَج . ومحلّ عِزّه  
الذي به تَخَرَّج . فاستدعينا إلى زيارتنا التماسا لِبِرْكته التي بكم حَصَلَ له  
طريقها وتِلَادُهَا . واقتباسا من مِسْكَاةِ أنواره التي منكم اسْتِمْدَادُهَا .  
فرأينا عليه هَيْبَةَ المعرفة . ونَضَارَةَ العبادة . ووقار الخَشْيَةِ . وورقة  
الوجد . وارتياح الشَّوْق . ومَتَانَةَ الدِّيَانَةِ . وقَبُولَ الإخلاص . وجدير بمن  
تَرَبَّيَ في عَقْرِ تلك الدِّيار . وتَخَرَّجَ بأولئك السادات الأخيار . أن لا



يُصَدِّقُ عَنْ بُلُوغِ الْعَالِيَاءِ . وَلَا يَعَاوِدُ عَنْ تَسْلِيمِ الرَّكْعَةِ الثَّلَاثَةِ . فَمَعْرِفَتُنَا مِنْ فُضَائِلِكُمْ الْمَأْثُورَةِ مَا لَا يَسَعُ أَحَدًا إِلَّا بِعِلْمِهِ . وَذَكَرْنَا مِنْ مَزَايَاكُمْ الْمَشْهُورَةِ مَا لَمْ يَكُنْ يَنْسَاهُ إِلَّا مَنْ عَدِمَ التَّوْفِيقَ وَحَرِمَهُ . فَحَرَكَ مِنْ اسْتِيقَانَا — لَوْ نَجِدُ سَبِيلًا — وَهَزَّ مِنْ ارْتِيَاخِنَا — لَوْ أَمَكُنْ فِي ذَلِكَ الظُّلَّ مَقِيلًا — لَكُنَّا اكْتَفِينَا مِنْ رُؤْيَاهُ بِالصَّعِيدِ الطَّيِّبِ . عَنْ مَسْعِينِ الْعَارِضِ الصَّيِّبِ . وَأَنْبَسَاهُ عَنَّا فِي مَصَافِحَةِ يَدِكُمُ الْكَرِيمَةِ . وَالتَّمَّاسِ دَعَوَاتِكُمُ الْمُبَارَكَةِ الْعَسِيمَةِ — وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ بِهِجَةِ هَذَا الْعَالَمِ [بِبَقَائِكُمْ] . وَيَزِيدُ كُلَّ طَرْفَةٍ فِي صَعُودِكُمْ إِلَى رُتَبِ الْقُرْبِ وَارْتِقَائِكُمْ — آمِينَ .

وَسَمِعْتُ مَوْلَانَا — أَدَامَ اللَّهُ سَعَادَتَهُ — يَسْتَشْكِلُ قَوْلَهُ — فِي سَنَدِ الطَّرِيقَةِ الْمَذْكُورَةِ عَنْ سَيِّدِنَا / الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — أَنَّهُ سَيِّدُ الْأَقْطَابِ وَأُولَهُمْ . وَيَقُولُ : كَيْفَ يَكُونُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — سَيِّدُ الْأَقْطَابِ وَأُولَهُمْ . وَقَبْلَهُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ — وَهُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ بِلَا شَكٍّ وَأَسْبَقُ ؟ فَكَيْفَ لَا يَبْلُغُونَ مَرْتَبَةَ الْقُطْبِيَّةِ وَقَدْ بَاغَهَا مَنْ هُوَ دُونَهُمْ ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ عَصْرُهُمْ خَالِيًا عَنِ الْقُطْبِ الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْهُ عَصْرٌ مِنَ الْأَعْصَارِ ؟ فَتَقُولُ : قَدْ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُطْبَ لِحِفْظِ نِظَامِ الْعَالَمِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ بِالْوِلَايَةِ وَالْعَزَلِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ جَمِيعِ مَا يَعْزُضُ فِيهِ . فَلَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَتَصَرُّفِهِ . غَيْرَ أَنَّ تَصَرُّفَهُ فِي الْبَاطِنِ دُونَ الظَّاهِرِ . وَالتَّصَرُّفِ الظَّاهِرِيِّ إِنَّمَا هُوَ لِلْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — كَانَ التَّصَرُّفُ الْكُلِّيُّ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا . وَالنِّظَامُ مَحْفُوظٌ بَعْدَهُ وَسِيرَتُهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — حَفِظًا لَا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ . فَلَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَتَقَلَّدَ الْأَمْرَ بَعْدَهُ خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ — اقْتَفَوْا سِيرَتَهُ . وَاهْتَدَوْا بِهَدْيِهِ . وَحَفِظُوا النِّظَامَ عَلَى مُتَقَضِي مَا بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ السُّنَنِ . وَحَدَّثَ لَهُمْ مِنَ الْحُدُودِ . وَلَمْ يَكُنْ الْوَقْتُ إِذْ ذَاكَ مَحْتَاجًا إِلَى قُطْبٍ لِإِلَاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِالْخِلَافَةِ الْقَائِمَةِ بِحِفْظِ النِّظَامِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ . فَلَمَّا انْقَضَى أَمْرُ الْخِلَافَةِ بِانْقِضَاءِ الْمُدَّةِ الَّتِي عَيَّنَهَا رَسُولُ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَصَارَتْ مَالِكًا عَضُوضًا كَمَا قَالَ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — وَذَلِكَ بِنَزُولِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْهَا إِلَى مَعَاوِيَةَ

[52 - ب]

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . احْتِاجُ الْوَقْتِ حِينَئِذٍ إِلَى قُطْبٍ يَقُومُ بِحِفْظِ النِّظَامِ بَاطِنًا حَيْثُ طَرَقَ الْخَلَلُ ظَاهِرًا . وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — لِكَمَالِ فَضْلِهِ وَبُنُوْتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَأَقِيمَ بَعْدَ نَزُولِهِ عَنِ الْخِلَافَةِ قُطْبًا يَتَصَرَّفُ فِي الْبَاطِنِ دُونَ الظَّاهِرِ . فَلَا جَرَمَ كَانَ أَوَّلَ الْأَقْطَابِ . إِذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ إِلَّا الْخِلَافَةُ ، وَسَيِّدَهُمْ . إِذْ لَمْ يَلِكْهَا بَعْدَهُ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ قِطْعًا . هَذَا مَا ظَهَرَ لَنَا فِي حُلِّ هَذَا الْإِشْكَالِ مِنْ غَيْرِ وَقُوفٍ عَلَى كَلَامٍ لِأَحَدٍ فِي ذَلِكَ . فَمَنْ وَقَفَ عَلَى نَصِّ لَأَحَدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ فَلْيُثْبِتْهُ . وَاللَّهُ تَعَالَى مُلْهِمُ التَّوْفِيقِ لَا رَبَّ غَيْرَهُ .

ثُمَّ وَرَدَتْ عَلَيْهِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ — عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ — إِجَازَةٌ مِنَ الشَّيْخِ الصَّالِحِ الْمُتَصَوِّفِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْكَرِيمِ السَّمَّانِ الْمَدَنِيِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَهِيَ إِجَازَةٌ عَامَّةٌ بِجَمِيعِ مَرْوِيَّاتِهِ وَمُصَنَّفَاتِهِ وَأَوْرَادِ وَأَذْكَارٍ لَمْ يَحْضُرْ فِي الْآنَ لَفْظُهَا فَأَنْقَلَهُ . وَهَذَا الشَّيْخُ السَّمَّانُ — رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى — لَقِيْتُهُ عَامَ حَاجَتِي سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ بِإِدَارِهِ بِإِزَاءِ الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ مِنْ شَرْقِيَّةٍ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ بِلَادِنَا وَغَيْرِهِمْ . فَدَعَا بِالطَّعَامِ فَأَكَلْنَا . ثُمَّ دَعَا لَنَا بِخَيْرٍ . فَلَمَّا نَهَضْنَا لِلانْصِرَافِ اخْتَصَنِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ بَعْدَهُمْ . وَلَمْ أَكُنْ مُمْتَنِزًا عَنْهُمْ بِزِيْرِ الْفَقْهَاءِ وَلَا أَظَنَّهُ سَمِيعَ ذِكْرِي قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ عَلَيْهِ — فَقَالَ لِي : أَتُرَوِّي عَنِّي الْحَدِيثَ الْمُسْتَسْلَسَ بِالْأَوَّلِيَّةِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَسَمِعْتُهُ مِنْ لَفْظِهِ ثُمَّ أَجَازَنِي بَعْدَ ذَلِكَ / بِالْإِجَازَةِ الْعَامَّةِ وَتَوْفُّي بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ سَنَةِ ..... (1) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَهَذَا هُنَا أَشْعَارُ أَنْشَدْتُ بِمَجْلِسِ مَوْلَانَا — أَدَامَ اللَّهُ بَقَاءَهُ — مَدْحًا فِيهِ عِنْدَ خَتَمِهِ لِصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي خَتَمَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُثَبِّتُ مِنْهُ مَا يَلِيقُ أَنْ يُثَبِّتَ فِي هَذَا الْمَحَلِّ . قَالَ الْفَقِيهُ الْكَاتِبُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْوَرْغِي :

(1) ترك المؤلف عدد السنة بياضاً للاستدراك ، وقد حرر الشيخ الكنانى (عبد الحمى) في كتابه على المواليد بالمجلة الزيتونية (جزء 4 مجلد 2) ان هذا المحدث توفي سنة 1179/1193 .



خَتَمَكَ الْجَامِعَ الصَّحِيحَ كَرَامَةً  
 يَتَّبِعُ الْفَوْزَ يَوْمَهَا وَالسَّلَامَةَ  
 حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَمَنَّيْتَ مِنْهَا  
 عِزَّةً فِي الدُّنَا وَدَارِ الْمَقَامَةِ  
 دَعْوَةً تَمْلَأُ الْقُلُوبَ ارْتِياحاً  
 وَعَلَى صِدْقِهَا الْخُشُوعُ عِلَامَةً  
 سَيِّمًا وَالْخِتَامُ فِي سِلْخِ شَهْرِ  
 عَظَّمَ اللَّهُ لِلْعَبِيدِ صِيَامَهُ  
 لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ فِيهِ مُضَاماً  
 عِنْدَمَا يَحْضُرُ الْمُطِيعُ طَعَامَهُ  
 ذَاكَ بَحْرُ الْحَدِيثِ لَيْسَ عَلَى مَنْ  
 ظَلَّ يَرُوي الْغَرِيبَ مِنْهُ مَلَامَةً  
 خَضَتْ يَا ابْنَ الْحُسَيْنِ فِيهِ بِجِسْمٍ  
 وَبِنَفْسٍ بَعِيدَةٍ عَنْ سَامَةٍ  
 بَعْدَ عَامٍ تَسِيرُ سَيْرًا دِرَاكاً  
 كُلَّ يَوْمٍ بِرِحْلَةٍ فِي إِقَامَةٍ  
 تَطْلُبُ الْوَصْلَ مِنْ حَبِيبٍ بِقَوْلٍ  
 قَدْ أَصَبْتَ وَقَدْ سَمِعْتَ كَلَامَهُ  
 لَوْلَا سِلْكُهُ الْمَسَامِيحُ لَكِنْ  
 طَوَّقَ الرُّوحَ مِنْهُ طَوَّقُ الْحَمَامَةِ  
 عَدَّ جَمْعُ الْمِثْنِ مِنْهُ جَلِيلاً  
 لَا يُجَارَى . وَكَانَ عِزُّ تَمَامِهِ  
 كُلُّ لَفْظٍ لِكُلِّ عَقْلٍ حَيَاةً  
 لَا أَقُولُ كَمَا يُقَالُ مُدَامَهُ

أَيُّ شَيْءٍ يَلَدُّ بَعْدَ خِطَابِ  
 مِنْ عَزِيزِ الْوُجُودِ فَحُلِ الْقِيَامَةِ  
 فَاهْنًا الْآنَ بِالْوَصَالِ لَوَقْتِ  
 مَوْسِمِ الْفِطْرِ مَدَّةً فِيهِ خِيَامَهُ  
 أَتَرَاهُ أَتَى يَهْنِيكَ عَمَّا  
 أَوْجَبَ الْحَقُّ أَنْ تَكُونَ إِمَامَهُ ؟  
 فَهُوَ عِيدٌ لَهُ وَجُودُكَ عِيدٌ  
 عَمَّةَ اللَّهِ بِالرِّضَا وَأَدَامَهُ  
 أَيُّهَا الْمُسْتَجَادُ فِي كُلِّ مَحَلٍّ  
 وَهُوَ فِي الْمُلْكِ فِي مَحَلِّ الْعِمَامَةِ  
 مَا عَرَفْنَا مِنَ الْكَلَامِ نَفِيساً  
 نَصْطَفِيهِ لِجِدِّ تِلْكَ الْفَخَامَةِ  
 غَيْرَ أَنَّ الْكَمَالَ فِي الْفَضْلِ نَزَرُ  
 حَازَهُ النَّزَرُ ثُمَّ كُنْتَ خِتَامَهُ

وقال الفقيه المشاور أبو محمد عبد اللطيف الطوير القيرواني :

حَدِيثُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ نُورٍ  
 بِهِ يُهْدَى ، وَتَنْشَرُحُ الصَّدُورُ  
 إِذَا نَرَوْهُ يُرَوِّينَا فَنَحْيَا  
 وَتُكْتَسَبُ الْمَحَامِدُ وَالْأَجُورُ  
 / لِقَارِيهِ وَمَقْرِيهِ قُصُورُ  
 إِذَا وَصَفَ اللِّسَانُ لَهُ قُصُورُ  
 يَزِيدُ تَأْنِيساً وَيُزِيلُ وَحْشاً  
 إِذَا بِالْوَحْشِ أَظْلَمَتِ الْقُبُورُ



يُسَكِّنُ رَوْعَةً وَيُنِيلُ أَمْنًا  
 إِذَا بِالْخَوْفِ أَفْعِدَةً تَطِيرُ  
 وَيُورِدُ كَوَثَرًا لِلْحَوْضِ عَذْبًا  
 إِذَا كَانَ الْقِيَامَةُ وَالشُّورُ  
 يُحِيطُ عَنِ النَّفُوسِ إِذَا دَهَتَهَا  
 مَلِمَاتٌ . وَيَنْجِبِرُ الْكَسِيرُ  
 وَيَحْمِيهَا مِنْ الْأَغْيَارِ طَرًا  
 كَمَا يَحْمِي عَنِ الْحَرَمِ الْغُيُورُ  
 وَفِيهِ صَنَفَ الْفَضْلَاءُ كُتُبًا  
 بِهَا حَقًّا تَزَيَّنَتْ الْعُصُورُ  
 خُصُوصًا جَامِعُ السُّنَنِ الْبُخَارِيُّ  
 إِمَامُ السُّنَّةِ ، الْعَلَمُ الْكَبِيرُ  
 فَقَدْ جُمِعَتْ بِجَامِعِهِ مَزَايَا  
 لَهَا قَدْ أَدْعَنَ الْجَمُّ الْغَفِيرُ  
 تَرَاجِمُهُ تُتَرَجِّمُ عَنْ مَعَانٍ  
 يَحَارُّ لِفَهْمِهَا الْحَبِيرُ الْكَبِيرُ  
 وَأَبْوَابُهَا بِدَاخِلِهَا قُصُورُ  
 مُشِيدَةٌ . وَوَلَدَانُ وَحُورُ  
 فَآثَارُ الرَّسُولِ بِهَا تَجَلَّى :  
 كَوَاكِبُ . أَوْ شُمُوسُ . أَوْ بُدُورُ  
 إِذَا فِي الْجَدْبِ وَالْإِمْحَالِ يُرَوَّى  
 تَصَوَّبَ لِلدُّورِ الْمَطَرُ الْغَزِيرُ  
 وَمَهْمَا شِدَّةٌ نَزَلَتْ بِقَوْمٍ  
 فَإِنْ قَرَأُوهُ تَنَكَّشِفُ الشُّرُورُ

بِهِ مِنْ كُلِّ مَا مَرَضَ شِفَاءٌ .  
 وَمَوْعِظَةٌ تَلِينُ لَهَا الصُّخُورُ  
 بِهِ احْتَقَلَ الْوَرَى غَرْبًا وَشَرْقًا  
 وَقَلَقَلَ بِالرَّكَابِ لَهُ الْمَسِيرُ  
 وَسَادَ بِنَفْعِهِ أَمْرَاءُ سَادُوا  
 خُصُوصًا مِنْهُمْ الْمَوْلَى الْأَمِيرُ  
 أَبُو الْحَسَنِ الرِّضَا الْبَاشَا عَلِيٌّ  
 هُوَ ابْنُ حُسَيْنِ الْمَلِكِ الشَّهِيرِ  
 أَدَامَ عَلَى قِرَاءَتِهِ فَأُضْحَتْ  
 عَلَيْهِ حُلَى مَحَاسِنُهَا تَدُورُ  
 تَرَوَّى مِنْ رِوَايَتِهِ مَلِيًّا  
 كَمَا يُرَوِّي الصَّدَى الْمَاءُ النَّمِيرُ  
 تَسْنَمُ مِنْ دِرَاسَتِهِ مَقَامًا  
 تَخِرُّ لِبُعْدِهِ الشَّعْرَى الْعَبُورُ  
 مَجَالِسُهُ يُزَيِّنُهَا الْبُخَارِيُّ  
 فَتَشْرِفُ . لَا الْجَوَاهِرُ وَالْحَرِيرُ  
 وَأُسْفَا لَهُ تُجَلَّى بِهَا لَا  
 مُعْتَقَّةٌ يَطُوفُ بِهَا الْمُدِيرُ  
 وَوَصْلُ خِتَامِهِ فِي كُلِّ عَامٍ  
 بِهِ قَدْ هَامَ . لَا الرَّشَاءُ الْغَرِيرُ  
 رَفِيقٌ بِالرَّعِيَّةِ . ذُو حَنَانٍ .  
 نَزِيهٌ النَّفْسِ . مِفْضَالُ . وَقُورُ  
 / أَخُو حِلْمٍ . أَخُو عَفْوٍ وَصَفْحٍ :  
 مُجِيرٌ إِنْ أَتَاهُ الْمُسْتَجِيرُ



مُتَقِيمٌ لِلْجَمَاعَةِ مُسْتَدِيمٌ .  
لِيَذْكُرَ اللَّهُ لَيْسَ لَهُ فُتُورٌ  
وَفَيْضٌ لِلْمَوَاهِبِ وَالْعَطَايَا  
إِذَا مَا أَجْهَدَ الزَّمَنُ الْعَسِيرُ  
مَجَالِسُهُ بِدَرَسِ الْعِلْمِ زِينَتُ  
كَمَا زِينَتُ بِحِلْيَتِهَا النُّحُورُ  
إِلَهِي بِالنَّبِيِّ وَبِالْبُخَارِي  
سَأَلْتُكَ يَا مُدَبِّرُ يَا قَدِيرُ  
تَقَبَّلْ صَوْمَ هَذَا الشَّهْرِ مِنْهُ  
فَتَزِدَّادَ الْمَوَاهِبِ وَالْأَجُورُ  
وَأَعْنِقْهُ مِنْ النَّيْرَانِ فِيهِ  
فَلَا يَخْشَى إِذَا لَفَحَ السَّعِيرُ  
وَأَسْبِلْ سِتْرَكَ الضَّافِي عَلَيْهِ  
إِذَا انْهَتَكْتَ أَوْ انْكَشَفَتْ سُتُورُ  
أَنِلُهُ عَلَى الَّذِي أَوْلَيْتَ عَوْنًا  
فَإِنَّكَ أَنْتَ مَوْلَاهُ النَّصِيرُ  
وَأَصْلِحْ بَالَهُ فِي كُلِّ حَالٍ  
وَأَرْشِدْهُ إِذَا دَجَّتِ الْأُمُورُ  
وَصُنْهُ وَصْنُ بَنِيهِ مِنَ الْبَلَايَا  
إِذَا مَا حَارَبَ الدَّهْرُ الْهَضُورُ  
وَأَصْلِحْ شَأْنَهُ وَآخِثِمُ بِخَيْرٍ  
خِتَامًا مِنْهُ قَدْ حَصَلَتْ خِيُورُ

خِتَامًا كَانَ «بَدَأُ الْوَحْيِ» بَدَأُ (1)  
لَهُ . فَالتَّاجُ كَوُكْبُهُ الْمُنِيرُ  
خِتَامًا قَدْ حَوَى شَرْفًا وَبُشْرَى  
وَتَشْرًا لَا يُحَاكِيه الْعَبِيرُ  
تَقَبَّلْ سَعْيَهُ الْمَشْكُورُ مِنْهُ  
فَإِنَّكَ قَابِلُ الْعَمَلِ ، الشَّكُورُ  
تَجَاوَزْ عَنْهُ وَارْحَمْ وَالِدَيْهِ  
وَأَخْوَتَهُ فَأَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ  
وَمِنْ إِخْوَانِنَا مَنْ غَابَ فَارْحَمْ  
وَمَنْ هُمْ فِي مَجَامِعِنَا حُضُورُ  
وَهَذَا الْعِيدُ فَاجْعَلْهُ سَعِيدًا  
يَعُودُ عَلَى الدَّوَامِ بِهِ السُّرُورُ  
وَبَلَّغَهُ الْمُؤَمَّلَ فِي بَنِيهِ  
وَقَبَّرَ الْمُصْطَفَى الْهَادِي يَزُورُ  
عَلَيْهِ صَلَاةُ رَبِّي كُلَّ حِينٍ  
وَتَسْلِيمٌ تُنَالُ بِهِ أَجُورُ  
كَذَلِكَ الْآلُ وَالْأَصْحَابُ طُرًّا  
وَمَنْ بِسَنَاءِ سُنَّتِهِ يَسِيرُ  
وقال الأديب الكاتب أحمد سميّة :  
إِنْ رُمْتَ ذِكْرًا فِي الْمَوَاطِنِ يُحْمَدُ  
وَعَلَّاكَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ يُخْلَدُ

(1) يشير إلى أن صحيح البخاري بدؤه : (باب كيف كان بدء الوحي) . مع أن الشهر الذي ختم فيه كان بدء الوحي في 17 منه كما في كتب السيرة.



فَالزَّمْ تَقَارِيرَ الْعُلُومِ وَكُنْ بِهَا  
مُتَوَلِّعًا فَهِيَ الْمُنَى وَالْمَقْصِدُ  
لَا سِيَّمًا عِلْمَ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ  
نُورٌ بِهِ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ تَسْعَدُ  
/ فَذَوُو الْجَلَالِ تَوَاضَعَتْ لِجَلَالِهِ  
وَذَوُو الْكَمَالِ لَهُ تَقَرُّ وَتَشْهَدُ  
وَبِهِ الْمَدَارِسُ وَالْدَّرُوسُ تَشْرَفَتْ  
شَرَفًا يَقُومُ لَهُ الزَّمَانُ وَيَقْعُدُ  
مَا لَاحَ مِنْهُ سَنَا الْهُدَى فِي مَجْلِسِ  
إِلَّا وَنِيرَانُ الضَّلَالَةِ تَخْمَدُ  
مَنْ بِالْبُخَارِيِّ لَا ذَنْبًا حِمَايَةً  
وَسِيَادَةً مِنْهَا الْإِسَاءَةُ تَبْعُدُ  
فَلِكُلِّ شَيْءٍ نَافِعٌ فَاسْأَلْ بِهِ  
مَا شِئْتَ رَبًّا فَضْلُهُ لَا يُجْحَدُ  
حَرَسَ الْإِلَهِ ابْنُ الْحُسَيْنِ بِفَضْلِهِ  
وَحِمَاةُ حَتَّى مَا بِسُوءٍ يُقْصَدُ  
وَأَعَانَهُ وَأَطَالَ مُدَّةَ مُلْكِهِ  
وَأَنَالَ الْأَمَالَ وَهُوَ مُؤَيَّدُ  
وَكَسَاهُ ثَوْبًا كَامِلًا مِنْ سِتْرِهِ  
وَأَدَامَ نِعْمَتَهُ لَهُ تَتَجَدَّدُ  
لَا زَالَ يُبْدِي كُلَّ عَامٍ هَكَذَا  
بِحَدِيثِ خَيْرِ الْخَلْقِ نُورًا يُوقَدُ  
لَمَّا تَجَلَّى فِي الْجَلَالِ خِتَامُهُ  
أَرْخَتْهُ : (خَتَمٌ جَلِيلٌ يُحْمَدُ)

وقال أيضا :

يَا خَالِيَّ عِلَّائِي بِيَوْمٍ  
مَا دَرَيْتُ السَّرُورَ فِيهِ لِأَمْرِ  
حَدَّثَانِي بِوَأَصِلَ عَنْ عَطَاءٍ  
ذَكَرَ أُنْبِيَّ الْحَدِيثَ فِيهِ بِوَصْلٍ  
يَارَعَى اللَّهُ لِلْإِمَارَةِ خَتَمًا  
أَيَّ بَدْءٍ بَدَأَ الْأَمِيرُ وَيَوْمٍ  
هُوَ لِلْخَلْقِ بِنَهْجَةٍ وَأَنْتِظَامُ  
هُوَ فِي الْحَالِ بِقِطْعَةٍ أَمْ مَنَامُ  
يُنْبِتُ الزَّهْرَ طَلَّاهُ وَالْغَمَامُ  
هَاجَنِي بِالْحَدِيثِ عَنْهُ الْغَرَامُ  
فَهُوَ لِلْمُلْكِ عِزَّةٌ وَدَوَامُ  
حِينَ أَرَخْتُ : (فِيهِ جَاءَ الْخِتَامُ)

وقال أيضا :

بُشْرَى لِبَيْتٍ بِهِ آيُ الْهُدَى اتَّصَلَتْ  
وَعَنْ جَوَانِبِهِ الْأَذْكَارُ مَا انْفَصَلَتْ  
بِهِ شُمُوسُ عُلُومِ الدِّينِ مُشْرِقَةً  
فِي كُلِّ يَوْمٍ مَدَى الْأَيَّامِ مَا أَفَلَتْ  
حَدِيثُ أَحْمَدَ خَيْرِ الْخَلْقِ بِنَهْجَتِهِ  
فِي الدَّرْسِ مِنْ حُسْنِهَا شَمْسُ الضَّحَى خَجَلَتْ  
فَسِيرُهُ سَارَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ فَمَنْ  
دَعَا إِلَهَ بِهِ حَاجَاتُهُ حَصَلَتْ  
مَنْ أَمَّ أَبْوَابَهُ لِبَّاهُ مَقْصِدُهُ  
وَالْمُشْكِلَاتُ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ سَهَلَتْ  
طُوبَى لِمَنْ بَتَعَاطِيهِ لَهُ شَغَفٌ  
وَتَفَنُّهُ بَسَنًا عَلَيْهِ اشْتَغَلَتْ  
مَا لَا ذُو أَلَمٍ يَوْمًا بِجَانِبِهِ  
إِلَّا وَآلَامُهُ عَنْ جِسْمِهِ اعْتَزَلَتْ  
/ إِذَا تَوَجَّهَ سُلْطَانٌ لَهُ وَجَرَتْ  
بِالْعَدْلِ أَحْكَامُهُ أَيَّامُهُ اعْتَدَلَتْ



مَجْرَبٌ لِنُزُولِ الْغَيْثِ . مَرْئِيَّةٌ  
 إِذَا دَعَا النَّاسُ مَوْلَاهُمْ بِهِ نَزَلَتْ  
 يَا مَنْ لَهُ فِطْنَةٌ فَاقَ الْمُلُوكَ بِهَا  
 وَهِيمةٌ فَعَلَتْ مَا زَانَهَا فَعَلَتْ (1)  
 وَمَنْ سَجِيَّتُهُ طَابَتْ وَسِيرَتُهُ  
 عَلَى الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْبِرِّ قَدْ جُبِلَتْ  
 وَمَنْ لَهُ خُلُقٌ فِي الْخُلُقِ مُتَدَحٌّ ،  
 وَمَنْ مَكَارِمُهُ كُلُّ الْوَرَى شَمِلَتْ  
 لَكَ الْهِنَاءُ بِأَنْوَارِ الْحَدِيثِ عَلَى  
 جَمَالِ وَجْهِكَ كَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ جَلَتْ  
 حَلَّتْ بِقَلْبِكَ لَمَّا جَلَتْ رَوْضَتُهُ  
 هِدَايَةٌ مِنْهُ مَا زَالَتْ وَمَا انْتَقَلَتْ  
 بِفَضْلِهِ زَانَكَ الْمَوْلَى وَصَانَكَ . لَا  
 تَخْشَى الْإِسَاءَةَ فَالْأَسْوَأَ قَدْ ارْتَحَلَتْ  
 دَامَتْ أَبَا الْحَسَنِ الْبَاشَا سَعُودَكَ فِي  
 طَوْعٍ بِهِ كَلَّمَا أَمَرْتَهَا امْتَشَلَتْ  
 فِي يَوْمٍ خَتَمَ الْبُخَارِي حَالِ تَهْنئة  
 أَرخ : (أَحَادِيثُ صَبَحِ الْأَنْبِيَا كَمَلَتْ)

### [الحكمة الخلقية واثرها في السياسة]

وَمِنْ حِكْمَتِهِ الْخُلُقِيَّةِ سِيَاسَتُهُ لِأَهْلِ مَنَزَلِهِ وَأَهْلِ بَلَدِهِ وَمَمْلَكَتِهِ  
 — إِذْ ذَاكَ دَاخِلٌ فِي مُسَمَّاهَا كَمَا مَرَّ .

(1) فعلت الأولى من الفعل ، والثانية : الفاء فيها سببية وعلت من العلو .

فَأَمَّا سِيَاسَتُهُ لِأَهْلِ مَنَزَلِهِ فَقَدْ أَخَذَهُمْ بِمَا أَخَذَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ . وَالْمَحَافِظَةِ  
 عَلَى الصَّلَوَاتِ . وَالْأَذْكَارِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي الْمَصَاحِفِ . وَقِرَاءَةِ دَلَائِلِ  
 الْخَيْرَاتِ . وَالرَّحْمَةِ لَخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ . وَكَثْرَةِ الصَّدَقَاتِ  
 وَالْإِحْسَانِ . فَبِكُلِّ دَارٍ مِنْ دِيَارِهِ الْعَامِرَةِ صَدَقَاتٌ رَاقِبَةٌ لِنِسَاءِ مَسْتُورَاتِ ،  
 جَارِيَةٍ عَلَيْهِنَّ عَلَى الدَّوَامِ سِيَائِي تَفْصِيلُهَا — دُونَ مَا لَيْسَتْ بِرَاقِبَةٍ مِمَّا لَا يَحْصُرُهُ  
 الْعَدَدُ — وَكَفَالَةِ الْيَتَامَى وَتَرْبِيَّتِهِمْ وَتَرْوِيحِهِمْ إِذَا بَلَغْنَ أَمَدَ ذَلِكَ ، وَتَجْهِيزَهُنَّ  
 بِأَحْسَنِ الْجِهَازِ مِمَّا يُجَهِّزُ بِهِ ذَوُو الْبُيُوتَاتِ بَنَاتَهُمْ . هَذَا هُوَ الدَّأْبُ ، لَا تَخْلُو  
 دَارٌ مِنْ دِيَارِهِ الْعَامِرَةِ مِنْ عِدَّةٍ يَتَامَى يَفْعَلُ بِهِنَّ مَا ذَكَرْنَا ، إِلَى قَبُولِ الشَّفَاعَةِ  
 فِي أَهْلِ الْجَرَائِمِ . وَالتَّوَسُّطِ لَطُلَّابِ الْحَاجَاتِ وَالْأَرْزَاقِ فَتَجْرِي عَلَى أَيْدِيهِمْ  
 بِذَلِكَ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ .

وَلَقَدْ اعْتَنَى بِتَهْذِيبِ أَبْنَائِهِ السُّعْدَاءِ — حَفِظَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى — وَتَقْوِيمِهِمْ فِي  
 صُغُرِهِمْ فَضَمَّنِي إِلَيْهِمْ سِتَّةَ وَثَمَانِينَ لِتَعْلِيمِهِمُ الْعِلْمَ الشَّرِيفَ . فَشَرَعُوا  
 يَقْرَأُونَ عَلَيَّ الْعَرَبِيَّةَ وَضُمَّ إِلَيْهِمْ إِمَامُهُ الشَّيْخُ الْأَجَلُّ الْفَاضِلُ أَبُو مُحَمَّدٍ حَمُودَةُ  
 ابْنِ بَاكِيَرٍ يَعْلَمُهُمُ الْفِقْهُ عَلَى مَذْهَبِهِمُ الْحَنْفِيَّ الزَّكِيَّ . وَعَلَيْهِمْ مِنْ مَخَائِلِ  
 الرِّئَاسَةِ . وَأَمَارَاتِ الْإِقْبَالِ . وَعَلَامَاتِ الشَّجْدَةِ . وَالشَّهَامَةِ . وَالْكَرَامَةِ .  
 وَعُلُوِّ الْهَمَةِ . وَكِبَرِ النَّفْسِ . مَا أُبْرَزَهُ الْغَيْبُ . وَفِيهِمْ أَقُولُ إِذْ ذَاكَ مِنْ جُمْلَةِ  
 قَصِيدَةٍ سَتَأْتِي بِتَمَامِهَا — إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى — فِي مَحَلِّهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ (1) .

وَمَا ضَاهَاكَ فِي كَرَمٍ وَمَجْدٍ سِوَى أَبْنَائِكَ الشَّمِّ الْفَخَامِ  
 / رُوَيْدًا يَبْلُغُونَ الْخُلُقَ تَنْظُرُ عِدَاكَ تُصَابُ بِالْمَوْتِ الزُّوَامِ  
 سَتَبْصُرُهُمْ إِذَا رَكِبُوا وَسَارُوا تَضِيقُ الْأَرْضُ بِالْجَيْشِ الْأَهَامِ  
 فَدُمْتَ لَهُمْ وَدَمُوا كَالشَّرِيَا نِظَامًا مَا تَدَاعَى لَانْفِصَامِ  
 وَلَا زَالَ الْحَسُودُ لَهُمْ وَفِيهِمْ يَبِيتُ عَلَى فِرَاشٍ مِنْ ضِرَامِ

وَلَقَدْ عَوَّدَ ابْنَهُ الْأَسْعَدَ الْمَصُونُ مَوْلَانَا مُحَمَّدَ الْمَأْمُونِ — أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى —  
 أَنَّهُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ أَعْطَاهُ جُمْلَةً مِنَ الدَّنَانِيرِ وَيَأْمُرُهُ

(1) محلها بالقامة الحميرية الآتية في ختام هذا الجزء .



بتثريتها فيهم حتى صار د يند ناله . وذلك من سياسته . أيده الله تعالى . لما رأى  
طبعه الكريم مائلا إلى الجود والسخاء جرّاه على ذلك بتعويده متابعة  
العطاء للفقهاء وغيرهم . حتى جاء أكرم من السيل . ولما تأهل كبيرهم  
وأفضلهم مولانا أبو محمد حمودة باشا - نصره الله تعالى - لإمارة . وكان  
خليقا لها وأهلها ومحلها .

ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

قلّده قوّد الأجناد ، وإمرة العساكر . وقوّض إليه أمر الجبايات . فقام  
بأعباء ذلك أتم قيام . حسبما شرحنا الخبر عن ذلك فيما مرّ .

وأما سياسته لأهل بلده وأهل مملكته فقد سار فيهم سيرة لم يسلكها أحد  
من أهل هذه الأعصار . من لين الجانب . وسهولة الحجاب والعفو عن  
الجرائم . والصفح عن الزلات . والكف عن الدماء والمحام . ورفع  
الظلمات . والتفقد لأحوال الضعفاء . وسدّ خللتهم . واستمالة القلوب  
بالإحسان . والأخذ من القوي للضعيف . والتزام أحكام الشريعة المظهرّة .  
وحمل الكافة من الخاصة والعامة عليها فيما يجري بينهم من المعاملات . لا  
فرق في ذلك بين وزير مقرب . وصعلوك مستضعف . وبلغ بلين الجانب  
والرفق والحلم مبلغا [من طاعة الرعية وانتظام أحوالهم . وأمن طرقاتهم .  
وصيانة أموالهم ما] (1) لم يبلغه غيره بشدّة سطوته . وثقل وطأته .  
وسيّاتي كثير مما يتعلق بهذا الفصل في الكلام على بيان حلمه وعفته وكرمه .

ولما استقرّ أخوه المولى محمد باي - رحمه الله تعالى - على سرير المملكة بتونس  
بعد علي باشا ورآه قد أرهف حدّه للانتقام من أعداء الدولة قال له :  
« إنك إن حملت الناس على طاعتك بشدّة السطوة لم تصنع شيئا لأن  
علي باشا قد سلك هذه الطريق قبلك وبلغ الغاية منها فان قفوت أثره  
قصرت عنه لا محالة ، وجرأت الناس عليك فاترك ذلك . واسلك طريق  
الإحسان إلى الناس واستمالة قلوبهم بالتودّد إليهم فانك تبلغ ما تريد منهم

(I) الزيادة من : ز . ح .

مع حسن السمعة وجميل الثناء والسلامة من عقاب الله تعالى . فعلم صواب  
قوله وعفا عن الناس كافة . فلما ملك مولانا - أدام الله ملكه - بعده سلك  
هذه الطريق . وبلغ فيها الغاية التي ما وراءها غاية كما هو مشاهد بالعيان  
ومنتول بالتواتر .

## [بسطة عن نظام القضاء]

56]

أما إقامة الشريعة وإجراء أحكامها وتنفيذها على كل أحد / والوقوف عند  
حدودها في جميع ما يجري بين الناس في الدماء والقصاصات والأنكحة  
وسائر العقود والمعاملات . فأمر اختصّ به المغرب عن سائر البلاد ،  
واختصّت به إفريقية عن سائر المغرب ، فلا تجد بلدا تقام به مراسيم الشريعة  
إقامتها بالمملكة التونسية من لدن عهد المولى الأمير (1) - رحمه الله تعالى -  
فقد كانت القضاة ترد من الحضرة العثمانية - حرسها الله تعالى - ولا همّ  
لهم إلاّ جمع الدراهم لأنهم يلتزمون بها التزاما بالمال لطلب الفائدة كما هو  
الشان في سائر المملكة العثمانية (2) . ثم يرهقون الناس بما يأخذونه منهم  
على ما يكتبونه من الأحكام في الرسوم المحتاجة إلى حكم القاضي وعلى  
قسم التركات بين الورثة بل على مجرد موت مورثهم واستحقاقهم  
الميراث ، وعلى غير ذلك من الأمور المتوقّفة على تنفيذهم . فلمّا رأى  
المولى الأمير كثرة عسفهم وتناولهم إلى أموال الناس حدّ لهم حدودا  
ردّهم إليها فيما يأخذونه على تنفيذ أحكامهم على حسب القضايا لا  
يتجاوزونها إلى ما فوقها ، وكان ذلك غير مجحف بالناس . ومع ذلك  
ففصل القضايا وإجرائها على مناهج الشرع . مفضّض إلى قاضي  
الجماعة المالكي . والمفتين من المالكية والحنفية . ولا تصرف لأولئك  
القضاة إلاّ في تنفيذ ما يحكم به هؤلاء المتصدّرون لإقامة مراسيم الشريعة .

(1) يعني به حسين بن علي والد المتحدث عنه .

(2) هذا مظهر من مظاهر الانحطاط في تركيا سري مفعوله الى ممتلكاتها في ذلك العصر  
يحدث بالدارس ان يلاحظه .



واستمر الأمر على ذلك بقية دولته . وصدرنا من دولة عليّ باشا . فطلب من الدولة العلية إبطال هؤلاء القضاة الواردين من قبلها . فأجيب إلى ذلك . وأقام قاضياً حنفياً من قبله . نفذ الأحكام . أحد أهل البلد ، ورسم له أن لا يأخذ من أحد شيئاً إلا ريالاً وربع الريال على ما يكتبه بخطه من الأحكام في الرسوم ليس غير . واتصل ذلك إلى دولة مولانا - أدامها الله تعالى - فأبطل أخذ الدراهم على الحكم جملة . ومنع القاضي الحنفي من ذلك - سواء كتب الحكم بخطه أو لم يكتب . وعاقب من بلغه عنه منهم أنه يأخذ على ما يكتبه . واعتنى بأحوال القضاة والمفتين باحثاً عن سرائرهم . متبعا لما يصدر عنهم من الأحكام . وعزل جماعة منهم لم يحسنوا السيرة . واستبدل بهم غيرهم . وباشر فصل القضايا الشرعية بنفسه الكريمة في مجلسه العلي . فإن القانون بالحضرة - حرسها الله تعالى - أن يجلس القاضيان الحنفي والمالكي بالمحكمة الشرعية كل يوم من ارتفاع الشمس إلى قرب الزوال . ومن بعد صلاة العصر إلى قرب الغروب . فيمضيان ما خفف خطبته من القضايا ويرسلان بما أشكل عليهما إلى المفتين من المذهبين فيقضون فيه . وما أعضل أمره من القضايا يبقى إلى يوم المجلس . وهما مجلسان أحدهما يقع عشي الأحد عند مولانا - أيده الله تعالى - بقصره من باردو - صانه الله تعالى - يحضره المفتون والقضاة قاضيا الحضرة الحنفي والمالكي / وقاضي باردو . ولا تنفصل القضايا فيه إلا على وجهها . وقد يقع الخلاف بين الأشياخ في القضية . أو يشكل عليهم وجه الحق فيها . فيؤخرون القضاء فيها إلى أن يظهر لهم الوجه . فربما ترددت القضية الواحدة الأشهر العديدة حتى تنفصل على صميم الحق . أو على صالح يرتضيه الخصمان . ومولانا - أيده الله تعالى - يشاركهم في النظر ويتفهم المسائل على وجهها فلا تنفصل القضية إلا وهو عالم بوجه الحق في انفصالها . والمجلس الثاني يقع ضحى يوم الخميس بمحكمة الداي لا يتخلف عنه إلا قاضي باردو . ثم لما رأى مولانا - سدد الله رآيه - كثرة الخصومات وتشعبها زاد مجلسا ثالثا يوم الثلاثاء بالمحكمة الشرعية . وإذا حضر الخصمان

[ 56 - ب ]

محكمة القاضي في غير المجلس وحكم على أحدهما وطلب الحضور لدى مجلس من المجالس أجابه إلى ذلك . ولا ينفذ الحكم عليه إلا في المجلس - اللهم إلا أن يكون الحكم من الواضحات التي لا لبس فيها أصلا - وهذا كله لتحري العدل والإنصاف فيما بين الناس . لأنه يبعد كل البعد اتفاق ستة أو سبعة من العلماء - قد تخيروا من بين سائر علماء البلد علما ودينا - على الجور عمدا أو خطأ . ثم إذا توجهت دعوى على أحد كائنا من كان - ولو كان من أخص الوزراء - ألزم بالحضور لدى الشرع . فإن كان ميمنا يتحاشى عن الخصام بنفسه أقام نائبا ، فإن ثبت الحق عليه أعطاه . ولقد حضر رجل يوما مجلس مولانا الشرعي ووجه عليه - أعزه الله تعالى - دعوى شرعية وطلب منه النصف بمقتضى الشرع . فأقام - أيده الله تعالى - وكيفا في المجلس ناب عنه في الخصام مع الرجل . وأدلى كل واحد منهما بحجته . فكان الحق لمولانا ولم يثبت لذلك الرجل حق . فقال - أيده الله تعالى : « وددت لو كان الحق له فأعطيته إياه » .

وأما حكمه الصادر منه - أيده الله تعالى - في قضاائه بين رعاياه . وتنفيذه لأمر ملكه . وإبرامه لمصالح مملكته فله في ذلك طريقة غريبة ليست لأحد من الملوك غيره . من جلوسه العام للخاصة والعامة . وسهولة حجابه - بل تركه جملة فلا يصد عنه أحد رام الدخول إليه - وإصغائه لكل متظلم . وأخذ النصف من كل ظالم في جميع ما يجري بين الرعايا . واستمرار ذلك كل يوم على الدوام لا يكاد يتخلف يوما واحدا .

ولندكر ترتيب أحواله اليومية المندرج فيها ما ذكر زيادة في الفائدة . فنقول : قد جرت عادته - لا قطعها الله تعالى - أن يوصل كل يوم الصبح في الوقت جماعة يؤمته إمامه . ويشهدا معه الفقهاء الذين تكون نوبتهم في المبيت عنده ومماليكه ومؤذنه . ثم بعد الانصراف من الصلاة والفراغ من الدعاء يسلمون عليه وينصرفون فيجلس للذكر وقراءة الورد إلى أن تمضي ساعة من النهار أو نحوها . فيخرج إلى محكمته السامية . فإذا



استقر على كرسية دخل عليه خاصة وزراءه فيقبلون يده ويأخذون موافقهم .  
ثم يأذن لباقي الناس ويفعلون فعل من قبلهم / من تقبيل يده والوقوف .  
ولا يجلس في محل الحكم إلا الكتاب فإنهم يجلسون على مصاطب معدة  
لهم مترتين . ثم إن كان هناك وفود من العرب أو من أعيان الحواضر  
دخلوا فقبلوا يده وانصرفوا . فإذا تم سلام الناس عليه طيف عليهم  
بصحون الحلواء . وبعدها فناجين القهوة . ثم ينادي رئيس الحانية :  
(يا سعد) وذلك علامة على الإذن في دخول المتظلمين وأهل الشكايات فلا  
يحجب عنه فقير مستضعف . ولا شيخ عاجز . ولا امرأة قاعدة . ولا  
بدوي جاف . فينهي كل أحد ظلامته ويتكلم كيف شاء بذات  
صدره من غير زجر ولا إزعاج . ورئيس الحانية واقف بين يديه يتلقى  
كلامهم . فما كان من الظلمات ظاهر الحكم متكرر الأمثال نقّذه من غير  
استئثار . وغيره يأمر فيه مولانا - أعزه الله تعالى - بأمره . والكتاب  
يكتبون ما يصدر منه من الأحكام إلى العمّال ورؤساء النواحي . وقد أذن  
- أيده الله تعالى - لجماعة من النساء ثمان أو نحوهن أن يدخلن كل يوم إلى  
محكمة السامية فيبلغن إليه ظلمات من لا يستطيع الإبلاغ من المسجونين  
والنساء المخدّرات وغيرهم من كل من يمنعه من الحضور بنفسه  
مانع . وقد اشتهر أمر هؤلاء النسوة وعرفهن الناس . فهم يقصدونهن  
بحاجاتهن . ويظفن كل يوم على السجون لتلقي حاجات أهلها . وقد  
حصل لهن تمرن على إنهاء الظلمات وكيفية أدائها . ونقضى على  
أيديهن حاجات لا تكاد تقضى على أيدي الوزراء . ويحصل لهن بذلك نفع  
واكتساب من الناس . ومع ذلك فهو - أيده الله تعالى - يتفقدن بصدقاته  
وقتا بعد وقت . ومن الغريب أنه لا يحجب عنه إذا جلس في مجلس الحكم  
السؤال الطالبون للصدقات فيدخل عليه كل يوم من يدخل منهم ويقف بين  
يديه في صورة المشتكي من الضرورة والحاجة . فيأمرهم أن يجلسوا في  
زاوية من زوايا المحكمة حتى إذا اجتمعوا قرب انفصاله عن الحكم أتاهم  
مملوك صغير فيفترق فيهم ما أمر لهم به . ولا يزال جالسا بمجلس حكمه

ينفذ أوامره إلى أن لا يبقى مشتاك ولا صاحب ظلامة . وقد يطول ذلك  
حتى ينضجر أهل المحكمة من الوقوف . فإذا لم يبق أحد نادى رئيس  
الحجاب : (العافية) رافعا بها صوته . وذلك علامة على انتهاء الحكم .  
فتنصرف الناس . وينهض هو - أعزه الله تعالى - من مجلس حكمه . فيطوف  
على ديار أهله ثم يخرج إلى مكان من أماكن جلوسه فيستدعي خاصة كتابه  
فيجلسون ويسرد عليه أحدهم جميع ما كتب في ذلك اليوم من الأوامر  
والتذاكر . وهو يصغي إليه يسمع كل ما فيها فيجيز منها ما وافق الحكم  
والصواب . ويأمر بتمزيق ما خالف ذلك . ويلقي طابعه المبارك إلى صاحب  
الطابع فيطبع ما أجز منها وتفرق على أصحابها . ثم يؤتى بالغداء وذلك  
عند الزوال فيتغدى معه جماعة عشرة فما دون / من خاصة كتابه وبعض  
خدامه وأكابر الأعراب فياسطهم ويقرب بيده إلى كل واحد منهم ما  
يعرف أنه يشتهي من الألوان . وربما انتهى أحدهم اللّون من الطعام فلا يكون  
حاضرا فيأمر أن يصنع له من الغد ويقربه إليه . فإذا انقضى الغداء  
انصرفوا . فيدخل إلى محل استراحته فينام قليلا . ثم يفيق فلا يدخل إليه أحد  
إلا من كانت له حاجة مهمة . أو يستدعيه هو . إلى أن تبقى ساعة للعصر  
فيتوضأ ويستدعي الإمام والفقهاء أصحاب نوبة المبيت فيصلّون الظهر ثم  
يجلسون لقراءة صحيح البخاري . فإذا فرغوا من ذلك صلوا العصر لأول  
الوقت وانصرفوا .

وقد جرت العادة في جميع الممالك العثمانية - حرسها الله تعالى - بضرب  
النوبة بعد العصر . وهو قانون قديم من عهد السلطان عثمان جد هؤلاء  
السلّاطين - أدام الله دولتهم - وأول قائم منهم . وذلك أنه لما انحاز إلى  
ناحية الروم في قضية طويلة ومعه جيش من التركمان استأذن السلطان  
غياث الدين السلجوقي صاحب بلاد الروم في غزو الكفار . فأذن له في  
ذلك فغزاهم وافتتح قلعة قولنج . وقلعة إينه كول . وأرسل بذلك  
إلى غياث الدين . فسره ذلك وقتلده ولاية إسكي شهر ونواحيها .  
وما افتتحه من بلاد الكفر . وأرسل إليه بالخلع السلطانية والرايات والكوسات



والطُّبُول وغيرها من آلات النُوبة . فانتهى إليه ذلك عند صلاة العصر .  
فقام قائما على قدميه تعظيما للأمر . وضربت النُوبة على بابه وهو قائم .  
فاستمرت نوبة العصر في آل عثمان إلى يومنا هذا . قد اتخذوها قانونا لهم  
ولجميع عُمَّالهم . وكان ذلك سنة تسع وتسعين وستمائة (1300/699) وهي  
مبدأ ملكهم . ثم لم يزل أمر السلطان عثمان وبنيه بعده يعلو وأمر الدولة  
السلاجوقية ببلاد الروم يَضعف . إلى أن تَمَلَّكُوا البلاد وكان منهم ما هو  
مشهور . فإذا فُرِغَ من نوبة العصر بباب مولانا — أدام الله سعاده — جلس بيته  
المسماة بيت الباشا لديوان العصر . فدخل عليه خاصته وأتباعه فيقفون بين  
يديه صَفَّين إلا الكُتَّاب يجلسون على عاداتهم في أعلى البَهِو . فيطاف عليهم  
بفناجين القهوة . ثم قد يَفْصَلُ في هذا المجلس بعض القضايا التي لم يحضر  
المطلوب فيها زمن الحكم . وفي يوم الأحد يكون الديوان بحضور المفتين  
والقضاة لفصل القضايا الشرعية . فحين يدخلون عليه يقوم لهم قائما على  
قَدَمَيْهِ تعظيما لهم فيسلمون عليه ويقبلون كتفه فينحني لكل واحد منهم  
ويضمُّه بيده . ولا يأذن لهم في تقبيل يده — إجلالا وتعظيما للعلم وتواضعا —  
بل لا يأذن في ذلك لغيرهم من العلماء بل بعضهم يقبل كتفه وبعضهم يصافحه  
مصافحة . ثم يجلس فقهاء الحنَفِيَّة عن يمينه والمالِكِيَّة عن يساره بأعلى  
/ البَهِو ويؤذَنُ للخصوم في الدُخُول . ويشرعون في القضاء إلى قرب المغرب .  
ويبيتون عنده تلك الليلة لا يحضرها غيرهم حتَّى الإمام بل يؤمُّه أحدُهم .  
وبعد انقضاء ديوان العصر يَطُوفُ عَلَى دِيَارِهِ الْعَامِرَةِ أيضا . ثم يخرج  
فيستدعي مَنْ يريد إن شاء . فإذا دخل وقت المغرب استدعى إمامه والفقهاء  
فيصلُّون لأوَّلِ الوقت ويخرُجون فيجلس للذكر وقراءة الورد إلى وقت  
العشاء . فيستدعي الإمام والفقهاء أيضا . فيجلسون معه للمُسامرة والقراءة  
كما تقدَّم إلى أن تمضي قِطْعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ أربع ساعات أو خمس أو أقل من  
ذلك أو أكثر بحسب ما يقتضيه المجلس . ثم ينهض فيجدد الوضوء ويخرج  
إليهم فيُصلُّون العِشاء الأخيرة وينصرفون إلى مضاجعهم . هذا هو الدَّأْب

[58 — أ]

في الحَضَر والسَفَر حتى لا يَشْرَكَ فِي أَيَّامِ الزِّيَارَةِ وَالْخَلَاعَةِ إِلَّا فِي  
النادر مِنِ الْأَيَّامِ لعروض ركوب أو نحوه .

وأما ترتيب العيد فقد جَرَّتْ العادة بِالْإِحْتِفَالِ لَيْلَتِي الْعِيدَيْنِ فيحضر  
أهل الدولة جميعا عَشِيَّةَ ليلة العيد وبعض الفقهاء فإذا صَلَّيْتُ الْمَغْرِبَ مُدَّةَ  
السَّمَاطِ بأنواع الأَطْعِمَةِ ونفائس الألوان فيجلس مولانا — أعزه الله تعالى — في  
الصَّدر ويجلس معه جميع الحاضرين ، فإذا طَعِمُوا انْتَشَرُوا ، ثُمَّ تَجْلِسُ  
طبقة أخرى دون الأولى في الرُّتْبَةِ فإذا فَرَّغُوا جَلَسَتْ طبقة أخرى ، وهكذا  
إِلَى أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا طَعِمَ ، حتى تنتهي النُوبةُ إلى السائلين فيخرج  
إليهم بالصحاف مملوءة طعاما . ثم بعد بُرْهَةٍ يجلس — أيده الله تعالى — بِبَهِوِّهِ  
ويجلس عن يمينه وعن شماله الْفُقَهَاءُ وَالْكَتَّابُ ، ويقف حوله الْخَوَاصُّ  
من أصحابه . وَيَصْطَفِّ بِأَيْ النَّاسِ صَفَّيْنِ عن اليمين وعن الشمال وقد  
أوقدت الشَّمْعَ ، وَأَتَيْتِ بِالْمَسْجَمِ فِيهَا الطَّيِّبُ الْمُسَمَّى بِطَوَابِعِ  
الْعَنْبَرِ المصنوع من العنبر والعود والزَّبَادِ وَالْمِسْكِ الغريب الرائحة الذي لا  
يُصْنَعُ إِلَّا بِتُونِسَ فيما علمنا . يحملها غُلَّامَانِ الْفَرَنْجُ ، ولا ينقطع ذلك  
إلى تمام المجلس . ثم يَدْخُلُ الْمُغَنُّونَ مِنَ التُّرْكِ بِآلاتِهِمْ التُّرْكِيَّةِ فيُغَنُّونَ  
بلسانهم التُّرْكِيَّ بُرْهَةً ثم يقومون . فيدخل بعدهم الْمُطَرِّبُونَ وَالْمُغَنُّونَ  
بِالْغِنَاءِ الْعَرَبِيِّ فيضربون على آلاتهم البديعة وَيُغَنُّونَ بُرْهَةً أيضًا ، ثم  
ينفض الموكب وينهض — أعزه الله — إلى محلِّ خَلَوَاتِهِ ويستدعي أهل سَمَرِهِ  
من الْفُقَهَاءِ وَالْكَتَّابِ فيجلسون معه ويخلع عليهم ويُفيض إحسانه لديهم .  
هذا والنُوبة تدقُّ بِمَكَانٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الْقَصْرِ اللَّيْلِ كُلَّهُ ، فإذا أصبح الصُّبْحُ  
خرج إلى صلاة الصُّبْحِ ثُمَّ يجلس بِبَهِوِّهِ ويجلس حوله المذكورون  
ويؤتَى بأنواع الْحَلَوِيَّاتِ الْمُلُوكِيَّةِ فيأكلون معه ويشربون القهوة . ثم ينهض  
إلى صلاة العيد فيخرج من قصره في ترتيب عجيب والنُوبة تدق خلفه حتى  
يدخل الجامع فيصلِّي في المقصورة المُعَدَّةَ لَهُ . ثم يخرج فيجلس على  
كُرْسِيِّهِ بِمَحْكَمَتِهِ السَّامِيَّةِ فيسلم عليه وزرَّاءُهِ وَخَوَاصُّهُ وَكُلُّ مَنْ  
/ شَمِلَتْهُ بَارِدُو المعمورة فلا يَتَقَضَّى سَلَامُهُمْ حَتَّى تَصِلَ أَعْيَانُ النَّاسِ

[58]



من الحضرة من الفقهاء وأكابر البلد . فإذا التقى سلامهم وصار له كرسي  
بأعلى درج البرج فيخرج ويجلس عليه . ويأتي البلهوانات المضارعون  
فيتصارعون أمامه وهو ينظر إليهم . - عادة قديمة للترك - ثم يدخل إلى قصره  
فيدخل إليه المفتون والقضاة فيسلمون عليه ويختصون بذلك المجلس ترفيعا  
لهم عن مساواة غيرهم . وفي اليوم الثاني يصل عامة أهل البلد مع مشايخها  
ثلاث طوائف : فأهل المدينة مع شيخ المدينة . وأهل ربض باب السويقة  
مع شيخهم . وأهل ربض باب الجزيرة مع شيخهم . وفي اليوم الرابع يصل  
إليه الداي في الاختيارية والجاوشية . فإذا دخلوا عليه قام لهم قائما فيقبل  
الداي كتفه ويده ويقف . ثم تقبل الاختيارية يده وهو قائم . فإذا فرغوا  
جلس وأجلس الداي إلى جانبه وأمر الباقي بالجلوس . ثم يقبل الجاوشية  
يده وهو جالس ثم يعيد السلام عليهم وهم جلوس فيحيونه رافعين أصواتهم  
بالدعاء بلسانهم التركي فترتفع لهم بذلك ضجة ثم يطاف عليهم بالأشربة  
في صحاف الصيني والبلور والفضة ثم يفتاحين القهوة . ثم يطيبون  
بماء الورد المكرر ومجامر الطوايع وينصرفون .

وللشعراء مدائح عيدية تُنشد ليالي الأعياد بحضرته - أيده الله تعالى -  
نذكر منها ما يليق أن يُثبت في هذا الموضع . فمن ذلك قول الأديب البارع  
علي الغراب الصفاقي :

يا مَلِيكَأُثْنْتُ عَلَيْهِ الْإِيَادِي  
عَادَ كُلُّ بِهَآ كَقَسِّ الْإِيَادِي (١)  
عِشْ هَنِيئًا لِكُلِّ عِيدٍ مُعَادٍ  
وَأَسْمُ عِزًّا وَدُمُ لِيَوْمِ الْمَعَادِ  
مَنْ بَعِيدٍ غَدَا يُهْنِيكَ هَنًا  
بِكَ عِيدَ الْوَرَى وَكُلَّ الْبِلَادِ

(١) قس بن ساعدة بن عمرو خطيب العرب وحكمها ومضرب أمثالها في الفصاحة.

إِنَّمَا الْعِيدُ بَيْنَ أَيَّامِ الْأَعْوَا  
مِ كَمَثَلِ الْأَمِيرِ بَيْنَ الْعِبَادِ  
ذِي الْمَعَالِي عَلِيَّ بْنَ حُسَيْنٍ  
مَلِكٌ سَارَ فِي طَرِيقِ الرَّشَادِ  
مَنْ تَحَلَّى بِحُلِيِّ عِلْمٍ وَحِلْمٍ  
وَبِرَائٍ مُقَارِنٍ لِلِسَدَادِ  
بِكَ كُلُّ الرَّمَانِ وَالْعِيدِ يَهْنَأُ  
وَبِأَنْجَالِكَ السَّرَاةِ النَّجَادِ  
هُمْ تَسَاقَوْا لِبَانَ ثُدْيِ الْمَعَالِي .  
وَتَمَاشَوْا عَلَى ظُهُورِ الْجِيَادِ  
كُلُّهُمْ سَيِّدٌ زَكِيٌّ ، كَرِيمٌ .  
شَامِخٌ مَجْدُهُ ، طَوِيلُ النَّجَادِ  
بِهِمُ الْمُلْكُ يَسْتَرِيدُ عُلُوءًا  
وَأَمْتِدَادًا بِهِمْ لِيَوْمِ التَّنَادِ  
حَرَسَ اللَّهُ مَجْدَهُمْ وَعُلَاهُمْ  
مِنْ طُرُوقِ الرَّدَى وَكَيْدِ الْأَعَادِ  
/ يَا مَلِيكَأُثْنْتُ عَلَيْهِ الْمُلُوكَ بِعِلْمٍ  
وَبِنَقْدِ (١) سَمَا عَلَى النَّقَادِ  
وَخِصَالِ حَمِيدَةٍ وَأَيَادِ  
قَصْرُهَا عَنْ عُلَاهُ بِالْإِفْرَادِ  
أَنْتَ رِيَّ الصَّدَى ، مُفِيضُ الْعَطَايَا ،  
أَنْتَ بَحْرُ النَّدَى ، كَثِيرُ الرَّمَادِ

(٢) في ذ : وبفكر .



أَنْتَ مُرْدِي الْعِدَى (١) جَمِيلُ الْمَزَايَا  
 أَنْتَ رَحْبُ الْفِنَا . رَفِيعُ الْعِمَادِ  
 مَنْ يَرُمُ نَيْلَ وَصْفِ عِزِّكَ يَغْدُو  
 فِي انْتِقَاصٍ وَنَيْلُكُمْ فِي ازْدِيَادِ  
 فَضْلُكُمْ عَمَّ كُلِّ دَانٍ وَقَاصٍ  
 وَاسْتَوَتْ فِيهِ حُضْرٌ وَبَوَادِي  
 لَيْسَ كُلُّ امْرِئٍ حَوَاهِ لِمَدْحٍ ،  
 أَوْ لِعِلْمٍ لَدَيْهِ . أَوْ إِنْجَادِ  
 غَيْرِ أَتَى حُرْمَتُ لَا مِنْهُ بَلْ مِنْ  
 سُوءِ حَظٍّ مُقَارِنٍ لِسَوَادِ (٢)  
 إِنْ يَجْدُ لِي الزَّمَانُ سَهْوًا يَنْزُرُ  
 مِنْهُ تَمَنُّعُهُ غَيْرَةُ الْحُسَادِ  
 خِلْتُ أَنَّ الْآدَابَ خَيْرُ صَدِيقٍ  
 فَانْجَلَتْ عَنْ عِدَاوَةٍ وَكَسَادِ  
 عَجَبُ لِلزَّمَانِ عَنِّي جَمُوحُ  
 وَلِكُلِّ الْأَنَامِ سَهْلُ الْقِيَادِ  
 فَقِدَ الْحُرُّ . كُلَّمَا جِئْتُ أَشْكُو  
 خَطْبَ دَهْرٍ كَمَشْتِكَ لِجَمَادِ  
 لَكِنَّ الْعَبْدَ لَمْ يَزَلْ بِجَمِيلٍ  
 وَائِقًا مِنْكَ جَازِمَ الْاِعْتِقَادِ  
 لَا تُخَيِّبْ رَجَاءَ رَاجِي رِضَاكُمْ  
 فَرِضَاكُمْ أَرَاهُ جُلَّ اِعْتِمَادِي

(١) جمع لا نظير له .

(٢) كذا بجميع النسخ ولا يستقيم به ما عنده الشاعر من حرمان بسبب وحشة لقبه . وأقرب  
 إصلاح يتمشى مع الأصل : غير أني حرمت منه . إلى . من سوء حظ الخ . . .

لَا بِرَحْمَتٍ لِلْخَلْقِ مُورِدَ فَضْلٍ  
 كَعَبَةٍ الْأَمِلِينَ وَالْقُصَادِ  
 فَرَّ بِأَجْرِ الصِّيَامِ . وَاهْنًا بَعِيدٍ  
 لِلْأَعَادِي مُفْطَرٍّ الْأَكْبَادِ  
 بَلْ بِكَ الْعِيدُ وَالْأَنَامُ تَهْنَأُ  
 كُلُّ يَوْمٍ بِالْأَمْنِ وَالْإِسْعَادِ  
 قَائِلًا كُلُّ وَاحِدٍ لَكَ أَرْخُ :  
 (بِكَ ذَا الْعِيدِ أَبْرَكَ الْأَعْيَادِ)

وقال الأديب الكاتب أبو العباس أحمد سمية :

هَنِيئًا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُعَلَّى  
 أَتَاكَ مُبَشِّرًا بِدَوَامِ مُلْكٍ  
 يُصَاحِبُكَ الْهَنَاءُ زَمَنًا طَوِيلًا  
 جَلَسْتَ عَلَى مَنْصَتِكَ ابْتِهَاجًا  
 إِذَا مَا لَاحَ وَجْهُكَ مِثْلَ شَمْسٍ  
 فَعِيدُ الْعِيدِ أَنْتَ . وَمَنْ تَعَادِي  
 / فَمَنْ كَابَنَ الْحُسَيْنِ أَبَانَ حُسْنًا  
 لَهُ فِي السَّنِ الْمُدَّاحَ رَوْضُ  
 فَتَقَبَّلْتَ الْعُلَا يَدَهُ وَقَالَتْ :  
 تَزَاحَمَتِ الشَّفَاهُ عَلَيْهِ حَتَّى  
 عَلُوكَ يَا عَلِيَّ طَوِيلُ بَاعٍ ،  
 سُرُورُ الْعِيدِ طَابَ فَأَرْخُوهُ :  
 بَعِيدُ فِيهِ إِشْرَاقٌ وَنُورُ  
 عَلَيْهِ حِمَايَةُ الْمَوْلَى تَدُورُ  
 وَتَنْتِجُ فِي مَصَالِحِكَ الْأُمُورُ  
 كَدَانُكَ فَوْقَهَا قَمَرٌ مُنِيرُ  
 تَغِيبُ بِحُسْنِ طَلْعَتِكَ الْبُدُورُ  
 تُعَادِيهِ الْمَوَاسِمُ وَالْدُّهُورُ  
 بِهِ الْأَعْوَامُ تَحْسُنُ وَالشُّهُورُ  
 نَضِيرُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ  
 يَدُ قَبْلَتُهَا فِيهَا بُحُورُ  
 غَدَتُ بِاللَّثَمِ تَفْتَحِرُ الثُّغُورُ  
 وَبَاعُ سَوَاكَ فِي الْعَالِيَا قَصِيرُ  
 (بَعِيدُ النَّحْرِ طَابَ لَكَ السُّرُورُ)

وقال أيضا :

قَلْبِي يَمِيلُ إِلَى الْجَمَالِ إِذَا بَدَأَ  
 وَبِحَرِّ نِيرَانِ الْغَرَامِ تَعَوَّدَا



حتى رأيت غزالة فتانة  
 أيقنت أن غرامها سبب الردى  
 لما نظرت لها - وحياتها الحيا -  
 عاد اللجين بوجنتيها عسجدا  
 سكرت بخمرة ريقها فتأودت  
 تيهًا كغصن بالنسيم تأودا  
 كل امرئ ذي عفة وتنسك  
 متهما رأى منها النهود تنهدا  
 بفتوره عجبًا تعربد جفنها  
 فاعجب لجفن بالفتور تعربدا  
 لمحبتها فيما يريد - حقارة -  
 تبدي مخالفة ، وتخلف موعدا  
 لما سعت بالجور في إهماله  
 حكم السائل بعذله فترشدا  
 كم بات يرشد للهداية قلبه :  
 لولا علي بن الحسين لما اهتدى  
 ملك خصال الحمد فيه تجمعت  
 وعلى الملوك تفرقت فتفردا  
 أعزى القلوب من المخافة أمنه  
 ومن السرور المحض البسها ردا  
 حلاه بالعز المجمل عدله  
 فأذل من جورا على الناس اعتدى  
 فالتقو شيمته يراه كأنه  
 رحم له ، ما فيه قط ترددا

في وجهه روض البشاشة يانع ،  
 حسن . وفي كفيه أنهار الندى  
 وكلامه تهوى المسامع وصله  
 وحسامه يهوى مواصلة العدى  
 أجرى على صعب المسائل لبه  
 فغدا سبيل المشكلات متهدا  
 ما جال في أمر عوبص رأيه  
 إلا وبالرأي السديد تسددا  
 فالزمه إن هزته مطربة الرضا ،  
 واحذره إن هز القنا وتهددا  
 / في طبعه لين ، وفي أخلاقه  
 طيب ، وكل منهما يجلو الصدى  
 يا أيها الحكم الذي أحكامه  
 حكم ، وفي الحكم أضحى مفردا  
 جملت بها الدنيا كأنك حليها ،  
 وزهت لمن قد راح فيها أو غدا  
 والسعد مبتسما أذاك كأنه  
 رق رقيق الطبع لاقى سيذا  
 وزمان من والاك أصبح أبيضاً ،  
 وزمان من عاداك أمسى أسودا  
 والعيد ليس له سواك من الورى  
 عيد فزاد به علاك تأيدا  
 تحيى إلى أمثاله إذ أرخوا :  
 (بالخير عاد العيد يا ملك الهدى) (1)

(1) حساب التاريخ سنة 1175 على اعتبار الألف الينة في الهدى بواحد حسب المنطوق لا المكتوب  
 خلافا للقاعدة . وسمية محافظ على هذا الاعتبار .



وقال أيضا :

هَنِيئًا لَكَ الْإِيَّامُ وَأَفْتَكُ بِالْمَجْدِ  
وَعِيدُ الْأَصَاحِي أَمْ مَالِكَكَ بِالسَّعْدِ  
يُؤَافِقُكَ الْإِقْبَالُ فِي كُلِّ مَا تَشَاءُ  
وَيَأْتِي بِهِ طَوْعًا مِنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ  
تَغَارُ مِنْ الْأَرْضِ السَّمَاءُ لَأَنَّهُمَا  
رَأَتْكَ بِهَا بَدْرًا مِنَ الْحُسْنِ فِي بُرْدِ  
وَتَحْسُدُ أَفْوَاهُ الْأَنَامِ نُجُومُهَا  
لِتَقْبِلِيهَا الْبَحْرُ الَّذِي مِنْكَ فِي الْأَيْدِي  
إِلَى بَيْتِكَ الْمَعْمُورِ مَهْمَا تَوَجَّهْتَ  
مَحَامِلُ أَهْلِ الْفَضْلِ تُكْرَمُ بِالرَّفْدِ  
وَفِي عَرَفَاتِ الْغَرْبِ لِلنَّاسِ وَقْفَةٌ  
يَفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَدَاكَ شَدَا النَّدَى  
وَكَفَّكَ مَا طَافَتْ بِكَعْبَةٍ جُودُهُ  
عُفَاةُ الْوَرَى ، إِلَّا وَتَظْفَرُ بِالْقَصْدِ  
تَفَرَّدَتْ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَقَدْ بَدَتْ  
خِصَالُ كَمَالٍ مِنْكَ جَلَّتْ عَنِ الْعَدَى  
وَلَيْسَ عَلَى الرَّحْمَانِ جَلٌّ جَلَّالُهُ  
بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْخَلْقَ فِي فَرْدِ  
يُهَنَّا بِكَ الْعِيدُ الَّذِي أَنْتَ عِيدُهُ  
وَأَنْتَ تَهْنَأُ بِالْمَكَارِمِ وَالْمَجْدِ  
وَلَمَّا أَتَاكَ الْعِيدُ قُلْتُ مُؤَرَّخًا :  
(أَتَى لِعَلِّي الْعِيدُ بِالْعِزِّ وَالسَّعْدِ)

وقال أيضا :

تَبَدَّى فَرَّاحُ الْوُرْدِ يَشْكُو مِنَ الْخَدَى  
وَمَاسَ فَلَاحُ الْغُصْنِ خَصْمًا مَعَ الْقَدَى  
غَزَالُ إِذَا مَا الطَّبَّيُّ شَاهَدَ جِيدَهُ  
وَمُقْلَتَهُ أَبْدَى التَّدَلُّلَ كَالْعَبْدِ  
تَغَارُ ذُكَا مِنْ حُسْنِهِ ، وَهُوَ فِي الْحَشَا  
وَتَحْسُدُهُ الْأَقْمَارُ مُذْ كَانَ فِي الْمَهْدِ  
عَلَيْهِ مِنَ الْحُسْنِ الْبَدِيعِ مَهَابَةِ  
فَمَنْ رَامَ وَصْلًا مِنْهُ وَأَفَاهُ بِالْصَدَى  
تَغْيِيرُهُ مِنْ لِينِهِ نَسْمَةُ الصَّبَا  
وَأَحْشَاؤُهُ كَالْمَرُورِ وَالْحَجَرِ الصَّلْدِ  
/ فَيَعْدُبُ لِي تَعْدِيبُ نِيرَانِ حُبِّهِ  
وَمُرُّ غَرَامِي فِيهِ أَحْلَى مِنَ الشُّهْدِ  
إِذَا مَا رَنَا أَنْسَاكَ هَارُوتَ لَحْظُهُ  
وَأَنْسَاكَ حَدَّ السَّهْمِ وَالصَّارِمِ الْهِنْدِي  
فَمَا فِيهِ عَيْبٌ غَيْرَ خَمْرَةٍ رِيقِهِ  
تُعَاطِيكَ قَبْلَ الشَّرْبِ رَائِحَةَ النَّدَى  
صَفَا ثَغْرُهُ مِنْ صَفْوَةِ الدَّرِّ مِثْلَمَا  
صَفَا بَاطِنُ الْبَاشَا عَلَيَّ مِنَ الْحَقْدِ  
سَلِيلُ حُسَيْنِ الْبَيِّ أَظْهَرَ سِيرَةٍ  
مُحَسَّنَةٍ ، فِيهَا رِضَى الْحُرِّ وَالْعَبْدِ  
بِهِ تَوْنِسُ الْخَضِرَاءُ رَاقَتْ وَأَصْبَحَتْ  
تَقُولُ افْتِخَارًا : تَاجُ هَامِ الْعُلَا عِنْدِي



أَيْسَمِعُ إِنْسَانٌ بِحَسَنِ صَانِعِهِ  
وَيَبْدُو لَهُ مِنْ غَيْرِهِ مِثْلُ مَا يَبْدُو ؟  
إِذَا كَانَ حُكَّامُ الْوَرَى عَقْدَ لَوْلُو  
بِجِدِّ الْمَعَالِي فَهَوَ وَاسِطَةُ الْعِقْدِ  
وَلَوْ كَانَ مَا يُعْطِيهِ غَيْثًا لَمْ تُطْرَقْ  
سَمَاءٌ بِهِ مِنْ غَيْرِ بَرْقٍ وَلَا رَعْدٍ  
وَحِيدٌ مِنَ الْأَشْبَاهِ . مُفْرَدٌ دَهْرُهُ  
فَمَا مَلَكَ ضَاهَاهُ فِي مَنْهَجِ الْحَمْدِ  
إِذَا وَعَدَ ابْشِيرُ فَاَلْمُؤَمِّلُ نَاجِحٌ .  
يَجِيئُكَ مَحْمُولًا عَلَى كَاهِلِ الْوَعْدِ  
مَلِيكَ لَهُ فِي الْحِلْمِ أَرْفَعُ رُتْبَةً  
وَأَوْفَى مَقَامٍ فِي الْمَوْافَاةِ بِالْعَهْدِ  
تَقُولُ الْعُلَا : هَذَا الَّذِي -- دُونَ غَيْرِهِ --  
نَكَسَتْ لَهُ رَأْسِي حَيَاءً مِنَ الْمَجْدِ  
مَنْ السَّتْرُ لَا يَغْرَى مَدَى الدَّهْرِ فِي الْوَرَى  
كَسَيْفِ جَبَانٍ لَيْسَ يَغْرَى مِنَ الْغَمْدِ  
فَأَبْرَزْتُ نَظْمِي فِي مَدَائِحِ فَضْلِهِ  
وَلَوْلَاهُ لَمْ أَبْرِزْهُ مِنْ بَاطِنِ الْخُلْدِ  
وَحَقَّ مَعَالِيهِ . حِسَانُ قَلَائِدِي  
مِنْ الدَّرِّ مَا حُطَّتْ سِوَاهُ عَلَى فَرْدٍ  
مُحْيَاهُ مِحْرَابِي وَنَفْلِي دُنُوهُ .  
وَخِدْمَتُهُ فَرَضِي . وَأَمْدَاحُهُ وَرْدِي .  
أَيَا مَنْ لَا يَبْحُرُ فِكْرِي عِنْدَهُ  
وَلَوْلُو بَحْرِي رَاحَتِي فَضْلِهِ عِنْدِي

كَسَوْتُكَ مِنْ نَسْجِ الْحَجَبِ حُلُلَ الثَّنَا  
وَتُوبُ الْمَعَالِي . فَكَسَنِي ثُوبُكَ الْجَعْدِي  
أَتَى الْعِيدُ وَالْإِقْبَالُ قَالَ مُؤَرَّخًا :  
(أَبَا الْحَسَنِ اطْرِبْ . طَنْ عِيدُكَ بِالسَّعْدِ)  
وَلَا يَخْفَى مَا فِي لَفْظَةِ طَنْ مِنَ الرَّاكَةِ وَالْغَثَاثَةِ . عَلَى أَنَّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذِهِ  
الْقَصِيدَةِ مَجَالًا لانتقاد الناقد .

وقال أيضا :

أَعْيَادُ مُلْكِكَ هَكَذَا بِكَ زَاهِيَّةُ  
وَبِحَسَنِ طَلْعَتِكَ الْبَهِيَّةِ بَاهِيَّةُ  
فَطَرَّ بِعِيدِ الْفِطْرِ أَكْبَادُ الْعِدَا  
وَأَنْحَرَّ بِعِيدِ النَّحْرِ قَوْمًا بِأَغْيَةِ  
فَسَنَّاكَ لِلْعِيدِ ابْتِهَاجٌ وَأَضِحُ  
لَمْ يَخْفَ بَارِقُهُ كَشَمْسٍ ضَاحِيَّةُ  
/ أَيَّامُ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ كُلُّهَا  
لِلنَّاسِ أَعْيَادُ حِسَانُ ضَاوِيَّةُ (1)  
يُحْيِي الْخَلَائِقَ صَفْوَهَا بِمَوَاسِمِ  
وَبِكَ الْمَوَاسِمِ فِي الْخَلَائِقِ صَافِيَّةُ  
فَاهِنًا وَطَبُ نَفْسًا . وَقَرَّ بِمَا تَشَا  
عَيْنًا . وَدُمُ فِي عَيْشَةٍ لَكَ رَاضِيَّةُ  
إِنَّ اللَّيَالِي بِالْمُنَى قَدْ أَشْرَقَتْ  
وَأَنْتَ بِأَيَّامِ الْهِنَا وَالْعَافِيَّةُ

(1) كلمة ضاوية عامة فيبحة قلبت المعنى المراد لأن الضوى في اللغة الفصيحة : الميزال والضمور،  
والشاعر أراد بها الاضاءه وهو مما يدل على قصوره.



تَمْ يَا أبا النَحْسَنِ الرِّضَا . وَأَفِيقْ . وَقُمْ .  
 وَأَقْعُدْ . وَسِرْ . وَأَقِمْ . فَلَآتِكَ نَاجِيَةٌ  
 لَا زِلْتَ مِنْ عِظَمِ الْمَهَابَةِ بِاسْمِهَا  
 وَعِيدَاكَ مِنْ أَلَمِ الْكَاتِبَةِ بِأَكْبِيَةٍ  
 تِهِ نَخْوَةٌ بِالْعِزِّ فِي رَحْبِ الْعُلَا .  
 وَأَطْرَبْ . وَهَبْ لِلْمَجْدِ نَفْسًا زَاكِيَةً  
 فَالْحِفْظُ حَفَّكَ وَالْأَمَانُ مُصَاحِبُ  
 لَكَ . وَالسَّلَامَةُ بِإِحْتِمَائِكَ لَا هِيَّةُ (١)  
 إِنْ رُمْتَ سَعْدًا سَامِيًا وَمُؤَرَّخًا :  
 (فَالْعِيدُ أَقْبَلَ مَعَ سُعُودِ سَامِيَةٍ)

وقال أيضا :

الْعِيدُ أَقْبَلَ فِي بَدِيعِ جَمَالِهِ  
 فَأَضَاءَ فَوْقَ سَمَاكَ بَدْرُ كَمَالِهِ  
 وَالْيَمْنُ جَاءَكَ فِي سَنَا بَرَكَاتِهِ  
 بِطَوِيلِ عِزٍّ فِي مَدِيدِ جَلَالِهِ  
 لَكَ أَيُّهَا الْبَاشَا عَلُوُّ الْمُلْكِ فِي  
 عَلَيَّائِهِ . أَهْدَى نَفِيسٍ وَصَالِهِ  
 وَلِسَانُ حَالِ الْعِيدِ قَالَ مُبَشِّرًا :  
 يَبْقَى إِلَى الْأَعْيَادِ مَعَ أَنْجَالِهِ  
 لَا زِلْتَ تُحْيِي بِالْهَبَاتِ مَوَاسِمًا  
 وَتُمِيتُ ذَا حَسَدٍ بِسَيْفِ نِكَالِهِ  
 أَبْقَاكَ لِلْخَلْقِ الْإِلَهُ وَأَنْتَ فِي  
 رَوْضِ السُّرُورِ مُمْتَعًا بِظِلَالِهِ

(١) لعلها : آتية.

دَامَتْ لَكَ الْأَيَّامُ فِي إِشْرَاقِهَا  
 وَالْدَّهْرُ دَامَ عَلَيْكَ فِي إِقْبَالِهِ  
 صُنْ يَا كَرِيمُ ابْنِ النُّحُسَيْنِ وَهَبْ لَهُ  
 مِنْكَ الْهِنَا . وَاجْمَعْهُ مَعَ آمَالِهِ  
 مَلِكٌ كَسَاهُ الْعَدْلُ ثَوْبَ مَهَابَةٍ .  
 وَأَذَاقَ طَعْمَ الشَّهْدِ مِنْ أَقْوَالِهِ  
 عِيدُ الْأَضَاحِيِّ فِيهِ قَدْ نَالَ الْوَرَى  
 شَرْفًا بِلِثْمِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ  
 قَبَّلَتْ رَاحَتَهُ فَقُلْتُ مُؤَرَّخًا :  
 (دُمْ عَادِلًا تَحْيَى إِلَى أَمْثَالِهِ)

وقال أيضا :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُطَاعُ وَمَنْ لَهُ  
 مُلْكٌ بِأَفْوَاهِ الْمَعَالِي ضَاحِكُ  
 فَاهِنًا بِعِيدِ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :  
 (عِيدٌ أَتَى بِالسَّعْدِ وَهُوَ مُبَارَكُ)

/ وقال :

عِيدُ الْأَضَاحِيِّ فِي بَدِيعِ جَمَالِهِ  
 وَأَفَاكَ مُبْتَسِمًا بِطِيبِ وَصَالِهِ  
 لَمَّا أَتَاكَ بِيَمْنِهِ وَبِأَمْنِهِ  
 أَلْفَى عَلَيْكَ السَّعْدُ ثَوْبَ جَلَالِهِ  
 فَاطْرَبَ وَتِهِ بِالْعِزِّ فِي رَحْبِ الْهِنَا  
 وَاجْنِ الْمُنَى . فَالْدَّهْرُ فِي إِقْبَالِهِ  
 صُبْحُ الْمَسْرَةِ فِي مَقَامِكَ مُشْرِقُ  
 فَعَدَا بِهِ كَالْبَدْرِ فِي إِكْمَالِهِ



عِشْ سَالِمًا مِنْ جُرْأَقِ الْأَسْوَاءِ فِي  
رَوْضِ الْأَمَانِ مُنْتَعِمًا بِظِلَالِهِ  
فَلَكَ الْمَفَاخِرُ يَا أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا  
بِعَظِيمِ مُلْكِهِ لَمْ يَزَلْ عَنْ حَالِهِ  
لِلْعِيدِ إِشْرَاقٌ يَزِيدُكَ بَهْجَةً  
بِسَنَا مُحْيَاةٍ وَفَرَطٍ جَمَالِهِ  
فَاهْنَأْ بِهِ إِذْ جَاءَ فِي تَارِيخِهِ :  
(تَبْقَى بِإِجْلَالٍ إِلَى أَمْثَالِهِ)

وقال :

تَعِيشُ إِلَى أَمْثَالِ عِيدِكَ فِي الْهِنَا  
وَتَتَطَفَّرُ فِي عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ وَالْمُنَى  
بِثَالِثِ عِيدِ الْفِطْرِ قُلْتُ مُؤَرِّخًا :  
«لَقَدْ خَلَّفَ الْعِيدُ - الدَّوَامَ - لَكَ الْهِنَا»  
وَمِمَّا يُنَاسِبُ هَذَا تَوَارِيخُهُ فِي تَهْنِئَاتِ تَحْوِيلِ الْعَامِ فَمِنْهَا  
قوله :

وَأَفَاكَ عَامُ الْيُمْنِ بِالْبَرَكَاتِ .  
وَالسَّعْدُ سَاعِدٌ . وَالزَّمَانُ مُوَاتِي  
وَالْوَقْتُ مُبْتَسِمُ الْمُحْيَا مُشْرِقُ  
بِسَنَا الْهِنَا صَافٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ  
بِكَ كُلِّ أَرْضٍ - سِرَتْ فَوْقَ ثَرَابِهَا -  
سَعِدَتْ . وَأَنْتَ سَعِدْتَ بِالْأَوْقَاتِ  
يَا مَنْ تَرَفَّعَ قَدْرُهُ وَسَمَا عَلَى  
كُلِّ الْمُلُوكِ بِأَرْفَعِ الدَّرَجَاتِ

يَا مَنْ لَهْ سَنَدٌ قَوِيٌّ فِي الْعُلَا  
عَنْ وَالِدٍ يَرُويهِ خَيْرُ رَوَاةٍ  
أَقْبَلَ إِلَى مَا تَشْتَهِي مِنْ حَاجَةٍ  
فَيُؤَمِّكَ الْإِقْبَالَ بِالْحَاجَاتِ  
اللَّهُ أَوْدَعَ فِيكَ نُورَ فِرَاسَةٍ  
فَتَكَادُ تُخْبِرُنَا بِمَا هُوَ آتِي  
أَصْبَحْتَ فِي وَجْهِ الْفَضَائِلِ غُرَّةً  
يَجْلُو سَنَاها غِيْهَبَ الظُّلُمَاتِ  
أَبْقَاكَ رَبُّكَ لِلْأَنَامِ مُؤَيِّدًا  
وَحَمَاكَ - إِكْرَامًا - مِنَ النَّكَبَاتِ  
مَا أَنْشَدَ النُّجَبَاءُ قَوْلَ مُؤَرِّخٍ :  
(أَسْعِدْ بَعَامٍ هَلَّ بِالْبَرَكَاتِ)

وقوله في هذه السَّنة :

يَا مُفْرَدًا جَمَعَ الْكَمَالَ وَمَالَهُ  
فِي الْحِلْمِ مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ مُشَارِكُ  
قَدْ أَقْبَلَ الْعَامُ السَّعِيدُ فَأَرِّخُوا :  
(عَامٌ عَلَيْكَ كَمَا تُرِيدُ مُبَارَكُ)

/ وقوله :

أَوْقَاتُ دَهْرِكَ فِي سُرُورٍ صَافِيَةٍ  
وَالْعَامُ أَقْبَلَ بِالْهِنَا وَالْعَافِيَةِ  
نَتَجَتْ مَقَاصِدُكَ الَّتِي أَمَلْتَهَا .  
وَمَقَاصِدُ الْأَعْدَاءِ أَضَحَّتْ بِأَلِيهِ  
الآنَ جَاءَ السَّعْدُ وَالنَّحْسُ انْتَفَى :  
لَوْ تَطَلَّبُ الدُّنْيَا لَجَاءَتْ حَافِيَةٍ



فَالنَّصْرُ مُنْتَشِلٌ لِجَيْشِكَ طَائِعٌ .  
يَعُصِي الْبَغَاةَ ذَوِي النَّفُوسِ الْغَالِيَةِ (1)  
مَهْمَا اتَّجَهْتَ لِمَا أَرَدْتَ تَلَالَاتُ  
شَمْسُ السَّلَامَةِ فِي سَمَاءِ سَامِيَةٍ  
لَمْ تَسْمَعْ إِلَّا مَا يَسُرُّ ، وَلَا تَرَى  
إِلَّا الَّذِي يُرْضِي ، وَتَنْفُسُكَ زَاهِيَةٍ  
لَكَ كُلَّ يَوْمٍ يَا عَلِيُّ مَسْرَّةٌ .  
وَلِكُلِّ بَاغٍ مِنْ جِيُوشِكَ غَازِيَةٍ  
قَرَّتْ بِعَيْنِ الْأَمْنِ عَيْنُكَ فَرَحَةً  
وَوَدَّتْ عُيُونُ ذَوِي الْخِيَانَةِ بَاكِئَةٍ  
عَمَرْتَ مَنَازِلَكَ الْعَلِيَّةُ بِالْهَنَا .  
وَمَنَازِلُ السُّفَهَاءِ عَادَتْ خَالِيَةٍ  
مَا هَمَّ خَاطِرُكَ النَّقِيُّ بِحَاجَةٍ  
إِلَّا وَتَأْتِي بِاعْتِنَائِكَ شَافِيَةٍ  
لَمَّا أَتَى عَامُ الْهَنَا أَرْخَتْهُ :  
(عَامٌ تَجَلَّى فِي سَمَاءِ الْعَافِيَةِ)

وقوله :

فُتِحَتْ عَلَيْكَ بِمَا تَشَاءُ بِلَا عَنَا  
بِمَفَاتِيحِ الْإِقْبَالِ أَبْوَابُ الْهَنَا  
فَوَضَّتْ لِلْأَقْدَارِ أَمْرَكَ كُلَّمَا  
أَمَلَّتْهُ تَلَقَّاهُ سَهْلًا لَيْنًا  
نَادَيْتَ سَعْدَكَ ، وَالزَّمَانُ مُسَاعِدٌ .  
فَأَجَابَ : سَلْ مَا شِئْتَهُ فَلَهُ أَنَا

(1) لعلها : الغاوية .

أَجْرَى الْكَلَامَ عَلَى لِسَانِكَ طَبِيبُهُ  
وَلِنَشْرِ طِيبِ ثَنَّاكَ أَجْرَى الْأَلْسُنَا  
وَمُلُوكُ غَرْبِ الْعَالَمِينَ وَعُجْمِيهَا  
أَفْوَاهُهَا صَارَتْ لِدِكْرِكَ مَسْكِنَا  
إِنْ كَانَتْ الْأَمْرَاءُ بَدْرًا أَوْ ذُكَا ،  
فَعَلَيْ بَاشَا ابْنِ الْحُسَيْنِ هُوَ السَّنَا  
نَهَرٌ مِنَ الْمَعْرُوفِ يَغْرِفُ مِنْ نَأَى  
مِنْ فَيْضِهِ الْمَعْرُوفِ ، أَحْرَى مِنْ دَنَا  
لَوْ حَلَّ فِي مَاءٍ أَجَاجٍ طَبْعُهُ  
لَحَلَا ، وَفِي حَجَرٍ لَأَضْحَى لَيْنَا  
لَوْ مَرَّ بِالشُّجَارِ وَهِيَ عَرِيَّةٌ  
لَكَسَا بِأَوْرَاقٍ شَدَاهُ الْأَغْصَنَا  
تَتَنَشَّقُ الْأَمْرَاءُ طِيبَ ثَنَائِهِ  
فَكَأَنَّهُ لَهُمُ الشِّفَاءُ مِنَ الضَّيِّ  
وَأَكَابِرُ الْعُلَمَاءِ تَشْهَدُ أَنَّهُ  
بِيَدِ الذِّكَاةِ مِنَ الْعُلُومِ تَمَكَّنَا  
بَدَتْ لَهُ الْأَيَّامُ وَهِيَ سَنِيَّةٌ  
بِسَنَاهُ فِي أَفْقِ الْهَنَا شَمْسُ الْمُنَى  
/ وَهَوَاتِفُ الْإِقْبَالِ فِي عِلْيَانِهِ  
تَشْدُو : نَجَا مَنْ بِالْإِلَهِ تَحَصَّنَا  
لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ السُّرُورُ ، وَلِلْعَدَا  
حُزْنٌ . فَلَيْسَ لَهُ دَوَا إِلَّا الْفَنَا  
لَمَّا أَتَى الْعَامُ الْجَدِيدُ تَجَدَّدَتْ  
حُلُلُ الْهَنَاءِ بِهَا بَقِيَتْ مُزِينَا

[2]



فَلِذَاكَ قُلْتُ مُبَشِّرًا وَمُؤَرِّخًا :

(عَامُ السُّعُودِ أَتَى . فَلَاحَ لَكَ الْهَمْنَا)

وَقَالَ الْفَقِيهَ الْمُشَاوِرُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَهَّابِ الطَّوَيْسِيُّ الْقَيَّرَوَانِيُّ - وَكَتَبَ بِهَا إِلَيْهِ مِنَ الْقَيَّرَوَانِ . وَذَكَرَ الْيَالِيَّ الَّتِي كَانَ يَشْهَدُهَا بِمَجْلِسِهِ السَّامِيِّ وَتَشَوَّقُ إِلَيْهَا - وَهِيَ رِسَالَةٌ تَشْتَمِلُ عَلَى نَثْرِ قَبْلِ الْقَصِيدَةِ وَأَوَّلِهَا : «حَرَسَ اللَّهُ تَعَالَى حَضْرَةَ الْكَمَالِ ، وَمَطْمَحَ الْحَاضِرِ ذَوِي الْأَمَالِ ، وَمَلَكُوتَ شِفَاهِ الْأَقْيَالِ ، وَمَطْلَعَ شَمْسِ السَّعَادَةِ وَالْإِقْبَالِ ، وَبَهَاءَ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ ، وَمَنْعَ الْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعَ الْإِفْضَالِ ، مِنْ شَرِّ الْكَائِدِ ، وَحَسَدِ الْحَاسِدِ ، وَمِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، وَلَا زَلْتَ سَمَاءٌ لِبَدُورِ الْأَعْلَامِ ، وَثَوَاقِبِ الْأَفْهَامِ ، وَرَوْضَةِ زَاهِرَةِ بَازْهَارِ الْعُلُومِ ، وَاجْتِنَاءِ ثَمَارِ الْمَنْطُوقِ مِنْهَا وَالْمَفْهُومِ ، حَضْرَةَ مَوْلَانَا الْمَلِكِ الْكَامِلِ ، وَالْهَمَامِ الْهَزْبِيِّ الْبَاسِلِ ، وَالْقَيْلِ السَّمِيدِ الْجَحْجَاحِ الْحَلَّاحِ ، السَّامِيَّةِ مَنَاقِبُهُ ، الْهَامِيَّةِ مَوَاهِبُهُ ، الْعَذْبَةِ مَنَاقِبُهُ ، الْمَنْهَمِلَةِ بِصَافِي اللَّجَيْنِ وَالنُّضَارِ أَنْامِلِهِ ، الشَّامِيَّةِ مَعَالِيهِ ، الْمُشْرِقَةِ بِأَنْوَاعِ السَّرُورِ أَيْامِهِ وَلِيَالِيهِ .

مَلِكُكَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ مَنَاقِبُ

هِيَ الشَّمْسُ لَا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانٍ

لِيَالِيهِ أَبْيَامٌ . وَأَمَّا زَمَانُهُ

فَقَدْ فَاقَ فِي الْمَعْرُوفِ كُلِّ زَمَانٍ

الْأَلْمَعِيُّ النَّاقِدُ الْأَرِيبُ . الرَّامِي بِسِهَامِ فِرَاسَتِهِ إِلَى أَغْرَاضِ الضَّمَائِرِ فَيُقَرِّطِسُ وَيُصِيبُ . إِصَابَةً لَيْسَ فِيهَا لِيَاثُ نَصِيبُ .

إِذَا ظَنَّ لَا يُخْطِي كَأَنَّهُ ظَنُونُهُ

عَلَى مَا يَضِلُّ النَّاسُ عَنْهُ دَلَائِلُهُ

أَسْدَلَ عَلَى الْأَنْامِ أَمَانًا . وَغَمَّرَهُمْ عَفْوًا وَحِلْمًا وَفَضْلًا وَإِحْسَانًا ، حَتَّى أَمِنَ الْجُنَاةُ سَطْوَتَهُ ، وَالْجَفَاةُ جَفَوَتَهُ . بَلْ قَابِلٌ كُلًّا بِسَمَاحِهِ ، وَأَغْمَدَ فِي غِمْدِ الصَّفْحِ مَجْرَدَاتِ صِفَاحِهِ .

صَفُوحَ عَنِ الْجَالِي وَصَفْحَةَ سَيِّفِهِ

إِذَا هِيَ لَمْ تَقْتُلْهُ فَالْصَّفْحُ قَاتِلُهُ

حَلَّ رُتَبَ السُّؤْدَدِ وَالْمَعَالِي . وَحَلَّى بِلَالِي الْمَجْدِ أَجْيَادَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي . فَهُوَ الشَّامِيخُ الْهَيْمَمُ ، الْجَامِعُ بَيْنَ النَّجْدَةِ وَالْحَيَاءِ وَالْحِلْمِ وَالْكَرَمِ .

فَأَوْجَدْنَا الْمَعْدُومَ مِنْ حِلْمٍ أَحْنَفَ

وَنَجْدَةً بِسُطَامٍ وَمَوْهَبٍ حَاتِمَ

\*\*

/ وَلَيْسَ حَيَاءُ الْوَجْهِ لِلذُّبِّ شِيْمَةً

وَلَكِنَّهُ مِنْ شِيْمَةِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ

سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا الْبَاشَا عَلِيَّ بَايَ ، حَفِظَهُ اللَّهُ بِمَا حَفِظَ بِهِ السُّورَ وَالْآيَ ، ابْنُ الْمَلِكِ الْهَمَامِ . وَالْأَسَدُ الضَّرْعَامُ ، كَوَكَبُ الْفَخَارِ ، وَنَخْبَةُ الْأَمْرَاءِ الْأَخْيَارِ . الْمُنْعَمُ الْمَرْحُومُ . بِرَحْمَةِ مَوْلَانَا الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا حُسَيْنِ بَايَ - رَحِمَ اللَّهُ الْأَصْلَ وَبَارَكَ فِيهِ الْفَرْعُ ، وَسَدَّدَ أَحْكَامَهُ وَأَجْرَاهَا عَلَى مَنَهْجِ الشَّرْعِ - سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ يَتَضَوَّعُ نَشْرُهُ ، وَيَتَنَوَّعُ بِيْشْرُهُ ، وَلَا أَقُولُ كَأَنْفَاسِ النَّسِيمِ فَإِنَّهَا بَارِدَةٌ عَلَيْهِ . وَلَا كَأَزْهَارِ الرِّيَاضِ فَإِنَّ أَيْامَ مُقَامِهَا قَلِيلَةٌ . وَلَا كَصِرْفِ الْمُدَامِ فَإِنَّهَا غَيْرُ حَلَالٍ ، وَلَا كَالْمِسْكِ الْعَبِيقِ فَإِنَّهُ بَعْضُ دَمِ الْغُرَّالِ . وَلَا كَالْعَبْرِ وَالْغَالِيَةِ ، فَإِنَّهَا دُونَ أَنْفَاسِكُمْ الْعَالِيَةِ ، بَلْ أَهْدِي لَكُمْ سَلَامًا كَطِيبِ أَخْلَاقِكُمْ الْمُتَعَطَّرَةِ عَلَى الدَّوَامِ ، الشَّافِيَةِ بِأَنْفَاسِهَا الزَّكِيَّةِ مِنَ السَّقَامِ ، الْمُؤْنِسَةِ لِلْأَرْوَاحِ ، الْمُنْعِشَةِ لِلْأَشْبَاحِ ، الْمُثْمِلَةِ لِلْأَلْبَابِ بِغَيْرِ جُنَاحٍ . فَهِيَ السَّحَرُ الْحَلَالُ ، وَالْكُوْثَرُ الزَّلَالُ ، وَالرَّوْضُ الضَّافِي الظَّلَالُ ، الَّذِي لَيْسَ لِأَيَّامِ زَهْرِهِ مِنْ زَوَالٍ .

سَيِّدِي : الْأَطْيَارُ إِنَّمَا يُطْرَبُهَا الرَّبِيعُ . وَوَشْيُهُ الرَّائِقُ الْبَدِيعُ . فَتَرْهُي بِأَزْهَارِهِ . وَتُسْعَدُ بِزُلَالِ أَنْهَارِهِ ، وَتَخْطُبُ عَلَى مَنَابِرِ أَغْصَانِهِ ،



وتتفنن بأنواع من السجع على أفئدة . وتصيح بنسيمه الممطر .  
 ويصالح حالها الممطر . مع أن أيامه ربيع العام . وربيع حضرة مولانا  
 دائم الأيام . وروضتها زاهرة الأزهار . يانعة الثمار . بالأتجين والثمار .  
 تنزيم فيها أطيار العلوم والآثار . وتسمع فيها الألحان بفصيح (1) الأخبار ،  
 لا برنات الأوتار . وتمايل فيها أغصان الأفلام . في أكف الأعلام .  
 بنسمات الأفهام . وتدار فيها سلاف العلوم . لا سلافة بينت الكروم .  
 وفيها بلوغ الأمل . والشفاء الشافي من العلال . قد اتخذتها طيور الأوطار  
 أوطانا . تغدو لها خماصا وتروح ببطانا . فلا يدع أن خفق «الطويتر»  
 لها الجناح إذ لم يرتكب في ذلك الجناح . فهو ما خفق جوانحه . حتى  
 ملأ الشوق إليها حشاشته وجوانحه . سيما وقد تذكّر ما سلف له  
 في الحضرة من الليالي الأنيقة . وما شملتته من الطرائف الرشيقة .  
 والمعاني الرقيقة . والأوقات البهية . والأوقات الشهيية . والفكاهة  
 المستعذبة . والسمير بالأحاديث المطربة المستغربة . مع جلاء  
 أعلام . وجهابذة كرام . والجميع من إشراق محيا سيدنا . أدام الله  
 علاه . بين أنوار . ومن مؤانسته ومواساته في روضة ذات أزهار .  
 تارة نستفيد منها الأدب . والأنس والطرب . والفضة والذهب .  
 / وأخرى نهتدي بنبراس ذكائه إلى صوب الصواب . ويرشدنا إلى ما  
 خفي على الألباب . من معاني الخطاب . وأسرار الكتاب . فيصيح  
 في بحر بغواص الأنظار . فيستخرج جواهر الدر المختار . ويصطاد  
 شوارد العلوم . من مكان المنطوق والمنهوم . ويفتح ببدايته المجادل  
 والمسائل . عن مغلقات المعاني وعويصات المسائل . فإذا سنع  
 للعبد ذكر تلك الليالي والأيام . وما خول فيها من المنح العظام  
 والأيادي الجسام حيث..... (2) فأطار جناحه . وكساه ريشا . فأكسبه  
 انتعاشا ، فلم يفتقر فقره . ولا ابتز به بآزاه أو صقره . هنره

(1) في ز : بصيح .

(2) بياض بالأصل تقديره : حيث حقق الأمير نجاحه . فأطار جناحه إلى آخر الجملة الشرطية .  
 وجوابها هنره الخ .

لإلدام بالحضرة العلية التوق . وكاد أن يطير به إليها طائر الشوق . إلا  
 أنه ربما توهم سامة الترداد . إن هو أجرى النفس على المعتاد ، لأن  
 من وأصل الزيارة يمل . (ومن أكثر الترداد أضناه الملل) . فيحجم  
 عن الإقدام على القدوم . وإن كان شائقا ، ويتحمل أعباء التصبر  
 . وإن كان التبريح له سائقا .

هذا وإن شهر الصوم قد زمت منه رجال الارتحال . وعيد الفطر قد  
 واجه الحضرة بالاستقبال . رافلا في حلال السعادة واليمن والإقبال . مهنئا  
 لكم بما أسلفتم في رمضان من ذخائر الأعمال ، مبشرا لكم بنيل المراد  
 وبأوغ الأمال . باسم الثغر متبهج المحيا . متكفلا لكم بعود مسراته  
 ودوام المحيا . والله المسؤول . أن يبلغكم غاية المأمول ، وأن يصاحبكم  
 فيه بالإسعاد . ويجعله عليكم من أسعد الأعياد . وأن يحييكم لأمثاله .  
 وأمثال أمثاله . إلى أبعد غاية . في حفظ من الله تعالى وهناء وأمن ورعاية ،  
 وأن يصون من الأسواء أنجالكم . ويبلغكم من خير الدنيا والآخرة  
 آمالكم . ولما أعوز العبد أن يعمل للقدوم القدام ، استناب عنه  
 القيرطاس والقلم . فقال :

أد السلام إلى الأمير معطرًا

في طيب رياه يفوق العنبرًا

أقر السلام عليه كحل عشيّة

وإذا سنا الإصباح أقبل مسفرا

بل كل حين خصه بتحيّة

من كل ما طيب أعم وأعطرًا

يحكي شذاها طيب أخلاق له

إذ لست عنها بالعبير معبرًا

والشم يدا تروي البخاري دائما

ومن الندى تروي الأنام الكوثرًا



واغضض جفونك إن لم تحت جبينه  
 وحذار من كفيه عشراً أبخر  
 وجه إذا القمر المنير بدا له  
 لبس الحياء وبالسحاب تستر  
 واخصص ليالي الأربعا جميعها  
 بمزيد تسليم عميم أعطر  
 / فيها شفيناً «بالشفاء» غليلنا  
 وعليل صدر للشفاء تصدراً  
 إن يكتحل أعمى البصيرة من سنى  
 أنواره في الحين يرجع مبصر  
 وكذا ليال للخميس فحيتها  
 وليالي الأحد الأنيفة منظر  
 هادي الثلاث لها فؤادي شيق  
 لم يألها قلبي العميد تذكر  
 فمتى نيت لها عنان تذكر  
 يوماً تنفس منزلي وتعطر  
 لكن قلبي ما تذكر أنسها  
 إلا تأجج شوقه وتسعراً  
 لم أنس أنساً بالأمير خلا لها  
 نجني به زهر المسرة أزهر  
 وجنى الأمانى نجني ونجلى  
 وجهها من الشمس المنيرة أبهر  
 أنوار بهجته عن المصباح تغد  
 بني من يطالع في الطروس مسطراً

[64 - أ]

آتني لحضرتي وقد غسق الدجى  
 فأخال ليالي مشمساً أو مقمراً  
 لا أرتضي بدلاً بها عصر الصبا  
 كسكاب (1) حرم أن يعار ويشتري  
 إن كان شخصي قد نأى فالقلب لا  
 ينفك في تلك المحاضر محضراً  
 لو أن ذكرى للقدوم بها جرى  
 لأجبت من قبل الدعاء مشمراً  
 إذ قد ذكرت بليلة فركبت في  
 غدها من أرض القيروان مبكراً  
 أحيتها كمواسم الأعياد لـ  
 ما كان يوم لقاء عيداً أكبر  
 من يغش حضرتي العلية ينشني  
 علماً ونيلاً موقراً وموقراً  
 فيها كواكب بالذكاء توقدت  
 ما بينها قمر يزبح معسكراً (2)  
 يهدي إلى أسماعنا وعقولنا  
 وأنوفنا أدباً ونشراً أعطر  
 والعلم والنكت الدقيقة والحبا  
 والأنس والأكل الشهى مع القرى  
 يلقي له صعب المسائل مشكلاً  
 فيردده سهل المنال مفسراً

(1) سكاب : اسم فرس لاجد بني تميم طلبت منه فقال :

أبيت اللعن أن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

(2) من معسكر الليل : إذا تراكمت ظلمته .



فَهُوَ الْمُجَلِّي لِإِلْعَاقِ إِذَا اخْتَمَى  
وَهُوَ الْمُجَلِّي فِي الذِّكَاءِ إِذَا جَرَى (1)  
وَيَرَى النَّمِيبَ فِرَاسَةً فَتَخَالَ فِي  
مِرَاتِيهَا مَا فِي الضَّمِيرِ مُصَوَّرًا  
لِخَرَائِدِ الْمَعْنَى صَبَا قَلْبًا ، فَمَا  
عَلِقَ الْغَوَانِي وَالْأَغْنَى الْأَحْوَرَا  
وَبَدُرَهَا الْمُخْتَارِ (2) هَامَ فَلَمْ يَزَلْ  
مِنْ بَحْرِهَا الْفَيَاضِ يَلْقُطُ جَوْهَرًا  
وَرِثَ الْمَآثِرَ عَنْ أَبِيهِ عِصَابَةً  
وَالشَّيْلَ لَا يَعْدُو السَّبَبَتَى الْحِيدَرَا (3)  
/ فَعَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ الْبَاشَا الرِّضَا [64 - ب]  
بِحُلَى الْفَخَارِ قَدْ ارْتَدَى وَتَأَزَّرَا  
يَأْبَى الدُّنْيَا خِيَمُهُ وَخِلَالَهُ  
وَتَرَاهُ لِلْفِعْلِ الْحَمِيدِ مُشْمَرًا  
أَلِفَ الثَّقَى وَالْدَّرَسَ وَالْأَوْرَادَ لَا  
نَعَمَ الْمَثَانِي وَالرَّبَابَ وَمِزْهَرَا  
وَحَوَى الْإِنَابَةَ وَالْمَهَابَةَ وَالْفَخَامَةَ  
وَالْإِصَابَةَ وَالْعَطَاءَ الْأَوْفَرَا  
وَالْعَفْوَ عَمَّنْ قَدْ جَنَى وَالْحِلْمَ  
وَالْتَرَحَابَ وَالْخُلُقَ الْجَمِيلَ وَأَكْثَرَا  
وَبَشَاشَةً تَسْبِي النُّهَى فَتَخَالَهَا  
سِحْرَ الْبَلَابِيلِ أَوْ عَقَارًا مُسْكِرَا

(1) المجلي الأول اسم فاعل بمعنى المظهر . والثاني اسم الفرس الأول من حلبه المنيق .

(2) كتاب من أمهات الفقه الحنفي .

(3) ارث العصابة يجمع التركة كما هو معلوم . والسبتى . من أسماء الأسد .

مَهْمَا يَلِينُ يَصْلُبُ . وَإِنْ يَصْلُبُ يَلِينُ .  
وَيُرِيبُ إِنْ يَرْتَبُ . وَإِنْ يَخْلُقُ فَرَى (1)  
قَالُوا : بِهِ خَوَرُ الْخِلَالِ لِحِلْمِهِ ،  
وَلَدَى السَّفِيهِ الْحِلْمُ شَيْءٌ مُزْدَرَى  
نَقَمُوا عَلَيْهِ الْعَفْوَ عَمَّنْ قَدْ جَنَى  
وَمَدِيحُهُ فِي الذِّكْرِ حَقًّا قَدْ جَرَى  
«عَفْوُ الْمُلُوكِ عَنِ الْجُنَاةِ إِذَا جَنَوْا  
لِلْمُلْكِ أَبْقَى» صَحَّ عَنْ خَيْرِ الْوَرَى (2)  
وَأَسْتَنْكَرُوا مِنْهُ الْحَيَاءَ ، وَإِنَّمَا  
تَلَقَّى الْحَيَاءَ إِذَا لَقِيتَ غَضَنَفَرَا  
سَبَرَ اللَّيَالِي فَمَاتَرَى أَخْلَافَهَا  
خَبِرًا ، وَسَوَّغَ صَافِيًا وَمُكَدَّرَا (3)  
جَوَّابُ مَوْمَاتٍ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا  
خَيْرِيَّتُهُمَا ابْنُ لِسَبَاسِيبِ وَالسَّرَى (4)  
وَحَلَّاحِلُ شَهْمِ الْجَنَانِ سَمِيدَعٌ ،  
سَمَّحُ السَّجَايَا ، لَيْثُ آسَادِ الشَّرَى  
كَشَافُ أَرْمَاتٍ ، أَرِيبُ حَوْلُ  
بِدَهَائِهِ يَغْزُو فَيَهْزِمُ عَسْكَرَا (5)  
جَلِيلٌ إِلَى الْجَلَّى يُنَادِي مُنْجِدًا  
دَرِبُ إِذَا مَا الْأَمْرُ أُوْرَدَ أَصْدَرَا

(1) يريب غيره : يشك فيه ولا يستبين الرتبة فلا يضره . وإن استيقن خنقه وقراه من قولهم «خلق الإدم إذا قنمه» أي بطش به .

(2) المشار إليه حديث يروي في السميوطي : الجامع الصغير : غفر الملوك أبقي للملك .

(3) امترى : استخرج : والاختلاف ج خلف : حلة ضرع الناقة .

(4) الموماة : المعازة لا ماء فيها . والحريت : الدليل .

(5) الجليل : العظمة .



بِالنَّيْضِ وَالسَّمَرِ اللَّذَانِ يَخُوضُ فِيهِ  
مُغْبِرٌ نَقَعَ . أَوْ تَجِيعِ أَحْمَرًا  
أَيْقِظُهُ لَا عَمْرًا إِذَا أَمْرٌ عَنَّا  
أَوْ نَابَ خَطْبٌ فَادْعُهُ لَا مِسْعَرًا (1)  
قُلْ لِلْمُحَاوِلِ أَنْ يَرَى شَبَهًا لَهُ  
فِيْمَنْ تَقَدَّمَ : مَا رَأَيْتُ وَلَا أَرَى  
سَبَقَ الْأَوَائِلِ سُودَدًا . وَسَمَاهُمْ  
فَخَرًّا ، وَإِنْ هُوَ فِي الزَّمَانِ تَأَخَّرًا  
لَا غَرَوْ أَنْ الْبَحْرَ يَغْلُو فَوْقَهُ  
زَبَدًا . وَيُمْسِكُ فِي الْمَقَرِّ الْجَوْهَرَا  
وَاللَّيْلُ قَدْ سَبَقَ النَّهَارَ سَوَادُهُ .  
وَالصَّبْحُ صَادِقُهُ يَلُوحُ مُؤَخَّرًا  
لَوْ أَنَّهُمْ فِي جَامِعِ الْعَالِيَاءِ قَدْ  
جُمِعَتْ جُمُوعُهُمْ رَقِيتَ الْمِنْشِرَا  
هِمَمٌ مُرْفَعَةٌ تَعْدُ حِذَاءَ مَا  
نَجْمَ الثَّرِيَّا وَالنُّجُومَ لَهَا ثَرَى  
سَمَحٌ إِذَا مَا الْقَطَرُ أُمْسَكَ غَيْثُهُ  
أَرْجَى لَنَا صَافِي النَّضَارِ فَأَمْطَرَا  
/ وَإِذَا الرِّعُودُ خَبَّتْ وَصَوَّحَ غَرَسُهَا  
الْفَيْتَ مَوْعِدَهُ الْمُوقَى مُثْمِرَا  
فَمَتَّى وَصَفَتْ خِصَالَهُ وَخِلَالَه  
دَعُ عَنْكَ كِسْرَى - مَا وَصَفَتْ - وَقِصْرَا

(I) إشارة إلى بيت بشار : (إذا أيقظتك حروب العدا - فنبه لها عمرا ثم تم) . ومسعر الحرب  
بالسكر : موقدها .

أَوْ تَبِغَ لِيْلَافِيَالِ جَمْعٌ مَآثِرِ  
لَهُمْ «فَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا» (1)  
يَا كَوَكَبَ الْأَمْرَاءِ بَلَّ يَا شَمْسَهُمْ  
لَا نَالَ نُقْصَانٌ سَنَّاكَ الْأَبْهَرَا  
وَأَفَاكَ بَعْدَ الصَّوْمِ عِيدٌ عَائِدٌ  
لَكَ مِنْ إِلَهِكَ بِالسَّرُورِ مُوقَرَا  
يَسْعَى لِحَضْرَتِكُمْ بِوَجْهِ نَيْرٍ  
كَيْمَا يُحْيِي مِنْكَ وَجْهًا أَنْوَرَا  
وَمُقَبَّلًا لِيَمِينِ يُمْنِكَ نَاشِقًا  
مِنْ طِيبِ رِيَّاكَ الْعَبِيرِ الْأَعْطَرَا  
وَأَتَى إِلَيْكَ مُهَنِّئًا مُسْتَبْشِرَا  
وَبِعَوْدِهِ لَكَ بِالْهِنَاءِ مُبَشَّرَا  
لَا غَرَوْ أَنْ وَافَى يُحْيِي مَجْدَكُمْ  
إِنَّ الصَّغِيرَ أَتَى يُحْيِي الْأَكْبَرَا  
وَيَرَى شِفَاهَ الْخَلْقِ كَيْفَ تَرَاحَمَتْ  
عَنْ رَاحَةِ ، فِيهَا جَمَعَتْ الْأَبْحَرَا  
فَلْيَهْنِكُمْ مِنْهُ دَوَامٌ مَسْرَّةٌ  
وَصَفَاءٌ عَيْشٍ لَا تَرَاهُ مُكْدَرَا  
وَتَقَبَّلَ الرَّحْمَانُ مَا أَسْلَفْتُمْ  
مِنْ حُسْنِ صُنْعٍ صَائِمًا أَوْ مُفْطِرَا  
عِشْرُ سَالِمًا مِنْ كُلِّ خَطْبٍ طَارِقٍ  
مُتَبَوِّنًا حِصْنِ الْأَمَانِ مُعَمَّرَا

(1) مثل مشهور . انظر الميداني 2 : 82 .



وَبَشُّوكَ فِيهِ كَنَفَ الْإِلَهِ وَحِفْظُهُ  
بِهِمْ رُبُوعَ الْمُسْكِرَاتِ مُعْتَبَرًا  
وَعَالِيكَ يَا سَعْدَ الزَّمَانِ تَحِيَّةً  
يَحْكِي ثَنَاءَكَ طَيِّبَتُهَا لَا الْعَنْبَرَا

وقال أيضا :

بِشَارَاتٍ وَأَفْرَاحٍ وَنُورٍ  
بِعِيدٍ دَائِمٍ مَعَهُ السُّرُورُ  
تَبَدَّى مُشْرِقًا بِشْرًا وَبُشْرَى  
نَضِيرَ الْوَجْهِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ  
بِهِ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ التَّهَانِي  
وَفِيهِ قَدْ تَجَمَّعَتْ الْخَيْرُ  
فَإِنْ يَكُ فِي اسْمِهِ (عِيدًا صَغِيرًا)  
فَمَا هُوَ بِهَجْدٍ إِلَّا كَبِيرُ  
بِتُونِسَ قَدْ تَزَيَّنَ كُلُّ قَصْرِ  
وَزِينَةٍ تُونِسَ الْمَوْلَى الْأَمِيرُ  
أَبَرُ الْحَسَنِ الرِّضَاءُ عَالِيُ ابْنِ الدِّ  
أَمِيرِ حُسَيْنِ الصَّدْرِ الشَّهِيرُ  
مَلِيكَ قَدْ رَفَى مَتْنُ الْمَعَالِي  
فَدُونُ مَقَامِهِ الشَّعْرَى الْعَبُورُ  
وَزَيْنَ كُلِّ مَائِثَةٍ فَأَضَحَتْ  
عَلَيْهِ حُلَى مَحَاسِنِهَا تَدُورُ  
فَخَارَ قَدْ سَمَا فَوْقَ الثَّرِيَّا .  
وَقَارَ مِثْلَ مَا أُرْسَى ثَبِيرُ

/ وَفَاءَ زَانَهُ حِلْمٌ وَعَدْلُ  
فَلَيْسَ عَلَى أَعَادِيهِ يَجُورُ  
نَظِيفُ الْعَرِضِ ، مَحْمُودُ السَّجَايَا ،  
رَحِيبُ الصَّدْرِ ، مِفْضَالُ ، وَقُورُ  
تَسْرِبِلَ لِلْعَفَافِ ثِيَابَ تَقْوَى ،  
فَلَمْ يَسْتَصْبِهِ الرَّشَاءُ النَّقُورُ  
بَشَاشَةُ وَجْهِهِ تُولِيكَ بُشْرَى .  
وَتَمْلَأُ مِنْ مَهَابَتِهِ الصَّدُورُ  
لَهُ خُلُقٌ كَنَشْرِ الرُّوضِ غَضًّا  
لَطَافَتُهُ تَلِينُ لَهَا الصُّخُورُ  
كَأَنَّ مِزَاجَهُ مَمَزُوجُ رَاحٍ  
لَهُ يَصْبُو أَخُو النَّسْكِ الْوَقُورُ  
وَجَدُّ قَدْ أَعَارَ الْبَيْضَ حَدًّا  
لَهُ تَنْبُو صَوَارِمُهَا الذُّكُورُ  
تَرَاهُ بِاسِمَاءَ طَلَقَ الْمُحْيَا  
إِذَا عَبَسَ الْمُهَنْدَ وَالطَّرِيرُ (١)  
جَلِيلُ الْقَدْرِ ، يَكْشِفُ كُلَّ جُلَى  
إِذَا سُودَ الْخُطُوبِ لَهَا سَتُورُ  
إِذَا عَايَنْتَهُ عَايَنْتَ بَدْرًا  
لِحُسْنِ بَهَائِهِ عَنَتِ الْبُدُورُ  
وَإِنْ يَمَمَّتْهُ يَمَمْتَ بَحْرًا  
فَرَاتًا مَا لَنَا عَنْهُ صُدُورُ

(١) المهند : السيف ، والطريير : سنان السرمج .



فَمِنْ يُمْنَاهُ إِيقَاعاً (1) وَجَدَوَى  
تَقْيِضَ لَنَا الْوَقَائِعَ وَالْبُحُورُ  
وَهَجِيرَاهُ ذِكْرُ اللَّهِ دَوْماً  
فَلَا يَعْرُوه فِي الذِّكْرِ الْفُتُورُ  
بِتَدْرِيسِ الْعُلُومِ لَهُ اعْتِنَاءُ  
فَلَا تُلْفِيهِ يَضْجَرُ أَوْ يَخُورُ  
لَقَدْ وَرِثَ الْمَآثِرَ عَنْ أَبِيهِ  
وَشَبِلَ اللَّيْثُ عَدَاءُ هَضُورُ  
يَصِيدُ بِفِكْرِهِ نُكْتَ الْمَعَانِي  
كَمَا انْقَضَتْ عَلَى الصَّيْدِ الصُّقُورُ  
وَيَلْمَحُ هَاجِسَ الْأَفْكَارِ حَتَّى  
كَأَنَّ بِهَا يُنَاجِيهِ الضَّمِيرُ  
فَمِنْ آرَائِهِ الْبَرَكَاتُ تُجَنِّي  
فَيَسْهَلُ عِنْدَهَا الْأَمْرُ الْعَسِيرُ  
يَجُودُ بِدِيهَةٍ بِنِكَاتٍ بَحْثُ  
إِذَا انْبَهَمَتْ عَلَى الْخَرَقِ (2) الْأُمُورُ  
جَرَى ذِكْرِي مِنَ الْإِخْوَانِ لَيْلًا  
بِمَحْضَرِهِ وَأَنْبِي لَوْ أَرُورُ  
وَمِنْهُ الْإِذْنَ لِي طَلَبُوهُ كَيْمَا  
مِنْ أَرْضِ الْقَيَرَوَانِ لَهُمْ أُسِيرُ  
وَكَانَ الذِّكْرُ لَيْلَةً أَرْبَعَاءُ  
وَفِي غَدِهَا أُتِيحَ لِي الْمَسِيرُ

(1) إيقاعاً بالاعداء ، وجدوى للاولياء .

(2) الحرق : عديم الصنعة .

تَخَاطَبَتِ النُّفُوسُ عَلَى بَعَادِ  
لَأَلْفَتْهَا . وَلَيْسَ لَهَا شُعُورُ  
وَطَاعَتَهَا الْجُسُومُ إِلَى التَّلَاقِي  
وَسِرُّ الْأَمْرِ أَنْ أُذِنَ الْأَمِيرُ  
فَأَخَّرْتُ السَّلَامَ عَلَيْهِ يَوْماً  
فَعَاتَبَ ، وَالْجَوَابُ بِهِ قُصُورُ  
/ فَقِيلَ : «إِذَا أَجَبْتَ بِغَيْرِ نَظْمٍ  
فَإِنَّ الْعُتْبَ لَيْسَ لَهُ فُتُورُ»  
فَقُلْتُ لَهُ : أَيَا مَلِكِ الْمَزَايَا  
وَمَنْ مِنْهُ الْمَسَائِلُ تَسْتَعِيرُ  
أَرَدْنَا أَنْ نَجِيءَ بِفَالٍ خَيْرٍ  
وَحُسْنُ الْفَالِ لَيْسَ لَهُ نَكِيرُ  
فَقَدَّمْتُ التَّأخَّرَ يَا مَلِيكِي  
وَقَلْبِي نَحْوَ حَضْرَتِكُمْ بِصِيرُ  
فَكَيْفَ أَقْدَمُ التَّقْدِيمَ عَنْهُ  
وَفِي التَّأخِيرِ خَيْرٌ يَا خَبِيرُ  
فَلَا زِلْتَ الْمُقَدَّمَ فِي الْمَعَالِي  
وَقَرَعْتُكَ فِي الزَّمَانِ هُوَ الْأَخِيرُ  
وَلَا بَرَحْتُ لِيَالِيكَ اللَّيَالِي  
تُقَلِّدُ لِلدُّهُورِ بِهَا نُحُورُ  
وَلَا زِلْتَ الْمُفِيدَ لَنَا كَمَالاً  
وَرَبُّ الْخَلْقِ عَاضِدُكَ النَّصِيرُ  
وَلَا قَرَعْتُ لَكَ الْأَسْوَاءُ بَاباً  
وَلَا دَبَّتْ بِسَاحَتِكَ الشُّرُورُ



وقال أيضا :

لَا حَ سَعْدُ السُّعُودِ بِالْأَفْرَاحِ  
وَالْتَهَانِي بِيَوْمِ عِيدِ الْأَصْحَابِ  
وَالْمَسَرَّاتِ وَاجْهَتِ بِوُجُوهِ  
نَيِّرَاتٍ مُسْتَبْشِرَاتٍ صَبَاحِ  
وَرِيَّاضِ الْحُبُورِ تَزْهَرُ بِالنُّورِ  
عَلَيْهَا بَلَابِلُ الْأَنْشِرَاحِ  
وَطُيُورُ الْإِقْبَالِ تَهْتِفُ بِالتَّبِ  
شِيرٍ فِي كُلِّ غُدُوَةٍ وَرَوَاحِ  
وَتَجَلَّتْ عَرَائِسُ الْأَنْسِ وَالْبِشْرِ  
عَلَيْهَا مَلَايِسُ الْأَفْرَاحِ  
وَأَزْدَهَى الدَّهْرُ بِالْأَمِيرِ عَلِيِّ ابْنِ  
حُسَيْنٍ النُّحْلَاحِلِ الْجَحْجَاحِ  
مَلِكِ ذُو جَلَالَةٍ . وَجَمَالِ .  
وَعَفَافٍ . وَسُودَدٍ . وَقَفَاحِ  
وَذَكَاءٍ . وَتَجْدَةٍ . وَوَقَارٍ .  
وَأَتَجَارٍ فِي صَالِحٍ . وَرَبَاحِ  
نَدِسٍ . حَوْلٍ . هَضُورٍ . حَيٍّ  
السَّعِيِّ . سَمِيدَعٍ نَفَاحِ  
مَلِكٍ يَجْدِبُ الْقُلُوبَ بِمَغْنَا  
طَيْسٍ أَخْلَاقِهِ الْكِرَامِ الْفَسَاحِ  
هِمَمٍ تَعْتَلِي الشَّرِيَّاعَتْلَاءَ  
وَعَلَيْهَا الْجَوَّاءُ مِثْلُ الْوُشَاحِ

خَلْقٍ وَاسِعٍ وَبَاعٍ طَوِيلٍ .

وَزِنَادٍ فِي الرَّأْيِ غَيْرُ شَحَاحِ  
لَيِّنُ الْجَانِبِ الرَّفِيعِ ، نَظِيفُ الْ  
عِرْضِ ، مُرُّ النَّزَالِ ، حَلْوُ الْمَزَاحِ  
مَأْمَنُ الْخَائِفِ الْمَرْوَعِ ، وَيَخْشَا  
هُ لَدَى الْحَرْبِ كُلُّ شَاكِي السَّلَاحِ  
الْعَدِيمِ النَّظِيرِ عَفْوًا وَحِلْمًا .  
وَالْعَطُوفِ الصَّفُوحِ لَا فِي السَّفَاحِ  
/ يَقْتُلُ الْمَاكِرَ الْمُخَادِعَ بِالْعَفْ  
وِ ، وَبِالصَّفْحِ . لَا بِبَيْضِ الصَّفَاحِ  
لَيْسَ يُرْضِيهِ أَنْ تَكُونَ أَعَادِ  
يهِ بِوَجْهِ الصَّعِيدِ مِثْلُ الْأَصْحَابِ  
بَلْ يُرْضِيهِ مِنْهُمْ الْجَزْمُ بِالسَّدِّ  
سَمٍ وَرَفْعُ الْأَذَى ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ  
كُلُّ هَذَا تَنْزُهُ عَنْ دُمَاءِ  
سَفْحُهَا بِالصَّفَاحِ غَيْرُ مُبَاحِ  
نَالَ مِنْهُ الْأَنَامُ نَيْلَ الْأَمَانِي  
وَأَمَانَ الْأَشْبَاحِ وَالْأَرْوَاحِ  
وَصَلَ الْفَصْلَ بِالصَّلَاةِ ، وَبِالْأَوْ  
رَادِ وَالْفِقْهِ ، وَالْحَدِيثِ الصَّحَاحِ  
فَإِذَا مَا دَجَتْ دِيَاغِي الْمَعَانِي  
لَا حَ مِنْ فِكْرِهِ سَنَا الْمِصْبَاحِ  
وَإِذَا مَا عَلَيْكَ يُرْتَجُ بَابُ الْ  
فَهْمِ أَوْ مَا إِلَيْكَ بِالْمِفْتَاحِ



وَبَنَاتُ الْأَفْكَارِ فِي الْكُتُبِ تُجَالِي  
بِيَدَيْهِ لَا رَاحَ فِي الْأَقْدَاحِ  
هَذَّبْنَا أَخْلَاقَهُ وَسَقَتْنَا  
رَاحَ أَنْسٍ لَسَكِنْ بِيغْيَرِ جَنَاحِ  
عَلَّمْنَا الْآدَابَ فِي الْجِدِّ وَالْهَزْلِ  
بِلَا هُجْنَةٍ وَلَا اسْتِقْبَاحِ  
غَمَرْنَا آلاؤُهُ فَسَبَحْنَا  
فِي بَحَارِ الْعَطَاءِ لَا الضَّحْضَاحِ  
إِنْ يَبْضُنَّ السَّحَابُ بِالْقَطْرِ يَزْخَرُ  
بَحْرُ كَفَّيْهِ بِالنُّضَارِ الصُّرَاحِ  
وَإِذَا صَوَّحَتْ رِيَاضُ الْأَمَانِي  
أَزْهَرَتْ مِنْ نَوَالِهِ السَّمَاحِ  
مَنْ كَمِثْلَ الْبَاشَا عَلِيٍّ بَنَ حُسَيْنٍ ابْنِ  
نِ عَلِيٍّ فِي جُودِهِ الطَّفَّاحِ ؟  
مَنْ يَضَاهِي عَلِيًّا بَنَ حُسَيْنٍ ابْنِ  
نِ عَلِيٍّ فِي عِفَّةٍ وَصَلَاحِ ؟  
مَنْ يُجَارِي عَلِيًّا بَنَ حُسَيْنٍ ابْنِ  
نِ عَلِيٍّ فِي عَقْلِهِ الرَّجَّاحِ ؟  
يَا مَلِيكَ الْفَخَارِ وَأَفَاكَ عِيدِ  
عَائِدِ بِالسُّرُورِ وَالْأَفْرَاحِ  
بِاسْمِ الثَّغْرِ ، مُشْرِقِ الْوَجْهِ ، قَدْ  
حُلِّيَ نَحْرًا بِنُورِكَ الْوَضَّاحِ  
وَكَسَاهُ الْبَهَاءُ حُسْنُكَ ، وَازْدَادَ  
عُبُوقًا بِطَبِيكَ الْفَيْيَاحِ

خَدَمَتْكَ السُّعُودُ فِيهِ عَلَى الْأَ  
قْدَامِ تَسْعَى كَمِثْلِ خُودِ رَدَاحِ  
وَأَتَى لِلْمُهَنَّا وَهُوَ كَبِيرُ  
لَاثِمًا كَفَّ آمِرِ جَحْجَاحِ  
كَيْ يَرَى زَحْمَةَ الشِّفَاهِ عَلَى لَشْمِ  
بَنَانِ يَشْفِي الصَّدَى صَفَّاحِ  
عِشْرُ لَأَمْثَالِهِ مُعَافَى إِلَى مَا  
لَيْسَ يُحْصَى ، فِي رَاحَةٍ وَارْتِيَاحِ  
لَكَ الْإِيَّامُ وَاللَّيَالِي عَبِيدُ  
وَأَمَاءُ ، مَا إِنْ لَهَا مِنْ بَرَّاحِ  
/ سَالِمًا مَعَ بَنِيكَ مِنْ كُلِّ سُوءِ  
يَا أَمَانَ النَّفُوسِ وَالْأَشْبَاحِ  
وَأَعْلُ ، وَاسْعَدُ ، وَاصْعَدُ ، وَدُمُ ، وَتَنْعَمُ ،  
وَتَيْمَنُ بِيَمْنِ عِيدِ الْأَضَاحِي  
وَقُلْتُ مِنْ عَيْدِي لَمْ يَحْضُرْنِي مِنْهَا الْآنَ إِلَّا قَوْلِي :  
لَمْ يَحْمِلِ الْقَلْبُ فِيكَ مَا حَمَلَا  
لِيَنْشَنِي حِينَ يَسْمَعُ الْعَدْلَا  
وَلَمْ تَبِتْ مُقْلَتِي مُسَهَّدَةً  
لِتَرْتَضِي مِنْكَ فِي الْهُوَى بَدَلَا  
قَدْ أَحْرَقَ الْحُبُّ قَبْلُ أَفْدَةً  
أَمَّا كَوَجْدِي الَّذِي أُجِنُّ فَلَا  
خَفُوقُ قَلْبٍ ، وَلَوْعَةٌ ، وَبُكَاءُ ،  
لِلَّهِ هَذَا الْغَرَامُ مَا فَعَلَا



وَكُلُّ ذَا هَيْئٍ وَمُحْتَمَلٌ  
 مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ بَغْضَةً وَقِلَى  
 يَا ظَبْيَ أَنْسِ رَعَى الْحَشَا ثَمَرًا  
 وَبَدَّرَ تَمَّ بِالْقَلْبِ قَدْ نَزَلَا  
 مَاذَا تَرَى فِي مُتَيَّمٍ أَخَذَتْ  
 عَلَيْهِ أَيْدِي الصَّبَابَةِ السَّبَلَا  
 يَحِينُ لِلْأَمْرِ تَرْتَضِيهِ لَهُ  
 وَلَوْ غَدَا سَائِقًا لَهُ الْأَجَلَا  
 وَهَبَكَ أَتْلَفْتَهُ - تَعِيشُ - فَهَلْ  
 أَوَّلُ صَبَّ فِي الْحُبِّ قَدْ قَتَلَا ؟  
 آيَةُ نَارٍ قَدَحَتْ فِي كَبِدِي  
 يُوقِدُهَا الدَّمْعُ كُلَّمَا انْتَهَمَلَا  
 وَأَيُّ قَلْبٍ - بِاللَّهِ - حَمَلَهُ  
 هَوَاكَ مَا لَا يُطِيقُ فَاحْتَمَلَا  
 نَاشِدُكَ اللَّهُ - نَسْمَةٌ - نَفَحَتْ  
 مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ تَشْتَكِي الْعِلَلَا -  
 هَلْ ذَلِكَ الشَّادِنُ الرَّبِيبُ - وَقَدْ  
 أَضْرَمَ قَلْبِي - يُبَرِّدُ الْغِلَلَا  
 إِلَيْهِ ! وَإِنْ كَانَ حُبُّهُ أَجَلَا  
 فَرُبَّمَا حَسَنَ الْهُوَى أَجَلَا  
 أَحِبُّهُ أَوْ يُعِيدَ مُقْتَدِحُ  
 لِلزَّنْدِ سَقْطًا مِنْ بَعْدِ مَا اشْتَعَلَا  
 وَمِنْ مَدِيحِهَا :  
 الْفَارِسُ الطَّاعِنُ السُّكْتِيَّةَ لَا  
 يُرِيدُ مِنْهَا سِوَى الدِّمَا نَفَلَا

وَالْوَاهِبُ الْخَيْلُ فِي أَعْنَتِهَا  
 فَرَسَانِهَا تَحْمِلُ الْقَنَا الذُّبُلَا  
 وَالْجَيْشُ قَدْ جَرَّ خَلْفَ سَاقَتِهِ  
 غَنَائِمًا ، وَالْبِلَادَ ، وَالذُّوَلَا  
 فَعَدَّ عَنْ حَاتِمٍ وَشُهُرَتِهِ  
 فَغَايَةَ الْأَمْرِ أَنْ حَبَا إِبِلَا  
 بِأَذْنٍ لِلضَّيْفِ وَالْمُبَارِزِ فِي  
 زِيَارَةٍ ، ثُمَّ يَمْنَعُ الْقَفَلَا  
 جَارَتْ عَلَى الْمَالِ كَفُّهُ فَعَدَا  
 يَقُولُ : مَهْلًا ، يَا خَيْرَ مِنْ عَدَلَا  
 / وَكَلَّمَا أَذْهَبَتْهُ مِنْ ذَهَبٍ  
 عَوَّضَهَا اللَّهُ قَدْرَهُ قِبَلَا  
 وَيَكْرَهُ السَّفْكَ لِلدِّمَاءِ فَلَا  
 يَقْتُلُ إِلَّا الْمُبَارِزَ الْبَطَلَا  
 تَطِيرُ مِنْ حَوْلِهِ الْفَوَارِسُ إِنْ  
 زَحْرَحَ طِرْفًا وَزَعْرَعَ الْأَسَلَا  
 هِمَّتُهُ الْمَكْرُمَاتُ يُبْدِعُهَا  
 مَا كَلَّ عَنْهَا - كَلَّا - وَلَا نَكَلَا  
 تَصْدُرُ عَنْهُ الْمُلُوكُ حَافِلَةً  
 تَسْتَعْظِمُ الرَّفْدَ وَهُوَ مَا احْتَفَلَا  
 يَا مَلِيكَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ  
 لَوْ أَمَرَ الدَّهْرَ جَاءَ مُمْتَثِلَا  
 كَيْفَ دَعَاكَ الْأَنَامُ فَارِسَهُمْ  
 وَأَنْتَ تَخْشَى مِنْ قَوْلِهِمْ : بَخِلَا



سَأَوَاكَ فِي الْجُودِ عَارِفُ بِكَ لَمْ  
يَسْتَقْصِ مَا قَدْ مَلَكَتْ إِذْ سَأَلَا  
قَدْ سَارَ يَطْوِي الْبِلَادَ صَيْتِكَ لَمْ  
يَسْتَثْنِ مِنْهَا سَهْلًا وَلَا جَبَلًا  
لَمْ يَأْتِ أَرْضًا إِلَّا أَصَابَ بِهَا  
مِنْ جُودِ كَفِّكَ عَارِضًا هَطِلًا  
صَبَغْتَ قَلْبِي صَبْغًا بِحُبِّكَ لَوْ  
حَكَّتْهُ زُرْقُ النَّصَالِ مَا نَصَلَا  
وَكَيْفَ لَا أَسْتَهِيمُ فِيكَ وَقَدْ  
نَوَّهْتَ بِاسْمِي مِنْ بَعْدِ مَا خَمَلَا  
أَلْبَسْتَنِي نِعْمَةً مُضَاعَفَةً  
وَزِدْتَ حَتَّى سَلَبْتَنِي الْأَمَلَا

وقال الأديب الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي وذكر أبناءه  
الكرام :

مَحَاسِنُ الْعِيدِ يَوْمٌ إِنْ صَفَا الزَّمَنُ  
أَمَّا وَجُودُكَ فَهُوَ الدَّائِمُ الْحَسَنُ  
وَلَوْ سَأَلْنَا بِكَ الْأَعْيَادَ مَا حَكَمْتَ  
إِلَّا بِأَنَّكَ رُوحٌ . أَوْ هِيَ الْبَدَنُ  
فَهِيَ الْمُهْنَاءُ إِذْ كُنْتَ الْحَيَاةَ لَهَا  
وَأِنْ جَرَى بِخِلَافِ ذَلِكَ السَّنَنُ  
فَاهْنَأَ بَعِيدِ تَمَامُ الْعَشْرِ لَيْلَتُهُ  
وَصُبْحُهُ بِإِفْتِتَاحِ السَّيْرِ مُقْتَرِنُ  
تُعْطِيكَ مِنْ بَعْدِهِ الْأَيَّامُ بِالْغَةِ  
لِمِثْلِهِ مِثْلًا فِي إِثْرِهَا مِثْنُ

تَنَالُ مِنْهَا الْجَدِيدَ اللَّيْنُ تَلْبَسُهُ  
عَفْوًا . وَيَنْحَطُّ عَنْكَ الدَّارِشُ الْخَشِنُ  
حَتَّى تَرَى مِنْ سَلِيمَانَ وَتَابِعِهِ  
مُحَمَّدٍ (1) مَا تَلَدُ الْعَيْنُ وَالْأَذُنُ  
وَتَرْتَقِي بِأَبِي عَمْرٍو لِيَاغِيَتِهِ  
وَمَا تَخَافُ عَلَى الْمَأْمُونِ مُؤْتَمِنُ  
أَفَلَا ذُ قَلْبِكَ هُمْ فِي نَفْسٍ وَآمِقِهِمْ (2)  
شَأْنٌ وَفِي عَيْنٍ مَنْ يَشْنَاهُمْ شَجَنُ  
مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ يُسْتَشْفَى بِطَلْعَتِهِ  
وَيَسْتَجِيرُ بِهِ مِنْ هَمِّهِ الْأَحِينُ  
أَعِزَّةَ لِمَقَامِ الْمُلْكِ رَشَّحَهُمْ  
ذَكَأُوهُمْ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا خُتِنُوا  
/ بَلْ مَا اسْتَهَلَ لَدَى الْمِلَادِ صَارْخَهُمْ  
إِلَّا وَعَقْدُكَ فِي كَفِّهِ مُرْتَهَنُ  
تَبَادَرُوهُ فَلَا فِي كَفِّ حَامِلِهِ  
مِنْهُمْ نُكُولٌ . وَلَا فِي طَبْعِهِ دَدَنُ (3)  
تَوَدُّهُمْ صَهَوَاتُ الْخَيْلِ حِينَهُ  
وَهُمْ عَلَى الرَّكْضِ فِي الْأَرْحَامِ قَدِ مَرِنُوا  
وَقَوَّكَ وَحْشَةَ قَوْلِ النَّاسِ : مُنْفَرِدًا  
وَقَوْلَهُمْ : سَرَّحَةً مَا إِنْ بِهَا غُصْنُ !

(1) هو ابنه حمودة الشهير وكان الاقدمون يعتبرون هذا الاسم تصغيرا - او تدليلا - فلا يكتبونه  
في الرسميات ، لذلك تجد في بعض السواريح تسمية حمودة المرادي بمحمد بسانا .  
وفي ز : حمودة بدل محمد على الواقع وهو وزن مصروف للضرورة فينبغي الرجوع اليه لانه  
صار علما مشهورا والاعلام لا تغير .

(2) المقصود : المحبة .

(3) المعنى : المعجب .



بَلْ هُمْ جَمَالُكَ إِنْ بَاهَيْتَ مُفْتَخِرًا  
وَهُمْ سَيُوفُكَ — لَا مَرَّتْ بِكَ الْفَتَنُ —  
وَهُمْ عَلَى الدَّهْرِ سَوَاطِنُ إِنْ بَغَى حَرْنًا  
وَحَيْثُ يَجْمَعُ هُمْ فِي رَأْسِهِ رَسَنُ  
فَمَا تُخَالِفُ عَنْ مَرْضَاكَ نَافِرَةً  
إِلَّا وَمِنْهُمْ عَلَى أَعْنَاقِهَا شَطَنُ (1)  
وَمِثْلُهُمْ لَيْسَ قَدْرُ السَّنِ يَرْفَعُهُ .  
بَلِ الشَّمَائِلُ وَالْأَحْسَابُ وَالْفِطَنُ  
يَقُولُ فِيهِمْ مُدِيرُ اللَّحْظِ يُبْصِرُهُمْ  
إِذَا تَفَرَّسَ : عِلْقُ مَا لَهُ ثَمَنُ  
وَمَنْ تَكُنْ أَبَهُ اسْتَغْنَى بِجَوْهَرِهِ  
عَنِ الْمَزِيدِ وَأَرْضَى كُلَّ مَنْ يَزِنُ  
تِلْكَ الْمَكَاسِبُ لَا تَأْتِي بِهَا إِبِلُ  
مِنَ الْقَصِي . وَلَا تَأْتِي بِهَا سَفَنُ  
كَسَبَتْهُمْ بَعْدَ مَا عَمَّرَتْ غَامِرَةً  
مِنَ الْفَيَافِي . وَشَابَ الرَّأْسَ وَالذَّقْنَ  
وَحُضَّتْ بَحْرًا مِنَ الْأَهْوَالِ . سَاحِلُهُ  
حَيْنٌ . وَلَجَّتْهُ الْآفَاتُ وَالْمِحَنُ  
مَا تَسْتَقِيلُ بِأَرْضٍ تَبْتَغِي سَكْنًا  
إِلَّا رَمَتْكَ بِأَرْضٍ مَا بِهَا سَكَنُ  
وَحَيْثُمَا لَاحَ وَجْهُ الضَّيْمِ فِي وَطَنٍ  
كَانَتْ ظُهُورُ الْمَذَاكِي عِنْدَكَ الْوَطَنُ

(1) حبل .

قَطَعْتَ أَحْقَافَ «سُوفٍ» وَهِيَ مَجْهَلَةٌ  
لَا تَسْتَقِرُّ بِهَا الْأَخْفَافُ وَالْفَتَنُ (1)  
وَفِي مَهَامِهِ «تَقَرَّتْ» وَفَدَقْدَهَا  
كَلَّتْ — سِوَاكَ — أُولُو الْأَبْدَانِ وَالْبُدُنُ  
وَبَعْدَ كَشْفِكَ مَا بِ«الزَّابِ» مِنْ طُرُقٍ  
دَعَاكَ «نَاجٍ» وَنَاجٍ كَأَسْمِهِ حَسَنُ  
فَزُرَّتْهُ وَعَلَى «خَيْرَانَ» مَا نَكَصَتْ  
بِكَ الْعِتَاقُ وَلَا وَلَّى بِهَا الْعَطَنُ  
وَقَدْ تَرَقَّيْتَ فِي أَعْلَامِ «نَازِيَةِ»  
مَنَازِلًا مَا بِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَكُنْ  
وَجِئْتَ «أُورَاسَ» تَطْوِي كُلَّ شَاسِعَةٍ  
تَمْتَدُّ فِيهَا بِكَ الْأَطْلَالُ وَالْدَمَنُ  
مَدَاحِضُ قَلَمًا يَنْفَكُ سَالِكُهَا  
عَنِ التَّوَرُّطِ أَوْ يَنْجُو بِهَا اللَّقِنُ  
يَرْتَاعُ مِنْ وَصْفِهَا مَنْ جَاءَ يَسْمَعُهُ  
فَكَيْفَ مَنْ جَالَ فِيهَا وَهُوَ مُمْتَسِحِنُ ؟  
وَأَنْتَ تَمْرَحُ فِيهَا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ  
بِحَيْثُ تَعْجَبُ مِنْكَ الْغَوْرُ وَالْقَسَنُ  
فَلَا يَصُدُّكَ لَفْحُ الشَّمْسِ عَنْ غَرَضٍ  
وَلَا يَرُدُّكَ عَنْهُ الْعَارِضُ الْهَتِنُ  
/ وَتَوَثَّرُ اللَّيْلَ عَنْ سَيْرِ النَّهَارِ بِهَا  
كَأَنَّمَا أَنْتَ فِي جَفْنِ الدُّجَى وَسَنُ

(1) لغات البعير : ما يترك عليه . وخفه معروف . وفي هذه الأبيات أسماء بلدان واقطار معروفة  
بصحراء الجزائر كان لها إليها الممدوح في فتنة ابن عمه .



يَخَافُكَ الْخَوْفُ إِنْ نَازَلْتَ مُعْضِلَةً  
هَذَا وَعِرْضُكَ صَافٍ مَا بِهِ دَرَنُ  
حَتَّى ظَفِرَتْ بَارِثٍ كُنْتُ تَطْلُبُهُ  
وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا عَلِمَهُ عَلَنُ  
لَا يَحْسِبُ الْمَجْدُ مِنْ يَبْغِيهِ مَادُبَةً  
سَكَنِي الْجِنَانِ شَهِي دُونَهُ الْجَنَنُ (1)  
يَا مُوسِعَ الْخَلْقِ مِنْ إِشْرَاقِ هِمَّتِهِ  
إِلَّا أَنَا فَتَنْصِيْبِي مِنْهُ مُمْتَهَنُ  
إِنْ كَانَ حُبُّكَ يُدْنِي مِنْكَ مَنْرَلَةً  
فَإِنِّي قَبْلَ مَنْ يُدْلِي بِهِ قَمِينُ (2)  
هَازِي نَتَائِجُ فِكْرِي قَدْ أَقَمْتُ بِهَا  
دَلِيلَ صِدْقٍ لِمَنْ يَبْلُو وَيَمْتَحِنُ  
أَخَذْتُهَا مِنْكَ إِلَّا أَنْ حَلِيَّتُهَا  
يَصُوغُهَا كَيْفَ شَاءَ الْحَازِقُ اللَّسِنُ  
كَفْتُكَ أَنْ تَرْتَجِي تَعْدِيلَ شَاهِدَهَا  
لَا يَسْطَعُ الطَّيِّبُ مَا لَمْ تَصْلَحِ الْجَوْنُ (3)  
فَلْتَجْزِنِي بَعْضَ وَدِّ كَيِّ أَقُولَ لِمَنْ  
يَلُومُنِي : إِنْ بَيَّعِي مَا بِهِ غَبْنُ  
فَإِنَّ حُبَّكَ شَيْءٌ إِنْ سَمَحْتَ بِهِ  
زَكَتْ بِهِ النَّفْسُ وَأَنْقَادَتْ بِهِ الشُّجْنُ (4)  
وَلَا يَقِلُّ قَلِيلٌ أَنْتَ وَاهِبُهُ  
يُضِيءُ بِالْقَبْسَةِ الرُّسْتَاقُ وَالْمُدُنُ

(1) الجنن : القبر .

(2) خليق وجدير .

(3) ج جونة : وعاء الطيب .

(4) ج شجنة مثلة كرابطة الرحم .

وَاسْلَمُ هَنِيئًا قَرِيرَ الْعَيْنِ فِي دَعَا  
وَدُمُ كَمَا دَامَ فِي هَازِي الدُّنَا حَضَنُ (1)  
وهذه القصيدة جمعت بين الشَّذَرَةِ والمَدَرَةِ والغُرَّةِ والعُرَّةِ فقد  
اشتملت على الجيد العالي الذي لا يتعلق به أحد . والرديء السافل الذي لا  
يرضى به أحد . فمن أوابدها قوله :

تودهم صَهَوَاتِ الْخَيْلِ حِينِيذُ  
وَهُمْ عَلَى الرَّكْضِ فِي الْأَرْحَامِ قَد مَرَنُوا  
فإن هذا البيت مع كونه مأخوذاً من قول أبي بكر ابن الأبيض الإشبيلي  
من قطعة في مولود أنشدها له أبو بحر صفوان ابن إدريس في زاد المسافر .  
وهي :

يَا خَيْرَ مَعْنٍ وَأَوْلَاهَا بَعَارِفَةً  
شُكْرًا لِنِعْمَاءَ عَنْهَا الدَّهْرُ قَدْ نَعَسَا  
لِيَهْنِكَ الْفَارِسُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ  
لِلَّهِ أَنْتَ . لَقَدْ أَذْكَيْتَهُ قَبَسَا  
أَصَاحَتِ الْخَيْلِ آذَانًا لِيَصْرَخَتْهُ .  
وَأَرْقَاعَ كُلِّ هِزْبٍ عِنْدَمَا عَطَسَا  
تَعَشَّقَ الدَّرْعُ إِذْ شُدَّتْ لِفَائِفُهُ  
وَأَبْغَضَ الْمَهْدَ لَمَّا أَبْصَرَ الْفَرَسَا  
تَعَلَّمَ الرَّكْضَ أَيَّامَ الْمَخَاضِ بِهِ  
فَمَا امْتَطَى الْخَيْلَ إِلَّا وَهُوَ قَدْ فَرَسَا  
بَشَرٌ قَبَائِلَ مَعْنٍ أَنْ سَيِّدَهَا  
قَدْ أَتَمَّ الْمُلْكُ بِالْفَرْعِ الَّذِي غَرَسَا

(1) حَضَنَ جَبَلَ مشهور . وفي الملل « انجد من رأى حضنا » أي دخل نجدا



أردت البيت الخامس . فقد قصر عنه غاية التقصير وتبارد ما شاء بكلمة «حينئذ» فإنها ما / صادفت موقعها ولا أصابت محزنها . والثناء الكبرى قوله «في الأرحام» فإنه لا يذكر هذه اللفظة في حرم الملوك إلا من أصابه البرسام . (1)

ومن محاسنه قوله : «كأنما أنت في جفن الدجاء وسن» .

فإن هذا المصراع وإن كان قد أخذه من قول المتنبي :

وَقَفْتُ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِيَوَاقِفِ  
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

ومن قول ابن زيدون بعده :

سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلُمَاءِ يَكْتُمُنَا  
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يَفْشِينَا

إلا أنه أحسن الأخذ وأتى به في غاية الحسن .

### [الحكمة الخلقية]

#### واما حسن التدبير وثقابة الراي وصواب الظن

فكثيراً ما يرى الراي في مهمات الأمور يخالفه في مبادئه كل من يعرض عليه . ثم لما تبين عاقبته ينجلي الأمر بصوابه . ويعترف كل ما أنكره بإصابته ، وأنه لا ينبغي أن يكون الأمر إلا كذلك . وذلك لبصارته بعواقب الأمور وخبرته . كما قلت من جملة قصيدة تقدمت في موضعها (2) :

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يُرِيهِ حِجَاهُ شَاهِدًا كُلَّ غَائِبٍ  
وَكُلُّ يَرَى صَدْرَ الْأُمُورِ . وَإِنَّمَا تَبِينُ مَزَيَّاتِ النُّهَى فِي الْعَوَاقِبِ

(1) الحمى .

(2) في ثورة وسلات - اول هذا الجزء - .

فمن ذلك ما رآه من النظر السديد في مطاولة أهل وسلات . لما شقوا العصا . وخرجوا عن الطاعة . وكفّهم عن قتالهم في عقر جبلهم ليعلمه بأن قتالهم في تلك الأوعار والمداحض التي أحاطوا عليها بمتآلفها . وسهّل عليهم لطول التمرن سلوكها . مما يزيدهم جرأة وقوة شوكة . وإن كان النظر هو مناجزة الثائر ، وترك المطاولة معه فإن المطاولة مما تنفع صاحب الدولة المستجدة دون المستقرة . كما تبين في محله . لكن ذلك إذا كان القتال مجدياً في دفاعهم . ومحصولاً للغرض من استئصالهم . ولذلك لما نبذت ماجر وأولاد عيار الطاعة ، وتابعوا أهل وسلات ، وشايعوهم على النفاق . بادر - أيده الله تعالى - لمناجزتهم وأخذهم . وغزاهم بمكانهم من البسائط التي لا يخشى على أجناده من التورط [في مهالكها] ، وترك أهل وسلات وجبلهم . ولم يعرض لهم بغير الأخذ بمخنقهم بالمسحلات المحاصرة لهم . وقطع المادّة عنهم . واجتثاث زرعهم كما تقدم تفصيله . فكانت عاقبة ذلك أمراً لم يكن في الحساب : من نزولهم من جبلهم - وهم أمنع من عقاب لُوح الجوّ - وصيرورته مرعى للذئب . ومأوى لليوم وإجابة الصدى . بعد التأهيل البالغ . والعمارة الكاملة . والمنعة التي اعترضت شجى في صدور من يرومهم . بحيث لا / تطمع الملوك منهم بأكثر من الطاعة . أمّا حسم مادّتهم . وخفضد شوكتهم . واستئصال شأفتهم . واستنزاهم من معاقلم . وصيرورتهم عبيداً للعصا ، وخولاً للمغارم . فمما لا مطنع لأحد فيه .

ومن ذلك ملاينته للنفرئيسل لما نقضوا الصلح في مبادئ الفتنه بين السلطان والموسكو وجنوحه ليلسّم لما جنحوا لها . لما رأى في ذلك من المصلحة العظمى . والحوطة لحوزة الإسلام . والنظر العام للمسلمين [كما تقدم تفصيله وصارت بعد ذلك مراكبهم تذهب وتجيء بسلام المسلمين] (1) في خيفارتهم إلى جميع البلاد . وربح التجار في ذلك ربها بالغا - ولولا ذلك لاخذ الموسكو - خذله الله تعالى - ما قدر عليه منها .

(1) البريسادة من ح .



حكى القاضي شمس الدين بن خلكان في تاريخه « وفيات الأعيان » في ترجمة السلطان ملك شاه ابن ألب أرسلان السلجوقي : أنه لما مات أبوه في سفره إلى ما وراء النهر وولي هو الأمر بوصية إليه وتخليف الأمراء والأجناد على طاعته ، ووصى وزيره نظام الملك أبا علي الحسن بن علي الطوسي بتفرقة البلاد بين أولاده ويكون مرجعهم إلى ملك شاه . ففعل ذلك وعبر بهم جيئحون راجعا إلى البلاد . فلما وصل إلى البلاد وجد بعض أعمامه قد خرج عليه . فعاجله وتصافيا بالقرب من همدان . فنصره الله عليه وانهزم عمه فتبعه بعض جند ملك شاه فأسروه وحملوه إلى ملك شاه . فبذل التوبة ورضي بالاعتقال وأن لا يقتل . فلم يجبه ملك شاه إلى ذلك . فأنفذ إليه خريطة مملوءة من كتب أمرائه . وأنهم حملوه على الخروج من طاعته . وحسنوا له ذلك . فدعا السلطان الوزير نظام الملك وأعطاه الخريطة ليفتحها ويقرأ ما فيها . فلم يفتحها . وكان هناك كانون من نار فرمى الخريطة فيه . فاحترقت الكتب . فسكنت قلوب العساكر وأمنوا ووطنوا أنفسهم على الخدمة . بعد أن كانوا قد خافوا من الخريطة لأن أكثرهم كان قد كاتبه . وكان ذلك سبب ثبوت قدم ملك شاه في السلطنة . وكانت هذه معدودة في جميل آراء نظام الملك . انتهى . قلت : هذه الفعلة ... وإن كانت من الآراء الصائبة الجميلة التي بقي ذكرها إلى آخر الدهر - إلا أن نظام الملك لم يكن صاحب الأمر ولا هو المقصود بالثورة لكونه وزيراً لا ملكاً . فلم يكن عنده من هيجان القوة الغضبية ما يحمله على ترك الرأي . وإضاعة الخزم في إحراق الكتب ليطالع على ما فيها فينتقم من أصحابها . ويحتاج في مجاهدة هذا الغضب إلى عقل مؤيد بالتأييد الإلهي . ونفس قدسية تسوس هذه القوة . وتقدر حركتها على القدر الواجب . وتسكن ثورتها ليظهر لها موقع الرأي . وأيضا لقائل أن يقول : يحتمل أن يكون لنظام الملك كتاب من جملة تلك الكتب فأحرقها كلها لئلا يفتضح - وإن كان الظن بنظام الملك تزييه عن مثل هذا لكمال عقله ، وعلو همته . وتمايم مروءته . ووفور / ديانتته . فقد كان من رجال العالم وأفراد الدهر . رحمه الله تعالى - وعلى كل حال فلم

تكن حاله مثل حال مولانا - أعزّه الله تعالى - لما وقع له مثل هذا بعينه مرتين : أحدهما حين هرب إسماعيل بن يونس من وسالات وتفرقت جموعه . فإنه جيء إليه بخريطة مملوءة من كتب كاتبه بها كثير من رؤساء الجند وأكابر العرب وأعيان البلد ، ففتحها وقرأ ستة كتب منها . فعلم أصحابها ثم ردّها إلى الخريطة وأمر بإحراقها بجميع ما فيها ، فأحترقت في الحال . ولما تواتر عند الناس إحراقها سكنت نفوسهم واطمأنوا وأمنوا ووطنوا أنفسهم على النصح والخدمة - كما وقع من عسكر ملك شاه بعينه - وأغرب من هذا أنه لم يعاقب الستة الذين اطلع على كتبهم ، ولا عرفهم أنه علم ذلك منهم ، ولا سمعوا به . وقد مات بعضهم وبعضهم باق إلى الآن لا شعور له بشيء من ذلك . والثانية لما أخذ عثمان الحداد - الذي ثار بجبل خمير وادعى أنه ابن يونس . وأتسى به أسيراً إلى الحضرة كما تقدم (1) شرح ذلك - أتى معه بخريطة كتب كاتبه بها أيضا من يريد الفساد . فلم ينظر - أيده الله تعالى - في شيء منها وأمر بإحراقها فأحترقت . فحصل بذلك الأمن والطمأنينة لجميع العرب وغيرهم . وهذه الغاية لا تدرك من كمال العقل . وحسن التدبير . وقهر الغضب . ووفور الحلم .

ومن آرائه الصائبة وتدابيراته البديهة التي تعجز عنها الأنظار الدقيقة في الأزمنة الطويلة أنه لما عين صاحب الجزائر المحلّة لاسترداد ملكه وملك أخيه من علي باشا ، وفصل مولانا - أيده الله تعالى - عن [الجزائر إلى] قسنطينة ليضم إليه أطرافه ، وتجتمع إليه قواصيه ويزيح عنهم ، وانتشر الخبر في قبائل العرب من أهل إفريقية . فتتابعت عليه وفودهم . وخرج صحبة حسن باي صاحب قسنطينة حتى نزل على « بشر » . فاجتمعت عليه قبائل العرب من إفريقية ونبدوا طاعة علي باشا واضطربت لذلك إفريقية . فعند ذلك بدأ لصاحب الجزائر في حرب علي باشا ورجع عنه وخاف عاقبته . وأظهر له بعض أكابر دولته [من شيعة علي باشا] النصيحة في ذلك بسبب ما استحکم لعلي

(1) صوابه كما يأتي .



باشا من الملك . وتوسع فيه من النعم . واختص به من الأموال وكثر عنده من ارتباط الخيل ، واستجادة الأسلحة . وعظم لديه من الأهبة الملكية . فقَبِل رأيهم وكتب إلى حسن باي عامله على قسنطينة يأمر بإبطال الحركة . ويخبره أنه رجع عن رأيه وأبطل السفر . فاجتمع بمولانا - أعزّه الله تعالى . وألقى إليه هذا الخبر المزعج . فما تغير لذلك ولا تلثم . ولا أظهر له جزعا ولا خشوعا . بل أجابه على البديهة بقوله : أما أنا فقد خرجت من تونس صغيراً وأكثر إقامتي بالجزائر وعملها . وقد تأنست بسلطانها واغتنمت بها الراحة وهدوء الببال . فما أهتم بهذا الأمر كبير اهتمام . ولكن أخبرني عنك . كيف / يكون خلاء أوجاق الجزائر على يدك . وتبقى معرفة ذلك عليك إلى آخر الدهر ؟ - قال له : كيف ذلك ؟ - قال : أنا أبين لك حتى تعترف الآن بصحته ! هل جرت العادة بأنكم إذا توجهتم إلى قتال ملك إفريقية مع أحد من ملوكها معكم أن تنقسم نصفين . فيأتيكم من شيعة الذي معكم - من قبائل العرب وغيرهم - ما يقرب من مقاومة الذي بقي منهم مع صاحب تونس ؟ ويمدّونكم بالميرة والعلف ويعينونكم بجميع أوجه الإعانة ؟ وهو ذا ترى من حولي العرب كم يبلغ عددهم ؟ وإنما يأتونكم وثوقا بغلبتكم . وقد أتونا عام الكاف ولما رجعنا عنها عاقبهم عليّ باشا أشد العقوبة . ونكّل بهم كُـلّ التنكيل . فقتل الرجال ونهب الأموال . إلا أن ذلك لم يصدّهم عن معاودة قصدنا هذا العام . لما شاع بين الخاص والعام من أن عيشي حسن باي الذي [كان] يتولى قسنطينة قبلك لما توجهت بتلك المحلة كان في باطن أمره مظاهراً لعلّ باشا ساعيا في نصره . وإنما انحلت الأمر ورجعت تلك المحلة من الكاف بتدبيره ! وأنت الآن لست كمثله لأنك قد جاهرت بعداوة عليّ باشا . وأطلقت لسانك بالقول فيه . فإذا بطل السفر ثبت عند الناس أن ذلك إنما هو لعجزكم عنه . وعدم مقاومتكم له . وعاد هو إلى نكال من جاءنا من العرب . فإذا شرعتم في الحركة مرة أخرى لم يأتكم من إفريقية نافخ ضربة نار بل يكونون كلهم عليكم . ولا طاقة لكم بقتالهم إذا كانوا مجتمعين . وأخرى أكبر من هذه : وهو أنكم تظلمون رعاياكم

[70 - ب]

وتسومونهم الخسف . وتستبيحون أموالهم ولو أمكنتهم النقلة إلى عمل آخر ما أقاموا بعملكم يوما واحدا ! ولا يمنعهم من النقلة إلى عمل تونس مع قربه منهم ومجاورته إياهم إلا علمهم بأنهم لو انتقلوا لرددتموهم قهراً ، وزدتموهم من النكال أكثر . وما تردونهم قهراً إلا ليغلبتكم واستطالتكم على صاحب تونس . وحيث بان عجزكم عن مكافأته - بعد إظهار تمام العداوة له - استخفّت بكم الرعية . وصار من ناله منهم ضيم أو أضرّ به ظلم من قبلكم يرحل إليه . فيؤويه ويستظهر به . ثم إذا طلبتموه لم يردّه إليكم لتهاونه بكم حيث كنتم عاجزين عنه . ثم إذا وقع بينكم وبينه قتال قاتل عنه من هرب إليه من رعيّتكم أشد قتال . ودافع عنه أكبر مدافعة . خوفا من استيلائكم عليهم . وعقابكم إياهم . وانعكس الحال ، فقد كنتم أنتم ورعية تونس إلّبا على ملكها ، فيصير ملك تونس ورعيته مع رعيّتكم إلّبا عليكم . فقد آل الأمر إلى خلاء عملكم من الرعايا بالانحياز إلى ملك تونس . ثم تغلبه عنكم بكثرة المقاتلين !

فوقع هذا الكلام في نفس حسن باي وأثر فيه . وقال له : صدقت والله وأصبت في جميع ما ذكرت . ولا يكون هذا على يدي أبدا : ولو كان فيه تلف نفسي ! ودعا بكاتبه في الحين فأمره أن يكتب إلى صاحب الجزائر . ويعرفه بهذه المفاسد الناشئة عن إبطال السفر . ويقول في كتابه : / « إماماً أن يتم السفر . وإما أن أترك قسنطينة وآتيك تفعل بي ما تشاء . وإما أن أقتل نفسي ! » وأرسل بالكتاب وبقي مدة مغيب رسوله واجمعا كاسف البال . على غاية من الغم - ومولانا - أيده الله تعالى - يسليه . ويسكنه . ويهون عليه الأمر وفي قلبه من ذلك ما فيه - ولما بلغ الكتاب إلى صاحب الجزائر حرّك من عزائمه . وظهر له فيه وجه الرأي . وصوب له خاصته من شيعة المولى محمد باي رأى حسن باي . وقالوا له : أرّم به عليّ باشا وفوض له أمر الحرب فلن تجد من يكفيك أمره مثله . فأمر بإفناذ أمر المحلة . فكان من أمرها ما كان .



وقد تقدّم في أخباره — أيده الله تعالى — أنّه لما فصل عن الخنقة وبلاد الزّآب . واتّصل ركابه العالي بعيشي حسن باي صاحب قسنطينة . ووعدّه أن يقوم بنصر والده علي علي باشا ، وأقام — أعزّه الله تعالى — بالضّواحي في ناجعته . وخرج المولى محمد باي من سوسة في محلّته . والتحق بحسن باي . وخرج لنصرتهم في محلّة بإذن صاحب الجزائر . ووافاهم مولانا — نصره الله تعالى — بناجعته والشيخ أبو عزيز بن نصر شيخ الحنانشة وزعيم العرب المشهور بالدّهاء والمكر في الحنانشة ومن يتبعهم من الأعراب . اجتمع حسن باي بأبي عزيز في حلّته فوقعت بينهما مغاضبة سخط بسببها حسن باي على أبي عزيز حتى شتمه وسبّه . ونهض من حينه راجعا إلى محلّته . وظفّر بابنه إبراهيم فاعتقله . فارتحل أبو عزيز من يومه نافضا يده من حسن باي ونازعا إلى علي باشا . فأهمّ ذلك المولى محمد باي وأقلّقه . وعلم أنّه لا يتمّ له أمر بدون أبي عزيز . وأن في نزوعه عنهم فساد ما دبّره . وبطلان أمر المحلّة . فأرسل إلى مولانا — أعزّه الله تعالى — بمكانه من ناجعته يأمره بالركوب إلى أبي عزيز ليرضاه ويردّه عن مقصده . فامثل أمر أخيه وسار إلى الشيخ أبي عزيز في أربعة عشر فارسا من أتباعه . فلما وصل إليه ساء رأيه فيه . وأمر في الحال بتحديد خيله وخيل أصحابه — وذلك أمانة الاعتقال — وأرسلت إليه امرأة أبي عزيز تعلمه أنّه حابسه ليفتكّ ابنه من حبس حسن باي . فورد عليهم من ذلك أعظم وارد . وفزع أصحابه وانزعجوا لما يعلمون من غدر أبي عزيز . وخافوا أنّه إذا لم يتهيأ له خلاص ابنه يُمكّنهم بيد علي باشا ليتخذ عنده بدأ بذلك . ويأخذ بثار ابنه ! فأمرهم — أيده الله تعالى — بالتثبت . وترك إظهار الجزع . والتغافل عما فعل بهم . وقال لهم : إن امتثلتم أمري خلصت نفسي وخلصتكم . والا فقد وقعنا في أمر عظيم ! وشرع في الحال في أعمال الرّأي في الخلاص . فأظهر غاية التبسط والإدلال على الشيخ أبي عزيز . واقترح ألواناً من الطعام كان يشتهيها . حتى اعتقد أبو عزيز انه لم يشعر بشيء مما قصده به . وكلمه في سراح رجلين من أصحابه لم يطبقا كتم ما خامرهما / من الرعب والجزع . وأوهمه أنّه مرسل بهما في قضاء بعض

[ 71 — ب ]

حوادثه . فسرّحهما وسارا . وقال لأصحابه : « قد أرحتكم منهما لئلا نفتضح . فاكتموا أمركم وانظروا ما أفعل ! » . ثم كلم الشيخ أبا عزيز في شأن ابنه إبراهيم المسجون وقال له : « لو كنت أعلم أنّي إن أتيتك به من عند حسن باي صالحته ورجعت معي ولم تفسد علينا أمرنا لكنت ذهبت وأتيتك به ! ولكن حيث كنت عازما على خدمة علي باشا فأنا غير مفارقك . لأنّي أعلم أنّك لا تترك لأجل غضبك ابنك وكل شيء . فأنا غير بارح عنك ، وحيثما توجهت توجهت معك أو ترجع عن عزمك ! وإن شئت فاذهب بي إلى علي باشا » . فقال أبو عزيز : « أنا عازم على الانصراف إلى علي باشا وخدمته من غير توقف عندي في ذلك . ولا شك أنّي إن فعلت ذلك فسد عليكم أمركم . ولكن إن انطلقت وأتيت بابني رجعت عن عزمي ! » . فأظهر له غاية الامتناع وقال له : « تريد أن تخذعني حتى تظفّر بابنك فإذا حصل عندك أمضيت رأيك وتركنا » ولم تزل المراجعة بينهما في ذلك إلى أن حلف له الشيخ أبو عزيز بالأيمان المغلظة أنّه إن فعل وأتاه بابنه رجع عن خدمة علي باشا وعن الإفساد عليهم . فقال له : « لا أقبل شيئا من أيمانك لأنّي عارف بها ! » . فقال له وجوه الحنانشة : « نحن ضامنون في كل ما عاهدك عليه الشيخ » . قال لهم : « لا أقبل ضمانكم لأنكم لا تقدرون على مخالفته » . وجعل يزيد في التمتع ويشتطّ وأبو عزيز يزيد حرصا على ركوبه وانطلاقه لسراح ابنه . وأمر بفرسه وخيل أصحابه فحلّت من الحديد وأسرجت ، وعزم عليه أن يركب فركب هو وأصحابه وهم لا يصدقون بذلك . وركب معهم الشيخ أبو عزيز مشيعا . فلما فارقوا المحلّة خشي مولانا — أيده الله تعالى — أن يبدؤ له فيندم فقال له : « أيها الشيخ لا تتعب نفسك وارجع ! » قال : « لا بدّ أن أشيعك ! » . فأسرّ إلى بعض الحنانشة كلاما ذكره للشيخ فرجع . فلما فارقهم حمدوا الله تعالى على هذا الخلاص الجميل من يدي هذا الماكر الخبيث الذي أعجز بدّهائه ومكره كل ذي رأي . وكان من أمره بعد ذلك ما تقدم شرحه . ثم لو تتبّعنا الجزئيات الدّالة على حسن تدبيره وصحة آرائه لاحتجنا في ذلك إلى مزيد تطويل . وفي هذا الانموذج كفاية .



فكفالك أني سافرت من تونس إلى مكة زادها الله شرفا . ورأيت ماوكا وعلماء . وعاشرت خلقا من أهل العلم والأدب وغيرهم . فما رأيت أذكي ولا أفطن ولا أسرع فهما ولا أقوى عارضة منه . ولقد تعرض عليه كتب الإنشاء الصادرة عن أمره من إنشائي وإنشاء غيري من جهابذة كتابه فينتقد فيها أشياء كثيرة ، الصواب فيها معه . ومنها ما لا يكاد يتفطن إليه إلا أكابر الكتاب والمرسلين . وكلما عرضت عليه قصيدة لشاعر وكان فيها موضع للنقد إلا انتقده وبيّن مواضع الخطأ منها . وكثيرا ما يناظر علماء حضرته ويسبّتهم إلى الفهم في كثير من المسائل العويصة — جودة قريحة وسيلان ذهن — وما أنا أذكر لك مسألتين من المسائل المشكّلة التي تفرّد بفهمها وحل إشكالها دون غيره من العلماء الذين / وقع البحث معهم فيها ممّن حضر مجلسه العالي وقت المذاكرة وغيرهم ممّن عرضت عليه بعد ذلك . بل ولم يتوصل إلى فهم إحداهما مُحشّي « الدّر المختار » . فوقع في خبط عشواء وأوقع غيره من النظار .

### الأولى :

إن صاحب « تنوير الأبصار » قال في باب المهر : (ويجب مهر المثل في نكاح فاسد بالوطء لا بغيره) إلى أن قال : (وتجب العدة من وقت التفريق) فقال شارحه صاحب « الدّر المختار » شارحا لقوله : (وتجب العدة من وقت التفريق) — مازجا — ما نصّه : (وتجب العدة) بعد الوطء لا الخلوة لاطلاق لا للموت (من وقت التفريق) . فلما قرىء هذا الكلام بمجلسه السامي استشكل الفقهاء الحاضرون قوله (للاطلاق لا للموت) لأنه بعد ما قيّد وجوب العدة بكونه بعد الوطء كيف ينفي وجوبها للموت . وكيف لا تعتد إذا مات عنها في نكاح فاسد وقد وطئها ؟ فوجعت حاشية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الحلبي نزيل القسنطينية فإذا هو قد قال : (قوله للاطلاق) متعلق بتجب . وفي قوله بالطلاق نظر فإن الفرقة هنا فسخ لا طلاق . وأجيب بأن الطلاق قد يراد به التّرك كما سيأتي في نكاح الرقيق (قوله : لا للموت) أي موت الرجل قبل

الوطء . بخلاف الصحيح فإن العدة فيه تجب قبل الوطء لأنه لو مات بعد الوطء وجبت العدة قطعا كما يأتي في العدة . انتهى كلامه .

فاغتر الفقهاء الحاضرون بهذا الكلام من المُحشّي وقنعوا به . ورضوا به في دفع الإشكال . وخالفهم مولانا — أيده الله تعالى — قائلا : « إنه لم يزد المسألة إلا إشكالا ! لأن الشارح بعد ما قيّد وجوب العدة بما بعد الوطء كيف يُحمّل قوله : (لا للموت) على ما قبل الوطء ؟ وهل هذا إلا تهافت ؟ » وأجاب — أعزّه الله تعالى — بما حاصله : « إن الإشكال إنّما نشأ من قلة التدبّر وتعليق الطرفين في كلام الشارح — وهما قوله : للاطلاق لا للموت — بتجب في قول الماتن : (وتجب العدة) كما صرح به المُحشّي . وليس الأمر كذلك بل هما متعلقان بالعدة — أي حالا منها — والمعنى وتجب في النكاح الفاسد بعد الوطء عدة طلاق لا عدة موت . أي إنّها تعتد بالأقراء لا أربعة أشهر وعشرا . سواء مات عنها الزوج أو فُرقَ بينهما أو تاركها . وهذا هو الآتي في باب العدة . وقول المُحشّي : (لأنه لو مات بعد الوطء وجبت عدة الموت قطعا كما يأتي في باب العدة) سهو فاحش جرّد إليه تعليق الطرفين بتجب ! وبهذا يُعلم أن النظر الذي أورده على تعبير الشارح بالاطلاق فاسد . وما ذكره في جوابه غير محتاج إليه . هذا ملخص ما أجاب به — سدّد الله رأيه — مع زيادة إيضاح وبيان . فحينئذ أدّع عن أولئك الفقهاء وظهر لهم وجه الحق وأقروا له بما هو أهله من الفضيلة .

### والثانية :

أنه كان يوما بمجلس حكمه فعرض عليه الوزير الأجل رجب خزنة دار مسألة عشر عليها في بعض الكتب فلم يعلم وجهها . ولم يحضرني الآن ذكر الكتاب فأنقلها بلفظها . ومحصلها : أن جماعة من الناس اجتمعوا على أسد سقط في زبية وازدحموا عليه فاضطروا رجلا منهم بازدحامهم فسقط على الأسد في الزبية . / فتعلّق ذلك الرجل برجل آخر منهم . وتعلّق الآخر بثالث . فسقطوا جميعا في الزبية وهلكوا . فسئل عن ذلك أمير المؤمنين علي



ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - فقال للأول ربع دية والثاني نصف دية  
والثالث دية كاملة ! فاستدعاني - أيده الله تعالى - وسألني عن توجيهها . فطلبت  
منه المهلة لأراجع النظر فأمرهاني . فقبل أن يظهر لي وجه المسألة استدعاني  
ثانيا وقال لي : « هل يجوز أن يكون وجهها : أن الأول لما سقط بمدافعة  
الجماعة وجبت دية (1) كاملة في مالهم لأنه سقط بفعلهم . فلما سقط الثاني  
وجبت دية (1) أيضا كاملة لكن نصفها في مال الجماعة ونصفها في مال الساقط  
أولا الذي تعلق به . لأنه سقط بفعلهما معا ، والفعل منتصف بينهما بالتسبب  
والمباشرة . ثم لما سقط الثالث وجبت دية (1) أيضا كاملة . لكن نصفها على  
الذي تعلق به وهو الساقط ثانيا . وربعها على الساقط الأول وربعها على  
الجماعة لأنه سقط بفعل الجميع - والفعل منتصف بين الساقط أولا وبين  
الجماعة - فعلم من هذا أن الأول وجبت دية كاملة على الجماعة . ولزمه  
نصف دية الثاني وربع دية الثالث فلم يبق بيده إلا ربع دية . والثاني وجبت  
ديته كاملة على الأول وعلى الجماعة ولزمه نصف دية الثالث فلم يبق بيده إلا  
نصف دية . والثالث وجبت دية كاملة على الكل ولم يلزمه شيء فله الدية  
كاملة . ثم عرض المسألة على كل من يغشى مجلسه العالي من الفقهاء فلم يجبه  
أحد منهم بطائل . وقصاراهم أن يطلبوا المهلة للتأمل والمراجعة . ولهم العذر  
في ذلك إذ ليست هذه المسألة مما يدرك تعليله بالبديهة لغير من أيده الله تعالى  
بتأييد من عنده (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

## [اعتدال القوة الغضبية]

### واما شجاعته

فاعلم أولا : أن الشجاعة خصلة هي أم الخصال . وينبوع الفضائل .  
ومن فقدوها لم تكن فيه خصلة ، فكل كريمة تدفع ، أو مكرمة تكتسب ،  
لا تتحقق إلا بالشجاعة ، ألا ترى [أن الشخص] إذا أراد أن يمنح شيئا  
من ماله خار طبعه ، ووهن قلبه فشج به . فإذا حضر عزمه . وقويت  
(1) في ز : دية .

نفسه . وقهرت ذلك العجز أخرج المال المضنون به . وعلى قدر قوة القلب  
وضعفه يكون طيب النفس بإخراجه أو كراهيتها له ! وعلى هذا النمط جميع  
الفضائل ما لم يقارنها قوة النفس لم تتحقق . فبقوة القلب يصابر امتثال الأوامر ،  
والانتهاء عن النواهي . ويصابر اكتساب الفضائل . وينتهي عن اتباع الهوى  
والتضخم بالردائل ، ويصبر الجليس عن أذى الجليس ، وجفاء الصاحب ،  
وتكتم الأسرار ، ويدفع العار ، وتفتح الأمور الصعاب ، وتتحمل أثقال  
المكاره . ويصبر على أخلاق الرجال . وتنفذ كل عزيمة وروية أوجبها  
الحزم والعدل ، وتضحك الرجال في وجوه الرجال وقلوبها مشحونة بالضغائن  
والأحقاد . وليست الشجاعة والصبر وقوة / النفس أن يكون الرجل مصرا  
في المحال . لجوجا في الباطل . ولا أن يكون صبورا على الضرب والتعب ،  
مصمما على التغرير والتهور . فإن هذه صفة الحمير والخنازير . ولكن أن  
يكون صبورا على أداء الحقوق عليه ، صبورا على سماعها وإلقائها إليه ، غالبا  
لهواه . مالكا لشهواته . ملتزما للفضائل بجهد ، عاملا في ذلك على الحقيقة  
التي لا يحيلها عنه حياة ولا موت . كما قال علي للحسين - رضي الله عنهما :  
« يَا بُنَيَّ مَا يُبَالِسِي أَبُوكَ أَنْ لَوْ كَانَ الْخَلْقُ خَالِقُوهُ إِذَا كَانَ عَلَى  
الْحَقِّ » .

فهذا معنى الشجاعة على العموم المندرج فيه جميع الفضائل الداخلة  
تحتها . وبهذا تعلم وجه اندراج جميع الفضائل تحت الشجاعة ودخولها  
فيها ، لكن الكلام ها هنا الآن على الشجاعة بالمعنى الخاص وهو اقتحام الشدائد  
في الحروب وخوض غمراتها وثبات الأقدام في مقارعة أبطالها . فإن لمولانا  
- أيده الله تعالى - في تلك الشدائد المشهورة . والمواقف المشكورة ، والوقائع  
المنصورة . ما يشهد به العدو المعاند . ويُقرّ به المنكر الجاحد . فقد كان له في  
حرب يونس أيام منازلته القيروان ما اعترف به الجمهور . وتداولته الألسن على  
مر الدهور . وكان - أعزه الله تعالى - [متصديا] لكل ملامة . ولدفع كل شدة .  
فمن بعض مشاهدته الشاهدة له بكمال الشجاعة ، وتمام الفروسيّة والرجولة .  
ما أخبرني به [من أثق به] وسمعت من غير واحد أن القتال استمر بينهم وبين



يونس في بعض منازلته للقيروان مدة طويلة . فكان يونس يركب كل يوم في  
عساكره وجنوده ويخرج المولى الأمير . رحمه الله تعالى . في جنوده من القيروان  
ويقع بينهم مناوشات ومنازلات إلى وقت الظهر . ثم يرجع يونس إلى محلته .  
وقد جرت عادته أنه إذا انتهى إلى المحلة أطلق المدافع واستقر بها . فحينئذ  
يعود المولى الأمير إلى البلد . ويخرج السرح إلى المرعى . ويمكث مولانا - أيده  
الله تعالى - في سرية من الخيل لحمايته فلا يدخل البلد إلا من آخر النهار حين  
يرجع السرح . فاحتال له يونس في بعض الأيام فأظهر الرجوع إلى محلته  
كعادته وكمن بخيوله وراء الذراع . وأمر بإطلاق المدافع في المحلة . فعاد  
المولى الأمير إلى القيروان بجيشه وخرج السرح وبقي مولانا - أيده الله تعالى -  
لحمايته على الرسم . وسار حتى نزل تلقاء الذراع الذي كمن يونس خلفه .  
وسار يونس والذراع يحجبه إلى أن لم يبق بينهما إلا مسافة يسيرة . فأحسن  
به بعض أصحاب مولانا - نصره الله تعالى . فأسرع إليه وأندره به . فجال في  
عنق فرسه وركب من كان نازلا من أصحابه خيولهم وانكفوا راجعين .  
فأغار يونس في آثارهم فقاتلوه ولم يدركهم . فعطف على السرح فأخذه  
واستاقته خيوله . فصعب ذلك على مولانا - أعزه الله تعالى - وأدركته رجوليته  
وثار حميته . فعطف عنانه وكرّ راجعا لارتداد السرح . وقد انهزم عامة  
أصحابه ونكلوا - فلم يساعده إلا الحاج / علي بن عبد العزيز . وأبو الضياف  
ابن الغزالي . وعثمان بوحلوفة . فحملوا أربعتهم على تلك الجنود التي  
لا تحصي كثرة . فتمزقت الكتائب بين أيديهم - وأبو الضياف يقول :  
« ما بي إلا أن أموت على سعي جلاص » . فدافعوا دفاعا شديدا حتى انتزعوا  
السرح بتمامه من أيدي العدو ولم يبق منه إلا بعير واحد عاقه الشكال . فهم  
مولانا - أيده الله تعالى - بالانصراف فأبى عليه أصحابه وحلفوا أن لا يرجعوا  
إلا بالبغير أو يموتوا دونه . ولم يزالوا يقاتلون دونه حتى قطع أحدهم شكاله  
بسيفه ورجع به وضمه إلى جملة السرح ورجعوا به ظافرين . وقد خرج المولى  
الأمير من القيروان لمّا أتاه الصريخ فوجدهم قد فرغوا من شأنهم . وجرح

[73 - ب]

في ذلك اليوم أبو الضياف بن الغزالي . أصيب بجبة على ركبته فكان فيها حتفه  
رحمه الله تعالى . ومات على سعي جلاص كما قال .

وفي بعض تلك الأيام أغارت أولاد مناع على سعي أهل القيروان وهم نحو  
أربعمائة فارس فاستاقوه ، فأدركهم مولانا - أبقاه الله تعالى - ومعه الحاج علي  
أيضا فدافعوا عنهم عنه وانتزعوه من أيديهم . وبقيت منه بقرة واحدة بأيديهم ،  
فحمل عليهم الحاج علي لانتزاعها منهم . فقالوا له : « قاتلك الله دعها لنا  
نتعشاها » . فقال : « لا والله إن ربها أوصتني بها » ! فلما رأوا الجدد تركوها  
وانصرفوا ! وقالوا له : « خذها لا بارك الله لك فيها ! » وأمثال هذه الوقائع  
لو حكى عن ربيعة بن مكرم . أو عتيبة بن الحارث بن شهاب . أو دريد بن  
الصمة . أو عنترة العبسي (١) وأمثالهم من فرسان العرب لعد في مناقبهم  
وتحدث به من جملة ما أثرهم .

وقد تقدم في جملة أخباره - أبقاه الله تعالى - أن أخاه المولى محمد باي - رحمه  
الله تعالى - أيام مقامه بسوسة أرسل إلى أبيه بمكانه من القيروان يستصرخه على جنود  
علي باشا وهم بالقلعة الصغيرة قد أشجوه . فأمدّه بمولانا - أيده الله تعالى - في  
جيش من القرويين . فنزل على سوسة وعسكر بظاهرها . وأقبلت المثلث  
مددا لأهل القلعة ولمن بها من جند علي باشا . ودسّوا إلى المولى محمد باي  
أن المثلث أقبلوا وتركوا حللهم حوالي جمّال خالية من الحامية . فطمع فيهم  
وأركب الخيل لتبببتهم وأمر مولانا أن يبعث خلصان خيله معهم - وكانت  
عنده كتيبة مختارة شجاعة وبسالة وفروسية يقتحم بهم كل شدة . ويخوض  
بهم كل غمرة - فأبى عليه وقال له : « هؤلاء لا يفارقوني ولا أفارقهم »  
فلما شئت سرت معهم . فأعفاهم . ولما فصلت الخيل عن سوسة بلغ خبرهم  
إلى جند علي باشا بالقلعة الصغيرة فانتهزوا الفرصة وصبّحوا محلة مولانا - أيده  
الله تعالى - بموضعها من ظاهر سوسة - وكان - أعزه الله تعالى - باثنا بالمدينة عند

(١) هؤلاء أشهر مشاهير فرسان العرب في الجاهلية وبهم تضرب الأمثال . فربيعة فارس مضر .  
وعتيبة فارس تميم . ودريد فارس هوازن . وعنترة فارس عبس . والآخران شاعران  
ممتازان . راجع الزركلي للاطلاع على تراجمهم ومصادرهما .



أخيه — فلما سمع هبة الغارة أمر بفتح باب المدينة . فامتنع أهلها خوفاً من هجوم العدو عليهم . فعتفهم وقال لهم : « كيف تؤخذ / محلنا ونحن ننظر من وراء الجدران ؟ افتحوا الباب ! » ففتحوه له ، فخرج وخرج المولى محمد باي فوقف بظاهر البلد ، وتعرض مولانا — أعزه الله تعالى — في نحو العدو يدافعهم . فاستنبطن أكثر خيله مسيل ماء هناك وسار هو مستعليا ومعه قليل من الفرسان ورجال القرويين ، فأجهضه العدو بالرماية وتكاثروا عليه . فألوى عنانه إلى البلد وأدركه العدو يتخطفون الرجال حواله ، ودخل خيله الذين استبطنوا مسيل الماء في غمار العدو فلم يشعروا بهم لكثرتهم وقلة تلك الخيل فيهم . ودخل المولى محمد باي البلد . ونزل أهل سوسة من أعالي السور هرابا إلى بيوتهم . فلما رأى مولانا — نصره الله تعالى — شناعة تلك الهزيمة سمت به همته العالية فنادى في أصحابه بالكرة وعطف عنانه نحو العدو وهم ألوف ولم يبلغ عدد من بقي معه من الفرسان العشرة . فلما رأوا صدق كرتيه أقصروا عن شأوهم وأحجموا . فلما رأى ذلك من دخل في غمارهم من أصحابه ثابت إليهم نفوسهم ورجعت إليهم عزائمهم فضرب كل واحد منهم من يليه من العدو . فلما رأوا ذلك ارتابوا وظنت المخازنية أن العرب غدروا بهم وظن العرب أن المخازنية غدروا بهم . فسقط في أيديهم جميعا وكانت هزيمتهم . فولوا لا يلوي أحد على أحد . وتبعتهم خيل مولانا — أيده الله تعالى — تقتل وتأسر وتنهب إلى القلعة الصغيرة .

ولما كان ركابه العالي مستقرا بضاحية قسنطينة خرج حسن باي بالمحلة فوافاه — أيده الله تعالى — بها . ووفد عليه رجب بن أحمد الصغير — وهو إذ ذاك يتولى أمر الخانشة بعد مهلك الشيخ أبي عزيز بن نصر — وكان في نفس حسن باي منه شيء — فاعتقله وعزم على غزو ناجعته وتصبيحها . وأمر مولانا — أعزه الله تعالى — أن يركب إلى ناجعته ويبعث إلى محمد بن سلطان ابن عم رجب فيستنفره . وعهد إليه أن يوافيه صباحا للغارة على ناجعة الخانشة أصحاب رجب ، فركب — أيده الله — وسار بقية يومه وليلته ومعه نحو عشرين فارسا من أتباعه فأصلوا الطريق ، ولم يهتدوا إلى صوب ناجعته . ولما أصبحوا وجدوا

أنفسهم قد أبعدوا . فرجعوا على آثارهم — وقد فاتهم ما قصدوا إليه — وكان حسن باي قد صبح ناجعة الخانشة فأخذهم في صبح ذلك اليوم وتشردت خيولهم منهزمة ، فلما ارتفع الضحى أقبلت طائفة منهم فصادفت مولانا — أيده الله تعالى . فلما ترآى الجمعان عرفهم وعرفوه . فخافهم على نفسه ، وامتدت أطماعهم إلى القبض عليه ليستخلصوا به صاحبهم ، فحملوا عليه فثبت لهم وأمر الحاج علي بن عبد العزيز أن يحمل عليهم فحمل . ثم حرض مولانا — أعزه الله تعالى — حسينا بوطاغان على الحملة ، وعيتره ووبخه ، فحمل عليهم أيضا . فانهزمت خيل الخانشة وولوا الأدبار ، ورجع الحاج علي وحسين بوطاغان إلى موقفهما . فبينما / هم كذلك إذ طلعت عليهم أعنة [ 74 ] الخيول من كل ناحية . فقال مولانا — أعزه الله تعالى — لأصحابه : لا يرمهم أحد منكم ! فإنكم إذا رميتموهم فاخطأتم تجاسروا علينا ! ولكن ناولوني مكاحلكم واحدة بعد واحدة فأرميهم بيدي فإنه إذا كانت كل رمية تردي فارسا منهم منعهم ذلك من الإقدام علينا — وهم يعلمون أنه — أيده الله تعالى — أرمى الناس لا يكاد يخطيء في رميته — فتكاثرت عليهم الخيل وأقبلوا من كل أوب وأحدقوا بهم من كل جهة ، فلما رأى مولانا — أيده الله تعالى — كثرتهم علم أنه لا طاقة له ولمن معه بهم ، فرجع إلى رأيته السديد وعقله الثابت الرشيد فناداهم : « يا ميعاد الخانشة أنا فلان ، فمالي ولكم ؟ وإن صاحبكم رجب بن أحمد الصغير قد مات قتله حسن باي . وولتي عليكم مكانه ابن عمه محمد بن سلطان — جعله الله مباركا عليكم . وإنه قد وجهني حسن باي لآتيه به فيخلع عليه ويعقد له على الخانشة » . وعلم من هذا الكلام أنه يخلصه منهم لأنهم إنما يريدون أن يقبضوا عليه ليخلصوا صاحبهم وحيث هلك فلا معنى للقبض عليه إلا زيادة في عداوة حسن باي . ولأنهم يسرهم ولاية محمد بن سلطان بعد رجب . وإنما يكرهون أن يتولى عليهم سديره بن أبي عزيز . فلما سمعوا هذه المقالة ترجلوا عن آخرهم وأقبلوا نحوه وقبلوا يده واعتذروا إليه بأنهم لم يعرفوه . ثم ركبوا خيولهم وفارقهم وانصرف راجعا . وهذه الواقعة تشهد بكمال الشجاعة والثبات والشهامة والنجدة وغاية كمال التدبير



لا سيما في ذلك الموقف الضئيل . وجودة الرأي وصحة التمييز . قال أبو الطيب المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان      هو أول وهي المحل الثاني  
فإذا هما اجتماعا لنفس حرة      بلغت من العلياء كل مكان  
ولربما طعن الفتى أقرانه      بالرأي قبل تطاعن الأقران

وفي أيام مقاتلته لعلي باشا بتونس خرجت عساكر تونس من متارسهم رجالة وخيالة وقصدوا محلة الجزيريين بمكانها من « معيزة » . فخرجوا إليهم . وركب حسن باي والمولى محمد باي ومولانا - أيده الله تعالى - في خيولهم . والتقى الفريقان . فلم يلبث الجزيريون أن انهزموا وولوا الأدبار . وتبعهم عسكر تونس . وولّى حسن باي . وتبعه المولى محمد باي وكانت الهزيمة لا شك فيها . فثبت مولانا - أيده الله تعالى - واقتضى نظره الصائب أن تعترض للمهتارية فحبسهم كرها . وأمرهم بضرب طبولهم وسرياناتهم وأبواقهم لتثبيت المهزيمة . وأتى إبراهيم بن أبي عزيز شيخ الحنانشة فعاتبه على الفرار من غير كبير قتال فثبت معه . وتكلم مع الحنانشة فقالوا إنما نحن تبع للترك وقد انهزموا فما يغني دفاعنا ؟ فسار إلى الترك - وهم منهزمون - فعاتبهم ولا مهم على فرارهم من غير / مدافعة ! فاعتذروا بفرار أميرهم - لأن حسن باي بادر بالهزيمة - وقالوا أين الباي ؟ فقال لهم : أنا الباي وها أنا ذا معكم ! ورضهم وحرك من حميتهم ببعض ما قال لهم ! فكروا معه راجعين . وكرت الخيل وثبتوا للقتال . أخبرني - أيده الله تعالى - قال : « ما فعلت الذي فعلته من ثباتي وتثبيت العساكر طمعا في عود الكرة لنا ولا رجاء للغلبة ! لأنني لما رأيت تلك الهزيمة الشنعاء أيسر من ذلك . وإنما أردت أن يستمر القتال برهة ربما ينجو أخي بنفسه حتى لا يدركه الطلب لأنه لم يكن له طاقة على شدة الركض لثقل جسمه - رحمه الله تعالى - فقلت أشاغلهم عنه حتى ينجو . فلما ثبت الجزيريون وعادوا الكرة لم يلبث عسكر تونس أن انهزموا واستمرت بهم الهزيمة إلى أن دخلوا متارسهم - وكانوا قد خرجوا على غير تعبئة ولا لنظر

[75 - أ]

رئيس يدير أمرهم . وأميرهم محمد باي بن علي باشا جالس داخل المترس ينظر بالمرآة . فلما رأى هزيمة عسكره جعل يبكي ويخضع لرؤسائهم جينا وخورا وسوء تدبير . ومن ذلك اليوم استفحل أمر الجزيريين وأخذ أمر علي باشا وابنه في الانحلال والتلاشي . إلى أن كان ما تقدم ذكره من أخذ تونس ودخولها في التاريخ المذكور . فدخلها مولانا - أيده الله تعالى - هو وحسن باي وقصدا دار الباي التي أسفل القصبة وبها عيالات علي باشا ليستوفي حسن باي ما عندهن من الحلي والجواهر ، فدخل مولانا - أعزه الله تعالى - وأمر النساء أن يعتزلن في الحجر ووضع كرسيًا بصحن الدار وأجلس عليه حسن باي ، ودخل هو - أيده الله تعالى - على زوجه الجليلة ابنة علي باشا فأمرها أن تجمع له ما عندهن من الحلي ، فأخرجت له من ذلك شيئا كثيرا . وخرج به فتیان من الخصيان فوضعوه بين يدي حسن باي ، فلم يرضه وطلب إحضار ما بقي . فرجع مولانا إلى زوجه وأمرها أن تخرج له جميع ما بقي عندهن . فأخرجته له . فلم يرضه حسن باي أيضا . وقال له مولانا : لم يبق عندهن شيء . قد أتيتك بجميع ما عندهن ! قال : لا حتى أدخل بنفسني وأنظر هل بقي شيء ؟ قال له : كيف تدخل على الحرم وفيهن زوجي ؟ قال لا بد من ذلك ! فحاوله فليج وصمّم على الدخول ! فأظلمت الدنيا في عيني مولانا - نور الله بصيرته - وقال : « قبح الله ملكا يجيء بمثل هذا » ! وشم حسن باي وعمد إلى مكحلة من وسطه فاجتذبتها وسوى زنادها ليرميها بها ! فلما رأى حسن باي منه العجدة فرّ من بين يديه . وخرج هاربا يعدو إلى فرسه فركبه - وهو لا يصدق - ورجع إلى محلته وأصبح يتجنّى ويتعال ويقول : علي باي يوم أدخلته بلده أراد أن يقتلني ! فكان هذا من أسباب خروج مولانا - أيده الله تعالى - على الإثر إلى صفاقس وإقامته بها إلى أن ارتحل حسن باي من تونس . فانتقل المولى محمد باي في يوم رحيله من القصبة إلى باردو . وفي عشي ذلك اليوم ثار عسكر تونس واجتمعوا ببطحاء القصبة ودخل معهم طائفة من طغام عسكر / الجزائر تخلّفوا [عن محلّتهم وسوّلت لهم أنفسهم أن يملكوا البلد . وينصبّوا لئلاّمر رجلاّ منهم . إلا أنهم أحجموا عن ذلك ولم يصرحوا به . وأخذوا يتعلّون بأن



فهذا الوصف من الأوصاف اللازمة للملوك غالباً في زمن ملكهم ، نعم قلّ من يسلم منهم مع ذلك من رذيلة الكبر ! وإنما يعرف مقدار كِبَرِ نَفْسِ المَلِكِ إذا تخلّى عن ملكه ، وألجأته الضرورة إلى غيره ، ودخل تحت مملكته — خصوصاً إن كان عدوّاً له — وقد تغرّب مولانا — أعزه الله — عن ملكه ، وفارق مستقرّ عزّه وسلطانه ، ودعته الحال إلى التنقّل في أحياء العرب ، وعقد الدّمام من رؤسائهم ، والاستجارة بجوارهم ، ثم الالتجاء إلى أمراء الترك بقسطنطينة والجزائر ، فلم يُرَ خاضعاً ولا متخشّعاً له ، ولا واضعاً من نفسه عنده . بل كان في جميع / ذلك مُعزّزاً مكرّماً وافر الجاه والحرمة . عالي الهمّة . حافظاً لناموس الملك ، لم يغير شيئاً من سمته ، وهدية ، ووقاره .

ولما وفد على حسن باي صاحب قسطنطينة — أول لقاء لقيه — ترجّل له حسن باي عن فرسه وعانقه ، فاستمرّت الحال بينهما على ذلك كلّما دخل عليه قام له وعانقه ، فلمّا طالّت المدّة أنكر ذلك من نفسه ، وكأنه أنف من القيام له لما فيه من العجرفة — مع ما في نفسه من العداوة — فتكلّم في ذلك مع نصر بن أبي الضيّاف الرزقي — وكان مختصاً به — وقال له : « لِمَ لم يقبل يدي وأنا في مقام والده ؟ » وأمره أن يكلمه في ذلك ! فأثنى نصر بالخبر إلى مولانا — أعزه الله تعالى — وقال له : « أنت محتاج إلى هذا الرجل في نصرتك واسترجاع ملكك . وقد علمت فساد باطنه معك ، فلو صانعته بتقيل يده كان أرجى لاستصلاحه ودفع غايته ؟ » فقال له : « أخبره عني لما جئته أول مرة جئته مستنجداً به لأبي — رحمه الله تعالى — مستصرخاً له على عدوه الذي ضيق عليه وأشفى على استئصاله ، فلو أمرني في ذلك الوقت بتقيل رجله لفعلت لاستنقاذ أبي وأتوصل بذلك إلى مرضاته ، فإذا هو قد ترجّل لي عن فرسه وعانقني ومشى الأمر بيننا على ذلك ، فالآن — حين مات أبي وفات ما كنت آمله من عود الكرة له — يطمع مني أن أقبل يده ؟ وأي شيء أرجوه إلاّ الإعانة على استرجاع الملك ؟ فقبح الله ملكاً يأتي بالذلّة والمهانة ! والله لا

العرب ضايقوهم في المساكن والملابس . وصار الجند لا يتميز منهم . وأشياء غير ذلك لا حقيقة لها . ودخلوا ربض باب السويقة وعاثوا فيه ونهبوا وقتلوا نحواً من ستين نفساً ثم فرقهم الليل . ومن الغد اجتمعوا ببطحاء القصبة أيضاً وتكاثروا ودخل معهم من لم يشهدهم بالأمس . وركب الدّاي مصطفى قزدغلي . وأظهر أنه يسكنهم وهو يحرضهم في الباطن — زعموا — ومنته نفسه الأمانى ، ولما تم اجتماعهم خرجوا من البلد وقصدوا المولى محمد باي بمكانه من باردو ، فارتاع لذلك ، وتخوف خوفاً شديداً . وأمر بغلق الأبواب . ووجه إليهم المدافع ولم يكن معه بباردو إلاّ نفر من أتباعه . فلمّا توسطوا الطريق توقفوا وتأمروا فيما بينهم . ثم رجعوا — تخذّلاً من الله تعالى لهم — ومن الغد أصبحوا مجتمعين ببطحاء القصبة أيضاً . وقد كان المولى محمد باي طير الخبر إلى مولانا — بمكانه من صفاقس — من أول ثورتهم واستعجله للقدوم عليه . فوصل إليه الخبر في أسرع وقت . فركب لحينه وسار ليله ونهاره . وطوى المراحل ، فدخل باردو عشياً واجتمع بأخيه واشتدّ به عضده . ولما أصبح الصباح ركب إلى تونس . فقبل له : « إن هذه ثورة عظيمة ويخشى عليك من بادرة تبدر من بعض طغام الأتراك فلا تأتهم ! » فلم يقبل حتى أتى القصبة . فأشير عليه أن يجلس بسقيفتها في مجلس الحكم لأنه أهبب . فأبى وجلس خارجها ببطحاء القصبة . وأرسل إلى رؤوس الثورة من عسكر تونس وعسكر الجزائر . فأقبلوا إليه متقلدين أسلحتهم ! فقبل له : « مر بوضع أسلحتهم ! » فأبى وقال : « إذن يعتقدون أن في قلوبنا هيبة لهم ! » فلمّا مثلوا بين يديه شتمهم ووبّخهم وعنفهم حتى كادوا أن يُقضى عليهم من الرّعب وحتى أن أحدّهم بال في سراويله من شدة الخوف ! وقال لعسكر الجزائر : « من وجدته منكم بتونس بعد ثلاثة أيام ضربت عنقه ! » وردّهم ولم يعاقبهم بأكثر من التعنيف — سياسة اقتضاها الحال — فرجعوا وقد انحلت أمرهم وسكنت ثائرتهم وكفى الله المؤمنين القتال . ثم بعد ذلك تتبّع المولى محمد باي أكابرهم فأبادهم ، وخضد شوكتهم . وصفا له ملكه .



فعلت ذلك أبدا - يترتب عليه ما يترتب - فعاد نصر ابن أبي الضياف بهذا الكلام إلى حسن باي فسكت وأيس مما أراده منه ولم يعاود الكلام فيه .

### واما كرمه

فشيء لم تسمح به الأيام . ولا اهتدت إلى مواقعه الأفهام . ولا عثرت عليه في سالف الحقب الكرام . وها هنا حكاية غريبة في بابها أقدمها بين يدي ما نقصه من مكارمه لما اشتملت عليه من الدلالة على الكرم . والنزاهة . وكبر النفس . والمواساة . والإيثار : وهو أنه كان في بعض أيام تجولاته في الصحراء قد نفذ الزاد عنده وانقطعت عليه الميرة . فكان يؤتى إليه كل يوم برغيف وشيء قليل من التمر فيقسم ذلك في أصحابه فينال كل واحد منهم قطعة من الرغيف وتمرات . ويناله من ذلك حصة كأحدهم لا يزيد على ذلك . حتى بلغ ذلك منه كل مبلغ . وأضر به الضعف . وصار إذا قُدّم إليه فرسه ليركبه لم يستطع أن يركبه إلاّ معتمدا على غيره . فأتاه يوما خزن داره الزاوي بصحفة فيها خبز مفتت بسمن وتمر ودخل بها إلى محل خلواته ووضعها بين يديه . وقال له : « كل هذه لتتماسك بها ! » فقال له : ادع أصحابنا يأكلوا معنا منها ! فقال الزاوي : الطلاق لازم له إذا أكل [واحد] منها شيئا ! وكيف يكون ذلك وقد أضرّ بك الجوع وأكثرهم عنده بقايا الزاد يخفيها ؟ فحلف مولانا - أيده الله تعالى : لا أكل منها شيئا وقال له : « تريد أن يتحدث الناس عني أنني استأثر بالزاد دون أصحابي وهم هلكى من الجوع ؟ إن كان الله تعالى قد قدر لي / الحياة فأنا أعيش بدون صحفتك هذه . وإن قدر لي غير ذلك فما هي تغني عني شيئا . وكنت على الحالين كريما غير لئيم ! » فقال له : يا سيدي أطلق امرأتى وأدعوهم ليأكلوا معك ؟ قال لا والله لا أكلت منها وإن شئت فادعهم ! فدعاهم فأكلوها وما ذاق هو منها شيئا ! وما هذه القضية ببعيدة من قضية كعب بن مامة (1) في الماء التي يضرب بكرمه الأمثال من أجلها إلى الآن .

(1) كعب بن مامة البادي كريم جاهل يضرب به المثل في الكرم والاسرار . وهو صاحب القصة المشهورة في الإيثار مورد المثل « اسق الخاك النمرى » . انظر المبدئي : 346 .

وفي بعض تلك الأيام أيضا وهو بناحية (تقّرت) نفدت نفقته ولم يبق معه إلا عدد قليل من الدراهم . فأتاه رجل ضعيف ومعه بنية له تحمل فوق رأسها طبقا بالتمر فأهداه له . فاستدعى خزن داره الزاوي وقال له : « كم بقي عندك ؟ » قال : كذا وكذا . قال أعطه لهذا الرجل ونصنع الآن ما كنا صانعين غدا أو بعده إذا نفذ كل ما عندنا من النفقة ! فدفعه الرجل وبقي لا يملك درهما ولا دينارا ، فلمّا كان بعد يومين أو ثلاثة أتاه علي القرين رسولا من والده المولى الأمير - رحمه الله تعالى - أرسله إليه من مكانه بالقيروان بمال للنفقة فاتسعت به حاله .

ولمّا كان نازلا بالنمامشة بعد ارتحاله من ضاحية قسنطينة نفدت دراهمه أيضا . ولم يبق عنده إلاّ أربعة دنانير ذهب لا يملك غيرها - وقد نال منه ومن أصحابه الضر - فاشترى بها حملا من التمر فأخذ عدلا منه لنفسه وتوزّع أصحابه العدل الآخر - وكان أكثرهم أو كلهم عنده الدراهم ويعلمون أن نفقته نفدت ولم تسمح أنفسهم بدفع ثمن ما أخذوه لأنفسهم - فضاقت نفسه من ذلك وضجر من طماعيتهم فيه . مع علمهم بنفاد نفقته ووجود الدراهم عندهم ! حتى همّ أن يكلمهم بذلك . ثم رجع إلى كرمه وقال : إن لئوم أصحابي فلا ألوم معهم . وما عسى أن تغني هذه الدراهم ! فلم يمض له على ذلك إلا أيام وجاءه رجل أعرابي لا يعرفه وذكر له أن والده المولى الأمير كان قد استودعه غنما وأنه باعها وأتى بثمنها الفي ريال فقبضها منه وانصرف الرجل ولم يعرفه إلى الآن ! وهذه كرامة أكرمه الله تعالى بها لا شك فيها . وهكذا صنع الله تعالى معه في غالب أحواله . فعليه - أيده الله تعالى - أن يزيد في شكر أنعم ربّه ويقابلها بما هو أهله من مزيد الإحسان إلى خليقته والرافة بهم حسبما هو دأبه - ضاعف الله إحسانه لديه . فهذه كانت أحواله في ساعة العسرة ووقت الخصاصة .

وأما عطاياه وجوائزه وإحسانه وصدقاته الجارية بعد عوده إلى ملكه واستقراره على أريكة السلطنة فشيء لا يستوعبه الحصر . ولا يكآثره القسطر .



ولو أخذنا في استقصاء جميع جزئياتها لاحتجنا إلى تأليف مستقل . فإن عطايه ... أيده الله تعالى -- مستقلة متتابعة متواصلة على ممر الأيام . خصوصا على فقهاء حضرته ومن اختصهم منهم لسمه -- فلا تخلو ليلة من الليالي لا ينالهم منها إحسان . ولقد وصل إلي من إحسانه -- أيده الله تعالى -- في أقرب مدة ما لا أذكره لثلا أنسب إلى التزيد . وخصوصا / أيضا على الغرباء الوافدين على حضرته من المشرق والمغرب . فقد بالغ في مراعاتهم . وإيصال الإحسان إليهم -- لا سيما من كان منتسبا منهم إلى علم أو صلاح -- ولقد ورد على الحضرة سنة اثنتين وتسعين شاب اسمه عثمان يدعي أنه من ولد الأستاذ الأكبر عبد القادر الجيلاني -- رضي الله عنه -- مجرد دعوى عارية عن الدليل إلا ما أخبر به بعض من رآه بمصر من حصول القبول له بها . والتسليم لدعواه -- فأقام بالحضرة نحو من أربعة أشهر وصل إليه فيها من ناحية مولانا -- أيده الله تعالى -- ما ينيف على عشرة آلاف ريال ما بين كسوة ومال وتحف و غلام أفرنجي باعه بالف ومائتين وغير ذلك . مع أنه في نفسه لا يرجع إلى صلاح ولا إلى علم بل الغالب عليه الطيش والتهور . إلا بمجرد انتسابه المذكور . إلى غير ذلك من إحسانه للشعراء والأتباع والخدم والعساكر والأعراب . وغيرهم ممن أغنى فيه عن الخبر العيان . لكننا نذكر من ذلك ما كان المقصود منه ما عند الله تعالى مما هو خير وأبقى .

قد تقدم أنه تفضل على الفقهاء وطلبة العلم بمال الجزية كله في جميع عمله على كثرته . وزادهم على ذلك ما يقاربه أو يساويه حتى حصل النفع لجميعهم على ما فصلناه سابقا . وهذه إحدى الحسنات العظام والخيرات الجسام التي وفقه الله تعالى لأحراز ثوبتها . وألهمه نيل فضيلتها .

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين صدر عنه في جانب المتقاعدين من العسكر مكرمة لم يسبق إليها ! وذلك أنه قد جرت العادة في الديوان المنصور أن من كبر سنه من العسكر . وضعف عن السفر . أو حصلت له زمانة أو غيرها من الأمراض العائقة عن الحركة ولم يكن قد خدم الديوان بمرتبة من مراتب

[77 - أ]

ولايته فإنه يعفى عن الخدمة والأسفار وحراسة الثغور وينقص من راتبه ويرد إلى مقدار يسير . وتسمى هذه الطائفة المتقاعدين -- فلما علم -- أيده الله تعالى -- ضعف حالهم . وأن المقدار الذي ردوا إليه لا يكفيهم اقتضى نظره السديد أن يزيدهم في مرتباتهم رفقا بهم وشفقة على ضعفهم . فأمر أن تجرد أسماؤهم في جريدة ويعرضوا عليه وباشر ذلك بنفسه . ونظر في أحوالهم وزاد في أعظياتهم على حسبها . فمنهم من رده إلى عطائه الذي كان يأخذه زمن الخدمة . ومنهم دون ذلك على ما اقتضاه النظر في أحوالهم . ومن كانت فيه أهلية واختار الخدمة رده إلى عطائه الأول وأخرجه من ديوان المتقاعدين ورسمه في ديوان الخدمة . ثم زاد في راتب معزولي الأغوات على المقدار الذي يردون إليه حين تنقضي خدمتهم . وذلك أن الرجل من العسكر يتوصل إلى أن يصير بلوكباشي ويترقى في المراتب إلى أن يصير آغا العساكر بالديوان المنصور . فيمكث كذلك ستة أشهر ثم يخرج فلا يدخل الديوان بعد ذلك ولا تبقى له خدمة أصلا . وسمي معزول آغا . ويرد راتبه -- كائنا ما كان -- إلى عشرين ناصريا (1) . وأكثرهم يكون راتبه قد بلغ / النهاية وهي تسعة وعشرون ناصريا . فرسم -- أيده الله تعالى -- أن يردوا إلى أربعة وعشرين ناصريا بزيادة أربعة ناصرية على القدر الذي كانوا يردون إليه -- إعانة لهم . ونظرا لمصلحتهم -- ثم نظر -- أيده الله تعالى -- في مصلحة أخرى عظيمة النفع والفائدة لا تصدر إلا عما من سمت همته إلى مراعاة مصالح الرعية . وذلك أنه قد جرت العادة في الديوان المنصور أن من بلغ راتبه اثني عشر ناصريا وكان له ولد رسم اسمه في الديوان بنصف ناصري . فإن مات والده بعد ذلك كمل له ناصري

[77]

(1) الناصري : عملة صغيرة نحاسية مجزأ إليها الريال الفضي الذي كان وحدة المعاملات الأكثر شيوعا كما يؤخذ من الرسوم القديمة . وأما الوحدة الذهبية فيعبر عنها بالدينار والمحجوب . والتعامل بها قليل وهما رقتان بالريال مختلفة حسب الوزن والزيغ . والظاهر أن الناصري منسوب إلى ناصر بن عبد المؤمن الذي احتل تونس وطرد عنها الموارقة ووضع بها أساس الدولة المفضية في أوائل القرن السابع ومن آثاره بها تعديل العملة التي تدهورت بتراكم الفتن والنزوات فنسب له هذا الناصري . لكن نسبته إلى الوحدة المجزأ منها كانت تختلف باختلاف العصور والزيغ . وفي آخر عهده بالوجود -- قبل الاحتلال الفرنسي -- كانت نسبته من الريال كما يأتي : قال بيرم الخامس في صفوة الاعتبار 3 : 50 : والريال منقسم إلى نصف وربع وثمان وخروبة وهي نصف الثمن وتساوي ثلاثة نواصر وربع . وتحقيق هذا الموضوع يرجع فيه إلى أهله وإنما اتينا بهذه الملاحظة لتقريب القدرات التي يذكرها المؤرخ للأفهام .



ويسمى « ناصري اليتيم » إلى أن يكبر ويرسم في الديوان فلا يحتاج حينئذ إلى تعريف به لأن اسمه مرسوم هناك . ومن لم يبلغ راتبه اثني عشر ناصريا لم يرسم اسم ولده في الديوان . فإن مات وكبر الولد واحتاج إلى الإثبات في الديوان فربما تحصل له مشقة . إن لم يكن معروفا مشهورا فإنه يطالب بإثبات نفسه . فرأى - أيده الله تعالى - في المصلحة أن يرسم أولاد من ماتوا قبل استكمال اثني عشر ناصريا بنصف ناصري بمجرد موت آبائهم ليكون ذلك حفظا لأسمائهم في الديوان مع ما يحصل لهم من النفع بما يأخذونه - وإن كان يسيرا - سيما من كان منهم فقيرا . ومن وقف على هذا الفصل من كلامنا ولم يعلم أحوال الراتب وتشديد الملوك السابقة في شأنه وضبطهم له ومبالغتهم في الاحتياط عليه ربما استصغر هذه الأمور - وليس الأمر كذلك - فقد كان أمر الراتب قبل إيالة مولانا - أدام الله تعالى وجوده - في غاية الصعوبة لا تكاد تجد ملكا من ملوك إفريقية يتساهل في السير منه . ولقد رأيت دفتر محمد باي بن مراد في سنة ولايته الثانية وهي سنة سبع وتسعين وألف فوجدته قد نقص من رواتب الفقهاء كلهم إلا أفرادا حتى أن راتب الشيخ النقيص مصطفى بن عبد الكريم مفتي الحضرة قد كان كاملا تسعة وعشرين ناصريا فردّه إلى ثمانية عشر ناصريا ! ولقد ألزم علي باشا كثيرا من الفقهاء السفر والخدمة أو يتركوا الراتب ! وعزل كثيرا من المؤذنين بجوامع الحنفية ليخدموا ! ولم يقرّ بها إلا من لا راتب له . أو من كان مسرحا من الخدمة بسبب آخر غير الأذان . ولقد كان الفقيه من الحنفية يقرأ العلم السنين المتطاولة ويبلغ في مرتبة المدرسين ولا يتوصل إلى سراح راتبه . ومولانا - أيده الله تعالى - قد سرح رواتب أكثر الطلبة المبتدئين في أوائل بداية طلبهم وأعفاهم من الخدمة إعانة لهم على طلب العلم وحرصا على تكثير العلماء حتى بلغ عددهم ..... (1) وأين هذا مما صدر من مراد باي ابن علي باي ابن مراد آخر ملوك بني مراد المتقدم المذكور فإنه وقع بصره يوم الصّف في آخر خَرَجَةٍ خرجها بالمحلة سنة أربع عشرة على محمد شبشاره رئيس المؤذنين

(1) هذا الموضع يماثل بجمع المسح . فلعن المؤلف تركه كذلك الاستدراك بعد الإحصاء الثاني .

بجامع جده حموده باشا فقال له : ألسنت عسكريا ؟ ما لي أراك بغير سلاح في مثل هذا الموكب ؟ وأمر بالقبض عليه وسجنه ثم أرسل به من الغد إلى الديوان وأمر / أن يضرب ثلاثمائة سوط وأن يرد بعد ذلك إلى السجن - وكان شيخا مسنا ضعيفا - ثم أمر بالقبض على جميع المؤذنين بجوامع الحنفية الثابتين في الراتب وأرسلهم إلى الديوان وأمر أن يضرب كل واحد منهم خمسمائة سوط ثم سجنهم بعد ذلك . وأرسل طبيبه لاختبار أحوالهم هل تضرروا بذلك الضرب أم لا ؟ فمن لم يجد على جسده آثارا سيئة من الضرب أمر بإعادة الضرب عليه ثانيا وكان من جملتهم الشيخ أبو العباس أحمد برناز والشيخ الكبير بن الشيخ المفتي أبي الحسن علي الصوفي - وكان لطيف البنية قد غلبت عليه الحضارة فحصل له من ذلك ألم شديد - وكانت واقعة تقشعر منها الجلود . لا جرم كان ذلك يوم السبت لست خلون من المحرم فلما كان يوم السبت الذي بعده لثلاث عشرة خلت منه أتى برأسه على رمح وطيف به في الأسواق وشاهده أولئك الفقهاء المظلومون ! وأنت إذا تأملت بعين البصيرة وجدت مقتضى المقابلة قاضيا بدوام ملك مولانا - أدام الله تعالى - وجوده . ودالا على طول أمد دولته - حرسها الله تعالى .

وله - أيده الله تعالى - أوقاف جليّة أوقفها على وجوه كثيرة من وجوه البر .

فمن ذلك : المدرسة (1) الرفيعة التي أحدثها بساباط عجم - من أحسن المدارس وأبدعها - ورتّب بها شيخا مالكيا ، وأسند له النظر في أمرها . واشترط عليه إلقاء درس من مختصر الشيخ خليل بشرح من شروحه صباح كل يوم - فيما عدا رجب وشعبان ورمضان ، وأما في هذه الأشهر الثلاثة فاشترط قراءة صحيح البخاري دراية - ودرسا في الفرائض ، وجعل له إمامة المدرسة . وجعل له راتبا في كل يوم ستة وأربعين ناصريا . وأوقف دارا لسكناء أمام المدرسة من أحسن الدور كانت في القديم لوالده المقدس - رحمه الله تعالى - فوهبها لبعض خواصه فاشتراها مولانا - أيده الله تعالى - من ورثته وأوقفها على ما ذكر .

(1) هي المدرسة الكبرى جوار قريسة الباي .



ورتب بها أيضا شيخا حنفيا يقرأ بها درس فقه جامع للعبادات والمعاملات بعد صلاة العصر . ورتب بها ثمانية طلبة من الحنفية يقرؤون عليه الدرس المذكور . ورتب بها أيضا شيخا ثالثا مالكيا يقرئ درسا في العربية أو الأصول أو الكلام . أو المنطق ، أو نحوها من الفنون بعد صلاة الظهر . ورتب بها أيضا شيخا رابعا من القراء يقرئ درسا من التجويد قبل صلاة العصر ، وأسكن بها ثلاثين طالبا يحضرون درسها ويقرؤون كل يوم حزبين من القرآن العظيم بعد صلاة الصبح . وحزبين بعد صلاة المغرب . ورتب بها ثمانية مؤذنين للأذان بصومعتها وقيام الليل للذكر والتسبيح . وقومة يقومون بمصالحها وضرورياتها ، وأجرى على كل واحد من هؤلاء الأرزاق التي لا توجد في غيرها من المدارس . وعيّن من الوقف صدقة توزع على الشيخ والطلبة وغيرهم يوم ختم صحيح البخاري من شهر رمضان في كل سنة ، وفي يوم عاشوراء من كل سنة يختن بها مائة صبي من الفقراء . ويعطى لكل واحد منهم كسوة وريال . وأوقف عليها أوقافا معتبرة تفي بجميع هذه المصاريف وبما يحتاج إليه من زيت / لوقد السرج وشمع وطيب في أوقاته وغير ذلك من الضروريات . وهي الآن على أحسن حال من العمران — عمرها الله تعالى بدوام ذكره — وأحدث بجوارها تربته المقدسة ورتب بها رواية صحيح البخاري كل يوم بحيث يختتم كل عام ختمة ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان . وأسند ذلك لشيخ المدرسة . ورتب بها للثلاثين طالبا الذين بالمدرسة أن يقرأ كل واحد منهم حزبا من القرآن العظيم صباحا وحزبا مساء في الأسفار بحيث تحصل من مجموعهم ختمة كل يوم . ورتب بها أربعة طلبة يذكرون « لا إله إلا الله » سبعين ألف مرة في كل شهر . وقارئ يقرأ دلائل الخيرات ويختمه في كل جمعة مرتين . ورسم أن تحيي بها ليالي المواسم الفاضلة بالقرآن والذكر . بحيث يختتم بها في كل ليلة من ليالي المواسم ختمتان من القرآن . وجدد بناء مكتب ملاصق لها ورتب به مؤدبا وعشرين صبيا يعلمهم كتاب الله ، وأجرى الأرزاق السنوية على الجميع . وأوقف عليها الأوقاف النافعة . ولما استدارت قبتها قبل تمامها وقبل تمام المدرسة رتب بها أولا

[78 - ب]

ثلاثين قارئاً يختمون كل يوم ختمة من القرآن العظيم يقرأ كل واحد منهم سفراً بحزبين . ثم بدأ له فراد ثلاثين قارئاً بعد ثلاثين إلى أن بلغوا مائة وثمانين قارئاً يختمون كل يوم ستة ختمات من القرآن العظيم على الرسم المذكور ، وعين لهم في كل شهر مائتي ريال وسبعين ريالاً وذلك من ريع أوقاف التربة والمدرسة لعدم وجود مستحقيها قبل تمام بنائها وترتيب دروسها ، وسكنى الطلبة بها ، وكان قصده أن يستمروا على ذلك إلى أن يتم بناء المدرسة وتعمّر بالطلبة ويقوموا بوظائفها المتقدمة فحينئذ ينصرف أولئك القراء ويخلفهم طلبة المدرسة — وعلى هذا الشرط كان دخولهم — فلما تم بناء المدرسة وصرفت غلات الأوقاف في مصارفها أرسل للقراء مالا ووزعه عليهم إحسانا وصرفهم ، ثم بدأ له في ذلك ورأى أن لا يحرم نفسه الكريمة من أجر ست ختمات من القرآن العظيم كل يوم أو أجر الإعانة عليها . فردّ أولئك القراء إلى قراءتهم ، وأقرهم على ما كانوا عليه . ورأى أن تخرج أرزاقهم من خزائنه العامرة مدة حياته — أدامها الله تعالى —

ومنها : بناؤه للمكتب الملاصق لجامع والده المقدس ، ورتب به درسي تجويد اشترط في أحدهما أن يكون شيخه حنفيا يقرئ رواية حفص عن عاصم ، وفي الآخر أن يكون شيخه مالكيا يقرئ رواية قالون عن نافع ، ورتب على كل شيخ ثمانية طلبة ، وجعل لكل واحد من الشيخين نصف ريال كل يوم ولكل طالب خروبة . واشترط أن لا يزيد الطالب على ختمة واحدة فإذا أتمها ترتب مكانه غيره حرصا على عموم النفع لما رأى من إهمال الطلبة للتجويد وعدم اهتمامهم به في هذا العصر ، وكان أول شيخ تصدر به لتجويد رواية حفص مفتي الحضرة شيخ الإسلام أبا عبد الله حسين بن إبراهيم البارودي فختم به ختمة واحدة كان ختمها / بحضرة مولانا العلية فأسنى جائزته وجوائز الطلبة وانصرفوا ، وبعد ذلك نزل عن الدرس المذكور لابنه الفقيه الخطيب المفتي أبي عبد الله محمد فهو يتولاه إلى الآن .

ومنها : ما أوقفه على قراء الحزب الكبير المعروف بالسبع الذي يقرأ بمحراب جامع الزيتونة بعد صلاة الصبح . ويختتم فيه القرآن العظيم ختمة في كل



جمعة - وهم يزيدون على المائة منقسمون إلى سبع طوائف كل طائفة لها يوم من أيام الأسبوع - فأوقف عليهم وقتها جليلا . وأجرى عليهم من غلاته راتبا يساوي راتبهم من الأوقاف القديمة . وأجرى على المتطوعين به راتبا أيضا واشترط عليهم أن يقرعوا بعد الفراغ من قراءة الحزب الفاتحة ثلاثا وسورة الإخلاص أحد عشر مرة ويهدون ثوابها له . وعلى أن يجتمعوا كلهم ليلة سبع وعشرين من شعبان في كل عام بجامع الزيتونة . وتجلس كل دولة من الدول السبع بزواوية من زوايا المسجد . ويختمون ختمة من القرآن العظيم إلى صحائف المحبس .

ومنها : ما أوقفه على المؤذنين القائمين بالأسحار في جميع الصوامع بتونس للتهليل والتسبيح والذكر . وأجرى عليهم من ذلك رزقا في كل شهر .

ومنها : ما أوقفه على المدرسة الجاسوسية المنسوبة إلى الشيخ الصالح أبي حفص عمر الجاسوس دفين الجلاز - رحمه الله تعالى - لما استولى الضياع على أوقافها ولم يبق منها إلا القليل لا يفي برواتبها وكادت أن تضمحل . فأوقف عليها ما يقوم بذلك وعمرت الآن بقراءة العالم الشريف . وكذلك أوقف أوقافا نافعة على المدرسة التوفيقية لما وقع في أوقافها الاختلال .

### [بناء التكية]

ومن أوقافه الجليلة النافعة التكية المتقدمة البناء . الحسنة الشكل الواسعة الفناء . التي أحدثها بمكان حانة الدبابة بعد هدمها وتعطيلها كما سيأتي وجعلها ذات بيوت كثيرة أعدها لسكنى الفقراء المتعطفين عن السؤال . وأجرى عليهم الأرزاق من الطعام والشراب والفرش والكسوة . وعين لهم اللحام والأرز في كل اثنين وخميس . وبني بها مسجدا . ورتب به إماما يصلّي بهم الصلوات الخمس . وأجرى له على ذلك رزقا . وأعدّ بها طعاما كثيرا كل ليلة خارجا عن طعام الساكنين بها يُطعم منه كل من يغشاها من الفقراء

والسؤال خلق كثير بحيث لا يصد عنه وارد . ولا يرد عنه قاصد . وعظم الارتفاق والانتفاع بذلك لهذه الطائفة من الفقراء . ولما وقعت المسغبة سنة إحدى وتسعين . وكثرت السؤال . واشتدت حاجتهم زاد في ذلك الطعام على ما عينه من الوقف زيادة بالغة وصار يغشاها من الفقراء أضعاف من كان يغشاها قبل ذلك فدفع خلّتهم . وسد جوعتهم . وكفاهم مؤونة القوت ، وأحسّى رمقهم - ضاعف الله في حسناته - واشترى دارا مجاورة لهذه التكية وأعدها لسكنى النساء المتعطفات . وأجرى عليهن بها أرزاقهن مثل ما أجرى على الرجال . وأوقف عليها عقارات استحدث بناءها بمكان حانة القرامد / التي كانت داخل باب البحر بعد هدمها أيضا واجتثاثها . فانظر إلى [1] فعل من وقفه الله وألهمه رشده كيف صير هذه الأماكن الخبيثة - التي كانت يقام بها للفسوق سوق نافقة . ويجاهر فيها بمعصية الله - أمكنة خير مصروفة في وجوه البر . فالتكية التي هي مأوى الضعفاء من خلق الله ومجرى رزقهم بمكان حانة من الحانات المشهورة . والأوقاف التي منها ارتفاقهم . وبها قوام معاشهم . بمكان حانة أخرى كذلك . ما هذه إلا مواهب ربانية . ومثل هذا ما أحدثه من العقارات الوافرة النفع بمكان الحانات المسماة بالمنشية ومخازن الهوير الكائنة بين القصبة وباب البنات بعد تعطيلها أيضا وقطع مادة الفسوق منها . وأوقفه مع غيره من العقار على الاسلاميين الذين فارقوا دين اليهود ودخلوا دين الاسلام [وعلى الطبقة الأولى من أولادهم تأليفا لقلوبهم وترغيبا في الاسلام] (1) - لمن أرادهم منهم - يجري عليهم رزقهم من ذلك في كل شهر . وهذه من الحسنات المخترعة التي لم يسبق إليها كما قيل :

تنزه عن عون المكارم فعله فما يفعل الفعلات إلا عذاريا (2)

ولما تم بناء التكية المذكورة صدر الأمر العالي بعمل تاريخ يكتب على بابها . فنظم الشعراء في ذلك تواريخ كثيرة تنيف على العشرين . فوقع الاختيار منها على قولي :

(1) الزيادة من تاريخ .

(2) البيت الممنوع وهو من قصيدته التي طالعها : كفى بك داء ان ترى الموت سقيما .



كلُّ بئرٍ محله ذي التكية

هي بحر وما سواها ركية (1)

صنع موائى له - ولا فخر - تبدو

كل يوم على الملوك مزيه

ويمينا لابن الحسين علي

أكرم الناس - غير ذي مثنويه - (2)

ذو وقارٍ كما رسى الطود لكن

للمعالي تهزه الأريحيه

من مزاياه هذه الدار فيها

جنة" أثمرت قطوفا جنية

هي للبائس الفقير تراها

نعم مأوى غدت ونعم بنيه

حرم آمن" وظل ظليل

ورخاء" وعيشة" مرضيه

تعدل الأهل للغريب فأرخ :

(نعم كهفا لابن السبيل التكية)

1188

ثم عمل صاحبنا الكاتب الأجل أبو عبد الله محمد الدرناوي تاريخاً فصداً  
الأمر بكتبه على باب تكية النساء وهو :

بنى الباشا علي ذي التكية

سليل حسين سيدنا المفدى

على الفقراء ما كولاً ومأوى

/ فدأبهم الدعاء له بخير

لوجه الله فهي إذن بهية

أبو الخيرات ذو السير الرضية

مدى الأيام من أعلى مزيه

تقبل منهم رب البرية

[80 - أ]

سما بصنيعها شرقاً وغرباً وذو التوفيق رتبته عليه

فيا بشراه لما أرخوها : (له أوفى ثواب في التكية) (1)

وله أوقاف كثيرة غير هذه . منها ما أوقفه على المدرسين زيادة على أوقافهم  
ليعينهم بذلك على نشر العلم وتعليمه . ومنها ما أوقفه على إجراء المياه وإصلاح  
قنواتها المعدة للسبيل - وسيأتي تفصيل ذلك - ، ومنها ما أوقفه على زاوية  
الشيخ الولي العالم عبد العزيز المهدوي - رحمه الله تعالى - الكائنة بقرطاجنة بعد أن  
بنى عليه مشهداً حافلاً ، ومنها البئر المعينة الكائنة . بسفح جبل المنارة والعقار  
المحبس عليها لشرب الزائرين للشيخ الأستاذ الأكبر أبي سعيد الباجي - رحمه  
الله تعالى - وكثرة من يغشاه منهم . وزاد في قبة الشيخ المذكور زيادة حسنة  
ووسّعها وخصّها بالرجال وبنى للنساء بيتاً لها منفذ لضريح الشيخ ، بحيث  
تحصل لهن الزيارة والاتصال بضريح الشيخ ولا يختلطن بالرجال ، ومنها  
البئر المعينة العذبة برادس المعروفة ببئر الطراز أوقفها للواردة . إلى غير ذلك  
من أوقافه النافعة المصروفة في وجوه متعددة من وجوه البر . جعلها الله تعالى  
من الصدقات المتقبلة والأعمال المبرورة .

وأما صدقاته الجارية على الفقراء والمساكين من المتعفين والسائلين والعميان  
والقواعد والأيتام وذوي الضرر والحاجات فشيء أربى به على من تقدّمه ،  
وأعجز به من تأخر عنه . فقد رتب لجماعة عظيمة من مستوري الحال  
المتعفين عن السؤال مالا راتباً يوزع عليهم في كل جمعة . فبعضهم تصل  
إليه نفقته في محله . وبعضهم يجيء يوم الجمعة إلى باردو المعمور لأخذها ،  
وبعض هؤلاء يدخل إليه - أيده الله تعالى - للسلام عليه في جملة الأعيان الذين  
يدخلون عليه يوم الجمعة . وبعضهم تصل إليه سرا بحيث لا يعلم أحد أنهم  
من أهل الصدقة صونا لهم عن التبذل بالسؤال . ورتب لجماعة عظيمة من  
السؤال والمكدين وأهل الضرر من عرج وعيّميان ونحوهم ممن لا يقدر

(1) لا يتم هذا التاريخ بموافقة السنة 1188 إلا باعتبار الألف المينة في (أوفى) بواحد حسب لفظها  
- لا رسمها - خلافاً للقاعدة . وقد تقدم مثله كثير .



على التكسب - تجاوز عددهم الألف - رزقاً يجري عليهم في كل يوم على الدوام والاستمرار فتراهم يهرعون إلى باردو المعمور كل يوم أفواجا لأخذ صدقاتهم ، وبعضهم قد استوطن باردو المعمور وأعد لهم - أيده الله تعالى - أماكن كثيرة يبيتون بها ، ويأوون إليها ويأتيهم رزقهم فيها من أطعمة الصدقة الخارجة من دياره المعمورة . ومن بره بهذه الطائفة أنه كلما خرج ركابه العالي إلى محلة أو زيارة يخرجون بخروجه ويتوجهون معه حيثما توجه فتجري عليهم أرزاقهم الراتبية ، ويعين لهم مع ذلك الإنزال بكرة وعشية . وينصب لهم الخيام لتزولهم / . كأنهم من جملة عسكره . وقد ذكرت ذلك في قصيدة قلتها في بعض خرجاته - أيده الله تعالى - ووصفت فيها حالهم . وقد كان - أعزه الله تعالى - لما أراد الخروج تتابع نزول المطر فتأخر لذلك أياما ينتظر الصحو فتعرضت لذلك أيضا وقلت أصف الحال :

سر لست تعمل إلا للعلا قدما وكل أرض توافيها غدت حرما  
وحيثما وخذت أيدي الركاب تجد أمنا ويمنا وإقبالا ومعتصما  
رُمّت الرحيل فناداك السحاب أقم حتى أروني لك الأوهاد والأكما  
كي لا تحل بها إلا مطهرة في وقع نعليك فيها طيب من لثما  
لما رأى سيبك المنهل فاضحه مضى أمامك يستوفي لك الخدما  
لو مسحته يمين منك مغدقة ما كان يمطر إلا المجد والكرما  
همى وأقلع . والغيث الذي سكبت كفتاك ما زال يهمني في الورى ديما  
فسرت تحدث للنديا نضارتها شبيهة لا تلاقي بعدها هرما  
والأرض ديباجة خضراء مذهبة بالنور فيها بديع النقش قد رقما  
والزهر يحكي ثناء عن علاك شدى ويقتفي منك في أفعاله شيما  
يكسو الربى مثل ما تكسو الورى حلاّ ومثل لقياك يلتقى الوفد مبتسما  
ورام بدر الدجى أيضا مجانسة لما نفيت ظلامات نفى ظلما  
ولو غدا منك دون الشمس مكتسبا للنور ما كان أخرى الشهر منعما  
تسمو على ضامر تختال من مرج حتى كأن بها من طائف لَمَمّا  
شهباء كالصبح تخفي الشهب طلعتها إلا التي زينت في رأسها لجما

[80 - ب]

وأحدثت بك من سمر القنا ظلل والليث عادته أن يسكن الاجما  
جيشان خلفك : ذا شاكي السلاح . وذا أوقاهما لك من في الليل أسهمه  
ليس الذي إن عراه أو ألم به - يوم الكريهة - روع يتخذك حمى  
علمت يا فارس الإسلام أنك يو م الحرب وحدك دفاع لما دهما  
فكم نسفت جيوشا في الحروب ، ومن أتى لنصرك ولتى عنك منهزما  
لذا عدلت إلى جيش حمايته تقيك يوم يكون الحر (1) محتدما  
/ تعطيتهم نائلا جمّا ، وتوسعهم قري هنيئا ، وتبني فوقهم خيما  
وأنت تعطفك الرّحمى كأنك من أبيك آدم فيهم واصل رحما  
وقد حوى بابك الحاوي لكل علا من الوفود وطلاب الندى أمما  
هذا قضى حاجة في نفسه . ولذا عفو وصفح ، وذا ولتى وقد غنما  
حببت للناس بالعفو الذنوب وقد أضحى البريء حسودا للذي اجترما  
وما كفى العفو حتى قد أقمت لهم على الرجاء دليلا واضحا أمما  
يقول قائلهم : ذا العفو يصدر من عبد . فما الظن بالمولى وقد رحما ؟  
لابن الحسين علي كل منقبة بدت . فلا عربا خصت ولا عجمما  
أفعال مجد تسرّ الناس قاطبة إلا الملوكة فقد ماتوا لها غمما  
تبدو لهم كل يوم منك مبدعة لم يلحقوها ولم تترك لهم عمما  
لكن بنوك - وأعلى المجد أثبته والفرع يكرّم إماما أصله كرّما -  
جاءوا على نسق يقفون إثرك في فعل المكارم . كل للعلا الترمما  
ثلاثة تشرق الدنيا بأوجهم هم البدور ، وفي عين الحسود عمى  
داموا ملوكا وداموا في تعاضدهم مثل الثريا نظاما قط ما انفصما  
ودمت كهفا لهم من كل حادثة وكلهم في ظلال العيش قد نعمما  
ودمت في ملكك المحروس تصلحه ومن تعاديه قد ألقى لك السلما  
تحيي أناسا وأنعاما وأمكنة فأنت أنفع من مزن الحيا انسجما

(1) بالديوان المخطوط : الحرب ، وهو أوقع . والمعنى كله يدور على ادعاء أن هؤلاء المرزوقين أفيد للمدح ، وانتزع منه مدحا آخر له بالشجاعة والكفاية .



وقد عيّن بداره الكريمة — دار الأسعد المعظم مولانا حمودة باشا باي  
أعز الله أنصاره — صدقةً جاريةً على طائفة من النساء مستورات متعففات  
وقدرها خمسون ريالاً في كل يوم، وهي جارية من يوم ولادته — أبقاه الله تعالى —  
إلى الآن، وبقدره الكبيرة — دار ابنة الباشا — صدقة أخرى جارية على نسوة  
أيضاً من المستورات وقدرها سبعون ريالاً في كل جمعة. وفي كل يوم يدخل  
محكمته السامية وقت جلوسه للحكم ويحضر بين يديه من يتفق حضوره من  
الفقراء المتعففين لا يحجب عنه أحد منهم ولا يرد. فيأمر لكل واحد منهم  
بما يفتحه له الله تعالى، وفي أيام المواسم والليالي الفاضلة يكثرون جداً ويزاد  
لهم في العطاء وهذا كله دون الصدقة المستمرة الخارجة من بيت خزنداره  
— اثني عشر ريالاً كل يوم — وبلغه في بعض السنين أن بعض المسجونين في  
سجن باردو لا يجد طعاماً — لفقره أو / لبعده أهله — فعين لكل من يسجن  
به — كائناً من كان فقيراً كان أو غنياً — رغيفاً كل يوم وخروبة لنفقاته،  
وجرى الأمر على ذلك منذ سنين كثيرة إلى اليوم. ولما بنى الدار التي جعلها  
محكمة شرعية يجلس فيها القضاة لفصل الحكومات بكرة وعشية وجعلها [وقفاً  
على ذلك] بنى بصلقتها داراً أخرى جعلها حبساً للنساء — وهي المسماة بدار  
العدل — وأوقفها على ذلك أيضاً. وبنى خارج الدارين حوانيت كثيرة يجلس  
بها العدول وأوقف غلتها على الفقراء من النسوة اللاتي يسجن بدار العدل  
— يطعمن منها ما دمن في السجن — وكان قد رأى — أطال الله عمره — والده  
المقدس — روح الله روحه — في المنام كأنه يشكو إليه بعض الحاجة. فعمد إلى  
مائتي رجل من المشايخ العاجزين والعميان وذوي الضرر وأجرى عليهم صدقة  
— نصف ريال كل يوم جمعة — يأخذونها بعد أن يجتمعوا بتربة والده — برّد  
الله مضجعه — بعد الفراغ من صلاة الجمعة ويقرأ كل واحد منهم سورة  
الإخلاص إحدى عشر مرة ويهدي ثوابها إلى صحيفة صاحب التربة. هكذا  
كان ترتيبهم في أول الأمر. ثم لم يزل يزيد فيهم من ذلك النمط ناساً بعد  
ناس. إلى أن بلغوا الآن بضعة عشر مائة رجل. فكانت هذه الصدقة العظيمة  
نافية عن والده — رحمه الله تعالى — كل حاجة. ودافعة عنه كل خلة — إن شاء

[81 - ب]

الله تعالى. ثم رتب صدقة أخرى عظيمة مثل هذه لطائفة عظيمة من النساء  
— أرامل وقواعد وعجائز وذوات ضرر — بلغ عددهن الآن ألفاً وثلاثمائة  
يأخذونها كل يوم جمعة أيضاً، ومن لا تبتذل بالخروج منهن تبلغ إليها بمحل  
سكنها، ومخرج هاتين الصدقتين العظيمتين على يد إمامه الشيخ الفقيه الأجل  
أبي محمد حمودة بن باكير — أبقاه الله تعالى، وفي كل سنة عند دخول الشتاء  
وهجوم البرد يشتري ألوفاً من أحرمة الصوف الغليظة ويكسوها للمحتاجين  
من الضعفاء والأرامل والأيتام والعميان وأهل الضرورات وقاية لهم من ألم  
البرد — جعلها الله تعالى له وقاية من حرّ الجحيم وجنة، مفضية إلى برد النعيم  
بالجنة — وكثيراً من هذه الصدقات الجسيمة يباشرها بنفسه الكريمة، يدخلون  
محكمته السامية وهو بمجلسه الرفيع فيكسوهم وينصرفون، وفي كل عام  
— أيام المولد الشريف — يخرج الفي ريال تفرق في القراء المرتبين [في الأحزاب  
والمؤدبين المنتصين لتعليم الصبيان كتاب الله تعالى] في المكاتب عادة مستمرة،  
ولما وقع الغلاء سنة إحدى وتسعين وما بعدها — وهي مجاعة شديدة — بلغ  
ثمن قفيز القمح فيها بالحضرة مائة ريال وأكثر. وأما أطراف العمالة كبلاد  
الجريد فقد تجاوز فيها السعر المائتين وبلغ في بعض الأحيان الثلاثمائة،  
وانتهى قفيز الشعير بالحضرة إلى بضعة وستين ريالاً، وهلك الخف والكراع،  
وانتشر الفناء في الماشية، ثم وقع الموتان في الناس وعمّ المدن والقرى  
والبوادي — وأشد الناس ضرراً بذلك أهل البادية — فإن عامة مكاسبهم الأنعام  
والمواشي / — وقد هلكت — فانتالوا على المدن يتكفون في الأسواق — وأثر  
الضرر بادٍ عليهم، والمرض منتشر فيهم. والموت يتخطفهم — فأول ما ابتدأ به  
— أيده الله تعالى — أن عين صدقة للأرامل من النسوة توزع عليهن بباردو المعمور  
كل يوم فتسامعن بذلك وتكاثرن ولم يزل عددهن يتضاعف إلى أن بلغ عددهن  
أربعة آلاف امرأة. ولم تزل الصدقة جارية عليهن — تارة دراهم وتارة  
خبزاً — حتى غصّ بهن الفضاء من الكثرة. وتيسر التوزيع عليهن لشدة  
الازدحام حتى كاد أن يفضي إلى وقوع الهلاك بهن. وآن وقت حصاد الحب،  
وتيسرت المعيشة ففرّقن، ثم لما انحشرت الأعراب وأهل الضواحي في العام



الثاني إلى الحضرة أقام لهم طعاما من شربة البر يصنع لهم كل يوم بالملاسين عدا ما زاده بالتكية على ما ذكرناه . فسد ذلك من خبائثهم وأحيى من رفقهم . وأمر بالمرضى منهم والمتهمين — وكانوا مرميين على قوارع الطرقات وأبواب البلد . وقد تأذت الناس من روائحهم . فحملوا إلى خان واسع خارج باب البحر فرّغه لهم وجمعهم فيه وأقام لهم المؤنة صباحا ومساء . وتبعه أهل الحضرة فما قصرّوا في مواساتهم . وأتصل ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وتسعين فترادف الغيث وتتابعت الأمطار . وأدال (١) الله من الجذب خصبا . ومن الغلاء رخاء . وأعقب الشدة فرجا والبؤس نعيما . فلم يكن إلاّ ريثما شرع الناس في الحصاد خلالها حتى كثرت الحبوب وانثالت الأقوات وانحطّ السعر فصار قفيز القمح ببضعة وعشرين وقفيز الشعير بثمانية ريالات وأقل . وعلى هذه النسبة سائر الحبوب . ومن جملة مرافقه — أيده الله تعالى — في هذه المجاعة أن أمر الناس ببيع القمح سائر زمنها حتى أشرفت خزائنه على النفاد — سوى ما تصدق منه على الفقراء وأهل الحاجات — وكانت همته مصروفة إلى تكثيره بالأسواق لئلا يتعذر على الناس القوت من فقده جملة . وبعث في جلبه من الأقطار على أيدي التجار فأثروا منه بمراكب كثيرة وقع بها الارتفاق . ووجد بخزائنه قمح كثير تغير ووقع فيه فساد الرائحة من طول المكث فأمر أن يباع برخص لمن أراد من فقراء العساكر والأجناد إلى أجل ضرب لهم ليقاصصهم بثمنه من أرزاقهم ومراتبهم . فاشتروه كله . فلما جاء الأجل وحضرت المتأصصة سمت به همته العالية وأدركته رأفته الشاملة فأسقط ذلك عنهم جملة واحدة . وأعطاهم أرزاقهم كاملة . فهذا اهتمامه بالطعام وقت الحاجة إليه .

وأما اهتمامه بالمياه لما رأى قلتها بالبلد لكثرة الساكن وقلة الأمطار — فان شرب أهل الحضرة إنما هو مما يختزنونه بالمواجل من ماء المطر — فأمر من وراء الحسبان . فأحيى مراسم آبار رأس الطابية المجلوبة إلى الحضرة على

(١) في ج . م . : وأبدل .

الحنايا ذوات الأقواس المرتفعة السمك بعد أن كانت تعطلت أيام علي باشا ، ونظر / في أوقافها فأحيّاها بعد الدثور . واستأنف جدتها . ثم عمد إلى بئر معينة ذات ماء فوّار [بمكان يقال له قصة] أسفل الجبل الأحمر المحدقة به غابة الرّيتون على فرسخين من الحضرة فشق الأرض حفرا عندها حتى صار الحفر أسفلها أخدودا يبلغ عمقه ستين ذراعا ثم مشى بالأخدود منحدرًا مطويا تحت الأرض ببناء محكم الصنعة وخرق البئر إلى الأخدود فجري ماؤها فيه ، واستنبط بحافته آبارا سبعة خرقتها إليه أيضا وأجرى مياهها فيه وانتهى الأخدود مطويا — يمشي فيه الرّجل مستقيما — إلى وادي بعيرة فسهلت الأرض هنالك وانبسّطت فأجرى الماء في ساقية عظيمة تحت وجه الأرض إلى أن بلغ رأس الطابية واختلط بمياه آباره جاريا على الحنايا إلى الجبل الأخضر داخلا إلى القصبة متسرّبا منها في غيابات المدينة متشعبا في سككها في مذائب تحت الأرض إلى بضعة وعشرين سيلا في أماكن متفرقة ينهمر ماؤها وقت المصيف ووقت فراغ المواجل ليلا ونهارا لا تخلو من ازدحام الواردة بقلايلهم وأوانيهم (والمورد العذب كثير الزحام) واتصل العمل في إجراء هذا الماء من الجبل الأحمر وشق الأرض وبناء الأخدود حتى دخل الماء إلى الحضرة نحوا من ست سنين . وبلغ عدد الفعلة فيه كل يوم ما ينيف على الألف مضروبة لهم الخيام حوالها جارية عليهم مئونتهم — عدا الدواب العاملة المسخرة في نقل التراب والجير والجبس والحجارة والآجر — وبلغت النفقة على ذلك مئتين من الألوف عدا ما أوقف من الأوقاف المعتبرة على ما يحتاج إليه من الإصلاح والرمم وقت الحاجة إليه . وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد الورغي من قصيدة أولها :

حبّا فحنّ له الفؤاد المدنّف طيف ألمّ بمن له يتشوّف  
لأيّّا تخلص كالشفاء . ودونه ظنّ يسيء به . ووعد يخلف  
وأقلّ ما استقللت وقفة زائر خاف العيون وضاق عنه الموقف  
وأقلّ منه — وكنت جلدا قبلها — صبري وقد ولّى الخيال المشرف  
ماذا لقيت من الزّمان يرّوعني بالحيف — حتى في المنام — ويقرّف  
من كل وجه لي عليه ملامة وله عليّ غضاضة وتكلّف



أفلا كفى أن عشت فيه . وقالبي  
يرد المياه بنوه لا عن غلة .  
هين عليهم لو قذفت بهمتي  
والموت أسعد - وهي بغيه كلهم  
فإذا قرمت أكلت لحم أناملي  
/ وتنبؤ عن حطّيب الوقود دفاتري  
عجباً لأيامي تجور ! ألم يكن  
حرم الأمان لمن أراد حماية  
ملا القلوب إذا بدا متبهما  
كم نحتمي بالقول عند مديحه  
حتى إذا نشر المديح بدآله  
فنعود من آدابه بفوائد  
وعلا بهمة الكريمة أن يرى  
وكفاه عن سمع الملاهي درسه  
وتفقه في الدين . ثمّت فصله  
وإفاضة للعرف بين طوائف  
والذ ما يسديه منها عنده  
ومضت كذا عفوا جميع فعالة  
ودعا بقصة (1) فاستجاب معيها  
وجرى يخرق بطن كل قرارة  
وأطاعت الأنجاد فيه وهادها  
فتراه كالثعبان في حركاته  
حتى لوى بشعاب تونس رأسه  
وانحلّ عن عذب الزلال وكأوه

(1) اسم البشر المجلوب ماؤها فيما ذكر فريبا . وهذا الاسم يطلق الى الآن على بعض اراضى الجبل الاحمر . والباء في ه الأبي . لا تحرك لضرورة الوزن .

فغدّت به الأكباد - بعد أوارها - ريتا . وصحّ سميتها والأعجف  
ورأته أعظم منة إذ جاءها والنجم في وقت الإغاثة مخلف  
لا زال يظهر كل حين غرة يقنى الزمان ونورها لا يكسف

وصدق في قوله « ورأته أعظم منة » البيت فانه اتفق بعد وصول الماء إلى  
الحضرة إخلاف من المطر أعواما متوالية لم يكف فيها ماء المواسل للشرب فكان  
للناس في هذا الماء غناء وكفاء . سمعت الشيخ / الإمام مفتي الإسلام أبا عبد  
الله حسين بن ابراهيم البارودي - رحمه الله تعالى - يقول : هذا الرجل - يعني  
مولانا أعزه الله تعالى - مسعود مؤتى له حيث حبس الله تعالى الغيث بعد  
إيصاله الماء إلى الحضرة ليظهر فضل صنيعه وكمال مزيته . أو أنه ينظر بنور  
الله فوق في خلكه ما حصل من قلة الغيث قبل كونه فسبق إلى جلب الماء  
اعتداداً به عند الحاجة إليه .

وأما الماء الداخلى إلى ربض باب السويقة فأصله من البئر الكائنة بأعلى  
الفدان المعروفة ببئر عتيق فضم إليه مولانا - أيده الله تعالى - بئر العليجية  
المجاورة لها - اشتراها من فاضل الأوقاف المحبسة على بئر عتيق - ثم اشترى  
بئراً ثالثة داخل باب سيدي عبد السلام عذبة الماء وعمل عليها ناعورة وزاد ماءها  
إلى ماء البئرين المذكورتين وتسرب الكل إلى أماكن من الربض المذكور .  
بكل مكان سبيل مباح لكل وارد . واشترى بئر المسيد المشرف من ربض  
باب الجزيرة وعمل عليها ناعورة وبني حولها حوضاً كبيراً يجتمع الماء فيه  
ترده الأناسي والأنعام . وبئراً أخرى بالمركاض من ربض بني حماد على هذا  
النوال . ثم لما رأى شدة الحاجة إلى سقاية والده المقدس المرحوم الموازية  
للجبل الأخضر (1) وعظم النفع بها ونفادها في بعض السنين القليلة الأمطار  
قبل انقطاع الحاجة إليها أنشأ سقاية مجاورة لها ملاصقة إياها مثلها عظم مساحة  
وإحكام بناء وجعل بينهما منفذا ينحدر الماء فيه من السقاية الجديدة إلى

(1) الجبل الأخضر : ربوة الرابطة . السقاية الموازية له فسقية كانت هناك عند تقاطع سكة حديد  
الغرب وطريق السيجومي . وأزيلت الآن .



العتيقة . والامتياح والاستسقاء كله من العتيقة إبقاءً على مأثرة والده وتقاديرا عن الاشتهار . فعظم النفع وحصلت الكفاية . وتقدم أن من آثار والده أيضا السقاية التي أنشأها بظاهر القيروان - صانها الله تعالى - وجلب اليها ماء المطر في خليج اقتطعه من الوادي الهائل العظيم النفع المعروف بمرق الليل الذي منه ومن زرود المائل له في العظم والمنفعة سقيا غالب مزارع القيروان عند طومومهما بماء السيول من قاصية الجبال . وكان المنهل قبلها السقاية القديمة المنسوبة إلى بني الأغلب . فاستولى عليها الدثور وتراكم في صهاريجها مخلف السيول من الطين والغثاء . فلما استقل مولانا - أيده الله تعالى - بالأمر . وتوفرت عمارة القيروان وماجت بأهلها وازدادت السقاية الأغلبية دثورا كئام في عمارتها فتفادى عن ذلك - لتحامي الملوك قبله إياها - وأنشأ سقاية أخرى أعظم من سقاية والده - قدست تربته - تسقى معها بماء واحد من الخليج النازع من وادي مرق الليل . فحسن الأثر . وعظم النفع . وكثر الداعي وأذيع الثناء . وأنشأ أيضا بمدينة صفاقس - حرسها الله تعالى - سقايته التي ظهرت بركتها . وحُمد أثرها . وحسنت عائدتها . وذلك أن السقاية العتيقة لا تفي بسقياها فيحتاجون أيام المصيف إلى امتياع آبار بعيدة فأنشأ - أيده الله تعالى - هذه السقاية على مسيل وادي عقارب . فمذ تم بناؤها وكمات عمارتها لم ينضب ماؤها بل كلما شارف النفاذ أتى الله تعالى بالمطر فسال الوادي . وأفعم أرجاءها . وربما كان ذلك عند احتدام القيظ وانقشاع السحب وانزواء المطر إعظاما من الله تعالى للمنة . وإبعادا للصيت . وإحمادا للأثر . وزيادة في المثوبة . واشترى البئر المعينة المشهورة بعذوبة الماء وطيبه المعروفة ببئر الطراز الكائنة برادس وأوقفها للسبيل كما مر . واشترى البئر المعينة التي بسفح جبل المنارة المعروفة ببئر الخلادي وأوقفها أيضا سبيلا لورد الزائرین مقام الأستاذ الأكبر أبي سعيد الباجي - رضي الله عنه - بجبل المنارة لعزة الماء به وكثرة العمارة . فقد أحدثت به ديار ومساكن حوالي مقام الشيخ أكثرها على عهد مولانا - أدام الله أيامه - جاءت كأبهج ما أنت راء من القرى . لا تخاو من الساكن وقتاً من الأوقات . حتى إذا طابت الثمار واعتدل الهواء أخريات

[84 - أ]

المصيف وأول الخريف ماجت حينئذ بالسّاكن موجاً . التماسا لبركة الشيخ . وتعرضاً لصحة الهواء . واغتباطا بطيب الأصائل والأسحار . وابتهاجا بحسن المنظر الملتفة حوله الحقائق الزاهرة . والبساتين ذات الرياض العاطرة . المطل على ثبح البحر حاملا للمراكب داخلة الميناء وخارجة . وقد جرت عادة مولانا - واصلها الله تعالى - بالخروج إلى زيارة الشيخ - رضي الله عنه - مرتين في السنة ربيعية وخريفية فينزل بقصر العبدلية من بساتين قرطاجنه . ويغدو إلى زيارة الشيخ ومن حوله من الصّالحين . ويعود إلى مكانه من العبدلية . وقد رتب لطائفة من الفقهاء والمتعنفين صدقة تدفع لهم كلما خرج للزيارة . فمن خرج منهم إلى محل الزيارة أخذها هنالك . ومن لم يخرج أته إلى محله . وقد يتفق في بعض السنين أن لا يخرج إلى الزيارة فلا تبطل الصدقة بل تدفع لأهلها بمكانهم من الحضرة . وصار ذلك لهم كالرواتب اللازمة في كل عام مرتين . وقد تقيدت أسماؤهم في جريدة ومع اسم كل واحد منهم ما له من الصدقة - من الأربعة محاييب ذهباً أو أكثر أو أقل .

وقال أبو عبد الله محمد الورغي قصيدة بديعة قالها في بعض خرجات مولانا . أعزه الله تعالى - لزيارة الأستاذ مولانا أبي سعيد - قدس الله روحه - وهي :

وردت بطاليع اليمن السعيد	على حرّم الولي أبي سعيد
كما ورد الكريم أبوك قبلاً	عليه وأنت في طور الوليد
وأمر بك المشاهد حين لاحت	عليك له أمارات السعيد
وما تخطي الفراسة حيث جاءت	من المهدي في شيم الرشيد
/ وعاد كما تعود وقد تنهت	مطالبه بعائدة الودود
ألا لله صبري حين سارت	بك البيضاء من تحت البُنود
تنار عك العنان وهي تومي	إلى جبل المنارة من بعيد
فتقصرها ولو تركت لحطت	سنابكها على ذات الوصيد
وجانبست البحيرة حين مرت	وفي صهواتها بحر المديد
وقابلتها الظريف على يفتاع	فلم تثبت على وجه الصعيد



وأدركتها المسا ولها تراءت  
تسابق للتقرب منك أخرى  
كغانية رأتك فلفعتها  
فتبت بها وعين الحفظ ترعى  
وصبحت الصريح بمولوي  
وخفت الزيارة وهو رأي  
وحزت بليلتين عظيم كنز  
وأبت ولم تغيب ما غبت عني  
وكم قلبت إثرك طرف راج  
فلم أسعف . ولو أومضت شيئا  
ومن تعب الحياة لمبتغيها  
وما في صحتي - لو شئت - بأس  
وإن مؤملا يلقاك يوماً  
وما يسئله عنك ؟ وليس يلفي  
سلامة خاطر . وسماح وجه .  
وما في ذا العتاب لدي قصد  
والآ فالقمام أجل من أن  
على أني دفعت به دعاوي  
فإن ظهور شمسك وأنحجابي  
/ فما أجراه ! إنا ظن هذا  
وعند نزولك «المرسى» ذكرنا  
فقلنا : عند فتح الله فتح  
فطار من العيافة طير قال  
وقد صدق الحديث فقد أناخت  
تؤمل من رضاك جميل عود .  
وأهدت عند مقدمها نفيساً .

قباب العبدلية في نهود  
فتقدفها بذي الطلع النصيد  
وليدتها بمخضر البرود  
مقامك والحوادث في همود  
سعى لله في صفة العبيد  
يصوبه ذوو الرأي السديد  
توزعه إلى أبد الأبيد  
ولكن فأتني سر الشهود  
بروق الوصل من رعد الصود  
سبت إليك ركبان البريد  
مباعدة المراد من المرید  
وهل رحب كذرك للوفود ؟  
ويسلو بعد ذاك لفي جمود  
على الحالات مثلك في الوجود  
وقلة كلفة . وكمال جود  
ولكن جره سوق النشيد  
أضيق به إلى إذن جديد  
تصورها خيالات الحسود  
بها عندي من الأمر الزهيد  
وقلبك في القضية من شهودي  
نزولك قبلها «جبل الجلود»  
وقلنا السعد عند أبي سعيد  
يصحح أن عزك في مزيد  
ببابك عاجلاً زمر الوفود  
وتطلب منك تجديد العهد  
وأنفسه أسيلات الخدود

[ 85 ]

فهو الخير قد قدمت بصلح  
وما في جمع شمل الدين وصم  
لأنك في الملوك عريق بيت ،  
فلا زالت حياتك في امتداد  
وهو الخير في الذكر المجيد  
ولا عن قصد ربك من محيد  
وفي أخلافهم بيت القصيد  
ولا زالت سعودك في صعود

والعبدليتان اللتان ذكرهما هما من آثار ملوك بني أبي حفص واعتنى  
بهما ملوك الحضرة بعدهم واتخذوهما منزلاً لنزاهتهم . وقد ذكرهما الورغي  
في قصيدته النونية التي ذكر فيها المنتزهات التونسية المشتملة على التشبيه البديع  
في الحنايا وهي :

باكر سعودك ليس الوقت بالدون

واجعل صبحك عند باب سعدون (1)

واصحب إلى الأنس جلاان الفؤاد إذا

طغت حمياك قاد الصعب بالين

ماذا التوقف عن عيش تسر به ؟

وقطع آنيك في حدس وتخمين ؟

فاخلع عذار التوقي من عواقبه

ما الحزم تركك قطعاً لمظنون

أما ترى الروض قد ألقى السحاب به

على طريق الغواصي أي بزيون (2)

قد وشحته فنون النور وانبسطت

على خمائله ظل الأفانين

(1) بالأصل : باشر سعودك ليس اليوم . في باب لسعدون ، وصحح كما في ز . م والديوان .  
وهذه القصيدة وردت ضمن مقامة الورغي في مدح الشيخ أحمد الباهي وابنه اسماعيل  
وعارضها كثير من الشعراء التونسيين كالسعودي وابن أبي الضياف والشيخ كريم وحسن  
المزوغى وصالح سويسى وغيرهم .

(2) الغادية : مطرة الغداة ، والبريون بكسر اوله وفتح يائه (وقد ضمها الشاعر للضرورة) : رفيق  
الديباح والسندس ، وهو في وصف الطبيعة .



كأنما قَرَحَ لَمَّا تَقَوَّسَ فِيهِ  
 أَرْجَائِهِ رَشَّةً مِنْ كُلِّ تَلَوُّينَ  
 وَقَفَ هُنَا بِأَبِي فِيهِرَ الْمَسْحِيلِ فَقَدْ  
 مَضَتْ بِهِ دَوْلَةُ الشَّمِّ الْعَرَانِينَ (1)  
 تَرَى الْحَنَائِيَا كَسَطَرَ النُّخْلَ مَدَّةً بِهِ  
 بَعْضُ لِبَعْضٍ بِمَسْحَنِي الْعَرَاغِينَ  
 أَوْ خُرْدٍ نَهَضَتْ لِلرَّقْصِ فَاعْتَنَقَتْ  
 كِي لَا تَجِيءَ بِرَقْصٍ غَيْرِ مَوْزُونِ  
 وَلَسْتُ صَاحِبَ ظَرْفٍ إِنْ مَرَدَتْ عَلَى  
 (مَرْسَى الظَّرِيفِ) وَلَمْ تَنْزِلْ إِلَى حَتِينِ  
 [85 -- ب] / (وَالْعَبْدَلِيَّاتِ) تَحْكِي نِي تَصْنَعُهَا  
 ضَرَائِرًا جُنَّ فِي غَنَجٍ وَتَزِينِ  
 وَمَا مَقِيمٌ لَدَى الْأَفْيَا (بِسُكَّرَةٍ)  
 عَلَى الْقَلَالِيَةِ الْغَنَّا بِمَغْبُونِ  
 وَلَوْ وَقَفْتَ (بِقَمَرَتِ) الَّتِي جَمَعْتَ  
 شَطُوطُهَا بَيْنَ مَرْعَى الضَّبِّ وَالنُّونِ  
 وَمَلْ (لَمَنْوَبَةٍ) وَقْتُ الْعَشِيِّ إِذَا  
 فَاحَ الْأَصِيلُ بِهَا بَيْنَ الْبَسَاتِينِ  
 وَانْظُرْ إِلَى الْقَصْرِ وَالْأُخْرَى تُنَاطِرُهُ  
 مِثْلَ الْبِيَادِقِ طَافَتْ بِالْفَرَازِينِ  
 وَالطَّيْرِ تُصَدِّحُ فِي حَافَاتِهَا زُمَرًا  
 جَمُوعٌ تَرُكُ أَتَتْ بَعْضَ الدَّوَاوِينِ

(1) رِيَاضُ أَبِي فِيهِرَ مِنْ مَصَانِعِ الْمُفَضِّلِينَ تُصَوِّرُ إِلَى الرِّيَاضَةِ . وَهِيَ هُنَا مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ  
 لِلْاضْطِرَارِّ ، وَالْمَحِيلُ مِنَ الْمَجْلِ بِمَعْنَى الْعَفَاءِ .

وَرُحَ (لِرَادِسِ الْعَالِيَا) . وَقَبْتُهَا  
 بَيْنَ الْقَرَادِسِ تَبْدُو مِثْلَ شَاهِينَ  
 حَتَّى إِذَا مَا قَضَيْتَ الْبَعْضَ مِنْ وَطَرٍ  
 وَرَمْتَ إِيْقَاعَ فَرَضٍ بَعْدَ مَسْنُونِ  
 فَارْكُضْ إِلَى ضَحْوَةِ (الْمُرْكَاضِ) وَانْسُ بِهَا  
 مَا كَانَ عِنْدَكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيَاطِينِ  
 وَاحْضُرْ عَشِيَّةَ (بَابِ الْبَحْرِ) مُغْتَبِطًا  
 فَرُبَّمَا نَفَسَتْ عَنْ نَفْسٍ مَحْزُونِ  
 أَمَا (تَرَنْجَةً) فَهِيَ الْبُرَّةُ لَوْ سَلِمَتْ  
 سَاحَاتُهَا الْفُسْحُ مِنْ لَسَعِ الثَّعَابِينَ  
 وَادْفَعْ إِلَى الْبَيْتِ مِنْ (بَابِ الْمَنَارَةِ) أَوْ  
 (بَابِ الْجَدِيدِ) إِلَى سَوَاقِ الرِّيَاحِينَ  
 وَطُفْ مِنْ (الْبُرْكَةِ) الْمَعْمُورِ جَامِعُهَا  
 إِلَى (الرَّبَاعِ) إِلَى رُكْنِ (الْقَرَسْطُونِ) (1)  
 وَانْخَشِ الْجِمَارَ لَدَى (بُئْرِ الْحِجَارِ) إِذَا  
 سَعَيْتَ مِنْهَا إِلَى (حِمَامِ زَرْقُونِ)  
 وَإِنْ خَرَجْتَ إِلَى (رَوْضِ السَّعُودِ) فَقِفْ  
 كَمَا عَرَفْتَ وَبَتَ فِي (دَرْبِ زَيْتُونِ)  
 تِلْكَ الْمَنَازِلُ لَا (الزَّهْرَا) (وَقُرْطُوبَةُ)  
 كَلَّا لِعَمْرِي . وَلَا غِيْطَانِ (جِيْرُونِ)  
 فَصِدْ سَوَانِحَهَا إِنْ أَمَكَنْتَكَ وَإِنْ  
 تَعَسَّرَتْ فَاسْتَعِنْ بِمِثْلِ فَرْكُونِ (2)

(1) حَوْمَةُ الْقَرَسْطُونِ بِأَعْلَى سَوَاقِ الْوُزْرِ جُوزَرَةٌ . وَبَقِيَّةُ الْمَعَالِمِ الْمَذْكُورَةِ مَعْرُوفَةٌ الْيَوْمَ .

(2) الْأَقْرَبُ أَنَّهُ عَلِمَ لِشَخْصٍ يَتَعَاطَى تِجَارَةَ الرِّقْمِ الْاَبْيَضِ كَمَا يُقَالُ فِي هَذَا الْعَصْرِ .



ولا تصيد غير ساجي الشحظ ذي حور

فأنت في غير هذا غير مأذون

واستمنح السعد من عند الجواد به

واستغن إن نلتته عن كثر قارون

ولا تقل كيف يدنو ما أومله

فإن مغزاك بين الكاف والنون

وكأنه عارض بهذه القصيدة قصيدة عامر بن هشام القرطبي التي قالها حين رقت حاله وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدین مراکش . وذكر فيها المنتزهات القرطبية وتسمى عند أهل الأندلس « كثر الأدب » وكان أبو يحيى الحضرمي يحفظها ويزين بها مجالسه ويحلف ألا يشدها بمحضر جاهل لا يفهم . أو حاسد لا ينصف في الاهتزاز لها ، قال ابن سعيد القيسي : وإنه لجدير بذلك فإنها من كنوز الأدب (1) وهي :

[ 86 - أ ] / يا هبة باكرت من نحو دارين

وافت إلي على بعد تحيني

ردت على جسدي روح الحياة وما

خلت النسيم إذا ما مت تحيني

لو لا تنسها عن نشر أرضكم

ما أصبحت من أليم الوجد تبريني

مرت على عقدا الرمل حاملة

من سركم خبراً بالوحي يشفيني

عرفت من عرفه ما لست أجهله

لما تنسم في تلك الميادين

(1) هذا التعريف بالقصيدة مأخوذ من المقري 1 : 223 . ونقل فيه عن ابن سعيد قول الحضرمي ونمليعه عليه . انظر نص القصيدة بالمصدر نفسه 1 : 257 .

نزوت من طرب لما هفا سحراً

وظل ينشروني طوراً ويطويني

خلت الشمال شمولاً إذ سكرت بها

سكراً بما لست أرجوه يمني

أهدى إلي أريحا من شمائلكم

فقلت قربني من كان يقصيني

وخلت من طمع أن اللقاء على

إثر النسيم ، وظل الشوق يحدوني

فظللت النسيم من تعظيم حقكم

مجرأ أذبالها والوجد يغريني

مسارح كم بها سرحت من كمد

قلبي ، وطرفي ، ولا سلوان يثنيني

بين المصلى إلى وادي العقيق وما

يزال مثل اسمه إن بان يكييني

إلى الرصافة ، فالمرج النضير . فوادي

الدير ، فالعطف من بطحاء عبدون

لباب عبد ، سقته السحب وابلها

فلم يزل بكؤوس الأنس يسقيني

لا باعد الله عيني من منازله

ولا يقرب لها أبواب جيرون

ما شأنها من محلات مفارقة

من شيق - دونها في القرب - محزون

أين المسير ؟ ورزق الله أدركه

من دون جهد وتأمل يعنيني



يَا مَنْ يَزِينُ لِي التَّرحالَ عَنْ بِلَدِي

كَمْ ذَا تَحَاوَلُ نَسْلًا عِنْدَ عَيْنَيْنِ

وَأَيْنَ يَعْدِلُ عَنْ أَرْجَاءِ قَرْطَبَةٍ

مَنْ شَاءَ يَظْفَرُ بِالدُّنْيَا وَبِالدِّينِ

قَطْرُ فَسِيحٍ ، وَنَهْرٌ مَا بِهِ كَدَرٌ .

حَفَّتْ بِشَطِيطِهِ أَلْفَافُ الْبَسَاتِينِ

يَا لَيْتَ لِي عُمُرَ نُوْحٍ فِي إِقَامَتِهَا

وَأَنْ مَالِي فِيهَا كَثُرَ قَارُونِ

كِلَاهُمَا كُنْتُ أَفْنِيهِ عَلَى نَشَوَاتِ

الرَّاحِ نَهَبًا وَوَصَلَ الْخِرَدِ الْعَيْنِ

وَإِنَّمَا أَسْفَى أَنِّي أَهْمِي بِهَا

وَأَنْ حَظِّي مِنْهَا حَظٌّ مَغْبُونِ

أَرَى بَعِينِي مَا لَا تَسْتَطِيلُ يَدِي

لَهُ . وَقَدْ حَازَهُ مَنْ قَدَرَهُ دُونِي

وَأَنْكَدُ النَّاسَ عِشًا مِنْ تَكُونُ لَهُ

نَفْسُ الْمُلُوكِ وَحَالَاتِ الْمَسَاكِينِ

/ يَغْضُ طَرْفَ التَّصَافِي حِينَ يُبْهِنُهُ

قُضْبَانُ نَعْمَانَ فِي كُثْبَانِ يَبْرِينَ

قَالُوا الْكَفَافُ مُقِيمٌ ! قُلْتُ ذَاكَ لِمَنْ

لَا يَسْتَخْفُ إِلَى بَيْتِ الزَّرَّاجِينِ

وَلَا يُبْلِبِلُهُ هَبَّ الصَّبَا سَحْرًا

وَلَا يَلْطِفُهُ عَرَفُ الرِّيَّاحِينَ

وَلَا يَهِيمُ بِتَفَاحِ الْخُدُودِ ، وَرَمَّانِ

الْصُّدُورِ . وَتَرْجِيْعِ التَّلَاحِينِ

[86 - ب]

لَا تُجْتَنِي رَاحَةٌ إِلَّا عَلَى تَعَبٍ

وَلَا تُنَالُ الْعُلَا إِلَّا مِنَ الْهُونِ

وَصَاحِبُ الْعَقْلِ فِي الدُّنْيَا أَخُو كَدَرٍ

وَإِنَّمَا الصَّفْوُ فِيهَا لِلْمَجَانِينِ

يَا آمِرِي أَنْ أَحُتَّ الْعِيسَ عَنْ وَطَنِي

لَمَّا رَأَى الرِّزْقَ فِيهِ لَيْسَ يُرْضِينِي

نَصَحْتَ ، لَكِنْ لِي قَلْبًا يُنَازِعُنِي

فَلَوْ تَرَحَّلْتُ عَنْهُ حَلَّهْ دُونِي

لَأَلْزَمَنَّ وَطَنِي ، طَوْرًا تَطَاوَعُنِي

قُودُ الْأَمَانِي . وَطَوْرًا فِيهِ تَعَصِينِي

مَذَلَّلًا بَيْنَ عِرْفَانِي . وَأَضْرَبُ عَنْ

سِيرِ الْأَرْضِ بِهَا مِنْ لَيْسَ يَدْرِينِي

هَذَا يَقُولُ : غَرِيبٌ سَاقَهُ طَمَعٌ .

وَذَاكَ حِينَ أَرِيهِ الْبِرَّ يَجْفُونِي

إِلَيْكَ عَنِّي - آمَالِي - فَيَعْدُكَ

يَهْدِينِي ، وَقُرْبُكَ يُطْغِينِي وَيُغْوِينِي

يَا لِحَظِّ كُلِّ غَزَالٍ لَسْتُ أَمْلِكُهُ

يَرْنُو وَلَا لِي حَالٌ مِنْهُ تَدْنِينِي

وَيَا مَدَامَةَ دَيْرٍ لَا أَلْمُ بِهَا

لَوْلَا كُفَا كَانَ مَا أُعْطِيتُ يَكْفِينِي

لَأَصْبِرَنَّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ كَدَرٍ

لِمَنْ عَطَايَاهُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ

وَمِنْ آثَارِ مَوْلَانَا - أَيُّدُهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْخَالِدَةِ الذِّكْرِ ، الْعَظِيمَةِ الْأَجْرِ :

الْقَنْطَرَةُ عَلَى نَهْرِ مَلْيَانَ الْمَنْصُوبَةِ جَسْرًا عَلَى الطَّرِيقِ الْعَظِيمِ مَدْرَجَةِ السَّابِلَةِ مِنْ



جميع البلاد القبلية . وهي من أحسن القناطر . جمال منظر . وإحكام بناء ،  
وعظم منفعة . فقد كانت السابلة - على كثرتهم جدا - يحتاجون زمان  
الشتاء ووقت زيادة النهر في عبوره إلى العدول إلى القنطرة القديمة على طريق  
رادس فيتجشّمون زيادة مسافة ذات أميال ويتركون الطريق الجادة . ومن  
الاتفاقات القاضية بسعادة الجد . ونجح السعي . أنه لمّا وقع الشروع في بناء  
هذه القنطرة احتيج إلى قطع الصخور العظام التي تقاوم شدة جرى الماء  
لتوضع في الأساس ويرفع بها السمك . وكان بين مكانها وبين المكان الذي  
تجلب منه الصخور العظام مسافة بعيدة يحتاجون في نقلها منه إلى عمل كبير  
ومشقة فادحة . فلم يشعر أحد إلاّ وقد عثر بعض الفعلة على دفين من  
الصخور العظام بأرض قريبة جدا من مكان القنطرة - بينها وبين شوشة رادس -  
فاستخرجوها وبنوا بها كأنما كانت معدة لهذا / الشأن . وبقي ذلك المكان  
مقطعا للحجارة المعدلة التي تقع في المباني الضخمة يجلبها منه من شاء . ورأيت  
بأعلى القنطرة رخامتين مكتوبا على كل واحدة منهما أبياتا تتضمن التاريخ :  
احدهما وهي اليمنى على طريق الداهب من الحضرة مكتوب عليها من  
نظم الورغي :

[87 - أ]

انظر لجسر ينجلي  
يزهو به ملبان عن  
ومن معاني اسميهما  
وازداد فضلا إذ دنا  
نجل حسين من نحا  
بلغه خالقه  
وباسمه أرخته :  
(زكا به الباشا علي)

1180

وعلى الأخرى وهي اليسرى منهما من نظم الطوير :

انظر فخامة مبني  
علا بملبان يزهو  
قد تم حسا ومعنى  
على القناطر حسنا

نجل الأمير حسين  
فاروق به وأنبه  
يهنيه سعي جميل  
يا عابر الجسر يمشي  
للمنشي ادع وأرخ :  
(علي باشا يهنا)

1180

وأما القناطر الصغار التي نصبها على أودية وأماكن يعسر عبورها أوقات  
الأمطار والأحوال فكثيرة - كقنطرة الخضراء ، وقنطرة وادي الحيطي ،  
وقنطرة الأحواش ، وقنطرة الفدان ، وغيرها - أكبرها قنطرة البغلة التي على  
خليج من وادي زرود في طريق الساحل من القيروان .

ومن مآثره الجميلة ومساعيه الحميدة ومصانعه الضخمة سور القيروان الذي  
أداره عليها سياجا . وشده عليها نطاقا . وحلاها به سوارا ، فقد ذكرنا أن  
يونس بن علي باشا كان قد اجتثه من أصله . واستأصله جملة بأسره . أيام  
الفتنة حين ملك القيروان بعد حصارها الطويل . وبقي على تلك الحال منجعفا  
أيام علي باشا كلها . فلمّا أديل للمولى الأمير محمد باي / واقتعد أريكة الملك  
بالحضرة صرف عزمه إلى رفع دعائمه . وإحياء معالمة . واهتم بذلك واعتنى  
به . واعتزم على أن يديره محيطا بأرباض القيروان كلها وبالجنح الأخضر  
امدفن الأعلام والصالحين من رجالها . فوجه إليه مهرة العملة من الحضرة ،  
واختطوا أساسه على حسب ما قدره . وابتدأوا البناء من الجهة الشرقية حيث  
لا ربض هنالك وتباعدا عن الأساس القديم مسافة تنهيا بها الاستدارة على  
وفق تقديره . وبنوا طائفة من السور والبرج الضخم المشيد الأركان . وعاجلته  
المنية عن إتمام ما أراده - رحمه الله تعالى . واستقل بالأمر بعده مولانا - أطال الله  
بقاءه - فصرف عزمه إلى إتمامه لكنّه رأى أن إتمامه على ذلك الوضع يأتي على  
الأموال . وتنفى دونه الأزمان . ولا يوفّي التعب فيه بالمنفعة منه . فبنى  
القصبة . وانحرف به إلى الأساس القديم وأتمه متقن البناء . مُحكم الصنعة  
محيطا بالمدينة دون أرباضها ، وأذن للناس في بناء الدور في البراح الذي استقرّ



بين أساس السور القديم وبين القطعة الشرقية التي بناها أخوه - رحمه الله تعالى -  
فعمرت هنالك نحو ثلاثمائة دار . ولما تمَّ بناء السور أمر بعمل تواريخ  
تكتب في الرخام على أبواب المدينة الأربعة من نظم الكاتب أحمد سمية :  
فعلى باب تونس منها :

هَذَا الَّذِي بِسْمِ مَنْشِئِهِ سَمَا  
وَبِحُسْنِ طَلْعَتِهِ الرِّمَانِ تَبَسَّمَا  
مَا لِلْبِلَادِ الْبَابِ إِلَّا هَكَذَا  
حِصْنٌ وَحُسْنٌ فَاقَ كُلُّ مِنْهُمَا  
فَابْنُ الْحُسَيْنِ عَلِيٌّ بَاشَا أَظْهَرَ  
عِزَّمَاتِهِ سُورًا يَسْرُكُ كَلَمًا ...  
وَدَعَا لِأَبْوَابِ الْمَدِينَةِ بِهَجَّةٍ  
فَأَتَتْ مُجِيبَتَهُ بِوَجْهِ الْإِنْتِمَا  
يَا دَاخِلًا لِلْقَيْرَوَانِ مُؤَرَّخًا  
(من باب تونس جزء مصاناً في الحمى)  
1183

وعلى باب الجديد :

كَمَالُ السَّرِّ يَظْهَرُ مِنْ بَعِيدِ  
سَلِيلِ حُسَيْنٍ بَايِ عَالِي بَاشَا  
لَهُ بِالْقَيْرَوَانِ نِظَامُ سُورِ  
وَمِفْتَاحُ الْفَلَاحِ سَعَى إِلَيْهَا  
مِنْ الْبَابِ الْمُبَارَكِ جُزْءٌ وَأَرَّخَ :  
بِسُورِ لَاحٍ مِنْ مَلِكٍ حَمِيدِ  
سَنَا الْعِلْيَاءِ ذِي الرَّأْيِ الرَّشِيدِ  
بَدَا كَنْيَظَامِ عَقِيَانِ مُجِيدِ  
بَحَلِ الْبَابِ لِلْخَيْرِ الْمَدِيدِ  
(سنا البركات في الباب الجديد)  
1183

وعلى باب الجلادين :

سُورًا لِمَدِينَةِ فَاقَ بِالتَّحْصِينِ  
وَالْبَابِ مِنْهُ كَغَرَّةٍ بِجَبِينِ  
تَجْدِيدِهِ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ  
عِزَّمَاتُ مَأْمُونٍ وَعِزُّ أَمِينِ  
فَانْظُرْهُ ، وَادْعُ لِمَنْ سَعَى لَهُ فِي  
نَجْلِ الْحُسَيْنِ عَلِيٍّ بَاشَا مِنْ لَهُ

[88 - أ]

كثرت مزاياه فَحَسَابٌ لَهَا  
حَثَّ الْخَطَا لَتَرَى الْكَمَالَ مُؤَرَّخَا  
(فالحسن خط بباب جلادين)  
1183

وعلى باب الخويضة ، ويسمى باب الجامع - وهكذا سمَّاه في الشعر - :  
اللَّهُ أَكْبَرُ لَاحَ بَابُ الْجَامِعِ  
فَحَلَاهُ فِيهَا لِلْمُشَاهِدِ نَزْهَةً  
لَمَّا الْهَمَامُ عَلِيٌّ أَبَدَا نَفْعَهُ  
فَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِنَيْتِهِ وَمَا  
فَجَزَاهُ خَيْرًا إِذْ أَتَى تَارِيخَهُ :  
(خير الصلاح نما بباب الجامع)  
1183

ومن آثاره الشاهدة بفخامة الدولة ما أحدثه بباردو المعمور من القصور  
المشيقة . والديار الفيج ، والدواوين السامية . والغرف المنيفة . والمجالس  
الموطاة . فقد كانت باردو على عهد ملوك الموحددين من بني أبي حفص  
منتزها من سائر منترهاتهم التي اتخذوها لفرجهم وخلاعتهم كرأس الطابية  
وأبي فهر وغيرهما من مصانعهم . لكنهم ما اتخذوها داراً للسكنى . ولا  
لإقامة مراسم الملك . حتى كانت دولة آل مراد بعدهم فاعتنوا بشأنها وبنوا  
بها الدور والمساكن وصيروها مدينة استقلوا بسكنائها - تفاديا عن ملابسة الجند  
من الأتراك . وتجاфия عن التورط في حبال ثورتهم - واختاروها لقربها من  
الحضرة فإنها على فرسخ منها أو أقل من شمالها على طرف الحرايرية ، فسكنها  
منهم محمد باي ابن مراد ، وأخوه رمضان باي . وابن أخيها مراد باي بن  
علي . فلما انقرضت دولتهم وملك بعدهم إبراهيم الشريف رفض  
سكنها واستقر بدار حمودة باشا من الحضرة للدالة على الأتراك بعجمته .  
فلما ثلَّ عرشه واستبدَّ بالمملكة المولى الأمير - رحمه الله - بعد مهلك محمد  
الأصفر انتقل إليها واتخذها أريكة لملكه وأسكن بها معه خاصته وخدمه .  
وأقام بها الجمعة ولم تقم بها قبله . وبقي بها مدة دولته . وبها كان مولد مولينا  
أبنائه الكرام ونشأتهم . فلما ملك بعده علي باشا اعتنى بها غاية الاعتناء فزاد  
فيها زيادة تقرب من نصفها . وأدار بها خندقا حاجزا . وشيّد أبراجها ،



[88 - ب] وبني بها الهياكل المدقعة . واحتفل بالقصر . وجاب له الرخام والمرمر حتى قيل لا زيادة على ما صنع . فلما رجع سيفها إلى قرايه . وملاكمها إلى نصابه . وأعطى القوس باريها بعودة مولانا - أيده الله تعالى - إلى مقر سلطنته منها اتخذ بها ما لم يخطر على ذهن / أحد ممن تقدمه . فبنى بها المصانع الحافلة . وجاب إليها من المرمر الملون المجزّع ما لم يجلب إلى الحضرة قبله حتى صار نزرة للناظرين وموقفا لأبصارهم . ومن جملة مصانعه بها المحكمة السامية المناظرة لمحكمة علي باشا المضاهية لها في ضخامة الشأن . المُرَبِّية عليها في حسن الشكل . وكون المدخل إليها من البيت فاغنى عن تجشم الكلفة بقطع مسافة الصحن في الغدوات الباردة . وهي على يسار الصاعد إلى القصر . والأخرى على يمينه وصارت الآن لمولانا أبي محمد حموده باشا - واصل الله سعادته - يجلس فيها أيام الأعياد والمواكب . وليحكم بين الناس إذا استنابه مولانا - أيده الله تعالى - في ذلك . وفي سنة إحدى وثمانين وقع الطاعون بأطراف العمالة من ناحية الشرق وتوقع الناس وصوله إلى الحضرة - حرسها الله تعالى - وأرجف بذلك . ففكر مولانا - أعزه الله تعالى - في التحرّز من دخوله إلى باردو - صانها الله تعالى - بمنع الدّاخل إليها . ولم تطب نفسه بترك الحكم بين الناس والنظر في أحوالهم . فعمد إلى برج من أبراج سور باردو المعدة لوضع المدافع - وهو الذي على يسار الدّاخل إليها - فأنزل مدافعه وأزال شرفاته . وبني عليه قبة مسرفة على الطريق وقدّر أنه يجلس فيها للحكم بين الناس ليسمع كلامهم من غير أن يدخل أحد منهم إلى باردو . فكفى الله تعالى سرّاً ذلك وارتفع الطاعون من أطراف العمالة وبقيت تلك القبة من أحسن الاواوين مطلة على بساتين منوبة والحرايرية . مشرفة على الدّاخل إلى باردو والخارج منها . وجعل منفذين من البيت الطويلة التي يصدر القصر احدهما عن يمين البهو . والأخرى عن شماله . ومن غريب ما اتفق بها أنه لما استدارت قبتها . واحتيج إلى فرش قاعتها أخذت مركب من المراكب الجهادية غنيمة للفرنج بها من الجليز البديع الصنعة الغريب الطلي والتزويق ما فرشت به قاعتها فكان وفقها كأنما أعدّه صانعه لها . وجلب إليها الماء في فوارة من

الرخام وسطها . وعمل فيها أبو عبد الله الورغي قصيدة كتبت بدائرها نطقاً عليها نقشا في الجبس بالخط المشرقي البديع وهي :  
سعيد المباني ما يطول ويمتد  
إذا كان لِلْوَجْهِ الجميل به القصد  
ولاسيما إن كان في خلق الذي  
بناه انطباعاً ، لا انقباض ولا حقد  
بذا يحسن المبني ويسعد أهله  
ويحوي به آماله الأب والولد  
ويصدق أن قال الخبير بوصفه  
هي القبة الفيحاء ما إن لها ند  
لقد خفيت حتى إذا البخت زارها  
تبدّت ، وما للملك من مثلها بد  
نتيجة تدبير سهّا عنه من مضى  
وشيدها من هذب الأمر من بعد  
/ فجاءت كنجم الصبح طال انتظاره  
فمن كل نجّام لطلعتيه رصد  
ولو لم تكن نجما يُرجى طلوعه  
لما كان من برج السعود لها مهد  
فألقت على ما في المنازل يمينها  
ففي كل بيت من سعادتها سعد  
وكانت لأعيان المحبين قرّة  
وإن كان منهنّ في عيون العدا فقد  
فسرّح بها طرفاً إلى الآن لم يكن  
له ببديع الشكل من قبلها عهد



فَتُعْطِيكَ بِالتَّمْثِيلِ مَا شِئْتَ مِنْ مَنِي  
 فَإِنْ شِئْتَهَا رَوْضَ وَإِنْ شِئْتَهَا خُودَ  
 وَإِنْ أَنْتَ أَمْنَعْتَ التَّأْمُلَ خَلَّتْهَا  
 يَتِيمَةُ دَارِ الْمَلِكِ تَمَّ بِهَا الْعَقْدُ  
 هِيَ الرَّأْسُ مِنْهَا ، وَالطَّوِيلَةُ صَدْرُهَا  
 وَمَا قَدْ عَلَا ذَاكَ الصَّدَّارَ لَهَا نَهْدُ  
 وَمَا صَغُرَتْ تِلْكَ الْبَسَاتِينَ حَوْلَهَا  
 لِأَنَّ قَلِيلًا كَافِيًا كَثْرُهُ دَدُ (١)  
 عَلَى أَتْنَهَا رَوْضَ يَدْبِجُهُ الْحَيَا  
 فَمِنْ كُلِّ نَوَّرٍ فِي تَفَاصِيلِهَا بُرْدُ  
 وَفِي أَوْجِهَا حَيْثُ الْكَوَى مِنْهُ أَوْمَاتُ  
 إِلَى الشَّمْسِ قَوْسَ اللَّهِ فِي قَلْبِهَا يَبْدُو  
 فَإِذَا ذَاكَ أَضْدَادُ الْأَشْعَةِ جَمَعَتْ  
 وَمِنْ قَبْلِ هَذَا الْحِينِ مَا اجْتَمَعَ الضَّدُّ  
 عَلَى أَرْبَعٍ قَامَتْ وَإِنْ كَانَ شَبْهُهَا  
 مِنَ الْغَيْدِ يَكْفِي فِي مَلَاَحَتِهَا قَدْ  
 وَلَكِنَّهَا زَادَتْ لَتَلْعَبَ بِالنُّهَى  
 إِلَى الْغَايَةِ الْقَصْوَى أَسَاطِينَهَا الْمَلْدُ  
 وَمَا قَيْدُ الْأَلْحَازِ مِنْهَا كَمَرْكَزِ  
 مَوَاتٍ وَأَمْوَاهُ الْحَيَا بِهِ تَغْدُو  
 لِمَعْنَى تَرَى الْأَنْحَاءَ مِنْهَا ثَمَانِيَا  
 فَهَلْ هِيَ إِلَّا مِنْ جِنَانِ بِهَا الْخُلْدُ ؟

(١) لعب .

وَأَلْقَتْ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ وَسَادَهَا  
 لَثَلَا يُلَاقِي الْغَيْنَ فِي قَصْدِهَا الْوَفْدُ  
 وَتَبْصِيرِ مِنْ قُرْبٍ مَرِيدًا تَوَدُّهُ  
 وَتَسْمَعُ بَدْءًا صَوْتٍ مِنْ قَصْدِهِ الرَّفْدُ  
 فَحَسَبُ مِنْ اسْتَعْفَى مِنَ الضَّيْمِ وَقَفَّةُ  
 وَحَسَبُ الَّذِي يَأْتِي لِعَادَاتِهَا الْعُودُ  
 وَأَعْظَمُ بِهَا وَالْبَرْجُ يَكْفِي (١) ذِيلُهَا  
 كَجَالِسَةِ قَعَسَاءَ كَرْسِيَّهَا طُودُ  
 وَلَوْ نَطَقَتْ قَالَتْ لَهُ : كَيْفَ كُنْتُ لِي  
 وَمَا بَيْنَنَا فِيمَا طُبِعْنَا لَهُ بُعْدُ  
 طَبِيعْتُ عَلَى التَّقْوَى فَأَقْبَلُ مِنْ دَنَا  
 وَأَدْنُو لِمَنْ يَنْأَى وَمَنْ طَبَعَكَ الطَّرْدُ  
 فَأَيْنَ مُخِيفَاتٍ بِهَا كُنْتُ تَحْتَمِي  
 أَمِنْ قَدَرٍ يَأْتِي بِهِ الصَّمَدُ الْفَرْدُ ؟  
 وَهَذَا أَنَا ذِي وَجْهَتِ وَجْهِي لِيُوجِّهِي  
 وَمِنْ ذِكْرِهِ — مَا دَمْتُ فِي الدَّهْرِ — لِي وَرْدُ  
 وَبَعْتُ الْمَغَانِي بِالْمَثَانِي ، وَنَشَوْتِي  
 بِمَا قَامَ حَمَّالُ الْحَدِيثِ بِهِ يَشْدُو  
 / بِهَذَا رَأَيْتُ السَّمَكَ أَصْبَحَ مَتَزَلِّي  
 وَأَنْتَ — كَمَا عَايَنْتَ — مَتَزَلُّكَ الْوَهْدُ  
 كَذَلِكَ يَعْلُو مِنْ إِلَى الْخَيْرِ سَعِيهِ  
 وَيَسْفُلُ مَنْ يَغْدُو إِلَى الشَّرِّ يَشْتَدُّ

(١) الكفت : الصرف ، وكفت ذيله : شمرة وقبضة .



كفنتني من المولى القوي عناية  
وما بعد عون الله في شدة جند  
على أن بالإسناد لي لك حرمة  
عليك لمن أولاً كما يجب الحمد  
هو السيد الباشا الذي بكماله  
وإكماله ما يتبغي كمل الحمد  
مرادي علي بن الحسين . ومن يقل :  
له في النهي ثان . فقولته رد  
إذا عد من وفي بكل مليحة  
وقيل علي أول . وقف العد  
سقى قصره هذا وكل قرارة  
يحل بها سار من اللطف ممتد  
دعاء أجاب الله من قد دعا به  
وتاريخها : (بيت به أونس السعد)  
بحرمة من وآفي إلى الخلق رحمة  
فزالت به الأسوا وتم به الرشد  
عليه صلاة لا يحاط بقدرها  
يماط بها عن باب فيض الرضا السد  
ويدخل باني البيت في حصن درعها  
فتحفظه حفظ الحيمي الحافظ الجلد  
وفي حيز «بسم الله» وهي وجيهة  
يحق بها المبدأ ويركو بها العود  
وكتب في سقيفتها من المجاز الأيمن :  
هذه بيت تسر الناظرين تنزل الرحمة فيها كل حين  
واجب حتم على داخلها حمد لله رب العالمين

إذ أتى منها مكانا طيبا فيه ما يبغيه من دنيا ودين  
هنت لابن الحسين ربها وبنيه الغر أنجاب البنين  
فهني سعد ورد الآن له ولهم بالنصر والفتح المبين  
وإذا تم البناء وأرخت : (يدخلوها بسلام آمين)  
وقد كدنا أن نخرج عن المقصود — وما خرجنا إن شاء الله تعالى — فلعل  
المصنعين اللذين خصصناهما بالذكر من شرطنا المذكور في صدر الكلام  
وأتهما ما بنينا إلا للجلوس فيهما للحكم الذي به تصل الحقوق وتندفع المظالم ،  
فلنغض عنان القلم . فقد سلك طريقا لا تقطع . وتيارا لا يصد عن سبيله ولا  
يمنع . فإن صدقات مولانا — أيده الله تعالى — وإحسانه أكثر مما ذكرناه وذلك  
كله دون الطائفة لمن يقصده من الغرباء وأبناء السبيل والأسارى والحجاج  
وغيرهم . ودون الخارج / في كل عام لأناس معينين من قمح وزيت وسمن  
وكسوة وغير ذلك . ودون تجهيز من يموت من الفقراء المتسورين بجهاز أوساط  
الناس . ومع هذا كله فهو معترف بالتقصير . كثيرا ما يقول : « إنما هي  
أموالهم أوصلها إليهم فلا فضل لي في ذلك ! » وقد تحررت في أكثر هذه  
الصدقات أن تكون من حلال . والله تعالى الموفق لا رب غيره .

### واما حلمه وكظمه الغيظ وعفوه

فاعلم أن هذه الأخلاق الثلاثة الشريفة — مع تقاربها — بينها فرق : فان كظم  
الغيظ عبارة عن التحلم — أي تكلف الحلم — ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا  
من هاج غضبه . ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعود ذلك مدة صار  
ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب — وهو الحلم  
الطبيعي — وهو دلالة كمال العقل والاستيلاء به . وانكسار قوة الغضب  
وخضوعها للعقل ، فهو أفضل من كظم الغيظ وأشرف ، لكن ابتداءه بالتحلم وكظم  
الغيظ تكلفا لمن لم يكن مجبولا عليه من أول الفطرة . وأما العفو فهو أن يستحق  
حقا فيسقطه ويبرأ عنه من قصاص أو غرامة . وهو غير الحلم وكظم الغيظ .



فهذه الخلال الثلاث - ويدخل فيها الاحتمال - هي من أعظم الأخلاق وأشرف الممتلكات وأكرم الخصال وقد آتى الله تعالى مولانا - أيده الله تعالى - منها ما لا يعرف في العالم إلا لمثل الأحنف بن قيس (1) ونظرائه ممن يضرب بهم المثل . وتدون أخبارهم في السير . وهذا ضروري عند من ثافنه وعرف أخلاقه - بل عند كل من شملته إيبالته - فلا يكاد يستغفره الغضب ولا يحمله على التشنج والانتقام - بل يحلم عمن جهل . ويعفو عمن جنى - أما خاصته فلا يعاقب من جنى منهم جناية أو هفا هفوة بأكثر من الإعراض عنه وترك الالتفات إليه أياما بحسب جنايته من غير فحش ولا سباب ولا كلام يكسر قلبه - إلا في حق شرعي لله وللناس فيستخرج ولو من أحظى الناس لديه - وأما رعيته فلا قتل ولا ضرب ولا تنكيل : وإنما هو زجر وتأديب هين بحسب ما تقتضيه الشريعة أو السياسة .

حضرت ليلة مجلسه العالي - رفعه الله تعالى - وكان معنا الشيخ الفقيه القاضي أبو الظفر منصور المتزلي قاضي باردو المعمور فانجز الحديث إلى ذكر الحلم والغضب فقال مولانا - حفظه الله تعالى - : أنا والحمد لله لا أغضب ! فقال له القاضي : من استغضب ولم يغضب ..... فتغير وجهه وظهر عليه آثار الامتعاض وقال له : « أنا حمار أيها الشيخ ! » ثم نظر إلينا كالمستنطق ؟ فبدره الشيخ الفقيه الأجل أبو محمد عبد اللطيف الطوير مفتي القيروان راداً عليه بما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رجلاً قال : يا رسول الله مررتي بعمل وأقليل فقال : لا تغضب ! ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب » وقلت له أنا : هذا الأثر من كلام الشافعي - رضي الله عنه - وهو محمول - كما قال حجة الإسلام الغزالي / - على من فقد قوة الغضب . أو ضعفت فيه بحيث لا حمية فيه . حتى لا يأنف مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأم والإماء ، ويحتمل الذل من الاخساء . ويتصف بصغر النفس والغمارة - وهو مذموم جداً - ومن ثمراته عدم الغيرة على الحرم الذي هو خنوشة .

[90 - ب]

(1) تميمي وهو فصيح من دماء العرب وأحلمهم . وفاته سنة 602/72 .

فهذا هو الذي عناه الشافعي - رحمه الله - بقوله : من استغضب ولم يغضب فهو حمار ! فسكت القاضي ونهض مولانا - أيده الله تعالى - إلى صلاة العشاء وانفض المجلس . فلما كان الغد وانتشرت القضية وأرجف بعزل القاضي خاف خوفا شديداً وانطلق إلى الوزير الأجل أبي الحسن علي بن عبد العزيز مستجيراً به وأخبره بالقضية . فقال : هذا الذي خفت منه حق لنفسه أو لغيره ؟ قال : بل حق لنفسه ! قال له : لا بأس عليك وأنا الكفيل لك بذلك ! ثم جاء ابن عبد العزيز إلى مولانا - أعزه الله تعالى - وأخبره بما دار بينه وبين القاضي وبضمانه الذي ضمنه . فقال له : جزاك الله خيراً . أمّا أنت فقد عرفتني ، أخبره أنه لا بأس عليه . أريد أن يكذبني حتى يقال : غلبه الغضب وطلب الانتقام لنفسه حتى عزل قاضيه ؟ لا يكون ذلك أبداً إن شاء الله !

ومن حلمه الدال على انقياد غضبه لعقله . ودخوله تحت قهره : أنه حضر في بعض الأيام مجلس الشيخ الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن علي سويس قاضي الحضرة بمحلّ حكمه رجل يُعرف بوكيل الطبرية مترافعا مع خصم له فأدّاه اللجاج إلى أن صدر منه في حق مولانا - أعزه الله تعالى - حين ذكره له خصمه - من قبيح القول وفظيع السب ما لا يليق أن يذكر ! فأشهد عليه القاضي بذلك وسجل عليه . ولما حضر القاضي مجلس مولانا الرفيع يوم المجلس أتى بالرجل المذكور وأحضر السجل الذي فيه الشهادة عليه بما صدر منه . فلما علم مولانا - أعزه الله تعالى - القضية على وجهها أمر بإطلاق الرجل وقال له : اذهب فإن الحق لي وقد عفوت عنك ! والتفت إلى القاضي فعاتبه وقال له : كان الأولى بك ألا تبليغ إليّ مثل هذا .

وفي سنة خمس وثمانين ورد على الحضرة رجل من أهل مساكن اسمه عبد الله كان منتبهاً إلى بعض الرؤساء بتونس . ثم ارتحل إلى المشرق فأقام بمصر . وانتقل إلى الحجاز فجاور مدة . ثم انتقل إلى اصطنبول فأقام بها أيضاً مدة . ثم ورد على الحضرة ومعه كتابان من مولانا السلطان مصطفى خان - رحمه الله تعالى - إلى مولانا - أعزه الله تعالى . مضمّن أحدهما : « أنه



ورد علينا السيد عبد الله الشريف المساكني وأخبرنا أن أهل مساكن الأشراف بعد ماكم قد وقع عليهم الظلم من جنابكم بالزامهم أداء أموال جبايات وغيرها على وجه الظلم فلترفعوا ذلك عنهم وتغفروهم من جميع المظالم لأنهم أشراف لا ينبغي أن يرهقوا بالظلم . ومضمن الثاني : « أنا كنا كتبنا لكم في شأن أهل مساكن الأشراف لترفعوا عنهم الظلم لشرفهم فلم تمتثلوا » وأكد في الوصية والأمر برفع الظلم عنهم وامثال ذلك ! وتاريخ الثاني / بعد تاريخ الأول بنحو ستة أشهر وأتى من نزاره عقله بالكتابين جميعا إلى مولانا - أعزه الله تعالى - ودفعهما إليه . فلما اطلع عليهما استشاط غضبا وقال له : أي ظلم صدر مني لأهل مساكن ؟ وما الذي فعلته معهم مما أوجب هذا منك ؟ ثم ما كفالك أن كذبت عليّ أولا ورميتني بالباطل . حتى كذبت عليّ ثانيا وأظهرت لحضرة السلطان العلية أني عصيت أمره فكتب لك الكتاب الثاني والأول باق بيدك لم أطلع عليه ! فصدر من ذلك الرجل من التهور في الخطاب ما لا مزيد عليه ! فكتب مولانا - أيده الله تعالى - إلى أهل مساكن . واستدعى جماعة من كبارهم وأعيانهم وقال لهم : أي ظلم صدر مني لكم حتى ترسلوا إلى حضرة السلطنة وتشكوني وتنسبوا إليّ القبيح ؟ وأنتم محررون من جميع ما يلزم الرعايا من القوانين المخزنية . وإنما تؤدون خراج ريتونكم القديم - على كل أصل أربعة ناصرية - كغيركم . ومحدث الغرامة من أوائل دولة الترك إلى الآن لا تؤدون عليه شيئا ! وذلك لا يوفي بالتزير مما يلزمكم من عشره شرعاً ! وها أنا ذا تارك عنكم قانون الزيتون ومطالبكم بأداء عشر ما تعصرونه منه الذي هو حق شرعي . فحلفوا كلهم بالأيمان المغلظة أن هذا الفعل لم يكن عن ملا منهم وأن ليس عندهم علم بشيء مما فعله هذا الرجل . وقالوا : لا تؤاخذنا بفعل رجل مختل العقل . وكيف تترك عنا قانون الزيتون الذي استقر عليه الأمر بيننا وبين الترك من أول ملكهم وتأخذ منا العشر الذي لم تجر عادة علينا باعطائه لجانب المخزن ؟ فلا تحدث علينا حدثاً لا نعرفه ! فصرفهم إلى بلدهم لما تحقق منهم الصدق . وأهمل عبد الله المذكور ولم يؤاخذ . فلم يزل بعد ذلك يتردد إلى محكمته السامية ويتهور

[91 - أ]

في كلامه . فأمر - أيده الله تعالى - آغا الباب أن يصدّه عن الدخول إلى باردو . فأقام بتونس واختلت أحواله وضائق معيشته وبلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً . فلما وقفت على ذلك من حاله أعلمت به مولانا - أيده الله تعالى - وكلمته أن يتفضل عليه بشيء يسد خلته . فرق له لما جُبل عليه من الرحمة ، وقال : هذا أولى من يعطى ! لأن ما نعطيه إيّاه يكون خالصاً لله تعالى إن شاء الله لإساءته إلينا ! وأمر أن يرسم مع جماعة المتعطفين الذين يأخذون نفقتهم كل يوم جمعة من باردو المعمور . وأذن له في الدخول إليه وتقبيل يده يوم الجمعة . فاستمر على ذلك مدة ، ثم وقع بينه وبين بعض أصهاره شخاء ومخاصمة أدت صهره ذلك إلى أن أتى إلى مولانا - أعزه الله تعالى - وأطلعه على السبب الذي توصل من أجله عبد الله إلى حضرة السلطان العلية وكتب له الكتابان ، وهو كتاب من الشريف مساعدين سعيد صاحب مكتة المشرفة - رحمه الله تعالى - إلى حضرة السلطان مصطفى خان - قدس الله روحه - يطلب منه أن يكتب للسيد عبد الله الشريف المساكني كتاباً إلى / صاحب تونس برفع الظلم عن الأشراف أهل مساكن فإنهم قد أرهقهم المظالم ! وأحضر الكتاب إلى مولانا واطّلع عليه . فان عبد الله توصل إلى عود الكتاب إليه بعدما اطلع عليه السلطان وبقي في مخبئاته ! فقال ذلك من مولانا - أعزه الله - وآلمه . فاستحضر عبد الله ووبّخه وقال له : بسم استحللت هتك عرضي بين الملوك بالبلدان من مكة إلى اصطنبول ؟ فهل وقع مني ظلم لك أو لأبيك أو لأحد من أهل بيتك ؟ أو كان بيني وبينك أو بين أحد من أقاربك معرفة أو ما يوجب شيئاً من هذا ؟ فاعتذر بمعاذير باردة ولم يخرج عن التهور في كلامه - وما رأيته - أيده الله تعالى - غضب في وقت مثل غضبه في ذلك اليوم - وقال : هذا رجل مجنون ينبغي أن يجعل في المرستان مع المجانين ! ثم رجع إلى حلمه وخلّى عنه وصرفه إلى منزله . فلما كان يوم الجمعة دخل عليه لتقبيل يده وأخذ نفقته على رسمه فأرسل إليه أن امكث بتونس ولا تدخل باردو ونفقتك تأتيك كل جمعة إلى منزلك فإني أخشى إن رأيتك أن تبدر مني بادرة إليك لا أملك معها سورة الغضب ! فترك غشيان باردو مدة ونفقته جارية



عليه في منزله ثم عاد بعد ذلك إلى دخول باردو ومباشرة أخذ نفقته ولم يزل على ذلك إلى الآن .

وقد قدمنا أن محمدا بن رجب بن مامي كان لما قربت محلة الجزائر إلى تونس هرب في البحر إلى طرابلس بعياله وأمواله بحيلة تمت له فآرا بنفسه من القتل . فإنه كان يُقدّر أن محمدا باي لو ظفر به — أو مولانا أيده الله تعالى — قتلاه لقربته من أبناء علي باشا — لأنه ابن خالتهم — ولخدمته وخدمة أبيه لعل باشا ومناصحتهما له . فقد تنقلا في ولاية الأعمال الجليلة كولاية الأعراض وغيرها ، وقدما أنه لما حصل إسماعيل بن يونس بطرابلس نزل معه في داره بها . وقد كان وقع الإرجاف عند هروبه أن ذلك وقع منه بإذن علي باشا . وأنه سلم إليه أموالا عظيمة خرج بها خوفا من وقوع الدائرة عليه لتسلم له . وتحيل على إخفاء ذلك بخروجه في صورة الهارب . وشاع هذا الكلام إلى أن بلغ صاحب الجزائر فكتب إلى صاحب طرابلس يطلبه منه ليستوفي منه أموال علي باشا ! فدافع عنه صاحب طرابلس وامتنع من تسليمه . ثم إن محمدا بن مامي كره المقام بطرابلس واختار الحصول في قبضة صاحب الجزائر [وأخ] في طلب النقلة فأجيب إليه فركب البحر بعياله متوجها إلى صاحب الجزائر . فلما حصل عنده بحث عن حقيقة الأمر واستقصى أحواله — بعد القبض على موجوده — فلم يثبت عنده شيء من ذلك وتيقن أن ذلك الإرجاف لا حقيقة له فخلّى عنه واستقرّ بالجزائر مستوطنا لها إلى سنة إحدى وثمانين واشتاق نفسه إلى وطنه لئما علم من حلم مولانا — أيده الله تعالى — وعفوه وحسن معاملته مع أصحاب علي باشا . فكتب إليه يطلب منه الأمان ويستأذنه في العود إلى الحضرة فكتب إليه كتاب الأمان وأذن / له في العود إلى وطنه ، فأقبل بعياله وماله . فقبل بما لا مزيد عليه من الإكرام والتبجيل . وعيّنت له التعيينات . واستخدم ولده من جملة مماليكه الخاصة الذين يتولون خدمته — أعزه الله تعالى — في بيته . واستأذنه بعد ذلك في الحج فأذن له فحج ورجع .

[92 — أ]

ثم بعد ذلك في سنة خمس وثمانين كان القائد أحمد السهيلي — الذي قام في أمر الفتنة بوسلات مع ابن يونس وطوع له أهل الجبل قاطبة وصاهره على ابنته وفرّ معه إلى الغرب عند فراره كما تقدم — لَمّا رأى ما صنع مولانا — أيده الله تعالى — مع محمد ابن مامي من الوفاء والإحسان وأعرضت نفسه عن المقام بالجزائر واشتاق إلى العود لوطنه كتب إلى مولانا — أيده الله تعالى — يطلب الأمان والإذن في القدوم والعفو عما جناه ، فكتب إليه بذلك فقدم بعياله وأولاده وقدم معه جماعة من أهل وسلات الذين هربوا معه ، فقبلوا بما لا مزيد عليه من الإكرام والتبجيل والإحسان ، وعيّنت له التعيينات ، وولاه قائداً على وسلات كما كان قبل عصيانه . ولم يزل مكروما عنده إلى الآن يختصه ويواكله على مائدته ويبيت بحضرته في بعض الليالي ، ولم يعاتبه فيما صدر منه من قيامه مع ابن يونس بكلمة إلى الآن ! سمعته — أيده الله تعالى — يقول غير مرة : الناس يقولون إنني فعلت مع محمد ابن مامي وأحمد السهيلي ما لم يفعله أحد من العفو والإحسان ولي عليهما بذلك مزية عظيمة ! وليس الأمر كذلك . بل لهما عليّ المزية من وجهتين : أحدهما ركونهما إليّ ووثوقهما بوفائي وعهدي . وركونهما إلى جانبي حتى رجعا إلي ولم يستوحشا مني ، والثاني : ما ظهر للناس بصنعي معهما من الحلم والعفو والوفاء فإنّ عفوي عنهما ليس كعفوي عن غيرهما .

ولما استقرّ المولى محمد باي — رحمه الله تعالى — بالحضرة على أريكة السلاطنة وحصل على أصحاب علي باشا بأسرهم أمر أن تُكتب له جريدة بأسماء الأكابر منهم ، فكتبت له جريدة فيها أسماء نحو السبعين . فهم بسجنهم والتنكيل بهم وتصريف أنواع العقاب عليهم . وشاور في ذلك مولانا — سدد الله رأيه ؟ فقال له : « أما دون أن تضرب بسور على جميع عملك حتى لا يمكن أحد أن يخرج منه فلا ! وإلا فكيف يكون هذا وأصحاب علي باشا الذين أقررتهم على أعمالهم — إلى وقت ما — متفرقون بنواحي البلاد في أعمالهم ففلان بمكان كذا وفلان بمكان كذا . وعدّدهم له ، فهؤلاء إن بلغهم أن أصحابهم سجنوا وعوقبوا هربوا وفاتك ما تريد منهم ! ولكن خذهم



واحدا بعد واحد وتعلل على كل واحد منهم بعادة خاصة به زائدة على خدمة علي باشا ! فاسجن الآن عبد الرحمان البقلوطي للدين الذي لك عليه ! وعلي الخطاب لخيانته لك وهروبه عنك . وإفضائه بأسرارك إلى علي باشا ! ورجب ابن مامي لأن أصله مملوك وقد احتوى على ما لم يحتو عليه غيره من الأموال فينبغي أن يعينك بشيء منها ! فاستصوب رأييه واقتصر على سجن هؤلاء وخلص الباقيون ! سمعته — أيده الله تعالى — يقول : إنما أشرت / عليه بهذا الرأي إبقاءً على أولئك الجماعة حتى خلصتهم منه ! ثم سعى في خلاص من سجن حتى أطلقهم ، وقد كان المولى محمد باي — رحمه الله تعالى — عازماً على قتل علي الخطاب لشدة غيظه عليه — وزاده إغراءً على ذلك صاحبه أبو عبد الله محمد الشافعي فلما بلغ ذلك مولانا — أعزه الله تعالى — قال له : إن علياً الخطاب — مع كونه من أعدى الأعداء إليك — أعز عليك من نفسك ! قال وكيف ذلك ؟ قال إنك قاتله وذنبه الذي تقتله من أجله لا يستوجب القتل شرعاً ! فيقتل مظلوماً فيدخل الجنة وتدخل أنت النار بسببه ! فتكون قد عرّضت عدوك لدخول الجنة . وعرّضت نفسك لدخول النار ! ولكن إن أردت قتله ففتش عن أحواله فلعلك تجده قد صدر منه ما يقتضي القتل شرعاً من قتل نفس أو زنى بعد إحصان فإذا ثبت ذلك عندك ثبوتاً شرعياً فاقتله حينئذ فتكون قد قتله في حد من حدود الله تعالى وشفيت نفسك منه . فهذا هو الذي كان سبباً في نجاة علي الخطاب من القتل .

وفي أثناء فتنة وسلات ، ومقام ابن يونس بالجبل . صار إليه — أيده الله تعالى — كتب كثيرة من الأعيان كاتبوا بها ابن يونس فعفا عنهم أجمعين . منهم الفقيه محمد بن عبد الكريم أحد الفقهاء المشار إليهم . وقع إليه — أعزه الله تعالى — كتاب بخطه أرسل به إلى ابن يونس يقول فيه : « إلى عبد الله بن أسد أما بعد فإن زوج أهلك بها من الشوق إليك كيت وكيت وهي غير راضية بالمحلل الذي أخذها ولا ترضى إلا بك أن تكون بعلاً لها فعجل لها الأوبة » وكلام من هذا الهذيان ، فأرسل إليه وأراه الكتاب وقال له : « أتثبت هذا الخط ؟ » فاعترف بأنه خطه ، قال مولانا — أيده الله تعالى : « وددت أنه أنكر الخط »

[92 - ب]

فكنت احتملها له . ولا أتعرض له بمكروه له أصلاً . ولكنه لما اعترف لم يسعني ذلك لما فيه من تضييع الحزم بتطرق المفسدين إلى الجرأة على فسادهم » — إذ الحرب إذ ذاك قائمة على ساقها — ففعل به ما نذكره ؛ وذلك أنه لما اعترف بالخطأ قيل له : « ما الحامل لك على ذلك ومثلك في علمه وفضله لا يكون من أهل الشقاق ؟ » فاعتذر بأن هذا الكتاب كتبه على لسان رجل لا يحسن الكتابة طلب منه أن يكتبه لرجل اسمه عبد الله بن أسد لا يعرفه ، فأجيب بأن مثلك من فقهاء البلد المشار إليهم يكتب لرجل يستدعيه لأن يتزوج بزواج أبيه ! لولا أنك أردت بعبد الله بن أسد اسماعيل بن يونس . وبزواج أبيه تونس حضرة المملكة . وبالمحلل مالكمها — أطال الله بقاءه ! فبهت وتلجلج ولم يتحير جواباً ! فقال له : « أنت رجل من العلماء فلا يسوغ لي أن أنكل بك اذهب فقد عفوت عنك ! ولكن لا تساكنتي بتونس ما دامت الحرب قائمة بيننا وبين صاحبك فإذا نصرنا الله عليه أعدناك » . فخرج إلى رفراف وسكن بها . فلما وضعت الحرب أوزارها أعاده إلى الحضرة فبقي بها إلى أن توفي — رحمه الله تعالى .

ومنهم الفقيه محمد بن الشيخ / يوسف درغوث مفتي الحنفية — وقد كان أيام علي باشا تولّى الفتيا بعد وفاة أبيه عوضاً عنه ولم يكن أهلاً لها وإنما حصل له ذلك بمصاهرته لسليمان باي بن علي باشا فإن ابنة يوسف درغوث كانت تحته — فلما انقضت دولة علي باشا أخر عن الفتيا ورشح لها من هو أهل لها . فبقي في نفسه ما فيها ، فلما ثار ابن يونس بوسلات كاتبه ووقع كتابه إلى مولانا — أيده الله تعالى — فأخفاه ولم يُطالع عليه أحداً إلا أنه تغير له وقصر به عما كان يعامله به من البر واللطف . ولم يعلم محمد درغوث السبب الذي من أجله جفاه لأنه لم يقع في حسبانته أن كتابه وقع إليه . فلما طال عليه أمد الجنوة استأذن عليه في بعض الأوقات فأذن له — وصادف منه خلوة — فعاتبه على جنوته له وبالغ في العتب ! فقال له : « قد فعلت معك ما لا تطمع أن يفعله معك غيري ! قال : ما الذي فعلته معي وأنا منك بهذه المترلة ؟ قال : أأست قد كاتبت ابن يونس بكذا وكذا وهذا كتابك عندي ؟ فتحير وكاد أن



يقضى عليه من الجزع ! فقال له : أما ترضى أن أعاقبك على هذا الذنب العظيم - الذي يجازي عليه غيري بالقتل فما دونه من أنواع العقاب - بما يعاقب به الرجل الحليم ابنه إذا صدر منه ذنب يجفوه مدة حتى يستقيم ؟ ثم لما رأى شدة جزعه تبسم له ولاطفه ووعدته بالجميل وصرفه إلى منزله ! ولم يزل بعد ذلك يكرمه ويبره ويحسن إليه إلى أن توفي - رحمه الله تعالى .

وكان أول ما ظهر للناس من أخلاقه الشريفة من الحلم والعفو : أن أهل جمال لما خالفوا وشقوا العصا واستقدموا ابن يونس إلى بلدهم - وكان من خبرهم ما تقدم شرحه من استيلاء المحلة المنصورة عليهم . وأخذ بلدهم عنوة كما تقدم كل ذلك مبسوطا - أتى إليه بطائفة عظيمة من أعيانهم هم الذين تولوا كبر الفتنه وبذلوا فيها أنفسهم وأموالهم ، ولم يشك أحد في أنه يقتلهم لأنه ما عرفوا أخلاقه ولا مارسوها بعد - لحدثان العهد بولايته أدامها الله تعالى - ولأنهم لم يعهدوا ممن قبله عقابا على هذه الجريمة إلا القتل . فلما حضروا بين يديه - وهم نحو من سبعين رجلا - أمر بتمييز ستة منهم هم أكابرهم فسجنوا ، وأطلق الباقين وأمتهم ، ثم بعد أيام أطلق أولئك الستة وأمتهم وعفا عن دمائهم ، وأمن جميع أهل جمال وأذن لمن جلا منهم بالعود إلى بلاده ، ولما تحدث الناس بذلك قال قائلون : ما عفا عن أهل جمال إلا سياسة ودهاء فان ابن يونس قد استقر بوسلات وقد بقي عليه من حربه ما بقي ، فهو يتألف الناس ويتودد إليهم ، ولو انحسرت شوكة العدو ، ووضعت الحرب أوزارها لنكل بالمخالفين ، ونوع لهم العقوبة . فما كان بأسرع من أن أوتي إليه بجماعة من أهل وسلات بعد جماعة أسرى / فلم يعاقبهم بأكثر من أن استخدمهم في عمل الساقية المعمولة لجلب الماء إلى الحضرة من الجبل الأحمر كما تقدم . فلما قضى الله تعالى بلطيف صنعه بخلاء وسلات وجلاء أهله ونزولهم من ذروته - أمنع ما كانوا وأوفر عدة وعديداً - لم يتعرض لهم بمكروه ، ولا أهرق من دمائهم محجمة ! بل أطلق أساراهم ، وعفا عن جميعهم عفا عاما ، وحلم عنهم ، ولم يلزمهم إلا بالجلاء من جبلهم الذي فعلوه بأنفسهم ، فمنعهم أن يعودوا إليه وأمر أن يتفرقوا في

[93 - ب]

البلاد ويسكنوا حيث شاءوا منها مراعاة للمصلحة العامة (ولا يلدخ المرء من جحر مرتين) فسكنوا القيروان وقراها ، وزغوان ، وقرى الساحل ونسور وغيرها من البلاد ، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وكذلك عفا عن ما جرت به عادتهم وأولاد سعيد ، وغيرهم من الأعراب والبوادي الذين خالفوا مع ابن يونس وقتلوا معه ، وبالجمل فأموره في الحلم ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والاحتمال أمور غريبة ، والجزئيات في ذلك والحوادث اليومية لا تنضب كثرة

وقد أكثر الشعراء من وصفه والثناء عليه بهذه الأوصاف فقلما تخلو قصيدة مدحه بها شاعر من المدح بهذه الخلال ، فمن ذلك قول الوزير الأجل الكاتب أبي العباس أحمد الأصرم :

تجمعت فيه أصناف منوعة فنون ازدحمت فيه وأفنان  
عدل وعفو وبذل زاهر ، وهدي ، وللمعالي هنا روح وويحان

وقول الأديب الكاتب أحمد سمية :

يا أيها الملك الذي بينوالة نسخت فضائل أحب وبحور  
محق البغاة رماح حلمك إذ غدت ما بين شلو بالقنا وأسير  
كم مر سيف العفو منك بهامة ومضى بقطع سواعيد وظهور  
ولكم صفحت عن العظام كرامة وفتحت من حصن نأى وثغور  
وأناك من ألف الخلاف مطاوعا ملقي السلاح لبيتك المعمور

وقال :

أيامه الحسنى لرائد حلمه

يسري لها في عرض تونس طول

يا حسنهما من دولة قد هذبت

خلقا بخلق ما إليه سبيل

يا أيها الملك الذي حسنته

ظهرت ظهوراً ليس فيه أفول



إن شاع فرط الحلم عنك لدى الورى

فلدى الوغى الضرعام منك ذليل

/ أو كنت مأمون الغوايل رحمة

فلأنت سهم في القلوب جليل

وقولي من قصيدة :

سواك بحد السيف أصبح غالباً  
تقابل بالعفو المسىء وإنمأ  
فكانت لك العقبى بذاك وإنمأ  
وأحزرت حمداً واسعاً ومشوبة  
وبأت الورى في ظل أمك نوماً  
وأنت لمن ناواك بالصفح غالب  
أفدت به ما لم تفده الكتائب  
تبين فضيلات العقول العواقب  
ونلت مراداً لم ينله المعاقب  
وأرواحهم فيما تنيل موأهب

وقولي من أخرى :

حببت للناس بالعفو الذنوب فقد  
وما كفى العفو حتى قد أقمت لهم  
يقول قائلهم : ذا العفو يصدر من  
أمنسى البريء حسوداً للذي اجترأ  
على الرجاء دليلاً واضحاً أمماً  
عبد . فما الظن بالمولى وقد رحما ؟

وهذا معنى غريب لا أعلم أني وقفت عليه لأحد .

ومن ذلك قول الأديب البارع علي الغراب .

وحملت أعناق الأنام أبادياً  
عفوت عن الجاني فمات ندامة  
ولم يكف منك العفو حتى شملتهم  
كأن جنائيات الجناة جميعهم  
فغفوك عنهم رحمة وتكرماً  
فما بين عفو منكم وعقوبة  
فما عجزوا عن شكر ما قد تحمّلوا  
فما العفو إلا كالعقوبة يقتل  
بجاء لهم فيه عللاً وتفضل  
بهن لهم فضل عليك مطول  
كأن عوقبوا عما جنوه ونكّلوا  
تمايز إلا المدح والذم ينقل

وقوله أيضاً :

ملك حلم وعفو في الجنابة لا  
فالعفو منه على ذنب الدّ له  
يننيه عدل عذول طال أو قصرا  
طعما من العفو للجاني وإن كبرا

وقول الفقيه الأجل أبي محمد عبد اللطيف الطوير من قصيدة طويلة :

حلم . وعدل . وعفو بعد مقدرة .  
والناس ييغون منك البطش منتقما  
(والرّاحمون لمن في الأرض يرحمهم  
من في السّماء) هذا قد صح أنقال

/ وقوله من أخرى :

قالوا : به خور الخلال لحلمه  
نقموا عليه العفو عمّن قد جنى  
(عفو الملوك عن الجناة إذا جنوا  
وقوله من أخرى :

يقتل الماكر المخادع بالعفو  
ليس يرضيه أن تكون أعاديه  
بل يرضيه منهم الحزم بالسلم  
كل هذا تترها عن دماء  
وبالصفح لا ببيض الصفاح  
بوجه الصعيد مثل الأضاحي  
ورفع الأذى وخفض الجناح  
سفعها بالصفح غير مساح  
وقوله من أخرى :

وسع الناس حلمه فهم قد  
وأنام الأنام في ظل أمن  
أمنوا فتك فالك وسبابه  
وردوا عذب فضله لا عذابه

وهذه القصيدة من أحسن شعره وأعذبه وأولها :

من لصّب في الحب قضى شبابه  
لبس السّهد في الغياب حتى  
ذاب جثمانه فلم تترك الأشواق  
صاده ساحر الجفون غرير  
واحتسى خمرة الصبا والصبا  
مزق الصبح للادجي جلبابه  
إلا عظامه وإهابه  
خامر القلب منه حب حبابه (1)  
شادن ما رمى إلى القلب من عيـنيه سهم المنون إلا أصابه  
قد علاها من السقام فتور وهني للفتك في الحشا وثابه

(1) اسم لجارية يزيد بن عبد الملك سارت مسير الليل . انظر ابن الأثير 4 : 191



هو لَدُنْ القَوَامِ . صعبٌ تَدَانِيهِ . ومَرُّ الجَنَاءِ حَالُ الدُّعَابِ  
 أَنَجَلَ البَدْرَ إِذْ أَطْلَعَ عَلَيْهِ فَأَرَانَا مِنْ السَّحَابِ انْتِمَابَهُ  
 وَجَنَى الطَّرْفَ وَرَدَّ خَدَّيْهِ غَضًا فَرَمَى فِي فُؤَادِهِ نَشَابَهُ  
 غَارَ مِنْهُ غُضُنٌ وَوَرَدَ فَهَذَا لَامٌ فِيهِ مَعْنَفٌ فَعَدَدْنَا  
 / ثُمَّ لَجَّ الْعَذُولُ يَهْدِرُ فِي اللُّومِ فَقَلْنَا «شَرٌّ أَمَرٌ كَلَابَةٌ» (١)  
 وَتَرَأَى الرَّقِيبَ يَرْقُبُ فِي الْبَدْرِ فَأَرْخَى عَلَيْهِ لَيْلَ الدُّوَابِ  
 أَرْسَلَ الْفَرْعَ حَيَّةً فَهَيَّ تَسْعَى وَمِنْ الصَّدْعِ عَقَرَبًا دَبَابَهُ  
 لَسَعَا قَلْبِي الْمَعْنَى فَلَمْ تَبْقَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ غَيْرُ صَبَابِهِ  
 خَفْتُ أَنْ يَأْتِيَ الْهَيَامُ عَلَى النَّفْسِ كَمَا صَرَعَ الْهَوَى أَرْبَابَهُ  
 قُلْتُ : فِي رَيْقِكَ الشَّفَاءُ إِذَا مَا رَشَفَ الْعَاشِقُ اللَّدِيغُ رُضَابَهُ  
 قَالَ لِي : إِنْ رَيْقِي لَمُدَامٌ مُسْكِرٌ لَسْتُ أَسْتَبِيحُ شَرَابَهُ  
 قُلْتُ : لِمَ قَتَلْتَنِي أَبَحْتَ وَقَلْبِي قَدْ تَحَلَّلْتَ حَرْبَهُ وَأَسْتَلَا بِهِ ؟  
 وَدَمُ الْوَجْتَيْنِ يَشْهَدُ إِنْ أَنْكَرْتَ فِي الْفَتَكِ عِنْدَ قَاضِي الصَّبَابِ  
 وَمَلِكِي عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ يَأْخُذُ الثَّارَ لِي بِغَيْرِ حِرَابِهِ  
 مَلِكٌ يَقْنَصُ الْأَوَابِدَ فِي الْبِيدِ وَيُرْدِي مِنَ الْهَوَاءِ عَقَابَهُ  
 حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطَرًا وَمَضَى فَوْقَ مَطَاهِ وَذَاقَ شَهْدًا وَصَابَهُ  
 جَلَلٌ يَكْشِفُ الْعِظَائِمَ وَالْجَلَّتْ لِي إِذَا مَا الْوُطَيْسُ أَذْكَى لِهَابَهُ  
 يُؤْثِرُ السَّلَامَ جَانِحًا . فَإِذَا مَا مَاجَ بَحْرُ الْهَيْجَاءِ خَاضَ عِبَابَهُ  
 بِطَرِيرٍ لَدُنْ الْقَوَامِ وَعَضْبٍ صَارِمٍ الشَّفَرَتَيْنِ مَاضِي الدُّبَابِ  
 لَا تَلُمُهُ إِذَا أَرْدَمَتْ حِينَ يُجَلَى فَنجيعُ القُرُومِ كَانَ خَضَابَهُ  
 بِجُسُومٍ عَلَى الْجِيَادِ جُمُودٍ وَقُلُوبٍ حَشَوُ الصُّدُورِ مَذَابَهُ  
 يَغْلِبُ الْجَحْفَلَ الْعَظِيمَ بِتَدْبِيرٍ مُبِينٍ وَنِيَّةٍ غَلَابَهُ  
 يُنْقِذُ الْمُسْتَجِيرُ مِنْ بَرَثْنِ الْهَلَاكِ وَلَيْثُ الْخُطُوبِ أَنْشَبَ نَابَهُ  
 وَإِذَا أُمَّهُ عَلِيلُ اللَّيَالِي أَبْرَأَتْ رَاحَةً لَهُ أَوْصَابَهُ

(١) شَرٌّ أَمَرٌ ذَا نَابٍ : مَثَلٌ . انظر الميداني ١ : ٣٨٤ .

مِنْ هَمَامٍ حَلَا حِلِّ ذُو دَهَاءِ حَوَّلَ فِي أَحْوَالِهِ تَعَجُّابَهُ  
 يَخْلُقُ الْأَمْرَ ثُمَّ يَبْدِي وَمَتَهُمَا يَلْبَسُ مَازَ قِشْرَهُ وَلُبَابَهُ  
 يَكْشِفُ الْغَامِضَ الْعَوِيضَ فَمَا أَعْضَلُ أَمْرٌ إِلَّا وَفَتَّحَ بَابَهُ  
 بَذَكَ كَاءَ يَحْكِي ذُكَاءً سِوَى أَنْ حَجَاهُ مَا غَابَ يُبْدِي حَجَابَهُ  
 مَا دَعَى مُشْكَلا مِنْ السَّبْحِ يَوْمًا لِحِجَاهُ إِلَّا سَرِيعًا أَجَابَهُ  
 / وَإِذَا ضَلَّتْ الْعُقُولُ هَدَاهَا لِهَدَاهَا وَقَدْ أَصَابَ صَوَابَهُ  
 وَإِذَا ذُو الْجَدَالِ رَامَ جَوَابًا كَانَ إِقْرَارُهُ بِعِجْرِ جَوَابِهِ  
 وَإِذَا نَدَى مُشْكَلا لِلْمَعَانِي صَادَهُ بِالْقَرِيحَةِ الْوُثَابِ  
 وَإِذَا لِلْسَّبَاقِ شَمَّرَ كُلُّ أَحْرَزِ الْخِصْلِ لَا يَحُثُّ رِكَابَهُ  
 هَيْتَن . لَيْتَن . مُطِيع . مُطَاع . ضَرْبُ الْمَجْدُ فِي ذُرَاهِ قِبَابِهِ  
 هُوَ صَعْبُ الْمَنَالِ سَهْلُ السَّجَايَا قَدْ كَسَاهُ الْإِلَهَ تَاجَ الْمَهَابِ  
 وَاسِعُ الصَّدْرِ عَنِ جَفَاءِ الرَّعَايَا لَيْسَ مُسْتَكْبِرًا . وَلَا عِيَابَهُ  
 وَسِعَ النَّاسَ حَلَّتْهُ فَهَمٌ قَدْ وَرَدُوا عَذِبَ فَضْلِهِ لَا عَذَابَهُ  
 وَأَنَامَ الْأَنَامُ فِي ظِلِّ أَمْنٍ أَمِنُوا فَتَكَ فَتَاتِكَ وَسَبَابَهُ  
 غَالِطَتُنَا طَبَاعُهُ فَغَلِطْنَا وَحَسِبْنَا أَعْدَاءَهُ أَحْبَابَهُ  
 لَيْسَ يَدْرِي عَدُوُّهُ أَنَّهُ مِنْهُ بَعِيدٌ وَخَالَ مِنْهُ اقْتِرَابَهُ  
 طَبَعُهُ الْحَلْمُ . وَالرَّزَانَةُ . وَالْعَفَّةُ . اقْتِرَابَهُ  
 فَإِذَا نَدَّتْ النُّفُوسُ فَمِغْنَاتِيْسَ وَالْعَفْوُ . لَا الْجَفَا وَالْخِلَابَهُ  
 رَايَةَ الْمَكْرَمَاتِ قَدْ حَازَ . لَا (الصَّلَتْ) أَخْلَاقَهُ لَهَا جَدَّابَهُ  
 فَإِذَا قِيلَ : مَنْ حَوَى رَايَةَ الْمَجْدِ ؟ حَوَاهَا وَلَا (يَمِينِ عِرَابِهِ) (١)  
 صِهْوَةُ الْمَلِكِ قَدْ عَلَا وَهُوَ طِفْلٌ أَشَارُوا إِلَيْهِ بِالسَّبَابِ  
 ذُو لِسَانٍ رَطَّبَ دَوَامًا مِنَ الذِّكْرِ بَذَ أَشْيَاخَهُ ، وَبَذَ شَبَابَهُ  
 مُفْرَدٌ حَازَ مِنْ خِصَالِ الْمَعَالِي وَلِنَفْسٍ لِرَبِّهَا أَوَابَهُ  
 قَامَ فِي جَامِعِ اللَّيَالِي خَطِيْبًا كُلٌّ مَا اسْتَصْعَبَ الْجَمِيعَ طِلَابَهُ  
 ثُمَّ قَدْ حَلَّ دُونَهُمْ مِحْرَابَهُ

(١) لا يدري مراده بالصَّلَتْ إلا أن يكون أراد أبا أمية ابن أبي الصلت الشاعر المثالي المعروف ، وأما عِرَابَهُ فهو ابن أوس الأوسي ، جواد إسلامي مشهور وفاته سنة ٦٨٠/٦٠ .



خلق مجمل . وخلق جميل .  
 وجواد لا عيب فيه سوى  
 فإذا الغير أطلع النجود طلعاً  
 أو شك البحر أن يغيب اغتياظاً  
 وأتى الغيم حاكياً لنداه  
 رعداه معول . وللبرق خفق  
 / جاء للقيروان في عام محل  
 فاستقى إثر درسه للبخاري  
 وحبا الناس عسجداً ولجينا  
 كل حين تأتي رغائب للناس  
 دأماً في حضرة الكمال علياً  
 وبنوه الكرام في ظل أمن  
 وصلاة مع السلام على المختار والآل بعده والصحابه  
 ما رقى منبراً لوعظ خطيب

وهذه القصيدة عارض بها قصيدة للوزير الكاتب أبي العباس أحمد  
 الأصرم على هذا المنوال - الروي والقافية - يمدح بها مولانا - أيده الله  
 تعالى - وهي :

يا رعى الله للربيع شبابه  
 هينم الغصن في الرياض فتصغي  
 واكتست بالزهور ثوب عروس  
 عبس الجو فوقها فعجبنا  
 عجت الطير عندها وتغننت .  
 يوم قامت على منابر أفنان  
 لي روع ما يرعوي عن رياض .  
 بالجفون اللواء يرمين قلبي

وَقَتَاة فَتَانَةٌ إِنْ تَبَدَّتْ  
 فسقتني العيون أي عقار  
 لو تراني أهاك بين يديها  
 تتجنى فأستفز خضوعي  
 ونظام وشيته لم يفدني  
 فكأنني - وخالف الود مني -  
 غدرتني بوارق من رضاها  
 / كم وقيت الحبيب دهرأ بعيني  
 وخلعت العنان ثم طليقاً  
 فإذا استفهم العذول جزائي  
 لك من قتلي اعتذار فرضي  
 كم أذاعوا عني أقاويل هجر  
 أمّلوا منك خفض ما رفع الله  
 ودعوا لي غدراً وما أنا غدا  
 وكبير على الفؤاد حسود  
 قال أهل الولوع : «إن المعنى  
 ولكم ذقت في ودادك بملوى  
 أكذب الناصح الصدوق ارتياب»  
 كم تغذيت بالمرار مراراً  
 كل ذا في رضاك عندي قليل  
 يا ترى تذكرين ساعة وصل  
 يتدلى من الغصون علينا  
 منه قد بيت في نمارق خضر  
 والسماء اكتست وشاحاً نضيراً  
 وكأن الهزبر وأش رقيب  
 خفت طغيانه فعدت برامي السقوس أنمى بقلبه نشابه



وَكَاَنَّ التَّسْلِيمَ - وَالْجَوْ سَاهُ  
وَكَاَنَّ الدَّرَّ الْمُنْظَمَ فِي النَّحْوِ قِطَاعٌ مِنَ الْبَهْلَالِ مَذَابِهِ  
غَارَتِ الشَّهْبُ مِنْ سَنَاهَا فُغَارَتْ نَسِخَ الْفَجْرِ مِنْ دُجَاهَا غَرَابِهِ  
وَبَدَّتْ شَمْسُهُ وَلَمَّا تَجَلَّتْ فَتَحَ النُّورُ مِنْ عَلَيْهِ نَقَابَهُ  
كَعَلِيٍّ مَوْلَايَ لَمَّا تَبَدَّى حَلَّ كُلِّ مِنَ الْعُقَاةِ جِرَابَهُ

أقول هذا من المخالصة البديعة التي يُعتقد عليها بالخصائص

/ عمرك الله حضرة ابن حسين  
مَخَضَتْ عَنْ سَمَاكَ أُمُّ الْمَعَالِي  
وَدَعَا الدَّهْرُ أَنْ يُحَلِّيَ بِعَدَلٍ  
جِئْتُ فَرْدًا ، وَمَجْمَعًا لِمَزَايَا .  
إِنْ يَوْلَى الْإِنْسَانُ مَا يَقْتَضِيهِ  
إِنَّمَا الْفَضْلُ فِي سِوَاكَ مُعَارٌ  
ذَاعَ فِي إِفْرِيقَةٍ لَكَ نَشْرٌ  
طَلَعَتْ مِنْكَ نَفْحَةٌ فَأَسْرَتْ  
جَلَبَتْ خَلْفَكَ الْخُلَيْقَةَ طَرَا  
نَسَبَكَ النُّهَى إِلَى نَاطِرِيهَا  
بَدَرَ عَلَيْكَ وَاضِحٌ لَيْسَ يَخْفَى  
فَلَكَ أَنْتَ مَنْ يُنَاضِلُكَ يَرْمِي  
أَنْتَ بَحْرٌ ! بَلْ ذَاكَ مَلْحٌ أَجَاجُ !  
أَنْتَ يَنْحُولُ كُلُّ فَضْلٍ وَخَيْرُ  
هَذِهِ شِيْمَةُ الْمَلِكِ عَلِيٍّ  
أَنْتَ تَعْنِي عَلِيًّا بَنَ حُسَيْنٍ  
قَدْ أَرَادَتْ أَقْرَانُهُ الْخَوْضَ فِي الشُّطِّ  
جَمْعُ الْمَجْدِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَالسُّودْدِ  
بَاهِرٍ ، طَاهِرٍ ، تَقِيٍّ ، نَقِيٍّ .

[ 97 - أ ]

هَيْئَتِ لَيْسَ . وَفِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ  
يَتَمَشَّى إِلَى الْحُرُوبِ رَوَيْدًا  
إِنْ تَوَقَّتْ أَقْرَانُهُ بِيَدْرُوعٍ  
يَتَلَقَّى اللَّقَا بِنَفْسٍ جَمُوحٍ  
سَعِدَتْ أُمَّةُ النَّبِيِّ بِهِ إِذْ  
ذَهَبَ ذَاهِبٌ وَظَلَمَ مُصَابٌ  
/ كَرَمٌ يُخْجَلُ الْغَمَامُ فَحَدَّثَ  
جَالٌ فِي مَهْيَعِ الْكَرَامِ طَلِيقًا  
نُشِرَتْ رَايَةُ الْمَسْكَارِمِ فِينَا  
مِنْ فَتَى قَلْبِ الْحَوَادِثِ وَالْدهْرِ  
هُوَ فِي عَسْكَرَيْنِ بَأْسًا وَرَأْيًا  
وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُلُوكِ سِوَاهُ  
هُوَ فِي جِدِهِ مُجِيدٌ نَجِيدٌ  
عَلَّمَنِي صِفَاتِكَ الْمَدْحَ لَوْلَا  
صَارِمٌ (أَصْرَم) أَنَا بِكَ إِلَّا  
بَعْتُ عُمَرِي - بَنِي حُسَيْنٍ مَطِيعًا -  
وَفُؤَادِي سَكَنَتْهُمُوهُ فَحَاشَا  
غَمَرْتَنِي فِي بَحْرِكُمْ مِنْنَ اللَّهِ  
مَطْلَبِي فِي الدُّنْيَا أَبَا حَسَنِ إِنْ  
إِنَّمَا جَاءَ مِقْوَلِي تَرْجُمَانُ  
أَيْهَا الرَّاحِرُ الَّذِي كُلُّ مَنْ يَنْتَبِهُ  
دَمٌ مُعَافٍ مَظْفَرًا مَنْ يُعَادِيكَ  
أَنْتَ فِي حِصْنِ رَبَّنَا وَمُجَارٌ

وللكاتب أحمد سمية مقرضا لقصيدة الأصرم هذه :

دَرَّ هَذِهِ بَدَّتْ أُمُّ دَرَارِي  
أُمُّ رِيَاضِ زَهَتْ بِقَطْرِ السَّحَابَةِ  
أُمُّ بَدُورٍ سَطَتْ بِيَاظِي سَنَاهَا  
فَأَطَارَتْ مِنَ الظَّلَامِ غُرَابَهُ

يَعِيرُ الْهِنْدِيَّ مِنْهُ الصَّلَابَةِ  
بَيْنَ جَنْبَيْهِ مَهْجَةً وَثَابَةِ  
اِكْتَسَى حِصْنُ رَبِّهِ جِلْبَابَهُ  
زَيَّنَتْ مِنْ دَمِ الْعَدُوِّ رِقَابَهُ  
شَقِيَ الْمَالُ وَالْعَدَا وَالْحِرَابَةِ  
وَلُجَيْنٌ يَلْجُ مِمَّا أَصَابَهُ  
مَا تَرَى مِنْ حَدِيثِهِ يَا سَحَابَةِ  
وَامْتَطَى كَفَّهُ الرَّحِيْبُ رَحَابَهُ  
فَتَلَقَّاهَا مَالِكِي لَا عَرَابَهُ  
وَعَانَى إِقْبَالَهِ وَأَنْقِلَابَهُ  
جَاءَ كُلُّ مَطْنِبًا أَطْنَابَهُ  
ذُو اجْتِهَادٍ ، لَكِنْ أَيْنَ الْإِصَابَةِ ؟  
أَوْ يَدَاعِبُ ، سَبْتُكَ حُسْنُ الدُّعَابَةِ  
أَنْتَ أَغْلَقْتَ مِنْ قَرِيضِي بَابَهُ  
أَنْيَ فِي عِدَاكَ أَسْقِي الدُّبَابَةَ  
فِي رِضَاكُمْ ، أَرْوَمُ مِنْهُ صُبَابَهُ  
أَحَدٌ مِنْكُمْ يُحِبُّ انْتِكَابَهُ  
وَسِبُّ لَا تَحْرِمُونِي انْتِكَابَهُ  
طَالَ قَوْلِي فَلَا تَلُمُ إِطْنَابَهُ  
عَنْ لِسَانِ الْوَرَى أُنِيبَ مِنْابَهُ  
حَوْلَهُ مِنْ نَدَاهُ يَمْلَأُ وَطَابَهُ  
يُعَانِي خَوَارَهُ وَنَعَابَهُ  
بِشَفِيعِ الْوَرَى - غَدَا - وَالصَّحَابَةِ

[ 97 ]



أَمْ شُمُوسُ تَلَالَاتٍ فِي الْمَعَالِي  
أَمْ عَبِيرٌ مِنَ الْعَنَابِيرِ أَهْدَى  
أَمْ خُدُودٌ بِفَجْرِهَا تَتَجَلَّى  
أَمْ لَالٌ تَنْظُمَتْ فِي عُقُودٍ  
أَمْ نِظَامُ الذِّكِيِّ نَهْرٍ الْمَعَانِي  
/ هُوَ بِحَرٍّ ، فَإِنْ بَدَأَ مِنْهُ دُرٌّ  
لَا يُلَامُ الْقَرِيضُ إِنْ تَاهَ فَخْرًا  
كَيْفَ لَا وَهُوَ فِي عَلِيٍّ الْمَعْلَى  
حِلْمُهُ فَاقَ حِلْمَ أَحْنَفٍ إِلَّا  
بَذَلَهُ فَاقَ بِذَلِ حَاتِمٍ لَكِنْ  
جَادَ دَهْرِي بِهِ وَكَانَ بِخِيَلًا  
فَلَهُ فِي الْحُرُوبِ إِقْدَامٌ عَمُرُو  
فَاضِلٌ . عَادِلٌ . شَجَاعٌ . مَطَاعٌ  
قَلْبُهُ بَثٌّ فِي مَحْيَاهُ نُورًا  
فِيهِ لَنْ فُسَلَهُ مَا شِئْتَ وَاحْذَرِ  
عَفَتْ نَوْمِي إِذَا رَأَيْتُ مُحْيَاً  
مَفْرَدٌ إِنْ تَجَمَّعَ الْفَضْلُ فِيهِ  
زَادَهُ اللَّهُ هِمَّةً وَوَقَارًا  
وَأَطَالَ الْهِنَا لَدَيْهِ وَأَبْقَى

وأبيات الغراب اللامية المتقدمة من قصيدة طويلة مدح بها مولانا - أعزه  
الله تعالى - وهي من أحسن شعرٍ قاله : وأولها :

نعم لستُ عن دين الصِّبَابَةِ أَعْدَلُ  
يَجُورُ الْهَوَى فِي الْحُكْمِ . أَوْ هُوَ يَعْدِلُ

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَصْرِفُ الْعَدْلُ فِي الْهَوَى  
عَنَانِي عَنْ قَصْدِ الْهَوَى . وَهُوَ مَقْبَلُ

إِذَا افْتَتَحَ الْعَدَالُ بِالْعَدْلِ قَوْلَهُمْ ،  
فَمِنْ دُونِهِ بَابُ الْمَسَامَحَةِ يُقْفَلُ  
أَيْنَحُونَ مِيلَ الْقَلْبِ عَنْهُ وَنَقْلَهُ ؟

وَمَا هُوَ يَوْمًا بِإِلْمَالَةٍ مَبْدَلُ  
هُمْ أَوْدَعُوا قَلْبِي أَسَى يَوْمٍ وَدَعُوا

وَهُمْ نَزَلُوا فِي الْقَلْبِ يَوْمَ تَرَحَّلُوا  
وَهُمْ حَرَمُوا نَوْمِي الْمُحَلَّلُ بِالْجَفَا

وَهَلْ قِيلَ فِي شَيْءٍ حَرَامٍ مُحَلَّلٌ ؟  
وَلَوْلَا فَوَادِي (سعد أخبية) لَهُمْ

لَمَّا كَانَ مَضْرُوبًا لَهُمْ وَهُوَ مَنَزَلُ  
هُمْ ظَعَنُوا وَالْبَرُّ يَطْوِي أَمَامَهُمْ ،

وَمِنْ خَلْفِهِمْ بَحْرُ الْمَدَامِعِ يَسْهَلُ  
وَمَا عَظُمَ أَيَّامُ اللَّقَاءِ مَسْرَةً

بِأَعْظَمِ مِنْ يَوْمِ النَّوَى وَهُوَ أَهْوَلُ  
/ لنومي على عيني تولَّ بقربهم

وَلَمَّا تَوَلَّوْا عَادَ نَوْمِي يُغْزَلُ  
أَبَيْتُ وَلِي مِنْ لَاعِجِ الشَّوْقِ أَنَّهُ

يُرْضَى لَهَا رِضْوَى وَيَذْبُلُ يَذْبُلُ  
أَبَيْتُ وَلِي مِنْ صَادِعِ الْبَيْسِ صَعْقَةً

تَكَادَ لَهَا صُمُّ الْجِبَالِ تَزَلْزَلُ  
كَأَنَّ فَوَادِي يَوْمَ زَمُّوا مَطِيَّهَمُ

لِمَحْمُولِ هَاتِيكَ الْمَطَايَا مُحْمَلُ  
وَفِي سَاحِرِ الْأَحَاطِ جَسْمِي مِنْ ضَنِي

إِلَيْهِ غَدَا مِنْ سَحْرَهْنِ يُخَيَّلُ



له قد بان ناظر وهو ذابيل  
 ونجد كغصن الورد والردف يذبل  
 تضيء الدياجي من صبيح جبينه  
 ومن فرعه صبح المنيرة الليل  
 متى افتتر عن منظوم جوهر ثغره  
 فما وصل مشور المدامع يفصل  
 على خده خط له فضل دائر  
 له غاية في الارتفاع منزل  
 محيائه شمس وهو قوس نهاره  
 على أنه قوس به الليل أطول  
 ولم يك للشمس انحراف بدوره  
 نعم هو سمت للغرام موصل  
 ولم أر أصلا مطلقا لصبايتي  
 سوى فرعه والقدر أصل معدل  
 لئن مال في تلك المناطق ينثني  
 فللشمس ميل في المناطق ينقل  
 هو البدر في أفق الحشا متوسطا  
 وغارب دمعي طالع فيه يسبل  
 لتخصيص شوقي بالبرد ريقه  
 غدا بكساء الشوق جسمي يشمل  
 جهلت ضني من حجب من لو أباح لي  
 مقابلة بالجبر ما كنت أجهل  
 أيزداد كسر القلب من كسر جفنه  
 وضرب كسور في الكسور مقلد

كأن الحشا منسي عدو لحاظه  
 يقارع منها بالسهم وينضل  
 إلى كم غرامي بالمدامع ظاهر  
 وما النوم يوما للجفون مؤول  
 وما البحر إلا من دموعي زاهر  
 وما البر إلا من جماري يشعل  
 ولم أر فقد الصبح إلا لأنه  
 إذا ما تبدى من محياه يخجل  
 وطول بقاء الليل من حمل شبهه  
 حمول سهادي فهو بالحمل مثقل  
 فمالي وللعذال لم يك عدلهم  
 بمختصر والشوق مني مطول  
 فشوقي حي في فؤادي نازل  
 وصبري به ميت ودمعي مغسل  
 قوادحه أبدت مسالك عاتتي  
 فسارت لنسخ العقل فيهن ترمل  
 / وإني لأرجو منه تقبيل راحة  
 وليت مكان الراح منه أقبل  
 له وهم خصر نازل من وصاله  
 أخف ، وردف من غرامي أثقل  
 إذا قلت قد أنحلت يا خصر مهجتي  
 فصلني . قال الخصر : إني أنحل  
 وإن قلت : لي أحشاء قد جئلت على  
 غرامك . قال الردف : إني أجبل



إذا قلت : صِلني . قال : ويحك تبتغي  
وصالي ؟ ودون الوصل موت مُعَجَّلُ  
فُرُوعِي حَيَاتٍ ، وصدغي عَقْرَبُ  
وقدِّي رَمَح ، واللّواحظ أنصُل  
ألا ليت شعري هل أرى لي ليلة  
يضيء نهار الحظّ منها ويقبل  
تنازعي الأيام في كلّ مطلب  
كأنّ لها ثاراً عليّ مسجّل  
أرى كلّ سهل الأمر يصعب قبضه  
عليّ ، وما في قبضه لي مُسهل  
وأعذرهما عن فعلها حيث لا أرى  
بأنّي من أبنائها فأخول  
عليّ لافات الزّمان تراحمُ  
فكيف إلى قلبي الهنا يتوصّل  
فأهونُ قسم في الحُظوظِ حرْمته  
وأرفعُ خطب في الوريّ بيّ ينزل  
فما سوء حظي منه خطبي مطلقُ  
ومطلقُ خطبي منه حظّي مجمل  
حظوظا أرى الإقبالَ منهن مدبرا  
ودهر أرى الإدبارَ لي منه مُقبل  
يُقرّ بفضلِي مُنكرُ الفضل في الوريّ  
ويمنعني حقّي الجليّ ويخذلُ  
ويعلمُ دهري والحواسدُ كلّها  
نباهةً قدرِي ، هو عنّي يغفلُ

إلى كم ترى يا دهرُ فضليّ في الوريّ  
يُعرف من طيبٍ ، وقدرِي يُجملُ  
إذا لم تثب عني رفعتُ شكايَتي  
إلى مَنْ على أحكامه الدهر ينزلُ  
أبي الحسن المولى الأميرِ عليّ مَنْ  
به في العلّا والمجد تُضرب أمثلُ  
هو الملك الرّاقِي إلى ذروة العلّا  
حميد المساعي بالسّعادة يُشملُ  
جليل عريق الفرع من دَوْحَةٍ زَكَتْ  
سلالة ملك في الجلالِ موصلُ  
تقلّد سيف الحق والنصر صارماً  
وقام بأمر الله بالعدل يفعلُ  
غدا واثقاً بالله معتصماً به  
على ربه في أمره متوكّلُ  
تحلّى بجنس العدل في فضل حكمه  
وخُصّ بنوع الحلم والحكم يفصلُ  
به تونس الغرّاء تمّ نظامها  
وآياتها بين الأنام تفصلُ  
/ وأضحت على ماضي الزّمان برفعها  
تَجُرُّ ثياب الفخر عنه وترفلُ  
وتشرف قدراً والتشرفُ إنّما  
يتم بأبناء الحسين ويكملُ  
ملكٌ به الأيام حلّي جيدها  
وكم مرّ دهرٌ عنه وهو معطلُ



إذا قلت : صِلني . قال : ويحك تبتغي  
وصالي ؟ ودون الوصل موت مُعَجَّلُ  
فَرُوعِي حَيَاتٍ . وصدغي عَقْرَبُ  
وقَدِّي رَمَح . واللَّوْاحِظُ أَنْصُلُ  
ألا ليت شعري هل أرى لي ليلة  
يُضِيءُ نهار الحظِّ منها ويقبل  
تنازعني الأيام في كلِّ مطلب  
كأنَّ لها ثاراً عَلَيَّ مَسْجَلُ  
أرى كلَّ سهلٍ الأمر يصعب قبضه  
عليَّ . وما في قبضه لي مُسهل  
وأعذرُها عن فعلها حيث لا أرى  
بأنِّي من أبنائها فَأُخَوِّلُ  
عليَّ لافات الزَّمان تراحمُ  
فكيف إلى قلبي الهنا يتَوَصَّلُ  
فأهونُ قسمٍ في الحُظُوظِ حُرْمَتُهُ  
وأرفعُ خطب في الوري بي يتزل  
فما سوء حظي منه خطبي مطلقُ  
ومطلقُ خطبي منه حظي مجملُ  
حظوظا أرى الإقبالَ منهن مدبرا  
ودهر أرى الإدبارَ لي منه مُقبل  
يُقرُّ بفضلٍ مُنكرُ الفضل في الوري  
ويمنعني حَقِّي الجليَّ ويَسْخِذُلُ  
ويعلمُ دهري والحواسدُ كلُّها  
نباهةَ قدري . هو عَنِّي يَغْفُلُ

إلى كم تَرى يا دهرُ فضلي في الوري  
يُعرف من طيبٍ ، وقَدِّي  
إذا لم تَثْبُ عني رفعتُ شكَايَتِي  
إلى مَنْ على أَحكامه اللُّهُ  
أبي الحسن المولى الأَميرِ عليَّ مَنْ  
به في العُلَا والمجد تُضربُ  
هو الملك الرَّاقِي إلى ذروة العُلَا  
حميد المساعي بِالسَّعَادَةِ يُشْمَلُ  
جليل عريق الفرع من دَوْحَةٍ زَكَتْ  
سلالة ملك في السُّجَالِ موصل  
تقلد سيف الحق والنصر صارماً  
وقَامَ بأمر الله بالعدل يَفْعَلُ  
غدا واثقاً بالله معتصماً به  
على ربه في أمره متوكِّلُ  
تحلَّى بجنس العدل في فضل حُكْمِهِ  
وخصَّ بنوع الحلم والحكم يفصل  
به تونس الغرَّاء تَمَّ نِظَامُهَا  
وآياتُها بين الأنام تُفَصَّلُ  
/ وأضحت على ماضِي الزَّمان برفعِها  
تَجِرُّ ثيابَ الفَخْرِ عنه وترْفُلُ  
وتشرفُ قدراً والتَّشَرُّفُ إِنَّمَا  
يتمُّ بِأبناء الحُسَيْنِ ويكملُ  
ملكٌ به الأيامُ حُلِّيَّ جِيدُهَا  
وكم مرَّ دهرٌ عنه وهو معطلُ



ملك إذا المدح استهلّ بذكره  
 ترى منه وجهها للندي يتهلل  
 تغار بحار الأرض من فيض كفه  
 ومن جوده فيض الغمام يخجل  
 ملك إذا ما الحرب أضرم نارها  
 تراه قدوما في المواكب يقبل  
 له وقعات في الحروب حديثها  
 على صفحات الدهر يتلى وينقل  
 يصول على الأبطال في كل معرك  
 مصال هزبر في الذئاب ويحمل  
 يرى فوق شهب الصافات وقد نضى  
 ضبا كغمام بين برقين يشعل  
 لن حملته وهو برق فإنه  
 غمام ، وما برق الغمام يجهل  
 يصول على أسد الشرى حول غابها  
 ولكته في حومة الحرب أصول  
 يعود خميس الجيش في اثنين إن سطا  
 من السبب ، والأبطال في الحرب تبطل  
 فما ذكره بالبأس يوم كريمة  
 إذا صال منه الورد إلا قرنفل  
 يضارع ماضي العزم في الأمر سيفه  
 إذا همّ بالفعل الذي رام يفعل  
 وإن رام إنتاجا لصدق قضية  
 برأي ، فما حكم القضية يبطل

له بذكاء العقل صدق فراسته  
 بها يدرك الأمر الخفي ويعقل  
 فلم يخط في أمر تدبر فكره  
 كأنّ عليه الوحي بالغيب ينزل  
 ملك له في الملك حسن سياسة  
 على مثلها تسهو الملوك وتذهل  
 يروض لها ليث الشرى وهو عابيس ،  
 ويغدو بها الصعب الحرون يذلل  
 له بشر وجه يخجل الشمس نوره  
 ويسحر أرباب النهى ، وهو مقبل  
 ويزري بزهر الروض منه شمائل ،  
 إذا ما به مرت جنوب وشمائل  
 ولولا وقار زان منه وحلمه  
 على الأرض كادت بالبرية تعدل  
 تقي ، نقي ، طاهر الذيل شاكر  
 لهمته فوق المنازل منزل  
 مديد المزايا ، وافر الفضل ، كامل ،  
 سريع العطايا ، للعفاة مبجل  
 / وفي عهود ، منجز لوعوده ،  
 فلا العهد منقوض ، ولا الوعد يمطل  
 ملك إذا الآمال أخلف برقها  
 فما منه يوما قط يخلف مآمل  
 له ملكات في العلوم وفطنة  
 تملك منها حل ما هو مشكل



ملك إذا المدح استهلّ بذكره  
 ترى منه وجهها للندى يتهلل  
 تغار بحار الأرض من فيض كفه  
 ومن جوده فيض الغمام يخجل  
 ملك إذا ما الحرب أضرم نارها  
 تراه قدوما في المواكب يقبل  
 له وقعات في الحروب حديثها  
 على صفحات الدهر يتلى وينقل  
 يصل على الأبطال في كل معرك  
 مصال هزبر في الذئاب ويحمل  
 يرى فوق شهب الصافنات وقد نضى  
 ضبّا كغمام بين برقين يشعل  
 لئن حملته وهو برق فإنه  
 غمام . وما برق الغمام يجهل  
 يصل على أسد الشرى حول غابها  
 ولكنه في حومة الحرب أصول  
 يعود خميس الجيش في اثنين إن سطا  
 من السبب . والأبطال في الحرب تبطل  
 فما ذكره بالبأس يوم كربهة  
 إذا صال منه الورد إلا قرقل  
 يضارع ماضي العزم في الأمر سيفه  
 إذا همّ بالفعل الذي رام يفعل  
 وإن رام إنتاجا لصدق قضية  
 برأي . فما حكم القضية يبطل

له بذكاء العقل صدق فيرأسه  
 بها يدرك الأمر الخفي ويصل  
 فلم يخط في أمر تدبر فكره  
 كأنّ عليه الوحي بالغيب يصل  
 ملك له في الملك حسن سياسة  
 على مثلها تسهو الملوك وتذل  
 يروض لها ليث الشرى وهو عابس ،  
 ويغدو بها الصعب الحرون يذلل  
 له بشر وجه يخجل الشمس نوره  
 ويسحر أرباب النهى ، وهو مقبل  
 ويزري بزهر الروض منه شمائل ،  
 إذا ما به مرّت جنوب وشمائل  
 ولولا وقار زان منه وحلمه  
 على الأرض كادت بالبرية تعدل  
 تقسي . نقي ، طاهر الذيل شاكر  
 لهمته فوق المنازل منزل  
 مديد المزايا ، وافر الفضل ، كامل .  
 سريع العطايا ، للعفاة مبجل  
 / وفي عهود ، منجز لوعوده .  
 فلا العهد منقوض ، ولا الوعد يمطل  
 ملك إذا الآمال أخلف برقها  
 فما منه يوما قط يخلف مآمل  
 له ملكات في العلوم وفطنة  
 تملك منها حلّ ما هو مشكل



فعلم أصول الدين والفقهاء عنده

ضروريتهما ما كان فيه تأمل

وإن يُبدل في النحو اشتغال ضميره

فليس له في نعته منه مُبدل

وإن رام بحثاً في البيان فذهنه

مجاز . له كل الحقائق مُرسل

به روضة الآداب أثمر غصنها

وعادت بأزهار المنافع تحمل

ألا أيها المولى الهمام الذي به

غدت في العلا والفضل تضرب أمثل

ومن هو بالمعروف والفضل قد غدا

لدى الناس معروفاً . وفيه تجمل

لقد ملأ الآفاق حبك . والثنا

عليك . وما فيها سوى ذين مُشغل

وحملت أعناق الأنام أيادياً

فما عجزوا عن شكر ما قد تحمّلوا

عفوت عن الجاني فمات ندامة .

فما العفو إلا كالعقوبة يقتل

ولم يكف منك العفو حتى شملتهم

بجاه لهم فيه علا وتفضل

كأنّ جنایات الجنة جميعهم

بهن لهم فضل عليك مطول

فعفوك عنهم رحمة وتفضلاً

كأنّ عوقبوا عمّا جنوه ونكّلوا

فما بين عفو منكم وعقوبة

تمايز إلا المدح والذم ينقل

فكل الوری تدعو بطول بقائكم

إلى ربّها الأعلى بما يتقبل

ففعلك بالتمييز إراثاً وإنّما

على الفاعل التمييز قد يتحول

فلا زلت في أفق الكمال مخيماً

ورأيك محمود وذكرك يجمّل

ولا برحت رحى الإله وعفوه

يهب بها ريح القبول فتقبل

إلى أبويكم — ما ثووا — وشقيقكم

تساق برضوان الإله وتحمّل

فلا زلت يا تاج الملوك مهناً

ودهرك بالإقبال والسعد يكمل

### [اعتدال القوة الشهوية]

#### واما عفته

فقد نشأ من صباه في غاية الصّون والنّزاهة لم تحفظ له صَبَوة ، ولم تؤثر عنه زلّة ، واتصل ذلك إلى أن فارق أوطان مُلكه وجال في مجالات الاغتراب ، فكان منه من صيانة العرض والاحتفاظ على المروءة والبعد عن مواقع الرّيب ما سارت به الرّكبان ثم رجع / إلى مستقرّ عزّه ، واستبدّ بسلطنته ، فما زاده ذلك إلا التباساً بالعفاف ، واشتمالا على التّراثة . وكانت حاله في هذا الوصف غير معهودة للملوك فإنه ترك الملاذّ والشّهوات إيثاراً لدينه ، ومحافظة على عرضه . أخبرني — أيّده الله تعالى — أنه كان في أيام صباه هوى جاريةً صبيّةً لبعض أهله



وكنتم أمرها . وبقي على ذلك مدة لا يصل إليها . ولا يقامر منها على شيء .  
فاتفق أن أذن له والده المقدس . رحمه الله تعالى . في الخروج إلى بساتين منوبة  
بجميع حرمه والجارية فيهن . قال فبينما هو ذات يوم يطوف في الجنان بين  
الأشجار في وقت هاجرة . وقد نام الناس . إذ هو بالجارية ليس معها أحد ولا  
دونها مانع فأمكنته الفرصة فيها . فتناولها فلانت في يده وطاعت لما يريد منها .  
فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته ارتفعت وارتعدت وقالت له : سألتك  
بالله لا تفضحني ! فقام عنها ولم يمستها ولا عاد إليها بعد ذلك . وهذه الحكاية  
ادخل في باب العفة وأغرب مما يؤثر عن السلطان ملكشاه السلجوقي ويعد من  
عيون محاسنه . وهو أنه أحضر له مغنية وهو بالرتي فاستطاب غناها وهم  
بها . فقالت : يا سلطان إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يعذب بالنار .  
وإن الحلال أيسر . وبينه وبين الحرام كلمة ! فقال : صدقت . واستدعى  
القاضي فزوجها منه . وابتنى بها وتوفي عنها . ونظير ما وقع في صحيح البخاري  
من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -  
قال : بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت  
على قسم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ! فقال بعضهم لبعض :  
انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم . قال  
أحدهم ، الحديث ... وفيه : قال الآخر : « اللهم إنها كانت لي ابنة عم  
أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبتها فأبنت علي حتى آتيتها  
بمائة دينار فبقيت حتى جمعتها . فلما وقعت بين رجلها قالت : « يا عبد  
الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه . ففقت ! فإن كنت تعلم أي فعلته  
ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة ففرج . الحديث ... » . وكذاك شاهدنا على عفافه  
وتجنبه مواقع الريب ومظان التهم : أنه منذ ولي الأمر لم يحضر مجلسه  
العالى شيء من المغاني وآلات اللهو والطرب . ولا سمع غناء . ولا قرب  
من يحسنه - مع ميل طبعه التسليم إليه وتفرقة الجيدة بين أقسامه . ومعرفته  
بمواقع ألحانه - إلا ما يقع ليلتي العيدين من حضور منشي الأثرak وغنائهم  
بشيء من الشعر باللسان التركي على بعض آلاتهم . ثم جلوس المطربين

والمغنين بالغناء العربي بعدهم . فإن هذا من قوانين الملك القديمة بالحضرة  
ومن عادات الترك التي لا يتهيأ تغييرها .

ومن عجيب / ما يؤثر عنه في النزاهة والبعد من الريب والتهم أنه لما  
استقر والده المقدس - برّد الله ثراه - بالتيروان بعد وقعة سمنجة جريحا أتى له  
برجل متطّيب فداواه من جرحه واستخرج حبة الرصاص منه بشيء يسير من  
الدواء حتى كان يظن به أن عنده شيئاً من الأسرار ، وكان مولانا - أعزه الله  
تعالى - قد غلب على جسده أثر السوداء فكان لا ينام حتى يحيط به جماعة من  
غلمانهم يحكّون جسده بأظفارهم ! وآلمه ذلك ، فاشتكاها إلى ذلك الطبيب  
فالتزم مداواته وشرط عليه أن يعينه باستعمال المفرحات النفسانية ، وسأله هل  
يشرب الخمر ؟ قال : « هذا شيء ما فعلته قط ولا أفعله ! » قال أما لا فلا  
بد أن تحضر عندك كل ليلة من يضرب لك العود وغيره من آلات الطرب  
ويغنيك . فإلتبس حينئذ أجد الطريق إلى مداواتك ! قال : « وهذا أيضا لا  
أفعله فإلتبني بين ظهرائي قوم لا يعلمون باطن أمري فإذا سمعوا عندي نغم  
الآلات وأصوات الغناء ذهبت أوهامهم كل مذهب ، ولا يظنون أنه مجرد  
سماع . والعامل من يباعد نفسه عن مظان التهم ! قال : إذن لا يمكنني أن  
أداويك ! فاستدعى المؤذنين بجامع الحنفية فكانوا يبيتون عنده فيقرؤون  
القرآن تارة ، ويغنون بالاشعار أخرى . وأعطاه شيئاً من الدواء استعمله فبرئ .  
وقد كان في بعض الأيام اعتري جسمه بعض التشويش فأشار عليه طبيبه بأن  
يتداوى بسماع الغناء والآلات في بعض الليالي فإن فيه إغاثة على اعتدال المزاج  
وتقوية الروح . فأذكر عليه ذلك وقال له : « أردت أن تجعلني حاديا وسمرا ؟ »  
واستضعف عقله . ولقد كان قبل استقلاله أيام أخيه - رحمه الله تعالى -  
وليعا بلعب الشطرنج ، وله به خبرة تامة . وكان يحضر مجلسه المشهورة  
من المحسنين لعبه ويعطيهم على ذلك العطايا الجسيمة ، فمئذ استقل بالأمر  
رفض جميع ذلك ، ولم يحضره في مجلسه في وقت من الأوقات إلى الآن ،  
وعلى الجملة فقد عَفَّ عن جميع المحارم . ونزه نفسه عن كل ما ينقص  
دينه . ويدنس عرضه - إلا خصلة واحدة لم يتأت له تركها ولا يساعده عليها



الوقت ولا يقوم الملك بدونها على ما استقر من قوانينه العرفية — وهي جباية الأموال من الرعايا على غير وجهها . ولقد همّ بأن يترك على الرعايا جميع المجابي والمكوس ويلزم الناس بأداء الزكوات والأعشار على الوجه الشرعي وتكلم في ذلك مع خواصه ووزرائه فلم يوافق أحد على هذا الرأي . وخوفوه من انتقاض الأمر ، فإن أكثر الأعراب لم تجر عليهم عادة من القديم بأخذ الزكاة منهم بل أمرها مفوض إليهم فلو ألزموا بأدائها لربما جرّ ذلك فتق رتق يصعب تلافيه ، ولمّا بلغ ذلك بعض الأعراب ناشدوه الله تعالى أن لا يفعل ! وقالوا له : إن وضعت عنا هذه المجابي وردّنا إلى أخذ الزكوات جاء من بعدك فقرّر / علينا ما قرّره من الزكوات وردّنا إلى المجابي التي وضعتها عنا ! حتى قال له بعض فقهاء حضرته ممن أقطعوا أعشارهم : الموت أهون علينا من أداء ما لم تجر علينا ولا على آبائنا من قبلنا عادة بأدائه ، ولقد سمعته — أبقاه الله تعالى — يقول : « غلبت نفسي على جميع الشهوات وأبعدتها عن المآثم خوفا من النار إلا هذه الخطة — يعني أخذ الأموال من غير حيلها — فلم أستطع الجمع بين تركها وبين القيام بالملك ولا مخلص عنها إلا بالتخلي عنه رأساً ! ولوددت أن أحدا ممن يصلح له يقوم على الرعية قيامي . ويرفّق بهم مثلي ، فأتخلى له عنه لكن من يتولاّهم ربما قرّر عليهم جميع المظالم وزادهم فيها ما لا يحسبونه ، فرأيت بقائي لهم أصلح وأرجو الله تعالى أن يجازيهم عني فيما آخذه من أموالهم على غير وجهه — حقق الله تعالى رجاءه — ومع هذا فقد ترك كثيرا من المظالم . وأسقط عن الرعايا أموالا جمّة رفقا بهم ، وتحرّز جهده من اختراع مظلمة عليهم لم يسبق إليها ، خوفا من الوقوع في وعيد : « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، ومن تتبع دفاتره وجدّه قد أسقط عن الرعية ما لا يعدّ ، ووضع عن كثير منهم أموالا عظيمة لا تكاد نفس ملك تسمح بمثلها ! فوضع عن أهل قفصة وعملها في سنة من السنين نحواً من مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار بالدينار التونسي ترتبت عليهم في سنين متعددة ، وعن أهل توزر نحواً من ستين ألف دينار ، وعن أهل نفطة نحواً من خمسين ألف دينار ، وعن

[101 - ب]

أهل نفزاوه نحواً من ثلاثين ألف دينار ، وذلك لرؤيا رآها وهي أن رجلاً من الصالحين أمره بالرفق بهم . ثم وضع عنهم بعد ذلك أول خرجات مولانا أبي محمد حمودة باشا — نصره الله تعالى — بالملحة المنصورة إلى الجريد ما مضى فيما سبق ، وعن أهل قابس وعملها ستين ألف دينار ، وعن عمل ما مضى من مائة ألف دينار ، وعن الهمامة نحواً من ألفي بعير ، كل ذلك جملة واحدة — يعمد إلى أهل البلد ممن ذكر وغيرهم فيترك عنهم جميع ما هم مطالبون به ضربة واحدة — وتكرّر ذلك مراراً لو تتبعناه كله لطال الكلام .

وقد جرت العادة بالحضرة أن أعطيات الجنود وأرزاقهم الخارجة من دار الخلافة موزعة على العمال على قدر ما بأيديهم من الأعمال ، فيدفع كل واحد منهم ما التزمه من عمل السنة على ستة أقساط — في كل شهرين قسطاً — لأن الجند يأخذون رواتبهم كذلك ستة مرات في السنة ، فكثرت البقايا على العمّال — شيء انكسر عليهم ، وشيء تعسّر عليهم خلاصه من الرعية — ولم يزل ذلك ينمو إلى أن بلغ ألف ألف دينار وأكثرهم يضعف عن حمل ما عليه ، فأسقطها عنهم كلّها وأبرأ جميع العمّال والرعايا ، واستأنف الأمر . هذا وأمثاله يفعلُه حرّمة الملوك / وعقلاؤهم عند اعتلاج الأمور عليهم ، واضطراب القواعد ، وانسداد المذاهب ، وتنكر المعارف ، واكفهرار وجه الزمان ، وتراخي مبادئ الغير ، فيتلافون رتقاً ما انفتق عنهم ، ويلجئون إليه لتحصيل الأمان من طوارق الحدّثان . فقد قيل : « إن المأمون قال في آخر مواقفه مع أخيه الأمين وقد نفدت بيوت الأموال ، وألحت الأجناد على الأمين في طلب الأرزاق ، فقال المأمون : بقيت لأخي خصلة لو فعلها ملك ما تحت قدمي هاتين ! » فقيل له ما هي ؟ فقال : والله إني لأضن بها على نفسي فكيف على غيري ! فلمّا خلص له الأمر سئل عن تلك الخصلة ؟ فقال : لو أن الأمين نادى في جميع بلده أنه قد حط الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر سنين لملك الأمر عليّ « ولكن الله غالب على أمره » . ولما خشي المأمون من انتقاض بيعته مع أهل خراسان في فتنته مع أخيه الأمين استشار وزيره الفضل بن سهل فقال له



الوقت ولا يقوم الملك بدونها على ما استقر من قوانينه العرفية - وهي جباية الأموال من الرعايا على غير وجهها . ولقد همّ بأن يترك على الرعايا جميع المجابي والمكوس ويلزم الناس بأداء الزكوات والأعشار على الوجه الشرعي وتكلم في ذلك مع خواصه ووزرائه فلم يوافق أحد على هذا الرأي . وخوفوه من انتقاض الأمر . فإن أكثر الأعراب لم تجر عليهم عادة من القديم بأخذ الزكاة منهم بل أمرها مفوض إليهم فلو ألزموا بأدائها لربما جرّ ذلك فتق رتق يصعب تلافيه . ولما بلغ ذلك بعض الأعراب ناشدوه الله تعالى أن لا يفعل ! وقالوا له : إن وضعت عنا هذه المجابي وردّنا إلى أخذ الزكوات جاء من بعدك فقرّر / علينا ما قرّره من الزكوات وردّنا إلى المجابي التي وضعتها عنا ! حتى قال له بعض فقهاء حضرته ممن أقطعوا أعشارهم : الموت أهون علينا من أداء ما لم تجر علينا ولا على آبائنا من قبلنا عادة بأدائه . ولقد سمعته - أبقاه الله تعالى - يقول : « غلبت نفسي على جميع الشهوات وأبعدتها عن المآثم خوفاً من النار إلا هذه الخطة - يعني أخذ الأموال من غير حيلها - فلم أستطع الجمع بين تركها وبين القيام بالملك ولا مخلص عنها إلا بالتخلي عنه رأساً ! ولوددت أن أحداً من يصلح له يقوم على الرعية قيامي . ويرفق بهم مثلي ، فأنتحلي له عنه لكن من يتولاهم ربما قرّر عليهم جميع المظالم وزادهم فيها ما لا يحتسبونه . فرأيت بقائي لهم أصلح وأرجو الله تعالى أن يجازيهم عني فيما آخذه من أموالهم على غير وجهه - حقق الله تعالى رجاءه - ومع هذا فقد ترك كثيراً من المظالم . وأسقط عن الرعايا أموالاً جمّة رفقاً بهم ، وتحرّز جهده من اختراع مظالمهم لم يسبق إليها . خوفاً من الوقوع في وعيد : « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، ومن تتبع دفاتره وجدّه قد أسقط عن الرعية ما لا يعدّ ، ووضع عن كثير منهم أموالاً عظيمة لا تكاد نفس ملك تسمح بمثلها ! فوضع عن أهل قفصة وعملها في سنة من السنين نحواً من مائة ألف دينار وثلاثة عشر ألف دينار بالدينار التونسي ترتبت عليهم في سنين متعددة . وعن أهل توزر نحواً من ستين ألف دينار ، وعن أهل نفطة نحواً من خمسين ألف دينار ، وعن

[101 - ب]

أهل نفزاوه نحواً من ثلاثين ألف دينار . وذلك لرؤيا رآها وهي أن يخرج الصالحين أمره بالرفق بهم . ثم وضع عنهم بعد ذلك أول خراجات من أموالهم محمد حمودة باشا - نصره الله تعالى - بالمحلة المنصورة إلى الجريد . فيما سبق . وعن أهل قابس وعملها ستين ألف دينار ، وعن أهل جند بعلبك من مائة ألف دينار ، وعن الهمامة نحواً من ألفي بغير ، كل ذلك مما يعمد إلى أهل البلد ممن ذكر وغيرهم فيترك عنهم جميع ما هم مطالبون به من ضريبة واحدة - وتكرّر ذلك مراراً لو تتبعناه كله لطال الكلام . وقد جرت العادة بالحضرة أن أعطيات الجنود وأرزاقهم الخارجة من دار الخلافة موزعة على العمال على قدر ما بأيديهم من الأعمال ، فيدفع كل واحد منهم ما التزمه من عمل السنة على ستة أقساط - في كل شهرين قسطاً - لأن الجند يأخذون رواتبهم كذلك ستة مرات في السنة ، فكثرت البقايا على العمال - شيء انكسر عليهم . وشيء تعسّر عليهم خلاصه من الرعية - ولم يزل ذلك ينمو إلى أن بلغ ألف ألف دينار وأكثرهم يضعف عن حمل ما عليه . فأسقطها عنهم كلّها وأبرأ جميع العمال والرعايا ، واستأنف الأمر . هذا وأمثاله يفعلُه حرمة الملوك / وعقلاؤهم عند اعتلاج الأمور عليهم . واضطراب القواعد . وانسداد المذاهب ، وتنكر المعارف ، واكفهرار وجه الزمان ، وتراخي مبادئ الغير . فيتلافون رتق ما انفتق عليهم . ويلجئون إليه لتحصيل الأمان من طوارق الحدّثان . فقد قيل : « إن المأمون قال في آخر موافقه مع أخيه الأمين وقد نفدت بيوت الأموال ، وألحت الأجناد على الأمين في طلب الأرزاق ، فقال المأمون : بقيت لأخي خصلة لو فعلها ملك ما تحت قدمي هاتين ! » فقيل له ما هي ؟ فقال : والله إني لأضن بها على نفسي فكيف على غيري ! فلمّا خلاص له الأمر سئل عن تلك الخصلة ؟ فقال : لو أن الأمين نادى في جميع بلده أنه قد حط الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر سنين لملك الأمر عليّ « وَلَكِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » . ولما خشي المأمون من انتقاض بيعته مع أهل خراسان في فتنته مع أخيه الأمين استشار وزيره الفضل بن سهل فقال له



الفضل : قد قرأت القرآن وحديث الرسول — عليه الصلاة والسلام — والرأي عندي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم إلى الحق والعمل به . وإحياء السنة . وبسط العدل ، والعودة على اللبود . وتواصل النظر في المظالم . وتكرم القواد والمملوك وأبناء المملوك . وتعدهم بالمواعيد الكريمة . والمراتب السنية ، والولايات المشاكلة ! ففعل ذلك ، وحطّ عن أهل خراسان رُبْعَ الخراج ، فمالت وجوه الخلائق إليه وأحبّوه حتى تمّ له من الأمر ما تم . وهذا الذي ذكرنا أن حزمّة الملوك تفعله عند الحاجة إليه . والاضطرار إلى وقوعه . — تسكيناً للنائرة ، وصرفاً لوجوه الناس إليهم وثبتاً لدعائهم ملكهم — قد اتخذه مولانا — أيده الله — خلقاً وطبعاً يصدر منه في حالة الأمن وزمن هدوء النائرة . واستقامة الأمور . وانتشار العافية . لتعلم بذلك مكانه من العقل والرأي والحزامة والسخاء وكرم النفس .

فأول ما افتتح به دولته الميمونة أن حطّ « المشتري » عن الرعيّة في جميع عمله — وقد كانوا في جهد من شأنها ومشقة فادحة — وصورتها : أن يعطى من جانب الدولة مالٌ يوزع على الفلاحين من الرعايا — على صورة السلم في القمح والشعير — لكنّه يقع بثمن بخس لا يباخ في بعض السنين سدس القيمة ولا أقلّ منه ! ويقتضى ذلك منهم زمن الاقتضاء بعنف شديد . وأكثر ما يكون ذلك في سنة الجذب التي تقل فيها الحبوب والأقوات . وأدى ذلك إلى ترك الفلاح . وتعطيل الفدادين في كثير من البلاد . تفادياً عن المشتري . فصاروا يطالبون بها من سبق له فلاح . ولو في وقت مّا . ولا يخلصه ترك الفلاح ! وهي من أقبح أنواع الظلم . فافتتح دولته — أدامها الله تعالى — برفعها عن الناس ، وكان ذلك من أقوى الأسباب الباعثة لهم على عمارة الأرض والإقبال على الفلاحة حتى ارتفعت قيمة الفدادين شراء وكراء ارتفاعاً ما وقف عند حدّ . وقد فصلنا ذلك من قبل ، وكثرت بسبب ذلك / الحبوب والأقوات حتى صارت سنة الجذب لا تؤثر في غلاء أسعارها لعموم البذر في كل مكان . وقد كان الملتزم لفدان من فدادين المخزن إذا تقرّر عليه التزامه بمقدار من القمح والشعير لا يمكنه تركه إلى أن يزيد عليه غيره في الالتزام [وينتزع من يده ،

[102 — ب]

فيبقى بيده السنين . وربما توالى الجذب فينكسر الالتزام] ويترتب عليه من الطعام ما يخرج بسببه عن جميع ماله وعقاره ولا يوفّي بما عليه من ذلك ، واجتياح بسبب ذلك لخلائق من الناس . ثم إذا لم يوجد ملتزم للفدان ينظر الموتر من أهل الفلاح فيجبر على التزامه ثم لا يمكن من تركه ، فرفع — أيده الله تعالى — هذا الحرج على الناس ، وجعل التزام فدادين السلطنة كغيرها من الأكرية إذا تمّ العام فإن شاء الملتزم جدّد للعام القابل وإن شاء ترك من غير إكراه له على ذلك . وقد وجد — أيده الله تعالى — بدفاتر علي باشا نيفاً وثلاثين ألف قنيز قمح بقايا على الفلاحين والملتزمين أكثرها ترتب عليهم بهذا السبب الذي ذكرناه وقد انكسرت عليهم ولا قدرة لهم على قضائها . فأخّر عنهم طلبها مدة ثم حوّلها عنهم جملة احتساباً لله تعالى .

وقد كان القانون بالحضرة أن جماعة من الخبازين يلتزمون من السلطان عمل البشماط الذي يلزمه لعساكره في خروجهم للمحال وحراسة الثغور ، ويشترطون في التزامهم أن لا يبيع الخبز غيرهم من أول النهار إلى الزوال ، فيعملونه أسود رديّاً ويبيعونه إلى منتصف النهار . فحينئذ يبيع غير الملتزمين الخبز الأبيض النقي الجيّد . وكثير من السوقة يظل طاولاً إلى منتصف النهار ، فلما كان في أواسط دولة علي باشا أبطل التزام الخبز وأطلق للخبازين عمل الخبز الجيّد من أول النهار لكنه جعل عليهم ضريبة يؤدونها في رأس كل شهر يتحصل منها في السنة نحو ستة آلاف ريال . ثم لما جاءت دولة مولانا محمد باي أعاد التزام الخبز إلى أصله . فلما استقلّ مولانا — أدام الله تعالى وجوده — أبطل الالتزام المذكور . وحطّ عن الخبازين الضريبة التي كانت عليهم ، وأطلق عمل الخبز لكل من أراد . واشترط عليهم الجودة في مقابلة ما حطّه عنهم .

وقد جرت العادة بإفريقية — وهي من قوانينها القديمة — أن من مات قتيلاً قيّدَت دِيّته خمسمائة دينار على قاتله إن علم وكان ذا مال وإلاّ فعلى عاقلته أو أهل بلده تؤدى إلى جانب المخزن عدى ما يستحقه أولياء القتل من



القصاص أو الدية . وهذا جار في جميع العمالة إلا الحضرة ومشاهير المدن كالقيروان وإلا أهل جبل مطماطة . وكانت الملوك لا يتسامحون في تركها . حتى جاء مولانا - أبقاه الله تعالى - فصار لا يصل إليه من أموال الدوايا معشار ما يقبده في دقاته وما سوى ذلك يحطه ويسقطه رفقا برعيته . ومن اطلع على دفاتر حساب العمال وجد الأمر كما قلنا .

ومن أتاه من الرعية يذكر أنه من حملة القرآن العظيم أمر أن يعرض على بعض الكتاب / فان كان صادقا كتب له ظهيرا بتحريره من جميع المطالب المخزنية والقوانين العرفية إعظاما لكتاب الله عز وجل . وكذلك من أتاه منهم عاجزا أو ضريرا أو شيخا هرما أجراه على هذا الرسم من التحرير .

وبالدخلة القبليّة من عمل جزيرة شريك بلد يسمى « الهوارية » على الجبل المطل على البحر في موضع مخافة من العدو الكافر - خذله الله تعالى - فانتهم يأتون في مراكبهم ويكمنون تحت الجبل فيأخذون ما قدروا عليه من شواني المسلمين المارة بهم - وربما نزلت سراياهم إلى البر - وكثرت إذايتهم بذلك المكان . وأهل الهوارية دائما في رباط وحراسة لذلك الثغر . فبنى مولانا - أعلى الله بناءه - البرج المتقدم المذكور بإزاء البلد حفظا لذلك الثغر . وأعان أهل الهوارية على رباطهم بل حط عنهم جميع ما هو موظف عليهم من القوانين المخزنية والطواري . وأقطعهم أعشار زرعهم . وأمدهم بالسلاح محافظة على حراسة الثغر .

ومن عفته العظيمة ونزاهته البالغة التي قل أن يشاركه اليوم فيها أحد من الملوك في أقطار الأرض ممن تبلغنا أحوالهم : أنه منذ ولّي - خلد الله ولايته - لم يتعرض لأموال التجار ولا ألزم أحدا منهم بأداء شيء كما يقع في غالب البلاد ، وما كفاه ذلك حتى زاد عليه بدفع الأموال العظيمة لمن يؤمن عليها منهم يتجر بها ، ويسافر إلى بلد الروم والفرنج على وجه القراض . فيأخذ التاجر الربح كله ويرد إليه رأس المال حرصاً على زيادة العمارة ودوران الأسباب بين الناس . ولقد كانت التجار وغيرهم قبل هذا يتبرؤون من نسبة

[103 - أ]

الغنى إليهم خوفا من تطرّق الأيدي إلى أموالهم حتى جاءت هذه الدولة الغراء فصاروا يتفاسخون بالغنى وينتسب إليه الفقير منهم ويتزبدون فيه واتسعوا في أحوالهم أمنا على أموالهم . ومن مات من الغرباء منهم من أهل الآفاق حفظ ماله تحت يد أمين إلى أن يتسلمه وارثه ، ولا يدخل بيت المال منه شيء .

وقد كانت السلع التي ترد صحبة الركب من الغرب الأقصى ويفارق الركب أصحابها من توزر إلى الحضرة يؤخذ عليها الجمرك كغيرها من السلع الواردة من الآفاق . فرأى - سدّد الله رأيه - أن هذه السلع إما أن تكون للحاج أو لداخل في غمار الحاج فلا ينبغي أن يؤخذ منهم شيء إعانة لهم على حجّهم . فحط عنهم جمرك ذلك وأسقطه ، وأما السلع الواردة صحبة الركب من المشرق فلا يؤخذ عليها شيء من القديم .

وأسقط عن التجار أيضا جمرك الطيب كالمسك ، والغنبر ، والزباد ، العود ، ونحوها ليكثر جلبها ، وذلك لشدة حبه للطيب موافقة للسنة السنية .

ولما كانت أيام الفتنة بين السلطان - نصره الله تعالى - وبين الموسكو - خذله والله تعالى - وملك الموسكو البحر الشامي واستولت عليه أساطيله، وجالت في نواحيه، وامتدت يده إلى أخذ المسلمين ونهب أموالهم / من مراكب المصالحين من الفرنج كالفرنسيس والأنكليز وغيرهم وتجاغت لهم ملوك الفرنج عن ذلك ، وأغضوا عنه تخذيلاً لجانب الإسلام وادعوا أنهم لا قدرة لهم عن كفّ عاديّتهم . في خلال ذلك خرجت من الحضرة مركبان أحدهما للأنكليز والآخر للفرنسيس مشحونتان بالشاشية إلى القسطنطينية فتعرض لهم الموسكو وأخذهما فيما أخذ . وضحّ من ذلك التجار ورفعوا أمرهم إلى مولانا - أعزه الله تعالى . فخاطب الأنكليز والفرنسيس في ذلك وقال لهم : « نحن ما صالحناكم إلا على حفظ أموالنا في مراكبكم . فاحتجوا بعدوان الموسكو . وأنهم لا يقدرّون على دفاعه ، فقال لهم : كان عليكم أن تخبرونا بعجزكم عنه فلا نغترّ بحمل أموالنا في مراكبكم ! وألحّ عليهم في طلب قيمة جميع ما أخذ الموسكو



لأهل الحضرة ووجه عليهم الحجج حتى أذعنوا . وأمر — أيده الله — التجار أن يقيدوا جميع ما أخذ لهم ويقدروا قيمته . فكان قيمة ما أخذ في مركب الأنكلايز مائة ألف دينار ذهباً محبوباً وفي مركب الفرنسييس مائة ألف دينار من النعت فحملوها وأتى بها إلى الحضرة . فأمر — أيده الله تعالى — أمين التجار أن يتسلمها ويفرقها على أربابها ولم تشره نفسه إلى أخذ شيء منها .

ولقد أخبرني بعض من دخل بلاد المشرق من أهل بلدنا — حاطها الله تعالى — قال : « كنت بيت الفقيه من بلاد اليمن وهي بلد على الساحل تقصدها المراكب من الهند ومن جدة وغيرهما . فورد عليها مركب من الهند بها رجل من تجار الهند من أهل البيوت عندهم فاجتمعنا عنده في بيت رجل تاجر من أهل اليمن يعرف بناصر الدين فانجرت بنا الحديث إلى ذكر أحوال الملوك في أقطار الأرض من ظلمهم وامتداد أيديهم إلى أموال الناس . والزامهم التجار بأداء الأموال العظام . فذكر ذلك الهندي : أنه قام عندهم بالهند قائم يقال له « حيدر يناك » يحلق لحيته وشاربه وحاجبيه على صفة القلندرية . ووصف من ظلمه وجوره وعدوانه ونهبه لأموال الناس شيئاً عظيماً وأنه يدخل البلد فينهب ما وجده من أموال أهلها ثم ينتقل إلى غيرها فيفعل بها مثل ذلك . ووصف ما لقي الناس من شدة عسفه : ثم قال ذلك الهندي : إنه ليس في ملوك الأرض اليوم أحسن سيرة من علي باشا صاحب تونس ! قال : فلما ذكر ذلك تعجبت منه غاية العجب . فقلت له : من أين لك ذلك وكيف لأهل الهند العلم بأحوال ملك تونس ؟ ومن أين عرفت اسمه ؟ قال : « يبلغنا ذلك من تجار الفرنج الذين يصلون إلى بلادنا من المغرب فإننا نتلقى منهم أحوال جميع الممالك التي يدخلونها . فكان من جملة ما تلقيناه منهم ما ذكرت لك .

وأعظم من هذا كله عفافه عن سفك الدماء وقتل الأنفس التي حرم الله بغير حق — شيء لا يكاد يؤثر عن ملك غيره — وناهيك أنه منذ ولّي لم يتعلق عليه أحد بسفك دم لم تسفكه الشريعة / المطهرة . وما قتل أحداً إلا في قصاص أو حراسة بعد الثبوت الشرعي والإعذار ومراجعة الأشياء المرة

[104 — أ]

بعد المرة . واتفاق المفتين والقضاة على قتله . ولقد قبض على رجل يُعرف بالدلاجي اشتهر بقطع الطريق والحراسة . وقتل الأنفس وكثر ضرره وأذاه بذلك . فصمم على قتله ولم يتجاسر على ذلك حتى أرسل إلى القاضي وأمر أن يسجل عليه بوثيقة يبلغ عدد شهودها حد الاستفاضة لئلا يمكن من الإعذار فيهم . فسجل عليه وشهد الجرم الغفير بأنه من أهل الحراسة والمشتهرين بقطع الطرقات وقتل الأنفس ، فشاور فيه المفتين فأفتوا بقتله فحيثد قتله . ولقد عفا عن دم أقوام أثاروا الفتن ، وشبوا نيران الحرب ، ما كانت الملوك تسامح في أدنى رجل منهم . وقد تقدم في بيان حلمه وعفوه كثير من هذا المعنى ، وما تعرض لأحد من أبناء أعدائه الذين ظفر بهم بل قد تسبب في حياتهم ! فلقد مرض مصطفى بن يونس باي بمكانه من الدار التي سجن بها مع أهل بيته . فلما بلغه ذلك أمر بإدخال الطبيب إليه فوصف له لبس الأتني فأمر — أيده الله تعالى — بشراء أتانين وأدخلهما إليه ليتناول لهنهما . فقبل له : أما كفالك أنك لم تقتلهم حتى صرت ترغب لهم في طول البقاء ؟ فقال : هؤلاء تحت يدي . وأنا الذي منعتهم من التصرف فإن مرض أحد منهم ومنعته من التداوي فمات كنت المتسبب في قتله . والمسؤول عنه يوم القيامة ! والشيء بالشيء يذكر . لما خرج المولى الأمير وأبناؤه عن الحضرة وملكها علي باشا من أيديهم ترك المولى محمود باي ابن المولى الأمير ابناً صغيراً اسمه يوسف فكان مع أمه وأهل بيته بمكان سجنهم ، فلما شبّ وبلغ أشده استخرجه محمد باي بن علي باشا وأخوه سليمان من بين حرمه إلى مكان بالجينة وأضجعه وذبحاه ذبحاً ونساؤه ينظرن إليه من كوة تشرف على موضع ذبحه ونالهن من الجزع لذلك ما تذوب له الأكباد ! وأتى بها علي باشا وولده المذكوران شنعاء منكراً ، تمجها الأسماع وتنفر عنها القلوب . حتى أن يونس ابنه تبرأ منها وشنع بها عليهم وعدّها من مثالبهم حين ثار بالقصة .

ويحسن أن يُورد هنا ما حكاه شمس الدين بن خلكان في ترجمة أبي الفوارس سعد ابن الصّفي التميمي المعروف بحيص بيص الشاعر المشهور عن الشيخ نصر الله بن مجلي ، وكان من الثقات أهل السنة ، أنه قال : رأيت في المنام



عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقالت له : يا أمير المؤمنين تفتحون مكة فتقولون من دخل دار أبي سفيان كان آمناً ثم يتم على ولدك الحسين يوم الطف ما تم ؟ فقال لي : أما سمعت أبيات ابن الصيّف في هذا ؟ فقلت لا ! قال فاسمعها منه ! ثم استيقظت فبادرت إلى دار حيص بيص فخرج إليّ فذكرت له الرؤيا فشهو وأجهش بالبكاء وحلف بالله إن كانت / خرجت من فمي أو خطي إلى أحد وإن كنت نظمتها إلا في ليلتي هذه ! وأنشدني :

ملكنا فكان العفو منا سجيّةً فلما ملكتم سال بالدم أبطّح  
وحلّتم قتل الأسارى . وطالما غدونا عن الأسرى نمنّ ونصفّح  
وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه يرشح

ثم إن مصطفى بن يونس المذكور أفاق من مرضه ودبر هو وأبناء عمته محمد باي المسجونين معه في الخروج من مكان سجنهم ، فدخلوا الكنف الذي ينقض الكنف بباردو المعمور فحفر لهم سرباً تحت الأرض من محل الكنيف الذي بمحبسهم إلى مكان عينوه للخروج منه . وتحيل في نقل التراب الذي استخرج بالحفر بحيلة تمت له فلم يطلع عليه . ولم يترك إلا حائلاً رقيقاً بين منتهى السرب وبين المكان الذي أريد الخروج منه إذا أزيل خرجوا إلى الفضاء أبقوه إلى أن ينتهزوا فرصتهم ويتهيأ لهم ما أرادوا . وقد روا أنهم إذا خرجوا توثبوا في بعض الحصون أو الجبال الممتعة أو يلجئون إلى مملكة الجزائر وبقوا على ذلك مستجمعين لما همّوا به ، فتدارك لطف الله وصنعه الجميل وما قضاه من سعادة مولانا - دامت سعاده - وعاود مصطفى بن يونس مرضه فهلك في ذي القعدة من سنة خمس وثمانين . وخرج على نعشه ودفن بتربة جدّه وبقي السرب على حاله مدة لم يطلع عليه أحد إلى أن أتت امرأة . لم تعرف إلى الآن ، إلى بعض رجال الدولة فناولته كتاباً مختوماً وقالت له أوصل هذا الكتاب إلى الأمير فإن فيه نصيحة له وإن لم توصله فأنت أبصر ! فأوصله إلى مولانا - أعزه الله تعالى - ففتحها فإذا فيه شرح هذه القضية والإخبار بأمر السرب المذكور وما همّ به مصطفى وأبناء عمته من الخروج وذكر أشياء

آخر كانوا همّوا بها . وذكر أمارات عليها عرفها مولانا ! وداخلته الريبة لذلك في الحاج عنبر آغا كبير الطواشية فإن المسجونين من آل علي باشا كانوا لنظرة وثوقاً بموالاته ، واعتماداً على سالف خدمته ! فاستدعاه مولانا - أيده الله تعالى - وسأله عن القضية فأذكر أن يكون له شعور بها ، ثم نهض - أعزه الله تعالى - بنفسه ومعه عنبر آغا المذكور وغيره ودخل دار محبس آل علي باشا فأتى موضع السرب ودخل فيه بنفسه حتى انتهى إلى آخره وعلم المكان الذي أرادوا الخروج منه ! وارتاع لدخوله أبناء محمد باي فسكنهم وقال لهم : لا بأس عليكم ، ثم خرج فبنى ذلك السرب وسدّه واحتاط في أمر المسجونين ! وقويت عنده تهمة عنبر آغا فما عاتبه إلا عتاباً يسيراً وصفح عنه وبقي على مكانته موفور الجاه والحرمة إلى أن هلك . وقبض على الكنف المذكور فحبسه زماناً ثم أطلقه . فهذا وأمثاله / مما لا عقاب له عند الملوك إلا القتل منتهى عقاب مولانا - سدّد الله رأيه - فيه السجن والعتاب والصفح والإغضاء . لا جرم أنه لم ينتصف لنفسه فانتصف الله تعالى له وأهلك أعداءه واستأصل شافتهم . وأبقى من بقي منهم مهاناً تحت ملكته . ضارعا تحت كلاكل قهره .

ومن عفته وصيانه التامة أنه لم يشرب مسكراً ولا رآه منذ خلقه الله تعالى . ولقد نشأ في صباه - وأكثر من يخدمه ومماليكه يتعاطون ذلك - وهو قد بغضه [الله] إليه ، فكل من اطلع عليه منهم يفعل ذلك ضربه وطرده عن خدمته . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولّاه الله تعالى الملك واستقل به فصدرت عنه المكرمة الكبرى والمأثرة العظمى التي سارت الركبان بخبرها وشاعت في الخافقين فضيلتها وارتفع في أقصى البلاد صيتها . وهي إبطاله لعصر الخمر وبيعها وجليها من بلاد النصارى - أهلهم الله تعالى - في جميع أقطار مملكته وهدمه لحاناتها ، وإقامة الحدّ على شاربها والتنكيل بمن عثر عليه يعصرها أو يبيعها ، فجاء بها أكرومة لم يسبق إليها أحد من ملوك أفريقية ولا قدر عليها غيره . وذلك أنه كان بتونس حانات كثيرة في أماكن متعددة تباع بها الخمور جهاراً من غير تستر ولا نكير . ويُنْتَعَل لذلك بأن أوجاق



العسكر لا بد فيه من ذلك . ولا بد من إطلاقه للعسكر ومهما منعوا منها خشى من ثورتهم وحدوث فتنة وسفك دماء هي أشد ضرراً بكثير من بيع الخمر وشربها لمن أراد . واستقر هذا الخيال في أذهان الملوك السابقة مع ما يحصل لهم من الأموال العظيمة التي يأخذونها من الملتزمين لبيعها في كل سنة . ومن الضرورية التي يجعلونها على من يبيعها من أسارى النصارى الذين بأيديهم . غير أن المقدس مولانا حسين باي بن علي والد مولانا — أبقاه الله تعالى — قد هدم عدة من الحانات بتونس وبنى في أماكنها بنايات لوجوه من الانتفاعات . منها : حانة الثوالت الكائنة داخل باب الجزيرة صير مكانها مسجداً جامعاً من أحسن المساجد ومدرسة عظيمة لقراء العلم وتربة لمدفنه دفن بها — رحمه الله تعالى . ثم جاء علي باشا بعده فعمّل حانة الخفصية وجعلها دار ضرب . وفي أواسط دولته منع من بيع العنب للخمارة وعصره . واقتصر بهم على بيع ما يجلب إليهم من بلاد النصارى — أهلكهم الله تعالى — وما يستقطرونه بالطبخ من الزبيب والتين . وعدّ ذلك من حسناتهما — رحمهما الله تعالى . ولما ملك مولانا — خلد الله ملكه — لم يزل يدور في خالده الشريف حسم هذه المادة بالكلية واجتثاثها عن أصلها بالمرّة ويُقدّم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى خوفاً من تشغيب يقع من غوغاء الجند . فأول ما بدأ به من أمرها أن هدم حانة القرامد الكائنة داخل باب البحر وجعل مكانها خانين عظيمين / لسكنى التجار ودوراً ومخازن وغير ذلك وصرفها في وجوه البر كما تقدم . وانحصر بيع الخمر في الحانات الكائنة ما بين باب القصبة وباب البنات تحت السور لبعده ذلك المكان عن الدور والأسواق إلى أواخر سنة ثلاث وثمانين . فحضر — أيده الله تعالى — صلاة الجمعة بجامع باردو المعمور فخطب خطبته خطبةً ذكر فيها إثم شرب الخمر وما ورد فيه من الوعيد . وذكر في أواخرها عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « لعن الله الخمر وشاربها . وساقها . وبائعها ، ومبتاعها . وعاصرها . ومعتصرها . وحاملها . والمحمولة إليه . وآكل ثمنها » فارتاع من ذلك وأثرت فيه الموعظة وتمكنت من قلبه ورجع إلى نفسه فقال : « أنا داخل في وعيد هذا الحديث من وجوه — وكأنه نزل

[ 105 . ب ]

الإذن في هذه الأشياء منزلة فعلها . وصمّم على إبطال بيعها وعصرها وجلبها من بلاد الكفر . وهدّم حاناتها وترك المال المأخوذ من لزمتهما وقدره . إذ ذاك سبعون ألف ريال في السنة ، وشاور في ذلك خواصه من الفقهاء والوزراء فوافقه عليه موافقون وخالفه مخالفون . فلم يُصنع إليهم وأرسل إلى الحانات فأخرج النصارى منها وأغلقها وأخذ مفاتيحها ، ورسم — أيده الله تعالى — باقمة الحدّ على من أخذ سكرانا وبتنكيل من عشر عليه يبيعها أو يعصرها . والمبالغة في تعنيفه بحسب ما يقتضيه الاجتهاد . ثم هدم تلك الحانات كلها وبنى في أماكنها بنايات عظيمة صرفها في وجوه من وجوه الخير كما تقدّم . فنباشر الناس بذلك وعظم السرور لديهم . وكثر الثناء عليه والذكر الجميل ، والابتهال إلى الله تعالى بالدعاء له . ولهيج الناس بنشر هذه المنقبة وتحدثوا بها . وسارت بها الركبان إلى قاصي البلاد وانتشر له بها صيتٌ عظيم في الآفاق . وارتفعت — بحمد الله تعالى — مفاسد كثيرة تحدثت من ذلك . منها أنه لا يزال في كل وقت تُسفك الدماء في الحانات . ويقتل السكارى بعضهم بعضاً خصوصاً أيام العيد . ولا يزال السكارى من الجند وغيرهم في الطرقات يروعون الناس بإشهار السيوف والتعرّض للحرم والصبيان بكل قبيح ، وأحسنهم حالاً من يقتصر على مجرد العريضة ورفع الصوت بالغناء على رؤوس الإشهاد . وترى أكثر من يتعاطى شربها فقراء لا يملكون شيئاً . وكلّما دخل في أيديهم شيء من الدراهم صرفوه في شربها . وربما ورث الواحد منهم الأموال الجليّة من العقارات وغيرها فيستهلكها في أقرب مدة . وبالجملة فشرب الخمر رأس كل خطيئة فرفع الله ذلك كلّه بسعادة هذا الملك الجليل الذي أنعم الله تعالى به على هذه البلاد في هذا الزمان السوء الذي صار المعروف فيه منكراً .

ومن سعادته — أدامها الله تعالى — أنه لم يقع من أحد من الجند من الأثراك وغيرهم إنكار بل أذعنوا لذلك كلهم . وقبلوه وأظهروا الفرح / والابتهاج به . حتى أن طائفة العشية وهم المشهورون بالشطارة والدعارة والمجون ، عثروا على واحد منهم سكرانا بالليل فأخذوه وأتوا به من الغد إلى مولانا — أعزه



الله تعالى — وقالوا أتيناك به لتعاقبه على عدم امتثاله لأمر السلطان وانتهاكه للحرمة ! فشكروهم على ذلك وأحسن إليهم وقال لهم : أسامحه هذه المرة تطيبها لخواطركم — وكأنه لم يجز شهادتهم عليه بالشرب فلم يضربه الحد — وما ذاك إلا أن قيامه في هذه القضية كان لله تعالى بنية صادقة فعامله الله تعالى بنيته . وكفاه غائلة ما كان يَخْشَى من عاقبة هذه الأمور وبسط الله سبحانه وتعالى ألسن الناس بالدعاء له ، والثناء عليه . والمدائح العظيمة فلم يبق شاعر ولا ناثر إلا مدحه وأكثروا من عمل القصائد والمقامات « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ . وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » (1) ونحن نورد من ذلك في كتابنا هذا ما وقع عليه الاختيار .

فمن ذلك قولي . وهي مقامة بديعة تشتمل على قصيدة فريدة :

«حكى أبو الفتح نصر بن الفلاح قال : ما زلت مذ نيطت عليّ تئامي . ومن قبل أن تنشق عني كمائمي (2) ، أهيم بالأدب هيام جَمِيلٍ بِبَيْثِيهِ (3) وأستديم رواية أخباره عن كل جُهِينَةٍ (4) . وأستمطر نوأه من كل مَزِينَةٍ (5) وما انفكيت (6) مذ كنت يَفْعَةً (7) ، ذا همة مرتفعة . لا أستم إلا العالي ، ولا أستم إلا العالي (8) فحداني ذلك للتطواف في الآفاق . والتجوال مع الرفاق . لأقتنص الأدب من مكامنه . وأستخرج الدُر من معادنه . ولم

(1) القرآن سورة فاطر الآية 32.

(2) التئمة : ما يعلق على الصبي خفية العين . والكمامة بالكسر : غشاء الزهر : وكنتي بهما عن الطفولة الباكرة.

(3) جميل بن معمر العذري من عشاق العرب الاعفاء . أخباره في غالب دواوين الأدب.

(4) جهينة بن زيد القضاعي : أبو قبيلة يضرب بها المثل في تنطس الأخبار (وعند جهينة الخبر اليقين) انظر الميداني 2 : 464.

(5) الاستمطار : سؤال المطر . ومزينة تصغير مزلة بضم فسكون : المطرة.

(6) كذا في جميع النسخ وصوابه : انفككت لأنه فعل ماضٍ صحيح اتصل به ضمير رفع بارز فوجب فك ادماغه . قال ابن مالك :

وفك حيث مدغم فيه سكن لكونه بمضمرة الرفع اقتصر

نحو حلت الخ . وعملية الفك تعني إرجاع الحرفين المدغمين المتماثلين إلى أصلهما بدون اعلال . وهو أمر يغلط فيه كثير من الكتاب أنسياقا مع العامة.

(7) علام يفع ويفعة بفحتين : مترعرع.

(8) الاستياف : الغلاة بالسلعة . والاستياف أصله شم التراب لمعرفة الطرق السلوكية في الفلوات ، واشتقت منه المسافة للابعد . هذا مقتضى اللغة ، ولعله يريد أنه يبعد في طلب العالي.

يصدني ما قيل : إن الأدب قد غيض ثماده (1) . وقوضت عماده . ودثر ، فلا عين له ولا أثر . واندرس . فلا حس له ولا نفَس ، علماً مني بأن في الزوايا خبايا . وفي المزايا بقايا . فشمرت ذبلا . وادّرت ليلًا . واقتعدت مطيتي ، وذهبت لطيتي (2) . أجوب كل أقتم طامس (3) وأجول بكل أعتم دامس (4) كأنني — وأنا لا آتي مكانا إلا أدّعه — (موكل بفضاء الأرض أذرعه) (5) وخيّل لي أن التوى في التوى (6) ، فرافقت كل بعيد المتوى . وفارقت حتى لا أبالي من التوى ، وفي خلال ذلك التقط الدرة بعد الدرة . وأجمع الشذرة إلى الشذرة ، وأحاضر كل نِقَابِ أَلَمَعِي (7) . وأذاكر كل حَبْرٍ ما حكاه الأَصْمَعِي (8) ، حتى جئت بالضح والريح (9) ، والمتجر الربيع . وعدت مملوء الوطاب . بكل ما عذب وطاب ، لا يشق غباري . ولا يجري في مِضْمَارِي . أشهر من فارس الأبلق (10) . وأظهر من نار المحلق (11) . بحرًا لا يغاض ثَبَجُهُ . ولا تُخَاض لُجَجُهُ ، فطمحت هِمَّتِي العليا — ولا مطمح لها دون الغاية القصوى — إلى ملك / تنفق عنده الفضائل بعد كسادها . وتصلح به الأشياء بعد فسادها . حضرته مطلع الشَّمْس . ومطمح النفوس : ومسرح للآمال ، ومشروع للإفضال . لأعيش في كنفه . ويستريح قلبي من كُلفِهِ . وأكون قد لجأت إلى أعزّ الدول . أقلب الطرف بين الخيّل والخول . ولم يكن فيمن رأيت من الملوك . أيام السلوك . إلا من لا يعرف الحو من اللو (12) ،

(1) غيض : غار . ثمد بالكسر جمع ثمد : ماء قليل لا مادة له .

(2) الطية بالكسر : تكون منزلا وممتلئ وممتلئ .

(3) غبار كثيف .

(4) ليل مظلم .

(5) تضمين من قصيدة ابن زريق المعروفة (لا تعذليه فإن العذل يولعه) .

(6) الهلاك في الإقامة .

(7) النقاب بالكسر والتخفيف : العالم بالادور والالهي الذكي .

(8) رواية مكرر معروف .

(9) الضح بالكسر : الشمس وهو مثل « جاء بالضح والريح » أي ما طلعت عليه الشمس وأتت عليه الريح . انظر الميداني 1 : 168 .

(10) مثل . أو هو « أشهر من الفرس الأبلق » . انظر الميداني 1 : 392 .

(11) مثل منترغ من قول الأعشى : « وبات على الدنى والملحق » انظر ديوانه 120 .

(12) الحق من الباطل : الميداني 2 : 240 .



ولا يذرف نجمه بنو . فلم أزل تكدفني البلاد . وتطويني الأغوار وتنشروني  
 السجاد . ولا أجد نافخ ضربة . يهتر لمكرمة . إلى أن أسفرت بعض سفراتي  
 الزاهرة . عن وجه مصر القاهرة . فدخلتها صكة عُمي . (1) قبل أن  
 ينيء الي (2) . فألجأني الحر إلى جوار تكيّة . حول الأزبكية . فتولّيتُ  
 إلى ظله تولى الكلّيم بمدّين (3) . وحالي بالشكاية من لساني أبين . وقد كان  
 النيل جرى بالوفاء على أحسن عادة . ووافي بالحسنى وزيادة . فأحيى موات  
 الأرض بوروده . وحيى الروض برياحينه ووروده . ومضت منه ثغور الأزهار  
 ريتاً حالياً . ونصت به عرائس الهضاب جيداً حالياً (4) . وتذبجت الرّبي  
 وتلونت . (وأخذت الأرض زُخرفها وأزْيَنَتْ) . واستنارت وجوه  
 الرباع والمعال . واستدارت البرك كالدرهم . فبقيت في ظل ذلك القصر .  
 إلى أن صليت العصر . فإذا بلمعة من الأعيان . وجملة من الإخوان . تلوح  
 عليهم مخايل المجد . وتنوح منهم روائح العنبر والند . قاصدين قصراً  
 تجاهي . لبروج الفلك يباهي . فقامت لهم مائلا . ودخلت فيهم واغلا .  
 فقالوا : أخوك أم الذيب ؟ (5) . فقلت غريب . ليس به ما يريب . فقالوا :  
 بالرحب والسعة . والخفض والدّعة . فلما استقرّ بنا المجلس . وما منهم إلا  
 من شمع له في المجد معطّيس . وأخذوا في غضون المجادنة . وفنون المباحثة .  
 توسّمت الجماعة باللاحاظ . توسّمت العرفاء بعكاظ (6) . فإذا بينهم فتى هو  
 أملحهم إشارة . وأفصحهم عبارة . إلا أنه مخالف لهم في المنطق واللّبس .  
 فحدث أنه غريب بلا لبس . فقلت لمن يليني : من هذا الرجل المؤنس ؟

(1) الصكة : شدة الهاجرة . وعمى مصغر مرخم : رجل من عدوان يغمر في الدراج . فضررت به المثل  
 في الطروق عند الهجرة انظر الميداني 7 : 154 .

(2) ينيء : يرجع والقيء : ما انصرف عنه الشمس وتولّى فيه الظل .

(3) إشارة إلى قصة موسى في سورة القصص الآية 24 : (فسمى لهما ثم تولى إلى الظل) .

(4) الرّيق بالتشديد : أول السقي . والحال الأول : من الخلاوة والثاني من الحلي .

(5) مثل في الشك . انظر الميداني 1 : 52 .

(6) التوسم : التفرس والتعرف . والإشارة إلى بيت طريف بن تمام العنبري :

أو كلما وردت عكاظ فيلجأ بعينها إلى تحننهم يتوسم

انظره في المسند من شرح شواهد اللغويين 71 .

فقال : مغربي من تونس . فقلت : أعلى الله منارها . ورفع مقدارها .  
 فما زلت أسمع عن أهلها ما يشنف الأسماع . من حسن العشرة ورقة الطباع .  
 ثم انجرت بهم الحديث إلى وصف الموضع . وما فيه من لذة ومستمتع .  
 والشمس كادت تنحط عن ارتفاعها . وقد ذهبّت البركة بشعاعها . وخط  
 فيها قلم التسيم المنبري . سطورا مثل الشكل المنبري . ففكر ذلك  
 الفتى ريشما تنداح دائرة . وأنشد فترك الألباب حائرة . فقال :

لله مجلسنا الأنيقُ عشيّة بالازبكية في أجلّ فناء  
 / في عليّة يتدفقون — كمائها — كرمًا ويلتهبون فرطًا ذكاء  
 ما شئت من أدب جني مثلما انشَقَّ الكمام وهمّة علياء  
 من كلّ ذي وجه أغرّ واضح كالبدر قد ملأ الفضا بضياء  
 حيث انتظمتنا حول شاطئ بركة غنيت بنيل النيل عن أنواء  
 والشمس قد ألت شعاها وسطها وخلّت جوانبها من الأضواء  
 فترى بياض الماء في جنباتها كأس اللجين يحيط بالصهباء  
 كالأقحوانة إذ غدت أطرافها بيضا تحف بهالة صفراء  
 يا حسن هذا منظرا . وكأنما القنجات (3) خيلان بخد الماء  
 أو أنجم كسفت بطن مجرة سيارّة . ما سيرها بسواء  
 حتى إذا وقفت فكل صورة (2) منقوشة بزجاجة بيضاء  
 وتحل طي قلوعتها في سيرها طيرا (3) فتغدو قيد عين الرائي  
 مثل العقاب له جناح أبيض قد مرّ يهوي في سطوح هواء  
 وترى رؤوس الدّوح طافية بها والماء يستر سوقها بغطاء  
 فكأنها طغرا بني عثمان قد رُسِمَت بصفحة مهرق زهراء  
 حتى إذا ما اللّيل ألقى عنبرا فيها وذُرّت مسكة الظلّماء  
 وغدا خيالُ البدر معكوسا بها فترى سماء قوبلتُ بسماء

(1) إذا في جميع النسخ . ولا وجود لهذه المادة في العربية . وكان المراد بها زوارق كانت تسمى  
 بذلك لأن الأوصاف الآتية بعدها مؤذنة بهذا .

(2) في : بأكمل صورة .

(3) في : طسورا .



فَمَا أَحَدٌ مِنَ الْجَمَاعَةِ إِلَّا اسْتَحْسَنَهُ . وَكَتَبَهُ عَنْهُ وَدَوَّنَهُ . ثُمَّ كَانَهُمْ دَاخِلَهُمُ الْحَسَدُ . الَّذِي لَمْ يَخْلُ مِنْهُ — إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ — جَسَدًا . فَقَالُوا لَهُ : هَلْ فِي بَلَدِكَ «تُونِس» ، الَّتِي تَزْعَمُ أَنَّهَا لَمْ أَتَاهَا تُونِس . مِثْلُ هَذَا الْمَنْظَرِ الرَّائِقِ . أَوْ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا الطَّرَازِ الْفَائِقِ ؟ فَقَالَ : يَا عُدْدِي وَعِمَادِي . وَطَرِيفِي مِنَ النَّاسِ وَتِلَادِي . مَا لَكُمْ وَلِبْلَادِي ؟ إِنِّي لَأَتَأَدَّبُ مَعَكُمْ . وَأَتَنْهَيْبُ أَنْ أَرَاكُمْ . لِيَمَّا قَلَّدْتُمُونِي مِنْ إِحْسَانِكُمْ . وَطَوَّقْتُمُونِي مِنْ امْتِنَانِكُمْ . وَلَكِنْ حَيْثُ ذَكَرْتُمْ مَسْقَطَ رَأْسِي . وَمَحَلَّ إِيْنَاسِي . فَلَا بَدَّ مِنَ الْمَدَافِعَةِ . وَلَوْ أَدَّتْ إِلَى الْمَرَاغَةِ . وَأَنْ أُحْتَجَّ لِبَلَدِي مَنَقُولًا وَمَعْقُولًا ، (وَالْفَحْلُ يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقُولًا) (1) ثُمَّ شَرَعَ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ . وَتَبْيِينِ الْمَحْجَّةِ . فِي تَفْضِيلِ بَلَدِهِ عَلَى بَلَدِهِمْ . وَتَمْيِيزِ غَمَارِهِ مِنْ ثَمَدِهِمْ . حَتَّى يَهْرَهُمْ بَيَانَهُ . وَقَهْرَهُمْ بِبِرْهَانِهِ . فَاضْطَرَبُوا وَمَادُوا . وَسَلَمُوا أَوْ كَادُوا . فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أُخْرِيَّاتِ الْمَجْلِسِ . كَأَنَّهُ ذُئْبٌ أَطْلَسَ : وَقَدْ كَانَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ . (وَأِنَّمَا / الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ) (2) — فَقَالَ : أَيُّ فَضِيلَةٍ لِبَلَدِ تَبَاعٍ بِهَا الْخُمُورُ . وَيُشَاعُ فِي شَرْبِهَا بِالْفُجُورِ . وَتُشَادُّ بِهَا الْحَانَاتُ وَالْدَسَاكِرُ (3) . إِشَادَةُ رِبَاطَاتِ الْعَسَاكِرِ ؟ فَأَطْرَقَ الْفَتَى وَاجِمًا . وَكَادَ أَنْ يَنْهَلَ دَمْعَهُ سَاجِمًا . وَتَصَبَّبَ عِرْقًا . وَتَنَفَّسَ حَرَقًا ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ خَجَلَةُ الْإِنْكَسَارِ . وَأَخَذَتْهُ قَشْعَرِيرَةٌ وَاصْفَرَّارٌ . ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ . وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ . وَقَالَ : أَمَّا هَذَا فَنَعَمْ ، عَلَى أَنْ الْبَلَاءُ قَدْ عَمَّ ! فَلَقَدْ رَأَيْتُ بِمَكَّةَ — شَرَفَهَا اللَّهُ تَعَالَى — مَا تَصَدَّعَتْ لَهُ كَبْدِي . قَرِيبًا مِمَّا ذَكَرْتُمْ فِي بَلَدِي ! وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي مَنْ لَا أَتَهَمُهُ أَيَّامَ كُنَّا نَزُولًا عَلَى مَنَى . حَيْثُ يَرْجِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَلُوغَ الْمَنَى . أَنْ يَتَلَكَ النَّاحِيَةَ — وَأَشَارَ إِلَى نَاحِيَةِ مَسْجِدِ الْخَيْفِ . حَيْثُ يُعَفُّ حَتَّى عَنْ الطَّيْفِ — قَوْمًا عَاكِفِينَ عَنِ الْعُقَارِ . قَدْ اسْتَغْلَوْا بِهَا عَنْ رَمِي الْجِمَارِ . فَتَوَقَّعْتَ وَاللَّهِ مَعَاجِلَةَ الْعَذَابِ ، [لَوْلَا النَّبِيُّ الْأَوَّابُ] ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ لَا يَعْجَلُ .

- (1) مِثْلُ لِلدَّفَاعِ عَنِ الْحَرَمَاتِ وَلَوْ مَعَ عِلَّةٍ . انْظُرِ الْمِيدَانِي 2 : 18 . وَالشُّوْلُ : النَّوْقُ الْمُنْهَيْتَةُ لِلْحَمَلِ .  
(2) هُوَ مِثْلُ فِي الْمِيدَانِي 2 : 250 .  
(3) الدَّسْكِرَةُ : بَيْتُ الشَّرَابِ وَالْمَلَامَى .

بَلْ يَمْلِكُ لِإِطْلَاقِ وَيَسْهَلُ . وَعَهْدِي بِمَلِكِنَا — أَيْدِي اللَّهِ تَعَالَى وَنَصْرُهُ . وَأَيُّقُظُهُ لِلصَّالِحَاتِ وَبَصْرُهُ . وَكَمَا مَتَّعَ الْخَلْقَ بِلِقَائِهِ . يُمَتِّعُهُمْ بِبِقَائِهِ عَاضِدًا لِلدَّيْنِ . خَاضِدًا لِلْمَعْتَدِينَ — قَدْ أَحْيَا مِنَ السَّنَةِ غَامِرًا . وَأَعَادَ رُبْعَهَا غَامِرًا ، وَأَنْشَرَ مِنْهَا رُفَاتًا . وَأَغْنَى مِنْ طَالِبِهَا عِفَاءً . مَا خَرَجَ عَنْ مَضْمَارِ الشَّرِيعَةِ ، وَلَا رَعَى غَيْرَ رِيَاضِهَا الْمَرِيعَةِ . إِلَّا أَنَّهُ — أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى — حَلَبَ الدَّهْرَ شَطْرِيهِ (1) ، وَبَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ أَطُورِيهِ (2) . فَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِالْأُمُورِ لِأَوْقَاتِهَا ، وَيَجْلِيهَا لِمَقَاتِهَا . وَكَأَنِّي بِهِ قَدْ حَسَمَ الْمَادَّةَ . وَرَسَمَ بِسُلُوكِ الْجَادَةِ ، وَغَيَّضَ مِنَ الْخَمْرِ مَعِينَهَا . وَقَيَّضَ لِلنِّكَالِ قَطِينَهَا . وَأَعَادَ مُنْكَرَهَا مَعْرُوفًا . وَنَكَّدَ الْقُلُوبَ بِهَا مَصْرُوفًا . وَلَا تَمْضِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا سَنَةٌ ، حَتَّى يَبْدُلَ اللَّهُ هَذِهِ السَّيِّئَةَ حَسَنَةً . فَتَصِيرُ الصُّدُورُ مَثْلُوجَةً ، وَالْأُمُورُ سُلُوكِيً وَليستُ بِمَخْلُوجِهِ (3) ، فَلِكُلِّ فُسَادٍ جَبَرٌ . وَالْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ (4) ، ثُمَّ أَخَذَ يَصِفُ الْمَلِكَ بِبِدَائِعِ اطَّلَعَهَا شَمُوسًا وَأَقْمَارًا . وَرَوَائِعِ أَدَارَهَا عَلَى الْأَذْهَانِ عَقَارًا . لَمْ يَقْلُهَا زَهِيرٌ لَهْرَمِ ابْنِ سِنَانٍ . وَلَا نَابِغَةٌ بَنِي ذُبْيَانَ لِلنُّعْمَانِ . وَلَا حَسَّانٌ لِسِرَاةِ غَسَّانٍ (5) — فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنْ صَدَقَ صَاحِبِي . وَفَقَدْ أَنْجَحَتْ مَطَالِبِي . وَفِي النَّوَى يَكْذِبُكَ الصَّادِقُ (6) — فَالْتَفَتُ إِلَيَّ . التَّفَاتُ وَاجِدٌ عَلَيَّ . وَقَدْ تَوَجَّسَ . مَا بِخَاطِرِي هَجَسَ ، وَقَالَ : «وَالشَّفَقُ . وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقُ ، وَالْقَمَرُ إِذَا اتَّسَقُ» ، إِنْ مَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ الْحَقَّ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْكُذْبِ بُونٌ . وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحُورِ بَعْدَ الْكُورِ (7) . ثُمَّ انْفَضَّ

- (1) مِثْلُ مُسْتَعَارٍ مِنْ : حَلَبِ اشْطَرِ النَّاقَةِ خَلْفَيْنِ فَخَلْفَيْنِ انْظُرِ الْمِيدَانِي 1 : 204 ، وَالْمُرَادُ بِشَطْرِيهِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ بِمَعْنَى عَرَفَهُمَا وَجَرِيَهُمَا .  
(2) مِثْلُ أَيْضًا أَيْ حَدِيدِهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ انْظُرِ الْمِيدَانِي 1 : 99 .  
(3) مِثْلُ أَيْضًا وَالسُّلُوكِي : الطَّعْنَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ النَّافِذَةُ وَالْمَخْلُوجَةُ الْمَعْوُجَةُ . انْظُرِ الْمِيدَانِي 1 : 36 .  
(4) مِثْلُ مَعْرُوفٍ لَامَرِي الْقَيْسِ انْظُرْهُ فِي الْمِيدَانِي 2 : 382 .  
(5) ضَرْبُ الْمَثَلِ بِأَشْهَرِ الْمَدَاحِينَ وَالْمَمْدُوحِينَ فِي الْعَرَبِ ، وَحَوَالِيَاتِ زَهِيرٍ فِي هَرَمٍ وَاعْتِدَارَاتِ النَّابِغَةِ الْمُنْعَمَانِ وَمَطْوَلَاتِ حَسَّانٍ فِي الْحَارِثِ ابْنِ أَبِي شَمْرٍ وَبَنِيهِ أَهَمُّ مَا فِي دَوَائِيقِ هُؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ .  
(6) مِثْلُ مُورَدِهِ فِي الْمِيدَانِي 1 : 483 . وَأَصْلُهُ : عِنْدَ النَّوَى الْخُ وَيَضْرِبُ — كَمَا قَالَ الْمِيدَانِي — لِلْمُصَدِّقِ بِحَاجِ أَنْ يَكْذِبَ ، يَعْنِي فِي حَالَةِ الْبَعْدِ وَالْإِنْقِطَاعِ ، وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ الرَّأْيَةَ شَكَّ فِي انْجَاحِ مَطَالِبِهِ لِأَنَّ الْمَخْبِرَ حَالَ النَّوَى رَبِّمَا مَالٌ مَعَ الْهَوَى فَاحْتَاجَ الْمَخْبِرَ إِلَى التَّكَادُّمِ بِالْقِسْمِ الْآتِي .  
(7) حَدِيثٌ يَرَوَى : بِالْحُورِ بَعْدَ الْكُورِ ، فِيهِ تَفَاسِيرُ أَوْضَحُهَا الرُّجُوعُ عَنِ الْجَمَاعَةِ لِأَنَّ الْحُورَ هُوَ الرُّجُوعُ عَنِ النَّسَبِ أَوْ إِلَيْهِ وَالْكُورُ : الْجَمَاعَةُ ، وَيَرَوَى بَعْدَ الْكُورِ بِالنُّونِ أَيْ الرُّجُوعُ إِلَى النُّقْصِ بَعْدَ الْكَمَالِ وَكَلَّا الرُّوَايَتَيْنِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، ذَكَرَهُ عِيَّاضٌ فِي الْمَشَارِقِ 1 : 215 — 349 وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الْمُؤَلِّفُ الرُّوَايَةَ الثَّانِيَةَ لِلتَّسْجَعِ .



الموكب . فانقضت عليّ انقضاض الكوكب . وقال لي : الصحبة الصحبة .  
فقد جمعت بيننا الغربية . وبيننا من الأدب . أؤكد نسب . وشبه الشبيء  
إليه منجذب . فكنت عند ظنه . ومضيت معه إلى كنه . فبتنا نجتلي دُرَر  
الكلام . ونشقّ على أزهارها الكيمام . بليلة تنفح / بالمني أطيب نفح . ما  
باتها الشريف الرضي بالسفح (1) . وكلّما انشرح . وأبدى الفرح .  
استطلعت طليعة الخبر . عن الملك الأغر . فيخبرني أنه منذ ملكهم .  
وأدار فلّكهم . صار الأمر إلى الوزعة (2) — وصار الرمي إلى النزعة (3) —  
فأقول في نفسي : فاز قدحي (4) . وبان ربّحي . وفي أثناء ذلك ما أكثر  
التلهف . وأظهر التأسف . تشوقاً لوطنه . وتشوقاً لسكنه . وأبدى لي عن  
إطرابه (5) . لمفارقة أترابه . ولما اقتضى السحر . انقضاء السمر . أعلمني  
أنه على جناح سفر . وأنشدني مستروحاً من غمته . شعرا يدل على بعد همته :

تقول لي ناقتي والشوق يزعجها      وما شددت لها رحلاً ولا قتباً  
أمّ المغارب إما رُمّت نيل علاً      أما ترى كل نجم طالع غرباً  
سأركب الصّعب اسميه الذلول ولا      أقيم حيث فؤادي ممّتل كرباً  
وسوف يعرفني من كان يجهلني      إلّا يكن رغباً منه يكن رهباً

ولما تبلّح الفلق . وتأرج عرّفه المنتشق . ودّعته بعد أن حلّت له  
العكوم (6) وأطلعت على السر المكتوم . وأعلمته أني ناحٍ نحوه . ومحتد  
حدوه . في قصد تونس الخضراء . والإقامة بعقدة ملكها الزهراء . وأن  
لا أطيل بعده المقام . وفارقه عليه السلام . وبعد برهة . خرجت مع جماعة

(1) إشارة لطيفة إلى فصيدة الشريف الرضي :

يا ليلة السفح الأعدت نائية      سقى زمانك هطال من القديم

وهي في ديوانه 2 : 722 .

(2) الوزعة بفتحات : الولة المانعون من محارم الله . انظر الميداني 1 : 410 .

(3) النزعة محرّكة : الرماة : عاد السهم إلى النزعة : راجع الميداني 1 : 470 .

(4) القدح بكسر فسكون : سهم الميسر يقرع به .

(5) أصل الطرب في الفرح . والحزن ضد .

(6) جمع عكم بالكسر : حزمة المتاع .

لنزهة . فما زلنا نستقرئ القرى . ونستمرئ القرى . إلى أن عنّا رأينا  
رشيد . في قصد رشيد (1) . فأتيت مرّسأها . فسمعت قائلاً يقول : «بِسْمِ  
الله مُجْرأها ومُرْسأها» . فنظرت فإذا صاحبني المغربي وقد ركب نقيرتَه .  
ورفع عقيرته . يقول :

هل لقلبي عن الجوى من سراح ؟      أم لجسمي عن النوى من برّاح ؟  
عركتني نوائب الدهر حتّى      تركتني مثقلاً بالجراح  
نامي الداء . نائي الدار . مرتاعاً      من البين . لست بالمرتاح  
عازماً أن أطير نحو فراخي      بشراع يهوي هُويّ الجناح  
عزم الله لي ويسر أمري .      وكلاني . وخار لي بالنجاح

فقلت : سمع الله صراخك . وبلغك فراخك . فالتفت إليّ لفظة مرتاح  
وقال لي : هذه مقدمة النجاح . مرحباً بك يا أبا الفتح . لقد أيقنت لما  
رأيتك بالنجاح . وقد كنت متخوفاً من هذا القم . فقد بلغني أنه كاشر  
غير مبتسم . فاغر ينظر ما يلتقم . فقلت له : سر فسيلقاك بالبشر . وتصل  
منه سالماً إلى الثغر . لاجعلك الله له طعّمة . وأتم عليك بالسلامة النعمة .

فقال لي / : أنجز حرّ ما وعد . لا طول الله بيننا شقة البعد . ولا جعله منك [108 - ب]  
آخر العهد . ثم انفصل . وبعد مدة نما الخبر واتصل . بأنه في بلاده  
حصل . وجئت بعده في الآفاق جولة . أنتقل من دولة إلى دولة . والشوق  
يحثني إلى الخضراء . والقدر يقول لي : هي مستقرّك من الغبراء . حتى  
حسرت عن ساعد العزم . وأخذت في قصدها بالحزم . فدخلتها ضحى .  
يوم الإضحى . والناس قد انصرفوا من صلاتهم . ورجعوا من ربهم  
بصلاتهم . ووجوههم مُسْفرة . ضاحكة مستبشرة . بيزة (2) كأجنحة  
الطواويس . وهزة كحداء العيس . عليهم الحبور والخبر . وما خاطه

(1) بلد بحري بمصر .

(2) بالاصل وعمره : نيسره . والاصلاح من بيرم الرابع .



البرور والإبر . فجعلت أستقصي الخير . وأقتصر الأثر . عن سبب نشاطهم . وموجب انبساطهم . فكلّما مررت بنادي . أو أصحّحت لمنادي . لم أسمع إلاّ من أهلّ بالدعاء وعجّ . كما لبّى المحرمون بالحجّ . يدعون لأمرهم . ويذكرون حسن أثره في تدبيرهم . إلى أن أداني الطّواف ، والنّهار على الانصراف . إلى نادٍ أزهر ، به كل وجه يبهر . وقد عقدوا الحبّ ، كما رست الرّبا . فلم أشعر إلاّ برفيقي المعلوم ، قد خرج من بهرّة القوم . كأنما أنشط من عقال . فحيّى بأحسن مقال . وقال : مرحباً بابن أنسي . وشقيق نفسي . البيت البيت . يا معمول ليت (1) . فذهبت معه . حتى أتينا مربّعه . فأحسنّ مثواي . وأكرم نرلي ومأواي . وما زال يؤنّسني بغرائب أخباره . ورقائق أشعاره . إلى أن لذّ السّمر . وطاب الحديث وطال السّهر . فقلت له : هات الآن نبّئني بالأمر من أصولها . وعرفني الحقيقة بأجناسها وفصولها . وأفضّ إليّ بشعورك . ولا تخف شيئاً مما في تامورك (2) . وبمن نقيبتك ، انثّل ما في حقيقتك . وحدثني عن الملك الأجل . بكل ما دقّ وجلّ . من حسن سيرته . فقال لي : إنّ حصر مكرماته . واستقصاء كراماته . يعد إطناب الكلام فيه هدرا . ويذهب فصيح القول فيه هدراً . فإنّ من رام حصرَ رمال الدهناء ، وتعدادَ نجوم السماء . كان كمن طلب الأبلق العقوق . وما هو أعز عن بيض الأنوق (3) . ولكن أخبرك بجملّة تدرّجك إلى التفصيل . ولمحة يتضح لك منها السّبيل . اعلم أن هذا الملك وهو السيّد المنصور المؤيد . أبو الحسن الباشا علي باي بن المرحوم المقدس المنعم . المعظم المفخّم . حسين باي ابن علي — بلغ الله به أكلاً العمر (4) . وكما جعله زينة للسّيَر . يجعله آمناً من الغيَر — ملكٌ نظم المعالي بعد شتاتها . وأحيى المكارم بعد ممّاتها . وألبس الدّنيا بزة عِزّة . فهني تختال بين اهتزاز

(1) ليت للتمنى ومعملها هو التمنى كما هو ظاهر.

(2) قلبك.

(3) كلاهما مثل . والعقوق الخائل من النوق والبلق من صفات الذكور . والأنوق : العقاب ونحوه يحرز بيضه في رؤوس القلل انظر الميداني 1 : 505 .

(4) أي أطولاه وهو مثل أيضاً راجع الميداني 1 : 110 .

وهزّة . أجاد الأعمال . وأجاب الآمال . وأوقر الأحمال . من المال ، أصبح الدّين في إبالته منشراحاً . وبدولته فرحاً . / لياليه غرة في دُهمة الدّهر . وأيامه كلها ربيع وزهر . وحضرته جنة وارفة الظلال . وجنة واقية من الضلال . ما خلت يوماً من وفد . ينصرف برقد ، ولا تعطلت من مآثر . كدّر متناثر . طافت بها الآمال وحجّت . وشكت من تبديدها الأموال وعجّت . ونفقت فيها أقدار العلماء ورآجت . فعرّجت عليها الهمم من كل صوب وعآجت . فاجتمعت بها الأمجاد والأنجاد . والغور والأنجاد . فلا تخلو من مناظرة . أو مذاكرة أو محاضرة ، أو فصل قضا ، بسيف عدل منتضى . أو إجابة نداء . أو بدّل ندى ، إلى كرم . كألغيث المنسجم . ومضا . كالسيف المنتضى . وسجايا . كلّها مزايا . وأخلاق . هي نفائس الأعلاق . وشيم . أسح من الدّيم . وصباحة . ورجاحة . وديانة . قامت بحمل الأمانة . وعفاف . كالمُحرّمين في الطّواف ، ومعارف . وإسداء عوارف . وفكّ للعاني . وكفّ عن الجاني . وثبّات ، عند الوثبّات . واحتمال . واحتواء على الفضل واشتمال . إن ركب ، نزل عمرو بن معد كَرِبُ . أو أقدم . تأخّر عنترة وأحجم . أو صال . قطع الأوصال . وإن افتخر ألقى عرابة الرّاية . ولم يدع الكماة من بني عبس بلوغ الغاية . لو شهد جفّر الهبّاءة . لم يرجع قيس بن حمل وحذيفة بهبّاءة . ولو جاوره كليب لبقيسي أعزّ الناس . ولم يتجاسر على الفتك به جسّاس . ولو دخل مهلهل ذمامه . لما قرّب الحارث بن عباد مربوط النعامة (1) . ولما قدر عمرو بن ضبيعة (2) . أن يضيّعه . ولما أقسم أن لا يذوق الشّراب . حتى يرد زنيب الهضاب . ناهيك به من ملك يجير على الأيام . ويحمي من الحِمَام . عنايته تشفي الكُرب . وعطيته تنفي الحرب ، لا تفرع له العصا . ولا ينبّه بطرق الحصا . (3) ولا يُقَعّق له بالشّنان (4) .

(1) هذه الشخصيات المذكورة في حربي داحس والغبراء والبسوس وهي من أشهر أيام العرب التي تضرب بها الأمثال.

(2) شاعر حماسي قتلته الحجاج سنة 711/83 .

(3) مثلاً . راجع الميداني 2 : 102 .

(4) مثل مشهور به 2 : 215 . والشّنان : القرب البالية يعركونها لجزر الأبل.



ولا يرهّب له جنان . ولا ملك إلاّ شعر قلبه منه خوف . ولا حرّ بوادي عوف (1) . كم من مال أفنى . وعائلة أغنى . وكم أفاد . وأباد . وحبا . وجبى . وأقال . وأنال . أذال الماء بعد عزته في البلاد . وأروى منه عطش الأكباد . فأصبح نسميره السلسيل . سائلا في الطرقات وابن سبيل . وكلّما قطع الطريق سائل نهر نهره . وذلّله للسالكين وقهره . وحين رأى السابلة إلى عبوره مفتقره . أنفق عليه الأموال الكثيرة فصار ذا قناطير ممتطّره . أما صدقاته الجارية . السارية السارية . فالسيول والأمطار . والأمواج والبحار . رتبها ترتيبا . وبوبها تبويبا . من كسى . وحسا . ودرهم ودينار . ورداء وإزار :

وجفان كالجوابي      وقدور راسيات  
/ صدقات كم ألانت      من قلوب قاسيات  
رجعت منها نفوس      لعداه خاسيات  
وجياع عاريات      طاعيمات كاسيات

[1 - ب]

وأما المأثرة التي تأكل المآثر أكلا . وتكبر عن أن تجيد لها نظيرا وشكلا ، فهي تعطيل الآثام . وإراقة المدام . بعد أن شقيت بها القلوب دهورا وأعصارا . وهبت على الناس ريحها إعصارا . وجرت إلى فساد عظيم . وبلاء عميم . في الحال (2) والمال . والحال والمآل . كم أراقت من دما ، وأعادت ذا اليسار معدما . وهدمت من حصون . وبذلت من مصون ، إلى غير ذلك من مفاسدها الخبيثة . القديمة والحديثة . فقيّض الله تعالى لها من هذه الحضرة العلية . التقية النقية . الزكية الذكية . المحتاطة للأمة . الكاشفة للغمّة . ما اجتثها عن أصلها . وحال دون وصلها . وطهر البلاد من مدمنيهما الفجرة . (فهل ترى لهم من باقية) (3) .

(1) عوف بن محلم الشيباني . انظر الميسداني 2 : 187 .

(2) كذا ، ولعل صوابه في الأهل في النفس .

(3) اقتباس من القرآن سورة الحاقة الآية 8 .

وقطع أصواتهم المنكرة . (فلا تسمع فيها لاغية) (1) . فلا كأس ولا مدام . ولا جارية ولا غلام . ولا حانة ولا دسكرة ، ولا قطار ولا معصرة . فانتالت الناس إلى المساجد . ما بين راعٍ وساجد ، وأصلحوا الأقوال والأعمال . وأملوا في ملكهم الآمال . واشتملت عليه القلوب . وزرّت على محبته الجيوب . وعظم في الصدور موقعه . وارتفع فوق السّمك موضع . وهابته الملوك في ديارها . وخافته الجوارح على أوكارها ، فالحمد لله ، ثم الحمد لله . إنه وليّ الشكر والحمد . (ولله الأمر من قبل ومن بعد) (2) . أتذكر يا أبا الفتح عشتينا بالازبكية وكيف جرت عليّ تلك القصة . وما تجرّعت فيها من الغصة . (فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) (3) قال الراوي : فلما نثّل لي كنانته . وعرفني عزّة الملك ومكانته . ازدادت رغبة ونشاطا . وملئت مسرة واغترباطا . وعلمت أن هذا الملك الجليل فردّ جاد به الزّمان على بخله . وقد تعقّم أم المعالي عن مثله . ثم قال لي : يا أبا الفتح إن مدّح هذا الملك أول ذات يدّين (4) . من فروض العين . وقد توافق الشعراء على إنشاد مديحه صبيحة غد بالمسجد . توافق جرير والفرزدق للهجاء بالمربد . وقد مدحته بقصيدة أطلعنها شموسا . وأدرتها على الأسماع كؤوسا . فهل لك أن تحضر المحضر لتكون لي ظهيرا . ومحمداً ونصيرا . فقلت : حبا وكرامة ، يا ليل تهامة (5) . ثم لم نلبث أن ظهرت تباشير الصّباح . وحيل داعي الفلاح (6) . فأدينا الصلاة الوسطى . وقمنا إلى المسجد نتخطى / فوجدنا به فتية أبلج من الدّراري . وأبهج من القمر الساري . على وجوههم سيما الخير ، وكأنما على رؤوسهم الطير . فحلّوا به الحبا . وقالوا مرحبا مرحبا . وأوسعوا

(1) القرآن سورة الغاشية ، الآية 11 .

(2) اقتباس من القرآن سورة الروم الآية 4 .

(3) القرآن سورة فاطر الآية 34 .

(4) أول شئ .

(5) تهامة : ما انخفض من بلاد الحجاز ولبها معادل . وجاء هذا المثل في حديث أم زرع بالمحجرين

زوحى كليل تهامة لا حر ولا قمر ولا مخافة ولا سامة .

(6) مركب من حي على الصلاة أو حي على الفلاح في الآذان .



له عن الصدر . وحفوا به حفّ النجوم بالبدر . فأجلسني إلى جنبه . وأراهم  
أني من حزبه . ثم قال لهم : يا بني الأقوال . ويا أئمة السحر الحلال .  
(الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) . وأجلوا بنات أفكاركم من أبكار وعون (١) ،  
فابتدر الذي عن يمينه . وقام ينشد من حينه . فأصاب غرض الإحسان .  
وأتى بقصيدة أبهى من عقود الجُمان . ثم قام الذي يليه فأنشد قصيدة غراء ،  
ثم قام الثالث وهلمّ جرّاء ، إلى أن بلغت النبوة إليه . فجثا على ركبتيه ،  
وأنشد قصيدة فريدة ترفّ زهرة لمُجتنئها . وتروق غرّة لمجتليها . أبدع  
فيها الإبداع كله . وخلعها على كتف الزمان حلّه . وهي :

عليك نفّضت من جفني منامي  
فديتك . هل ترقّ ولا تُضِيعني  
بجفن لا خفوق له . وقلب  
إذا ما شام برقًا من غمام  
يعاوده ارتياح الشوق حتّى  
ولمّع البرق يشجبي كل قلب  
سقى الزمن الذي قدّ بات فيه  
فأوقد أكوسًا لم تطف إلا  
وحيّانًا بوجه فاض حسنًا  
تنقب والحياء له نقاب  
كأنّ بقيّة الآثار فيه  
تروقك فوق مصقول أسيل  
والحافظ يجول السحر فيها  
إذا ما سدّت منها سهامًا  
كؤوس مدامة . وسيوف حرب .  
أما عهدي به لم يرض شهبًا  
فما بال القلوب عليه طيرًا

(١) العيون جمع عوان : وهي المرأة النصف .

/ وآية الله بدر منير .  
كلّيت به . بماء الحسن تندي  
وبالغت المحبّة فيه جهدي  
فليت قلوب كل الناس قلبي  
وليت جميع السنهم لسانني  
عليّ بن الحسين ! وكيف يحصي  
ملك فوق كل علا علاه  
جری في وجهه الإحسان نورًا  
إذا الجناني أتاه وليس يدري  
تهلل طربة للعفو حتّى  
ولولا حلمه - والفضل يُعدي -  
ولولا أنه لم يجن ظلما  
لما مرّت بساحته الليالي  
ولو شاءت عزائم لقادت  
ولكن بيعة سبقت وأعطى  
أيا ملكا ملوك الأرض منه  
أقمت الدين وحدك في زمان  
وكم أحييت من سنن عظام  
وأدخلت الأنام حمى أمان  
وقد كانوا «بنو سام وحام»  
فما يحكيك يوم الرّوع حام  
بك الأيام تفخر واليالي  
وهذا النحر حل ! فصل وانحدر  
كفاه أن يحن إليك شوقًا  
أناك مهنّا - والشكر فَرَض -  
/ ولولا وقفة التعريف حتّم

تبرّجه هلالا في اللّثام  
سوالفهُ ولا يشفي أومي  
ولكن حسنه فوق الغرام  
فأعشقه بأفئدة الأنام  
فأبلغ مدحة الملك الهمام  
حلاه كلام غيري ، أو كلامي ؟  
فلا أحد يُفاخر أو يُسامي  
وفي كفيه ماء ذو انسجام  
أيتخذ من وراء أم أمّام  
كأنّ العفو من شعب المدام  
لما حلّم الزمان على اللثام  
ولم يكسب تراثا من حرّام  
عليها حلية الشهب الوسام  
له كلّ المماليك في خطام  
بصفقته فكانت كاللزام  
بمترلة الصفوف من الإمام  
به بحر الهوى والغسي طامي  
وكانت قبل بالية العظام  
حماية والد حبيب محامي  
فصاروا كلهم أولاد حام  
ولا يحكيك يوم الفخر سامي  
فخار الغاب بالأسد الضرام  
وقابله . يبشر وابتسام  
ولا يلقاك إلا بعد عام  
بما عطّلت فيه من الآثام  
أناك لغرة الشهر الحرام



فقد كانت لياليه تقضى  
فها هي ذا بعزمٍ منك تحيى  
سلبت الكأس حليتها فصارت  
فلا الصهباء فيها ذوب تبر  
ولا الساقى بيد ذي شعاع  
وسعت الناس كلهم سرورا  
فلم تترك لشرب الخمر عذرا  
كان نداءك فيهم حين تابوا  
فعال مطهر الأخلاق بر  
فما كأس السدام لديه إلا  
أتيت على فساد من زمان  
فقلنا إذ دعاك الناس منهم  
وما ضاهاك في كرم وفضل  
لقد خلقتوا كما تهوى المعاني  
رويدا يبلغون الحلم تنظر  
ستبصرهم إذا ركبوا وساروا  
قدمت لهم ، ودأموا كالثرثرا  
ولا زال الحسود لهم وفيهم  
فدنى لك من ملوك الأرض جمعا  
فما رفعوا لمكرمة منارا  
ولا عدلوا فسووا بين لث  
ولا سلوا لنصر الدين سيفا  
رأوك مبرزا في كل فضل  
فادوا لا فتى إلا علي  
/ مدحتك مدحة الجعفي لكن  
لعل الله يجعله مديحا

[ 11 - ب ]

بترع الكأس من كف الغلام  
بذكر في سجود أو قيام  
غنى بيد الفقير المستظام  
ولا در الحجاب على نظام  
ولا الشادي بظبي ذي بغام  
يسيب من أباديك الجسم  
دفعت الهم بالمين العظام  
تعاليل الوليد عن الفطام  
كريم مبعد عن كل ذام  
حسام من طلئ الفرسان دامي  
أساء - وبعد عهد بالكرام  
أهدأ التبر من هذا الرغام ؟  
سوى أبنائك الغر الفحام  
أساة قد شفوها من سقام  
عداك تصاب بالموت الزوام  
تضيق الأرض بالجيش اللهام  
نظاما . ما تدعى لانقسام  
بيت على فراش من ضرام  
- عن الحسن - ذوو مقل نيام  
ولا نصبوا لبدجد من خيام  
له لبدا . وصعل من نعام  
ولا شدوا لغزو من حزام  
وغيث العرف من كفك هام  
وولوا نبوة السيف الكهام  
مديحي مثل ما قالت حدام !  
يلغني من العليا مرامي

فانك لو نظرت إلى جمادى  
وما الياقوت فيما قيل إلا  
عليك تحية تأتي بروح  
يضوع العنبر الوردي منها  
لساوت رتبة شهر الصيام  
حصى نظرتة شمس باحترام  
وريحان من الملك السلام  
ويدكو مثلها مسك الختام

قال الراوي فلما تم إنشادها ، ورفع بها المحاسن وشادها ، قلت له : يا  
فارس اليراعة . ويا حامل راية البراعة ، لقد برزت ، وقصص السبق  
أحرزت ، وجئت في الحلبة مجليا ، فمن شاء بعدك فليجيء مصليا ،  
فما لأحد بلحاقك طلاب ، وجري المذكيات غلاب (1) ، فكأن القوم  
تغيرت نيتهم . وتحركت حميتهم ، فانتصبوا لمماراته ، وتصدوا  
لمجاراته . فقلت لهم : الأليق بكم مداراته ، لا مباراته ، ومصافاته ،  
لا منافاته . فإنه لقوة عارضته ، لا تقدر على معارضته . وسأريكم الأمر  
عيانا . وأقيم لكم على ذلك برهانا ثم قلت له : يا أبلغ من قدامة ، ومن صاحب  
الخمسين مقامة ، امدح هذا الملك الذي ديم إحسانه هائلة ، بأبيات عاطلة ،  
جاءت على أحسن نسط . واستغنت بماء حسن الغزير على النقط . قال :  
نعم سأتيك بها حافلة . وألترم فيها ما يلزم نافلة . وفكر مقدار ما عدل  
أوزانها . وأودعها ما زانها . وأنشد :

هل حلّ حلوى اللى لصاد  
لاح له طالعاً هلال  
أصماه لماً رماه سهم  
دعه وعد مادحاً هماما  
مؤمل . كل ما حواه  
سماحة كالركام هام  
حسامه للعدى معد  
أهلكهم . والدما أطلا  
حام الهوى حوله وحلا  
أسلمه للهوى وولّى  
ما حده كالحسام ، كلاً  
على كمال الكرام دلاً  
أعطاه إلا العلا وإلا  
حل لكل امرئ محلاً  
أهلكهم . والدما أطلا

(1) المذكيات الخيل وهو مثل انظر الميبداني 1 : 166 .

(2) اكتفاء عن كلمة أخرى كالدين والحرم .



وهمهم كلَّما رأوه هم ركعوا والحسام صلتى  
دم مالكا راحما وضولا ممدحا كاملا معلنى  
/ وهالك سحر الحلال مدحا ما رده سامع وملا  
واسمعه لا عاطل سواه حلا هو العاطل المحلى

فقلت له : هاتها كلها معجمة . مُسرَّجة بالحسن مُلحَّمة . فقال : مثل  
هذا لا يخلو عن ثقل . فقلت : قل ولا تبَل . فأطرق إطراقة حرَّ . وأتى بها  
شجرة تحمل الدرَّ . وهي :

فُتِنْتُ بظبي غضيض شيب بغنج يجنني بشنب  
ظننت يقيني فخبث فغيضت (١) ظني بغيث يفيض نشب  
تقي . نقي . نجيب . يُجيبُ ضجيجي . يشقني بنخب  
يثب . يغيث . يخف . يشف . يقيني يثبت . يقضي . يجب

فقلت له : انظمها خيفاء . ليست من الإحسان خيفاء (٢) . كأنها عادة  
هيفاء . حروف إحدى كلمتيها كلها محلاة بالنقط . وحروف الأخرى  
مخلولة فقط . ففكر مقدار حل عقال . وأنشد بأعذب مقال :

لله ظبي هواه يضيي وصاله في الهوى تجنني  
وصده زين كل زين أمطر جفني . وكل جفن  
ملك ذي علا يقيني آوى يقيني وآل ظني  
سماحه في المحول غيث حسامه في المضاء يغني  
آراؤه في العلوم تشفي عطاؤه في العموم يغني  
وحلمه بذل كل بث وعلمه بث كل فن

فقلت له : يا أهدى من القطا . أمنت الخطا . آتت بها رقطا . حرف  
أهمل وحرف وشح نقطا . ففكر وما أبطأ . وأنشدها مرتبطة بالحسن  
ربطا . وهي :

(١) مأخوذ من غاض الماء : إذا غار وذهب في الأرض وغضه أذهب ونفاه .  
(٢) أى ليست خالية من الإحسان . والخيفاء في اللغة : هى الأرض المجذبة التى لم تصبها المطر .

بأت لي من دجاي ليل قصير بان لي من مناي وبل نَمِير  
زمن لي أذاب . أنعش مِنْهُ ذو جميل يهش لي ويمير  
بأذل فاض كفه بهبات من أتى بآبه برقد جدِير  
نأبه . فاضل . جليل . جميل . فخير . زأخِر . خطِير . بصير

فقلت له : أبرزها مقطعة . بالجمال مقنعة . حروفها لا تنتظم . ولا  
حرف مع حرف يلتئم . فقال : هذه لا تنسجم ! فقلت : أنظمها واخلأك  
ذم (١) . ففكر هنيئة . وأنشد على تلك الهيئة :

دع ودّ رُود ذات دلّ ردّاح وردّ وردا دره دنّ راح  
/ وزرّ ودوداً درّ إدراهِ أزال أردائيّ . ودائي أزاح  
إذا رأى وارده رده ذا أدور أو ذات درّ رداح (٢)

[ 112 - ب ]

فقلت له : بقيت عليك الموصلة . التي حروف كل كلمة منها متصلة  
-- وقد علمت أنه طرحها فيما طرح . من قبل أن تقترح . ولكن أردت  
كشف اللثام . وأن لا يقال رمية من غير رام (٣) -- فقال : هذه مرّت . في  
التي عجمت فما قرت . فقلت له : يا مديد الباع . ويا فريد الانطباع . إني  
مولع من البديع . بنوع التشريع . فانظم فيه أبياتا . تجمع من الأوزان  
والقوافي أشتاتا . يقول كل من سمعها أو قرا : « كل الصيد في جوف  
الفرّا » (٤) . فأغور في التفكير وأنجد . ثم وشّح وأنشد . فأتى بها مقطوعة .

(١) مثل . انظر الميداني ٢ : ٢٧ يقال : افعل كذا واخلأك ذم أي عداك وتجاوزك الذم .  
(٢) قدم المؤلف اعتذاره عن عدم انسجام هذه الأبيات قبل إيرادها . والروود وصف مولد للمرأة  
وايس في اللغة الاقوام : « انش على رود » أي مهل . والدل بالكسر : الدلال . والرداح :  
العجزاء . والورد بالكسر : الماء المورود . والمعنى اترك الغواني وأعرض عن موارد الشراب  
ثم عدل الى المدح بأن ودوده يزيل بادراره ارداءه - اقاله - ويروح داه وانه اذا ورد عليه  
وارد رده ذا ادور - جمع دار - او ذات حلي بمعنى اغناه وفي هذا النوع وسوابقه من البديع  
اللفظي ما لا طائل وراءه وصناعته اكبر من جدواه . وقد ولج به اصحاب المقامات وامامهم في  
ذلك الحريري وله في المقامة الحلبية انواع مما أتى به المؤلف كما له في الواسطية خطبة عاطلة .  
ولليازجي في مجمع البحرين مثل ذلك وزاد عليه الممتع وعاطل العاطل . والمؤلف هنا انقرد  
بالمقطع وهو النوع الأخير .

(٣) مثل أسله : رب رمية النخ . انظر الميداني ١ : ٣٥١ .

(٤) مثل أيضا . انظر الميداني ٢ : ٨٢ .



دع الجوى غصني ذوى

ثم ارتوى

والثانية :

لا ينطفي تلهفي

لأشتفي بمتلفي

بمن يفي

فقلت له : كفاك . لا فقص الله فاك . فقد أولجتك المضائق . فما عاكك عن الخروج منها عائق . وأركبتك الصعوبة . فقُدتها أذل ركوبة . وقلت للقوم : أقررتم ؟ قالوا : أقررنا . وإن كنا أنكرنا فما أصررنا . ولما انقضى الإبراد والإصدار . وأقصر الإنجاد والإغوار . نظرنا فإذا المسجد قد غص بأهله . غصا لا عهد لهم بمثله . والناس قيام . فناما خلف فيثام (1) . وقد أتوا من كل فج عميق لاستماع الإنشاد . وانثالوا من كل مكان سحيق ما بين حاضر وباد . فقال قائل : لو قام أحدكم في الناس خطيبا . فضوع هذا المحفل طيبا . واهتصر من المواعظ غصنا رطيبا . فرد الشيطان خائسا عطيبا . وذكر الناس بنعمة الله عليهم . وصنيعته لديهم . بهذا الملك الذي أقام أودهم (2) . وأزال نسكدهم . وسوى اعوجاجهم . ونمى ابتهاجهم . وأذهب عنهم الرجس . وطيب منهم كل نفس . فإن الخطيب . تنقذ من العطب . والموعظة . من نوم الغفلة موقظة . فالتفتوا إلى المشار إليه . وطرحوها عليه . فانتصب كجذل حكاك (3) . وتهيأ من غير ارتباك . فقيل له : أميت الحصر . وحميت من الخصر . قد اقترحت عليك الجماعة . أن ترتجلها قصيدة بنت الساعة . فأطرق إطراق الشجاع . فقلت : مخرنبيق

(1) جماعة خلت جماعة.

(2) الاود بالفتح : الاعوجاج.

(3) مثل مورده : انا جديتها المحك انظر الميداني 1 : 34 . وتصغيره المعظم وهو اصل شجرة ينصب في مبارك الابل تتمرس به الجربى .

لا مقطوعة عن الإبداع ولا ممنوعة . تصير بعد رمي بعض أجزائها بالحذف ، مقاطيع بعدد أصابع الكف . وهي :

حرّ الهوى بفؤادي جذوة القبس  
قلبي كوى منذ بدا فالقلب أحرقه  
دع الجوى قد رجعت اليوم عن شغفي  
غصني ذوى قبل أن ألقاه ممتدحا  
ثم ارتوى فرياضي الآن زاهرة  
فقلت له : بيّن خفاياها . وأخرج خباياها . فقال : إن طرحت أول جزء من كل صدر وعجز ناحية . فخذها من بحر المديد بتلك القافية :

بفؤادي جذوة القبس  
من فتور الأعين النعس  
مذ بدا فالقلب أحرقه  
وجفوني منه في عرس  
قد رجعت اليوم عن شغفي  
بمديح السيد الندس (1)  
قبل أن ألقاه ممتدحا  
من زماني صرت في يبس  
فرياضي الآن زاهرة  
ونداه خير منبجس

وإن أخذت ، ما نبذت . تألف من أول جزء لكل صدر وعجز ، مقطوعة من منهوك الرجز . وهي :

حرّ الهوى لا ينطفي  
قلبي كوى تلهفي  
دع الجوى لأشتفي  
غصني ذوى بمتلفي

ثم ارتوى بمن يفي

وإن أخذت أوائل الصدور فقط . وجدتها منتظمة على نمط . لكن بالغ فيها النهك والجزء . حتى أتت على جزء جزء . وكذا نظائرها من الأعجاز تأتلف . كمثل ما أخبرتك / لا تختلف :

فالاولى :

حرّ الهوى  
قلبي كوى



لَيْسَ بَاع (1) . قام يكن إلا ريشا تنطفي شرارة . حتى شن على القوافي الغارة .  
وأنشد يقول :

الحمد لله الذي قد مهّدا  
لم تعدم الأمة منهم مُنجداً  
سبحانه لم يخلق الخلق سُدَى  
ومن يرد به فلاحاً قلّدا  
حمدته وليس يُحصى عدداً  
وقد شهدت - والهدى أن أشهدا -  
شهادة تعصمني من الردى  
وأن سيد النورى مُحَمّداً  
صلى عليه الله ما تبدّدا  
فأودعته الأرض بطنها مدى  
/ ثم يهيج فتراه عَسْجَداً  
على الهدى يتبعهم طول المدى  
واستمعوا من قام فيكم مُنْشِداً  
لا تملكون لأدائها يداً  
يَعْمَلُ رشداً ويقول سداً  
وكم سيوف عنكم قد أغمداً  
من أمنكم يجلو عن القلب الصدى  
ويدفع الضر ويقمع العدا  
أعاد دين الله غَضاً واقتدى  
فأهدر الخمر وكانت أمداً  
بِالله هل كنتم تميزون نداً  
فالآن صرتم ركعاً وسجداً  
وكل رجس عنكم قد أبعدا

قواعد الدين بأعلام الهدى  
يَجْبِرُ صدعاً ويقيم أودا  
من يهده فذلك الذي اهتدى  
تدبير أمره ولياً مرشدا  
نعماءه الحمد ولو تردداً  
أن لا اله غير ربّي أحداً  
يوم يخلّي والد ما ولدا  
رسوله خير نبيء أرشدا  
عقد من الدرّ حياً وبرداً  
ثم انثت تُخرجه زُمرداً  
وآله وصحبه ومن غدا  
وبعد فاعلموا - وقّيتم نكداً -  
أن لربكم عليّكم يداً  
ملك فيكم عادلاً مُسَدداً  
فكم لهيب فتنة قد أحمدا  
بسيفه المصقول أجري موردا  
وكم غدا يمنعكم ممن عدا  
ويهدم الحان ويَبْنِي المسجدا  
بالعمرين في زمان فسداً  
أكثركم قد ضلّ فيها واعتدى  
مؤذنين من صوت عات عرّبداً  
لربكم في جنح ليل هُجّداً  
وكل سوقٍ للفساد كَسَدَا

[113 - ب]

والحمد لله الذي قد أيّدا  
أعني علي بن الحسين الأوحدا  
الأمنع الأحمى الغمّام المجتدى  
حتى يرى أبناءه له ردا  
هم الذين ملأوا الدنيا جدى  
ورفعة وعزة ومحتدا  
ولا التوى ولا عداً مما بدا (1)  
ولا يزال المُملِكُ فيهم أبدا  
حتى يعود الشيخ طفلاً أمردا  
بجاه سيد الأنام أحمدا  
صلّى عليه الله ما حاد حداً  
وآله وصحبه أهل الندى  
[ما حنت العيس وساقها الحدا]

لدينه هذا المليك الأسعدا  
الملك الأسمى النهم الأمجداً  
ودام فينا ملكاً مخلصاً  
وكلهم سيفاً بداً مجرداً  
وأحرزوا فضائلاً وسؤددا  
لا خانهم دهر ولا تمرّدا  
ولا يزال المُملِكُ فيهم أبدا  
حتى يعود الشيخ طفلاً أمردا  
بجاه سيد الأنام أحمدا  
صلّى عليه الله ما حاد حداً  
وآله وصحبه أهل الندى  
[ما حنت العيس وساقها الحدا]

فلما فرغ من خطبته . وقد صدع القلوب ببِعْظَتِهِ . جلس للدعاء  
والناس يؤمنون ، بدوام البقاء لمن هم في إيايته آمنون . ثم تفرّق الجمع .  
وانسربوا في كل صقع .

- قال أبو الفتح - : فقلت له : قد صرّح الحق عن محضه ، وتبين نقد  
الكرم من عَرَضِهِ . ولقد حَسَنَتْ إلى لقيما الملك / ورؤية طلعتة الشريفة ،  
كما حنّ إلى المدينة أبو قطيفه (2) . وأنا ذاهب لالقاءه . وأستودعك الله ،  
فقال لي : ظفرت فاغتيبط ، واستكرمت فارتبط (3) . فسرت حتى أتيت  
قصر الملك فوجدته منتهى الجمال . ومنية الآمال :

قصر تود الشمس وجداً لو غدا  
والأرض تحسدها السماء لأجله  
برجاً لها أو أن منه طلوعها  
وتود لو ضمت عليه ضلوعها

(1) مقبّس من مثل : ما عدا بدا . انظر الميداني 2 : 252 .

(2) أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة الأدي شاعر مدني نفاه ابن الزبير في ثورته على بني أمية  
إلى الشام فترادف شعره في الحنين إلى بلده حتى اذن له في العودة إليه ومات في طريقه  
سنة 690/70 . انظر الاصفهاني 1 : 12 .

(3) مثل : وبيروى : اكرمت انظر الميداني 2 : 87 .

(1) مثل أيضاً . انظر الميداني 2 : 265 . أي ساكن ليشيت .



خلعت عليه اللّادنيا زهرتها . وأهدت إليه الرياض نصرتها . فالأيام به  
مواسم وأعياد . والدنيا لساكنه تنقاد . لو رآه النعمان ابن الشقيقة ما أعجبه  
الخورنق (1) . أو ملسكة الجزيرة ما قالت : تمرّد مارد وعز الأبلق (2) .  
ما التاج ؟ وما أبيض ذي التاج (3) ؟ وما الحضر وصاحبه الضيزن (4) ؟  
وما غمدان واليمن ؟ وما سيف بن ذي يزن (5) ؟ والملك جالس في دسسته ،  
وقد تحلّى بوقاره وسمته . فلما رآني تهلل وجهه كبدر التمام . وقال :  
«يا بشرأي هذا غلام» فقلت : أيها الملك السعيد . ذو الصّيت البعيد . أنا  
طالعة النجاح . ومنتاح الفلاح . وقرين التمكين . ونصر من الله وفتح مبين .  
أرسلني إليك من أهلك لنصرة دينه . ولم يجعل لك ولياً من دونه . لأكون  
قائد جنودك . وعاقداً بنودك . ومولياً معك أينما ولّيت . وحالاً معك  
حيثما حلّيت (6) جزاءً بما عاملت به دينه من التمكين والتعزيز . «ولينصرن»  
الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» (7) . فدعّم أيها الملك في سعادة سلطائك .  
واقبال زمانك . تبني القصور . وتفني العصور . يستسقى بوجهك المزن .  
وينجلي بطلعتك الحزن . وتصلح ما فسد . وتنفق من المكارم ما كسد ،  
وتنتزع الفريسة من فم الأسد . لا حطت لك العلياء سرّجا . ولا حللت  
غير السعد برجا . ولا زلت للرّاهبين ملاذاً . وللرّاهبين مُعاذاً . وثبت الله  
وطأتك . وأسّس على العدل دولتك . ونصر جيشك . ونصر عيشك ،

وخلد ملكك العالي . وأبدد ما دامت الأيام والليالي . مأمونا من الغير  
والزايا . محفوظا من النوائب والبلايا . معروفا بالسيادة . محفوظا بالسعادة ،  
قريب العين ببنيك ، الذين هم زينة الملك . ولآلي السلك . وفروع تفرعوا من  
دوحة مجد وسناء . «أصلُّهَا ثَابِتٌ وَقَرَّعُهَا فِي السَّمَاءِ» (١) . فجاءوا  
في المفاخر أشباها . كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها . وزينوا المواكب ،  
كما زينت السماء الكواكب . فبقيت وبقوا . ولقيت السعادة ولقوا ،  
ودامت لهم الدنيا . ودامت لهم العليا ، ولا انقض ملكهم . ولا انقص  
سلكهم . ورأيت منهم ما يكتب العدا . ويملا الدنيا / هدى ، وعشت  
لهم مخلدا . وعاشوا أبدا . اللهم يا سامع الأصوات . ويا محيي الرفات .  
أجب ندائي . وتقبل دعائي . وواصل أطيب صلواتك ونوامي بركاتك .  
وأزكي تحياتك . على أفضل أنبيائك . وأعز أصفيائك . سيدنا ومولانا محمد  
صلى الله عليه وسلم . وعلى آله الأطهار . وصحابته الأخيار . ما تعاقب  
ليل ونهار .

(١) القرآن : سورة ابراهيم الآية : 24.



## [مقامة الورغي]

ومن ذلك مقامة الكاتب أبي عبد الله محمد الورغي تشتمل على قصيدة هي من غرر الشعر وقلائده وعيون فرائده . وهي :

سعد السعود تهيأ (1) وطالع النّحس لاذا

فقلت : يا سعد حدث عما وراءك ماذا ؟

فقال : خير تراه واسمع لقولي هذا :

يا رواة الأخبار . وحملة القول المختار . شمل الله جميعكم بسلام ،  
وجمع شملكم في دار السلام . خير المتكلمين من حدث بما نفع . وخير  
المستمعين من أحرز ما جمع . وخير ما قيل من الكلام . ما يقال لصاحبه  
سلام . فاسمعوا الآن للحديث حسن . تخيرته من سالف الزمن .

كنت من حبيب إليه مصاحبة الأسفار . وخفّف عنه مفارقة الأوكار ،  
ورأى أن من العجز تفضيل دار على دار . وأن من الأسر اتخاذ حليلة وجار ،  
وأن يعقد عن كسب يحويه . ليوم تظهر فيه مساويه :

ما للشباب وللإقامة والشيب منتظر أمامه

والدهر يسمع تارة ويضنّ أخرى بالقلامة

والحرّ يقطع ظهره أن يجتدي أهل الآمة

فليركب الأخطار في تحصيل ما ينفي الملامة

مال يقيه الذلّ أو علم يلقيه الكرامة

فسيحمد المسعى إذا أرخى معمره حزامه

/ فشددت على وسطي أظماري . وشمّرت لقطع المفاوز إزارى - وأنا إذ  
ذاك باز على قنّاز . ومستوفز على أوفاز (2) -

فلا وليد عن الإرقال (3) يعقلني ولا غريم إلى قاض يقاضيني

وليس لي غير نعلٍ بتّ أخصفتها ومحجنٍ ، وقليل العيش يرضيني

(1) بالديوان : تجلّى .

(2) البازي من جوارح الصيد معروف . والقفاز ما يضعه الصائد على يده ليحمل عليه البازي عند  
الارسال . والمستوفز الجاني المنتهى للقيام والوفز العجلة . يعنى أنه دائم الحركة والتنقل .

(3) نوع من السير .

فابتدأت الطريق بأول فرض . واتّبعته بقول الله : «قلّ سِيرُوا فِي  
الأرض» . مجمعا على ترك الراحة . ملاحظا قول الرسول : الموت راحة ،  
تاركا كل فضول مكانه . قاطعا ما بين فرغانة وغانة :

يوما أكون مع الملاح مُمتطنا ذات الدسار على قاموس تيار (1)

وتارة بين بهمي (2) لا يصاحبني سوى الظليم وغير الضيغم الضاري

وساعة بين غوغا لا خلاق لهم ومرة بين بيطار وعطار

وتارة بين أعلام أفوضهم فيما يقربني من رحمة الباري

وما همتي إلا حكمة أحويها ، أو قصة غريبة أرويها ، أو عظة أسمعها ،

أو مكتوبة أركعها . فجمعت مما يهذب الأخلاق ، ما لا يكون بعده إملاق ،

ورأيت من البلاد ألوفا . ولقيت من أهلها صنوفا . وما رأيت صلاحها إلا

بصلاح من ملك . وبعد عدله هلك من هلك . وتأملت الناس جيلا بعد

جيل . فالفيتهم - وحققكم - كما قيل : خلق الناس أطيفا (3) . وتميزوا

أوصافا . فطائفة للعبادة . وطائفة للتجارة . وطائفة خُطباء . وطائفة للبأس

والهيجاء . ورجرجة بين ذلك يكدرّون الماء ويكسرون الابريق ، ويغلّون

السعر ويضيقون الطريق . وتعاقبت عليّ أحيان ، لا أستقر فيها بمكان .

من كان يطلب رأس العز يملكه فالجوّ (4) والدوّ في مرآه سيان

لا خير في عيشة في دار مسكنة لو كان صاحبها في رأس غمدان

إلى أن آذن روض الشباب بالاندراس . وأعلن نجم الصّحة بالانعكاس .

فأعملت الفكرة في اتخاذ السّكن . لما يعرض في الكبر من المحن . وفي

اختيار منزل للإقامة . ليحفظ به المرء صاحبه وغلّامه . وكنت في زمن

(1) السفينة في البحر .

(2) في ز : وتارة في فسيح لا يصاحبني سوى ابن آوى والا الج .

(3) أما جمع طيف الخيال الطائف في المقام - ولا يناسب مع ما بعده - وأما جمع طائفة على غير  
قياس بأخبار تجريدتها من هاء التانيث ان استقام ذلك .

(4) الحر يطلق على الهواء ما بين السماء والأرض وعلى المنخفض من الأرض ومتسع الأودية ،  
والسدو المقارة وهي متباينة .



تطواني . وتهذيب أوصاني . رأيت صقعا (1) لم ألق إليه بالا . ولا أنعمت عليه سؤالا . لِمَا رأيت عليه من الكآبة . لحادث بين ذوي رحم أصابه (2) . ولاشتغالي بما هو أولى . واكتسابي لِمَا هو أوفق وأغلى . غير أنه علق بقلبي / وسمه . وإن لم يحفظ حينئذ اسمه . فصرفت نحو جهته العنان . واتبعت صوبه من أقصى مكان . فوافيته والرَّبيع في عُنفوانه . والدوحُ يرفل في أفنانه . فتخللته تخلل المُرْتاد . وتصفحت منه الأغوار والأوهاد . ونظرت منه ما زان . لتبدل حاله عن الذي كان . فبينما أنا أجول خلاله . وأتأمل نساءه ورجاله . فإذا أنا بدمية حورًا . جلست من الأرض غورا (3) . فتأملتها تأمل إياس (4) . فإذا هي ميغناطيس الأكياس . فقلت : أيتها الحره . من استخبر المليحة ما ضره ؟ أفأذنين لي بالسؤال . عما خطر بالبال ؟ فقلت : أما الحرية فليس لي فيها نسب . وإنما أنا مملوكة لمن غلب ! وأما السؤال فأمره إليك . فاسأل عما شئت ولا شيء عليك . فقلت : من ملك هذه الذَّات ، فإنه لم يَغْظه من أمر دنياه ما فات ! فقلت : ملكت مرارا . ولاقيت إحلاء وإمرارا . وإذا رأيت من حسني ما هالك . فإنما هو بحسب المالك . فقلت : لوّح هذا البيان ، بالثناء على ربك الآن . فقلت : بسخٍ بسخ . فخر رسخ . ذلك الفحل لا يقْدع أنفه (5) . والفيض لا ينقبض كنه . لم يفته من المحاسن أصل ولا فرع . وسأخبرك عنه بمثل حديث أبي زرع (6) . إنه الرفيع العماد . كثير الرماد . خفيف على ظهور الخيل . ثقيل على أعدائه يوم الويل . راضي الأهل والجناب . رائق للعقول

(1) الصقع بالضم : الناحية.

(2) إشارة إلى الفتنة الحسينية البائسة وبهذا التاريخ معظم أطوارها.

(3) بالأصل : بدمية حسناء وحورية غناء ، وهو غير صواب ، أولا لأن نسخ هذه القامة عندالة بالأيدي كثيرا وهي والنسخة . ز . تتفق في الجملة التي استثناهما . وثانيا لأن الغناء من أوصاف الرياض والشجر الملتف لا من أوصاف النساء . وثالثا حسن الإشارة إلى موقع المدينة المنخفض.

(4) هو إياس بن معاوية القاضي مضرب المثل في الذكاء والفطنة . انظر الميداني 338/1.

(5) المثل كما في الميداني 2 : 359 : هو الفحل لا يقْدع أنفه . أي صعب المراس لا يمكن من حظم أنفه ومعاني القدح لا تلثم مع هذا.

(6) في الصحيحين : أنه اجتمع إحدى عشرة امرأة عند عائشة فوصفن أزواجهن مدحا وذما وكان من أبلغهن مدحا امرأة أبي زرع.

والألباب . ليست شملتته بالتفاف (1) . ولا شربه باشتفاف (2) . ولا ضججته بانجعاف (3) . ولا يشبع ليلة يُضاف . ولا ينام ليلة يتخاف ، فقلت لها : يا هنتاه . سبحان من خلقتك وسوّاه . ولولا أن سؤال الشخص عن اسمه . من سوء الأدب ورسومه . لسألتك عما هو لكما . من اللقب والسمي . فقلت : ما تركت شيئا من الجفا . إذ جهلت من لم يكن به خفا ، ولكن لا أجمع لك بين الحرمان والعتاب . فافهم إن كنت من أهل الآداب :

عمّ ما أنت فيه عن كل حاسد      تلقأمنأمناعتراضالمكائد  
لا تثق بالكذوب واطلب صديقا      واشكر السعي إن ظفرت بواحد  
يسهل الأمر غير هذا فإني      نلت في كسب من يليق الشدائد  
يا مريدا على الزمان معينا      سدّ والله عنك باب المساعد

ثم قالت : أعرفت جوابك من هذا التحبير ؟ فقلت : إي والله وصناعة التخيير (4) . فقلت : بين تلك الصناعة . لأعرف ما عندك من البصاعة . فقلت :

عم ما أنت فيه عن كل ماكر      تلقأمنأمناعتراضالمناكر  
لا تثق بالكذوب واطلب صديقا      واشكر السعي إن ظفرت بشاكر  
يسهل الأمر غير هذا فإني      نلت في كسب من يليق الفواقر  
يا مريدا على الزمان معينا      سدّ والله عنك باب المؤازر

فقلت : أمنت عليك من البلادة ، وعرفت حقك في الإجادة . فقلت : لكنني أحب التصريح ، باللفظ المليح . لتأنس أسماعي . بما علقت به أطماعي . فسكت قليلا . ثم قالت فأحسنت قليلا :

(1) التمسلة بالكسر : هيئة الاشتغال بالثوب ، وإدارته على الجسد حتى لا يخرج منه اليد . وهو النفي هنا .

(2) اشرف ما في الإناء شربه كله .

(3) النجعف : المصروع .

(4) التخيير : نوع من البديع وهو الاتيان بقافية وبنية المتغير بمفردات أخرى كما في هذين المأطوعين . وفيهما أيضا ترصيع الصدور بحرف اسم المدح والاعجاز باسم البلد .



يا طالب التصريح يا كيتس      صدقت فالتلويح لا يؤنس  
بل إنمّا يحسن كتم الخنّا      وكيف يخفى الأحسن الأنفس  
فاسمع إذن وانعم بها كرامة :      ربّي «عليّ» وأنا «تونس»

فقلت لها : في أول الاسمين اجمال . وفي الثاني منهما إشكال ، وإني  
في هذه الدّيار لغريب . وليس جهلي الحال بعجيب . وفيما بلغنا من الأخبار  
عن الأخيار . أن تونس اسم لذات أسوار . لا سوار . وذات أبواب ،  
لا جباب . فكيف يفهم هذا التوضيح ؟ ولعلّه ليس بصحيح . فقالت :  
إن إشكالك لوارد . وله عندي جواب طارد . إنك لما نزلت هذه المدينة .  
واخترت ركوبها على كل سفينة . صورها الله لك في هذا المثال . كما تصوّر  
يوم القيامة الأعمال ، لتأخذ خبرها عن شخص . ولا تتعب فيه بكثير الفحص .  
فقلت : الله أكبر ، قد تمّ لي ما سرّ . ظفرت ببجّهينّه . وفقأت من إبليس  
عينه . وزدّني نشاطا ، وملأت قلبي انبساطا . وإني عزّمتُ على استيطان هذا  
البلد . وركودي فيه إلى الأبد . فلا بد من تعرف أحوال سلطانه . ومعرفة خراج  
أوطانه . وسيرته في رعيّته ، وعمل عُماله في دولته . وحاله مع من يتأخمه .  
أيفوته أم يقاومه ، فإذا استقامت هذه الأحوال . صلّحت الذرية ونما المال .  
وعلم جميعها عندك شهير ، «ولا يُنبئُكَ مِثْلُ خَبِير» . فاشرحي الحال .  
وارفعي الإجمال ، ولا تحوجني إلى المراجعة . فإنّها لحلاوة الترسل قاطعة .  
فامتثلت مقترحي وجمّلت . ورفعت عقيرتها وقالت :

ومالكي ما مالكي ؟      غيث الزمان المحل  
تاهت به أيامه      على الملوك الأوّل  
فاسمع كلاما جامعا      عن الهوى بمعزل  
ما نافع إلّا التقى .      (ولا فتّى إلّا عليّ)  
ابن الحسين المرتضى      عن غيره لا تسأل

[ب] / ملاقاته أفراح ، ومحادثته انشراح . ومجلسه علم يستفاد ، أو طعام  
مستجاد . أو منحة وإرفاد ، لا يغفل عن رواية . ولا يسأم من درايه . وأعلق

شيء بقلبه من الأنجيل : صحيح محمد بن اسماعيل (1) . فهو هجّيراه (2) .  
ومن أوثق عراه . ولا يزال يبحث عن دينه . ويسأل أهله عن غثه وسمينه ،  
ويُكرّمهم كل حين على ذلك . كما تُكرّم العزيز من عيالك ، وإذا غفلوا  
عن استدرار إنعامه . أغراهم على ذلك بفعله أو كلامه . فربما نشر الدنانير  
فوق البسط . وقال لمن حادثه : ما هذا ؟ التقط التقط ! فإذا لمها من استعداد ،  
عدّ أمثالها لكل من عداه . وإذا رأى في صحبه انقباض ، نزع من غير  
اعتراض . وربما ملّح معهم ومزّح . إذا نصب الخاطر ونزّح . وخلوته  
لها أطوار طويلة الذّيل . في ذكر واعتبار طرفيّ النهار وزلّفاً من الليل .  
مادّاً لمولاه كفته . نابذاً كل شاغل خلفه . مخلصاً لله فيها النّيه . مستشعرا  
حصول الأمنيه . وأما حاله مع بنيّه . الذين هم مبلغ أمانيه . فتربية الربانيين ،  
من تعليم أبواب الدين . والترغيب في الحياء . والتحذير من الأشقياء .  
وتحسين الكرم . والعفو عن ظلم . والنهي عن الاستعجال . وعن الجبن  
في كل حال . وهلم جرّاً . مما يصلح الدنيا والأخرى . وقد ظهرت فيهم  
النّجابة . فلتحمد الله أمة الإجابة . وأما حال حرمة . فهم على قدمه ، من  
مراعاة الصّلاح . في المساء والصّباح . مع أدعية تملّى . وسور تتلى . وعبادة  
تامة . وصدقة عامّة ، فقيراتهم مكسوة . ویتيماتهم مجلوّة . وزلاّت  
إمائهم مغفوة . وجميع أحوالهم في الغاية . كما تخبرك به الدّاية . وأما  
مدينته . التي هي زينته ، فهي محط الرّحال . ومطمح الآمال . تجارتها  
نافقة . ومبانيها رائقة . وسلعتها ثمينة . ومياها التي عمّتها بها معينة ،  
ومساجدها معمورة . وبركاتها منشورة . ومرتباته لمدرسيها جارية ، ولا  
تخلو عن صدقاته الطارية . وأما خراج بلاده . فقد زاد على معتاده . لكثرة  
العمارة . بحسن سياسة الإمارة ، وأما سيرته في الرعايا . وحاله في فصل  
القضايا . فإن حجابيه رقيق . وخطابه رقيق . ولا يصدر عن قضية حتى  
تُفهم . ولا يفصلها قبل أن تُعلم . وكثيرا ما يندب للصّالح الذّي هوّ

(1) البخاري .

(2) الدّاب والعادة اللذان يهجر فيهما غيرهما .



خَيْرٌ . ويعطي لإتمامه من ماله إن بخل الغير . ولا يمنع الحق . ممن استحق . ويستعظم قتل النفس ولو في حق . وكل وقت يتصفح ديوان رعاياه . فيحيط عن كل مُثَقِّل ما أعياه . وزلتهم عنده لغو . وقد تم طاعتهم بالعفو . ومما أصلته الفرس والترك . (عفو الملك أبقى للملك) . وعند جميع الليل . ممن وفق للحق أو ضل . (الدين بالملك يقوى . والملك بالدين / يبقَى) . وأما حاله مع من تآخمه . فإن حوزته من عدواه سالمة . ولولا اختلاف بنيها . ما قدر أحد يعتيها . وهي أقرب لصالح الحال . فابشر ببلوغ الآمال . وأما حال العمال في هذه الأيام . فسل عنها غيري والسلام . فقلت : أيتها الكريمة . قد أسمعني مزايا عظيمة . فليس بعدها إلا المقام . تحت إيالة هذا الهمام . وإني عزم على ملاقاته . لأتيمن بمشاهدة ذاته . وآمن بقربه من تسلط الأوباش . فأسلم من إفساد العبادة وتكدير المعاش . أما سمعت يا كريمة . ما حفظ من الأبيات القديمة :

ولن تبصري شخصاً يُسمى مُحَمَّداً من الناس إلا مُبْتلى بأبي جهل

أفأقدم بين يدي ذلك . قصيدة تسهل المسالك ؟ فإنه من سنن سيد المرسلين . ومنهج خلفائه الراشدين . فقالت : بدار بدار . فما بعد العيشة من عرار (1) . واذكر فيها خصلته الجديدة . التي هي من أفعاله الحميدة . فيالها منقبة لم يسبق إليها . ولا وقف في سابق الآثار عليها . وهي قطعه لداعية الخمر . الباقي ذكره بها إلى يوم النشور . فقد عجز عنها من قبله . وضرب الله على أيديهم حتى وصلت له . والظن بالله أن يجازيه باللطف به . وأن يجعلها كلمة باقية في عقبه . وجود المطالع وتأنق في المقاطع . ولا تجعل كل الكلام شريفاً عالياً . ولا وضعياً واهياً . بل فصله تفصيل العقود . ولا تكلفه بالخاطر المكدود . فإن العقد إذا كان كله نفيساً . لم يظهر منه ما كان رئيساً . ولا يتبين كمال واسطته . ولا أعلاه من قاعدته . واقصد

(1) العرار بالفتح باب طيب الريح . والجملة عجز بيت صدره : (تمتع من شميم عرار نجد) ذكره الزبيدي 3 : 391 ونسبه للصمة بن عبد الله الفشيري .

القوافي السهلة المستحسنة . دون الصعبة المستهجنة . ولتكن ألفاظ مبانيك . على مقدار معانيك . فالثوب إذا زاد على الجسد كد (1) . وإذا نقص عنه فسد . وإياك وثقل الألفاظ . فتصرف عنك الحفاظ . وإنما قدمت لك هذه الوصية . الضامنة لمن عمل بها بلوغ الأمانة . لأن الذي قصده بمديحك . وأردت أن توقفه على صريحك . أحق بالمدح من كعب بن مامة . وأعرف بنقد الكلام من قدامة (2) . وليس ممن يخدع بالأباطيل . ويغير الحكم بالباطيل (3) . فلا تقدم عليه بما يُسمع ساعة . ثم يُطرح في خزانة الإضاعة . بل بما تتخذة الحور للنحور . وينطبع في غرر الأيام سطور . وتتأبطه الركبان . لأقصى مكان . في كل زمان . فبادر بها قبل رجوع الفسي . ولا يسمعها منك حي . حتى تعرضها علي . فقلت : قد حضر ما غاب . فاسبريه هل طاب ؟ واسمعي وعي . وليكن قلبك كله معي :

/ طالع اليمن مقبل في ازدياد

[117] -- ب

سالم الكون من قبول (4) الفساد

فتح الوقت منه للأنس بآباً

أي باب عليه سعد يُنادي

فاطو عن جانب التوقي بساطاً

وامض طلق العنان نحو المنادي

واطرح النصح من ثقل تعني

ربما كان واحد الحساد

ما صواب قعود من قد هداه

لاغتنام النعيم والبسط هادي

(1) اتصاف

(2) كعب تقدم له تعريف . وقدامة بن جعفر امام النقاد توفي سنة 23/310 .

(3) الباطل .

(4) م : كسبون .



إن من صدّة عَنْ جَمِيلٍ أَتَاهِ  
 كان أخرى بهجره والبعاد  
 هذه جَنَّةُ التَّهَانِي تَجَلَّتْ  
 بين مُمَسِّ من الرباب (1) وغادي  
 في شَبَابِ الزَّمَانِ والأرض حاكت  
 من غَزِيلِ السَّمَاءِ برد الوهاد  
 فانظر الزَّهْر طالِعاً في بَيَاضٍ  
 وانظر الزَّهْر صوبت في سواد  
 يكشف الليل هذه . عكس هذا  
 فالجديدان منهما في عناد (2)  
 وانظر الودق كيف يتطف خطوا  
 بين خاف من الرُّبُوع وبَّادي  
 كلَّما لاح في مَوَاطِيهِ خط  
 صور الوهم قلبه شكلَ صاد (3)  
 فالبطاحُ استبان فِيهَا مِثَالُ  
 من قَطِيفِ موطئ في مهاد  
 والرُّبَا هَوْدَجٌ تَحْمَلُ عرساً  
 أو كبيرٌ مُزْمَلٌ في بَجَاد (4)

(1) الرباب بالكسر : الامسحاب ، وبالفتح : الجماعة ، وكلاهما صالح.

(2) ذكر في هذه الأبيات ما اشتركت الأرض والسما في صنعه من مباحج الطبيعة فالسما اسدت الغزل من مالها والأرض حاكته برداً ، والأرض اطلعت زهر النبات والسما ابدت زهر النجوم ، والاول يظهره النهار والآخرى يكشفها الليل وكلها مقابلات عجيبة.

(3) الودق : المطر . وفطف خطوة كناية عن تقاضيه وخفته أخذاً من قواهم فرس تطوف أي قصير الخطا ، ومواطيه مواقع نزوله ، والخط آثاره فيها ، والصادى العطشان . يصور نزول مطر لين أرض عطشى تشرب مرته فلا يبقى منه الا خطوط آثاره ، وفيه تورية بالخط الكتابي وحرف الصاد الاجوف وقد اخذه بأخذ الوهم فلا ينعقد فيه وهو من اللطائف.

(4) تارة بين البطاح والسرايا في جمال الطبيعة فشبهه الاول بالزرايا المجدة في مستوى مهده ، والثانية بمحمل العروس اللون وضمن فيه تشبيهه أهري القيس « كبير أناس في بجاد مزمل » وكبير جبل ، والبجاد ثوب مخطط.

أطلع الوشي فِيهِ للعينِ نَوْرًا  
 يطلع النُّور في صميم الفؤاد  
 من بَيَاضٍ ، وزرقة ، واحمرار ،  
 واصفرار ، وشقرة ، وأسوداد  
 صبغة الحق . لو تأملت فيها  
 كيف كانت من وحدة في مداد  
 واصغ للطير ، وانظرن كيف عادت  
 تُنْشِطُ النَّفْسَ بالحديث المعاد  
 راقها الجوَّ فَهْيَ فِي كل وجه  
 تسرع المرّ . في النواحي بداد  
 ما لها تملأ المسامع سجعاً ؟  
 وهي مِنْ عَظَمِ مَا بهَا في طراد  
 تلك هي التي تَعَرَّفَتْ . لكن  
 زاد مَا عِنْدَهَا عَلَى المعتاد  
 أترأه لِحَادِثٍ حلَّ فِيهَا ؟  
 أم تنادت لِحَادِثٍ في العِبَاد ؟  
 بل تَغَنَّتْ بابن الْحَسَنِ علي  
 عندما سدَّ بَابَ كل الفساد  
 حيثهل (1) بالحديث عنه وعبر  
 عَنْهُ فِي كلِّ قولة بسعد  
 ذلك الفَجْرُ أَجْفَلُ الدَّجْنِ مِنْهُ ،  
 واستوى فِيهِ حاضِرُ والبوادي

(1) اسم فعل للاستحاث .



كان في الأرض طالعا في الدآدي (1)

أعجز اللاحقين عنه فخابوا

وهو للسابقين أنف الهوادي

واقنتي الشكر والمثوبة لَمَّا

أبصر العيش صائراً للنقاد

صبح الخلق بعد ضيق بعيش

لم يكن قبل عندهم في اعتياد

أشرك الكل فيه من غير فرق

بين عجم وناطق والجما

أصله الغيث والذنوب عداة

وهو من أجل قطعها في جهاد

كم عيوب على الملوك تعابت

وهو يمحي عظيمها في اتآد

قال للخمر مرة : خبريني

عنك حقا في المنتهى والمبادي

قالت الخمر : ستر ما شان خير

لو سها عنك باحث ذو انتقاد

أنا ما قد علمت قطرة ماء

طيب الأصل جئت من أرض عاد

كنت في غربة بأرضك مالي

من مواليك غير خصم معادي

(1) جمع دؤدؤ : المسئلة المالكة السواد .

لا يليني من الأنام خليل

غير رهط صحبتهم في بلادي

عشت فيهم على المذلة دهرأ

في احتراس من أمة لي أعادي

ثم أجمعت بعد ذلك رأياً

أن أوالي جماعة الأوغاد

فاستلمت النفوس منهم بلهو

يوهم الغر يتنظة في الرقاد

واستمال القريب مني بعيداً

هكذا كان أمرهم في تمادي

فإذا الهزل عندهم صار جدأ

وإذا الناس كلهم في قيادي

يدأب المرء لي ويترك أهلاً

من وليداته وذات الولاد

فأنا اليوم أكثر الخلق جيشاً

مهطعين لدعوتي في احتشاد

أسلب المال حيثما كان منهم

بعد سلمي عقولهم واقتيادي

لم ينتني سوى القليل وإني

لاحتواش جميعهم في اجتهاد

عن قريب ترى الصريخ ينادي

باحتكام الكمية في كل نادي !

قال : أفصحت عن حديث مُمض

يمنع العين من لذيد السهاد

يمنع العين من لذيد السهاد

يمنع العين من لذيد السهاد



لا أَرَى العَيْشَ بعدَ قولكِ يصفو  
أو أبكي عليكِ صمّ الصّاد  
إن من كان يحسم الشر مثلي  
ثم أبقاه . فهو بالشر بآدي  
[ب] / لا وحق البري من كل ذنب  
لا كوتني ذنوبهم في معادي  
لا ولا عقت أمة لحبيب  
هو في الضيق ملجئي واعتِمادي  
فالت الخمر : أظهر الغيب عيا  
دون ما تبغيه خرط القتاد  
ليس في الوهم ما تظن . وإني  
لأهيتي لما توهمت زادي  
كم رأي من قبل كونك صيد  
من ملوك زحمتهم في البلاد  
ما سمعنا بمثل ما قلت منهم  
بل لنا عقد ذمة من مراد (1)  
غير أن التقليل قد همّ همّا  
فإذا هو نافخ في رماد  
بل أبوك الجليل غير رسمي  
ثم لو عاش كان أعدى العوادي  
إن لي شيعة من الإنس تبدو .  
ثم أخرى خميسها غير بآدي

(1) إشارة إلى مراد أبي باله آخر المراديين صاحب الفطائع الشهيرة . وسبب ذكره في هذا التاريخ .

فإذا رام لطم وجهي زعيم  
أعمل الجيد كلهم في مرادي  
ثم إني حميت ثغري بوفري  
فإذا ما استردت خذ من تلادي (1)  
ما تراه . فان أحمد رأيي  
أن تؤم طريقة الأجداد  
قال : أخطأت ما حديثك هذا  
غير ضرب على حديد براد  
لم يغادر من الحمافة شيئا  
من رأى العقل أسوة في العباد  
ومن الرد أن يقلد شخص  
ذو اجتهاد في حكمه ذا اجتهاد  
بل من الغيظ أن يخادع كيس  
بافتلاذ من كيسه مستفاد  
وإذا ما دفعت لله قرضاً  
ضاعفته يداً الكريم الجواد  
يا لسكاع : أئن خسفتك خسفا  
ينتطح في الوجود قرناً جراد ؟  
فاندبسي شيعتك ! إن شئت حربا  
يركبوا للهياج عوج الجياد  
واكتبي لليسوع يبعث شفيعاً  
أو برقيا تقال عند العجلاد

(1) حمت ضعفها بما لها وعرضت عليه تلادها أي مالها القديم المدخر وانخرته بطلب الزيادة



مَا يَمِينِي كَسَمًا سَمِعْتُ بِصَدَق

إِنْ رَأَيْتُكَ الْعُيُونُ مِنْ بَعْدِ سَاد (1)

فَانْتَهَى الْقَوْلَ عِنْدَ هَذَا وَتَأَقَّتْ

كُلَّ أُذُنٍ لِبَصْدُمَةِ الْمِيعَادِ

وَامْتَطَى النَّاسُ مَتْنِ عَشْوَا وَخَاضُوا

مِنْ هَلَاكِ الْكَمِيتِ فِي كُلِّ وَادِي

جُلْهِمْ يَسْنَعُ الْوُقُوعَ ، وَنَزَرَ

قَالَ يَرْجَى . وَالْبَعْضُ فِي تَرْدَادِ

ثُمَّ مَا دَارَ دَائِرَ السَّبْعِ حَتَّى

عَايَنُوا فَلَتَهَا بِيرُكُ الْغَمَادِ (2)

/ تِلْكَ حَانَاتُهَا أَيَّامِي كَأَنَّ لَمْ

تَغْنَى بِالْأَمْسِ . أَصْبَحْتُ فِي حِدَادِ

لَيْتَ شَعْرِي أَرَنَّ إِبْلِيسَ مِنْهَا

مِثْلَ مَا رَنَّ لِلدَّوَاهِي الشَّدَادِ

فَاخْتَبِرْ بَعْدَهَا الْإِيَالِي تَسْمَعُ

مِنْ حَدِيثٍ — مَعَ طَوْلِهِ — مُسْتَعَادِ

عَزَمَةُ مِنْ أَتَمِّ أَكْمَلِ حَزْمًا

عَلِمَتْهُ الْخَطُوبُ عِلْمَ الطَّرَادِ

يَا أَمِيرًا أَتَى الزَّمَانَ أَخِيرًا

وَهُوَ فِي الْفَخْرِ أَوَّلُ الْأَعْدَادِ

لَا غَضَاضَةَ إِنَّمَا أَنْتَ سِرٌّ

بَيِّنُ الصَّدَقِ . فِي حَدِيثِ الْعَهَادِ

إِنْ يَكُ الْبِرِّ زَادَ لِلْبِرِّ عَمْرًا

عَشْتُ كَالْخَضِرِ آخِرِ الْآبَادِ

وَلَمَّا أَنْتَمَّتْ إِنْشَادِي ، وَأَعْجَبَنِي إِبْرَادِي ، قَالَتْ : قَدْ قَارَبْتُ يَاسْكِيْتِ ،  
أَنْ تَجْلِي بِالْكَمِيتِ : فَقُلْتُ : اذْمَ هَذَا أَمْ مَدَحٌ ؟ وَهَلْ أَنْتِ فِي جَدٍّ أَوْ مَزْحٌ ؟  
فَمَا ظَنَنْتِ أَنْ تَجْبِهَنِي بِهَذَا ، وَلَا أَنْ تَتْرَكِي قَلْبِي أَفْلَازًا ، فَقَالَتْ : هَا أَنَا  
أَعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، لَتَرْجِعْ عَنْ مَوَازِيْتِي وَعَتْبِي ، إِنِّي طَبَعْتُ عَلَى الْغِيْرَةِ مِنْ  
الْأَفَاضِلِ ، فَتَجِدْنِي لَا أَعْتَرِفُ بِفَضِيلَةٍ لِفَاضِلٍ ، وَرَبَّمَا فَضَلْتُ الْبَلِيدَ ، عَلَى  
الْحَدِيدِ . وَرَجَعْتُ عَنْ اجْتِهَادِي إِلَى التَّقْلِيدِ ، وَقُلْتُ لِمَنْ أَتَى بِالْأَعْلَى ، لَوْ كَانَ  
غَيْرَ هَذَا لَكَانَ أَوَّلِي ، وَأَخَذْتُ فِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ ، لِغَيْرِ أَصْلٍ صَحِيحٍ ،  
وَكُلَّ ذَلِكَ مَزَاحٌ وَطَرِيقَةٌ ، وَإِلَّا فَالْحَقِيقَةُ الْحَقِيقَةُ ، عَلَى أَنْ اعْتَرَفْتُ لَكَ  
بِالْإِجَادَةِ . لَا يَعُودُ عَلَيْكَ بِالْإِفَادَةِ ، وَإِنَّمَا الْمَعْوَلُ عَلَيْهِ ، مَنْ تُزَفُّ هَذِهِ الْخَرِيدَةُ  
إِلَيْهِ . فَإِنْ جَوَّزَكَ فَأَنْتِ النَّابِغَةُ ، وَإِنْ عَجَّزَكَ فَتِلْكَ الدَّامِغَةُ . فَقُلْتُ : قَدْ  
عَرَفْتُ مَعْزَاكَ ، وَمَا صَاحَتْ بِهِ مَعْزَاكَ ، فَلَا يَصْدُقُنِي ذَلِكَ التَّغْرِيرُ ، عَنْ بَذْلِ  
الْجُهْدِ فِي التَّحْرِيرِ ، فَإِنَّمَا يَسْعَى الْمَوْفَّقُ لِمَا يَبْقَى ، وَلَا يَجْتَنِبُ ذَلِكَ إِلَّا الْأَشَقَى ،  
ثُمَّ قَالَتْ : عُدْ إِلَى مَوَاسِنَةِ الْمُجَالِسِ ، وَاسْمَعْ لِمَا تَتَحَدَّثُ بِهِ الْمَجَالِسُ ، إِنَّهُ  
لَمَّا مَاتَتْ أُمُّ الْخَبَايِثِ . وَعَبَثَتْ بِأَهْلِهَا الرِّيَّاحُ الْعَوَابِثُ ، اجْتَمَعَتْ أَرْوَاحُ  
الْأَدْبَاءِ لِلْأَفْرَاحِ ، وَأَخَذْتُ فِي مَطَارِحَاتٍ وَاقْتِرَاحِ . فَسَمِعْتُ أَحَدَ الْجَمَاعَةِ .  
يَقُولُ : خَذُوهَا بِنْتُ السَّاعَةِ ، وَأَنْشُدْ :

سَقَاكَ الْغَيْثُ يَا بَابَ الْجَزِيرَةِ      فَكَمْ جَازَتْكَ مِنْ حَوْرًا عَطِيرَةٍ  
تَمِيلُ إِذَا مَشَتْ كَالسَّرَوِ مَرَّتْ      عَلَيْهِ الرِّيحُ فِي أَرْضٍ مَطِيرَةٍ  
وَيَرْجِعُ كُلُّ ذِي عَيْنٍ رَأَاهَا      بِسِكْفٍ عَنْ تَنَاوُلِهَا قَصِيرَةٍ  
إِذَا مَا قَالَ ذُو طَمَعٍ لِمَنْ ذَا ؟      تَقُولُ : لِمَنْ دَرَاهِمُهُ كَثِيرَةٍ

فَاسْتَظَرَفَهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ ، ثُمَّ ابْتَدَرَ آخِرَ فَذَكَرَ :

/ وَمَخْتَصِرُ الْكَلَامِ فَهَمَّتْ مِنْهُ      قَلِيلًا ، وَالْكَثِيرُ مِنَ الْإِشَارَةِ  
تَمْلِكُ سَائِرِي فَطَلَبْتُ رَفَقًا      فَقَالَ : اسْكُتْ ، فِي هَذَا جَسَارِهِ  
[ 119 — ب ]

(1) تَرْخِيمٌ فِي غَيْرِ مَنَادَى عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ، أَيْ سَادَسٌ .

(2) مَكَانٌ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبَعْدِ . انْظُرْ يَاقُوتَ 2 : 140 .



وأبعد نيلَه وأودَّ أنِّي  
ولمَّا لمْ أجِدْ منه اتصالاً  
وقلت له : أما للخشف مأوى ؟  
فقلت : فتحت منْ أمري عويصاً  
أعَاتبه فتغلبني العبارة  
صحبتْ عشيره وقصدت داره  
فقال : اطلبه منْ بَابِ المناره  
فضم الميم أعجلُ بالبشاره

ثم استخفهم الطرب . فما منهم إلا من اضطرب ، وقام كل على حياله  
يرقص . ويأتي بمصرع لا يزيد عليه ولا ينقص ، حتى تمت الأبيات ،  
وتجمعت بعد الشتات :

قم بليل يا نديم واشكر الباشا علياً  
عالج الخمر فزالت علة أحجم عنها .  
صانه الله وأبقى وأرانا في بنيه  
وجزاهمُ بعضهم خصالة يعنو إليها  
صدقوا إذْ أرتخوها :  
واشكر البرّ الرحيم صاحب الخلق الوسيم  
وهي من داء قديم كل عرّاف حكيم  
للصراط المستقيم كل أنواع النعيم  
وفق ذا الأمر العظيم من له قلب سليم  
(أبطل الخمر كريم)  
(1183)

ثم لمّا قضت من الحديث نهمتها ، وبلغت منه أمنيته ، قالت : إلى متى  
قعودك عن الغرض ؟ وتأخيرك الأمر المفترض ؟ فاجمع عليك الأثواب ،  
وبكر بكور الغراب . وأت الأمر من بابه ، واستعن على كل صعب بأربابه ،  
واترك في طريقك الميرآ ، ولا تلتفت إلى ورا . فابتدرت الطريق الجادة ،  
واستسهلت فيها العوارض الحادة . حتى وقفت على السلطان السعيد ، فإذا  
هو فوق ما نريد . ورأت منه العيون ، أحسن مما ظننته الظنون ، فألقيت له ما  
في جرابي . حتّى استفرغت ما في وطابي ، فلمّا وعى قصتي ، وأسأغ من  
حبه غصتي . قال : ما اسمك أيُّها الودود ؟ فقلت له : سعد السعود !

فقال : باسمك الفال . وعلى الله الاتكال . فرحم الله صاحب فتح الباري .  
إذ أنشد في شرحه لصحيح البخاري :

/ تفاعل بما تهوى يكن . فلقلّماً يُقال لشيء كان إلاّ تحققاً

فقلت : الحمد لله على الموافقة . فقال : ولك منّي المرافقة . فها أنا أمرح  
في ظلاله ، لا يطرقني طارق بمجاله ؛ سائلاً من المولى المتعالي ، بقاءه لي  
ولأمثالي . فهل سمعتم يا أولي الأبصار ؟ بمثل هذا في الأخبار ؟ فقلنا : لا  
ومكور الليل على النهار . فقال : اقتدوا بي في قصدي لهذا السعيد  
فاقصدوه ، فلعلمكم إن شاء الله تحمدوه . وتنهلوا من فواضله وتعلّوا ،  
وعليكم السلام والرحمة أينما تولّوا .

انتهى الجزء الأول في السيرة  
ويليه الجزء الثاني في التاريخ .



# فهرس

## صحيفة

5	- مقدمة التحقيق
7	أ - عصر المؤلف
7	المؤثرات السياسية
11	الحالة الاجتماعية
13	الحركة الثقافية
15	ب - التعريف بالمؤلف
17	مولده
18	نشأته العلمية وشيوخه وتلاميذه
19	مؤلفاته وأدبه
21	رحلاته
23	وظائفه
23	صفاته وأخلاقه
24	خاتمته
27	ج - التعريف بالكتاب
29	منهج ابن عبد العزيز وأسلوبه
32	عنايته بالأدب
32	مصادره
33	أصول الكتاب وترتيبه
37	- الكتاب الباشي
43	منهج المؤلف
44	ذكر ولايته



47	ثورة اسماعيل بن يونس باي ابن علي باشا
48	التجاء اسماعيل الى طرابلس
52	دخول الثائر الى الجنوب
54	ثورة جمّال
63	ذكرى انتقال اسماعيل الى جبل وسلات وقيامهم معه
84	ذكر الاسباب المفضية الى اخلاء جبل وسلات وفرار اسماعيل منه الى الغرب وما كان في ذلك من الصنع الجميل
86	وصف مهرجان
88	انتهاء ثورة وسلات
90	اجلاء اهل وسلات
138	الاند الحتازية
164	خبر جبائية
169	سوء السطول الحربي
	ما يخص الـ مالى به مولانا - ايده الله تعالى - من محاسن الاخلاق وكرم الخلال وحميد الخصال
184	مقدمة نفسية نفيسة
184	اما امة النظرية
190	واما الحمة الخلقية
205	الحكمة الحشوية واثرها في السياسة
222	بسطة عن نظام القضاء
225	الحكمة الخلقية
274	واما حسن التدبير وثقابة الرأي وصواب الظن
274	واما جودة ذهنه وذكائه
282	تبدال القوة الغضبية
284	واما كبر النفس
293	واما كرمه
294	بناء التكية
302	

انتهى طبع هذا الكتاب  
بطريقة مونوتيب في معامل  
المطبعة الرسمية للجمهورية  
التونسية في جوان 1970